الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسنطينة

كلية: الآداب والعلوم الإنسانية

قسم: اللغة العربية

الرقم الترتيبي:...../2001

رقم التسجيل:.....

قصص الأمم البائدة في القرآن الكريم

عاد وثمود نموذجا -دراسة موضوعية وفنية-

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير شعبة: اللغة والدراسات القرآنية

تقديم الطالبة: عقيلة قرورو

أمام اللجنة	الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية
الرئيس	رابح دوب	أ. محاضر	جامعة الأمير عبد القادر ع.إ
المقرر	عمر بوقرورة	أ.محاضر	جامعة باتنة
العضو	سامي عبد الله الكناني	أ.التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر ع.إ
العضو	حسن كاتب	أ.محاضر	جامعة منتوري قسنطينة

المناقشة: 23 ماي 2001م/ 29 صفر 1422هـ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

سورة يوسف: الآية 111

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء

إلى الرياحين العبقة في حياتي والدي الكريمين.

تقديرا لحق الأبوة والأمومة واعترافا بالفضل علي ، أقدم هذا العمل، ولن يكون شيئا بجانب ماكان يلقياه، وإنما هو الإكبار والوفاء والبر.

إلى روح أستاذي الشيخ محمد الغزالي طيب الله ثراه ونفعني الله بعلمه .

إلى من لهن الفضل في تشجيعي ومساندتي حبا وعطاء شقيقاتي الفضليات، وأعزهم علي لمياء .

إلى روح رفيقتي دربي العلمي :فوزية عيسى ومسعودة برهيموش . اللتين رحلتا عن دنيا الناس وهما يتوقدان حبا للعلم وفاء لذكراهما الطيبة.

إلى صديقتي الطيبتين : يحيى وسيلة ودباش لذيذة .

إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة مجهودي العلمي .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الشُكر والتقدير

الشُكر أولاً لله عز وجل، الذي أكرمني بأن يسر لي سبيل البحث والنظر في موضوع من أجلّ موضوعات كتابه العظيم، وهي القصص القرآني.

ثم الشُكر لعباده، وفي مقدمتهم عائلتي: والدايا حفظهما الله وكتب لهما بكل حرف من حروف هذه الرسالة حسنة ، وأشقائي سدد الله خطاهم: نور الدين، فتيحة، نورة، دليلة، نجاة.

وأخص بالشكر والتقدير أستاذي الفاضل الدكتور عمر بوقروة وعائلته الكريمة، على رعايته لهذه الرسالة، حين أجهد نفسه في تصحيحها وتقويم اعوجاجها بتوجيهاته العلمية القيّمة، إلى أن استقامت وظهرت على هذا الشكل .

كما أخص بالشكر كل من: الدكتور أحمد بسام الساعي، والدكتور عبد الكريم بكري ، والدكتور سليمان عشراتي، والدكتور محمد ناصر بوحجام وكذا الأستاذ يحي بونر الدين، على ما أسدوه لي من نصح . ولا أنسى أن أشكر جامعة الأمير عبد القادر خاصة معهدها -معهد الحضارة- وعمال مكتبتها وعلى رأسهم السيد عبد الكريم بن عميرة، وكذا السيدة سعاد صليج

وأخيرا شكري الخالص إلى من صبر معي وتعب كثيرا من أجل اخراج هذه الرسالة في هذا الشكل أخي الأستاذ :روان محمد الصالح.

فلهؤلاء مني جميعا الشكر والثناء المحمود .

مقـــــــدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله يحي قلوب عباده بطاعته ، ويضيئ عقولهم بنور كتابه،دعا الناس إلى الإيمان به ، ونصب لهم آيات وحدانيته، ودلائل ألوهيته وعلامات ربوبيته وأرشدهم إلى أنه واجب الوجود بما منحهم من نظر دقيق ثاقب، وفكر عميق ناقد . والصلاة والسلام على رسوله الأمين الذي بين للناس ما أنزل الله إليه من وحي ودعاهم إلى التفقه في الدين والاعتبار بقصص الأولين .

أما بعد:

القصة إحدى البنيات المشكلة للنص القرآني، وهي الأساس المعنوي بوصفها واسطة بيانية، هدفها تبليغ الناموس السماوي وتأصيل العقيدة وإرساء دعائم نظام حياة متكامل للإنسانية، وتطهير ما بالعقول والنفوس من شرك وجهالة وعبودية. وتبعا لهذا فقد كان لها دور فعال في عرض أنباء الأمم الغابرة، إذ هي التي أسعفت على تبيين الأحداث التاريخية،ومعرفة البيئة التي دارت فيها تلك الأحداث . بل إن أساليب التصوير القصصي بدلالاتها وإيحاءاتها كانت من أصدق الوسائل وأنفعها،في التعرف على حقيقة الأمم ووجودها . وهي حقائق مضيئة تبرز سمات المجتمعات وتعكس سبل معاشها وطرق تفكيرها وضوابط معالم إبداعها ونمط حضارتها.

كما كان لها الدور الفعال في :

أ-ترقيق ذوق العرب المسلمين.

ب- الارتقاء بأساليب البيان عندهم .

ويعود هذا إلى تفردها بمزايا هي:الايجاز، التركيز، الوحدة، والتكرار الذي يأخذ طابع التنوع والثراء.

ولاشك أن لهذه الأهداف العظمى ما جعلها تكون محورا من محاور القرآن الكبرى الذي ترتكز عليه الأجيال في توجيه حياتها اعتبارا بسنن الأمم الغابرة ، الذين مضوا ولكن أعمالهم ومواقفهم وأمجادهم وحضارتهم ظلت وستظل محفوظة في كتاب سماوي يقرء بهدف الاتعاظ والتأسي ، دروس خالدة وسنن ربانية لا تتبدل ولا تتغير قوانينها على مر

السنين واختلاف الأمصار. وفي ذلك تنبيه للغافلين وتوجيه للضالين وإرشاد للسائلين مصداقا لقوله تعالى:﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] .ومما دفعني إلى البحث في هذا الموضوع على الرغم من تشعبه ووعورته هي جملة أمور:

1-قراءاتي للقرآن الكريم ووقوفي عند قصص الأمم البائدة وصور العذاب الذي نزل بهم .

2- قلة الدراسات في هذا المجال، إذ لم يزل موضوع قصص الأمم البائدة ضئيل الحظ من النماء قليل النصيب من النضج بالموازاة مع مواضيع قرآنية أخرى.

3- تداخل موضوع قصص الأمم البائدة بغيره من مواضيع علوم القرآن كالتفسير والبلاغة.

4- أنه لم تفرد لموضوع الأمم البائدة دراسة تخرجه من دائرة اعتباره موضوعا عاما ضمن كتب التفاسير أو كتب التاريخ، إلى دائرة اعتباره موضوعا خاصا له ارتباط بتاريخ وحضارة لها مميزاتها أ ولها خصائصها القصصية الفنية التي تميزها في العرض والأداء .

ولهذه البواعث وجدتني أخوض في موضوع قصص الأمم البائدة في القرآن مقتصرة في دراستي على نموذجين وهما : عاد وثمود . ويرجع هذا إلى أسباب أراها وجيهة وهي:

1- أن عادا وثمودا من طبقة العرب الأولى، وقد تعارف بين المؤرخين على تسميتهما بالعرب البائدة.

2-أن عادا وثمود أول الأمم العربية اللتين اضطلعتا بالحضارة .

3- أن القرآن الكريم في قصصه وصفهما كمجتمعات وسماهم بالاسم "عاد" و"ثمود" .

4- أن القرآن الكريم حدد أماكن تواجدهما ذاكرا الاسم "الأحقاف"و"الحجر" .

5-أن القرآن الكريم ذكرهما في مواضع متفرقة في سوره وآياته .

6- أن المصادر التاريخية بسطت الحديث عنهما .

7- أن ا لله عز وجل قد أمدهما بأسباب وعوامل قيام الحضارة .

8-أن سنن السقوط والهلاك التي حددها القرآن الكريم ثم الدارسون قد انطبقت عليهما .

9- أن العرض القرآني لقصتيهما قد فتح مجالا واسعا حول التساؤل عن عوامل وعوالم البناء الفني وخصوصية السرد في القصة القرآنية.

---

(1) سورة الأعراف: الآية176.

يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [1] ؟

2- هل كان الهدف من العرض القرآني لقصتي عاد وثمود التأثير الوجداني أم الاعتبار العقلي؟

3- ماهي الخصوصية السردية التي نسج بها القرآن قصتيعاد وثمود ؟

4- كيف بنيت القصة في القرآن ؟

5- هل كان الغرض روائيا أم تصويريا ؟

6- ماهي الوظيفة التي أداها تكرار الحدث في القصة ولماذا هذا التنوع في العرض؟

7- كيف رسم القرآن شخصيات القصة؟

ولا شك أن الإجابة عن هذه التساؤلات والإشكاليات،يتطلب السير على منهج محدد،يضمن الوصول إلى الهدف المرسوم. ولذا اعتمدت منهج الاستقراء للنص القرآني بمجموع الآيات المخصصة لرصد وتصوير جانب مهم من حياة عاد وثمود ؛ وذلك لأنها تعالج عبر كل فصل من فصول الرسالة موضوع التاريخ والحضارة والفن القصصي.

وتبعا لهذا فإنني لم أعزل هذه الموضوعات عن بعضها إلا لضرورة التحليل ، لأنها ترتبط ببعضها ارتباطا وثيقا،في تجلية الصورة التاريخية والحضارية والفنية القصصية،في ضوء جماليات العرض القرآني لقصتي عاد وثمود،كما اعتمدت منهج التحليل الأدبي القائم على التذوق الجمالي، وسلكت سبيل النصوص القرآنية المعلِلَةُ ، إلى جانب تحليل عناصر السرد القصصي: الحدث ، الشخصية، الزمن، والمكان، وفهم خصائصها المميزة وكذا منهج تفسير القرآن بالقرآن ثم السنة النبوية الشريفة. ولتحقيق ذلك قمت بالخطوات الآتية :

-جمع النصوص

-ترتيب النصوص

-فهم النصوص :

- على مستوى اللفظ والتركيب
- على مستوى المضمون القصصي.

---

(1) سورة يوسف: الآية109 .

وتبين لي في خلال هذا ضرورة المزج بين الجمع والوعي، وهما فضاء كل قراءة تتجاوز اللبنة إلى البناء، وتتعدى اللفظ إلى التركيب .

كما تبين لي ضرورة تلاوة الآيات التي تتحدث عن قصتي عاد وثمود في سياقها السابق واللاحق حتى نكشف عن المنطق الداخلي الذي اختاره الله عزوجل نظاما بديعا لقصصه المعجز الذي اعتمد في طريقة عرضه على المشاهد وفي طريقة التعبير عن الحوار وفي تنسيق حوادثه على تصوير أبرز المواقف ، تاركا بين المشهد والمشهد كثيرا من التفصيلات التي تعمل فيها الذاكرة أو يتصورها الخيال مع تأمل قدرة القرآن الكريم على تجسيم المعاني في النفوس، وتصوير خواطر الشخصيات الإنسانية، وبراعته في العرض والأداء وإعجازه في التعبير عن الحوادث المركز القصير المشع بالإيحاءات تبعث الحياة في قصتي عاد وثمود وتحوله إلى صورة حية وشخوص متحركة ومشاهد تنبض بالحياة .

لقد تم عرض موضوع قصص الأمم البائدة في القرآن الكريم عاد وثمود نموذجا دراسة موضوعية وفنية ، وفق الخطة التالية:

مقدمة وتمهيد: وفيه تم توضيح معنى الأمم البائدة والمقصود بها في هذه الرسالة .

وقد جاءت الدراسة مستوفاة في بابين :

خصصنا الباب الأول:للدراسة الموضوعية "**عاد وثمود: التاريخ والحضارة**"، الذي تطلب معالجته في فصلين:

تناولنا في الفصل الأول: الجانب التاريخي،عنوانه :عاد وثمود بين القرآن والتاريخ.

وقد جاء فيه تحديد لمواطن ذكر عاد وثمود في القرآن الكريم ، بحسب ترتيب النصوص في المصحف الشريف .كما جاء فيه ماذكر بشأنهما في السنة النبوية الشريفة وما صح عن النبي (صلى الله عليه وسلم)من أحاديث .مع بيان لحياتهما في جانبها الديني والعقلي والاجتماعي ، مع عرض لآراء المؤرخين في الموضوع وما جاء في كتاباتهم من مبالغات ثم عرض لآراء العلماء في وجود عاد وثمود عند أهل الكتاب .

وختمت هذا الفصل ببيان العلاقة بين القصص القرآني والتاريخ .

واستعرضت في الفصل الثاني: الجانب الحضاري لعاد وثمود ، عنوانه حضارة عاد وثمود بين مقومات البناء وعوامل السقوط في ضوء سنن الله . وفيه تم تسليط الضوء على مقومات بناء الحضارة المادية منها والمعنوية ودورها في نمو وازدهار حضارة عاد وثمود الذي

تجلت مظاهرها في العمران والزراعة والتجارة. مع الإشارة إلى دور الدين في توجيه الحضارة والمحافظة علة منجزاتها واستقرارها ثم التعرض لأسباب الانحراف كالظلم والترف والطغيان ودور كل منهم في التعجيل بسقوط حضارة عاد وثمود .

أما الباب الثاني من الدراسة، فهو مخصص للدراسة الفنية"**عناصر السرد في قصتي عاد وثمود في ضوء فنيات القص القرآني** "، التي تطلب عرضها في أربعة فصول:

تناولنا في الفصل الأول: الحدث ودوره في القصة الأدبية والقصة القرآنية ، ثم تعرضنا لطبيعة الحدث وما يميزه في قصتي عاد وثمود في ضوء فنيات القص ، ثم شكل بنية القصة وأساليب عرضها في ضوء أساليب العرض القصصي القائم على الإيجاز والبسط ودقة التصوير في رصد مشاهد الإبادة لنهاية حدث مفتوح على صور العذاب والفناء .

وفي الفصل الثاني: عرضت فيه للشخصية ودورها في القصة الأدبية والقرآنية وتحديد دورها الفعال كعنصر أساسي في تشكيل بنية قصتي عاد وثمود . ثم كيفية بنائها بأبعادها الجسدية والعقلية والاجتماعية ، مع تحديد للوظائف التي تؤديها داخل القصة، ثم طريقة القرآن في رسم شخصياته.

وفي الفصل الثالث: جاء في الحديث عن الزمن في القصة الأدبية ثم دوره في القصة القرآنية وبالضبط أهميته في تحديد حركة الحدث داخل قصتي عاد وثمود . وقد تطلب هذا أن نميز بين زمنيين : الزمن الداخلي للقصة .والزمن الخارجي الخاضع للغرض الديني المرتبط أساسا بالعبرة من القص ثم بيانالتناسب بين المتسع الزمني والحدث في القصة وهو يسير بإيقاعيين زمننين مختلفين:

إيقاع متراخ بطيء. وآخر سريع يعرض حيثيات مشهد الإبادة ومانزل من عذاب بقوم عاد وثمود .ليأخذ الزمن بعدها خطه التنازلي متراخيويستقر على مشهد ما بعد الإبادة وقد توقف ليسير على مهل وحذر حسا ومعنىمن زمن العذاب بالقوم وقد أبيدوا وانقرضوا .

وفي الفصل الربع :عرضت فيه للمكان ودوره في العمل القصصي والأدبي ثم دوره في بناء القصة القرآنية وتحديد أهميته وموقعه في تشكيل قصتي عاد وثمود مع رسم صورة عامة له والإيحاء في ضوء علاقة القص بالعبرة ، ثم كيفية رسم المعلم المادي وعلاقته بالحدث في القصة بنوعيه الطبيعي والمادي وصلته بعناصر السرد الأخرى، ثم بيان علاقة التداخل بين المكان وساكنيهحين تأثر بقيمهم وأخلاقياتهم ، مع توضيح لوظائف المكان ودورها في

توليد الحدث وأثر ذلك على حركة القص ، وأخيرا بيان لصور الإبادة وأثرها على المكان حين غدا طللا دارسا يدعو للعبرة والعظة ، ويوحي بالحزن العميق.

وقد اعتمدت في إنجاز هذا البحث على جملة من المصادروالمراجع أذكر منها على سبيل المثال[لا الحصر]: كتب التفاسير، وفي مقدمتها تفسير القرآن الكريم ،لابن كثير. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، للزمخشري. ومفاتيح الغيب، للرازي. وجامع البيان لتفسير القرآن، للطبري.والظلال، لسيد قطب. أما كتب الأدب والنقد فاستعنت بكل من : الفن القصصي ، محمد أحمد خلف ا لله. والتفسير البياني، لعائشة عبد الرحمن. البنية السردية للقصص القرآني، لمحمد طول . والنقد الأدبي ، لأحمد أمين. والنقد الأدبي، لغنيمي هلال. وفن القصة، ليوسف نجم. وفن القصة القصيرة، لرشاد رشدي. والمدخل لدراسة الفنون الأدبية واللغوية، ليحيى الجبوري.

وأما كتب التاريخ فاخترت منها: تاريخ ابن خلدون، لابن خلدون. البداية والنهاية،لابن كثير. مروج الذهب، للمسعودي. الكامل في التاريخ،لابن الأثير. حضارات العرب الأولى، لعدنان الترسيسي.والقبائل الثمودية والصفوية،لمحمود الروسان وشمال الحجاز ، للضاوي الفثامي.

ثم كتب الحضارة، التي كان منها: مقدمة ابن خلدون و شروط النهضة، لمالك ابن نبي. الحضارات ،للبيب سا تر.السنن الإلهية،ولعبد الكريم زيدان.

وختمت الرسالة بمجموعة من النتائج التي توصلت إليها خلال البحث .

وإني بهذا العمل المتواضع لا أدعي أني بلغت مرامي فيالعلم،وإنما هو جهد بشري يضاف إلى سلسلة الجهود التي بذلت ولازالت خدمة لكتاب ا لله الجليل. وا لله وحده أسأله السداد والتوفيق .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى ا لله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمهيد

المقصود بالأمم البائدة في القصص القرآني

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمـــهيـــــد:

ما المقصود بالأمم البائدة في القصص القرآني؟

جاء في تعريف الأمة لغة:"أنها الجماعة من الناس"[1] .كما يدل "على جماعات كبيرة تنطوي في غيرها أكبر منها" [2] .وعلى هذا فإن معنى الأمة الصنف أو الجماعة من الناس التي تتسع وتكبر لتتحول إلى جماعات لها تاريخ مرتبط بالزمان والمكان، ولها أوضاعها الدينية والاجتماعية التي تميزها، ولها طابعها الحضاري الذي تعرف به. ويكون في مثل هذه الحالة مفهوم الأمة يعني الأفراد في شكل أمم مضاف إليها المنجزات المادية التي حققوها في حياتهم.

ومما لا شك فيه أننا لا نستطيع تتبع سير الأمم التي عرفها التاريخ الإنساني، ولهذا فإننا سنتحدث عن الأمم التي ذكرها القرآن الكريم ، حيث نلتقي بمجموعة كبيرة من الأمم التي هلكت وانقطع ذكرها في التاريخ. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل كل الأمم التي مرت في التاريخ سجل القرآن حياتها؟ وسجل إبادتها؟

والإجابة أن القرآن لم يسجل لجميع الأمم لأنه ليس كتاب تاريخ فهو وإن جاءت فيه إشارات لكثير من الحقائق التاريخية، إلا أنه لم يأت ليؤرخ للأفراد ولا لتفصيل أخبار الماضي، وإنما لتلخيص تجارب الأمم الغابرة وعرضها في طابع قصصي يرمي إلى الموعظة والهداية للناس . ومن الأمم التي ذكرها عاد وثمود لما يستفاد من تاريخها ما يأتي :

1- العظة والعبرة .

2- التي كانت قصصها جامعا لما أودع من خبر الأنبياء الأولين، ومتضمنا أسباب الرشد للناس حتى قيام الساعة .

3- التي هلكت بفعل إلهي وكان ذلك نتيجة لعصيانها لأوامر الله وإفسادها في الأرض .

وطبقا لهذه المعايير تشكلت منظومة القصص القرآني بمجموعة من الأمم أبرزها أمة نوح ومدين"أمة شعيب" وأمة لوط وعاد "أمة هود" وثمود "أمة صالح" .

هؤلاء جاء اسمهم كأمم صريح في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى:﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ

(1) ابن منظور،لسان العرب،دار المعارف:القاهرة،د،ط،د،ت،جـ1ص134،مادة(أمة).انظر: وابن قتيبة،تأويل مشكل القرآن،دار التراث:القاهرة،ط،2،1973م،ص445.

(2) دائرة المعارف الإسلامية،تعريب أحمد الشنتناوي وآخرين،دار المعرفة:بيروت،د،ط،د،ت،جـ1ص632.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[1] . ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[2] .وقد سميت سورة في القرآن الكريم باسم هود .رسول أمة عاد وكذا سميت سورة باسم (الأحقاف) موطن عاد ، وثالثة باسم (الحجر) موطن ثمود.

ولا شك أن لهذا التصريح بالاسم والموطن دلالته في القرآن حين نقل عنهم صورة حية وقص من أنبائهم واصفا ما كان لهم من حضارة وعمران وجنان ،ثم ما كانت عليه مواقفهم من الدين حين أعرضوا عن دعوة رسل ا لله واتبعوا أهواءهم. ولهذا عندما أزاغوا أزاغ ا لله قلوبهم، وبدل نعمهم بالنقم ونعيمهم بالعذاب وأمنهم بالخوف وغناهم بالفقر وجمعهم بالتفرقة ، وأنزل بهم صنوفا من العذاب مصداقا لقوله تعالى:﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ا للهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3] .

اهتم القرآن بعرض قصصهم ليكونوا أحدوثة سائرة وعظة زاجرة بالغة،ومثلا مضروبا ولسانا صادقا للحق،وحجة على الباطل وأهله وهداية وعبرة وذكرى، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

إن قراءة متأنية للنصوص القرآنية،وهي تتحدث عن الأمم الماضية وتصنف العقاب، الذي سلط عليهم وتكشف لنا ما حملته دلائل الزجر والإنذار،يدفعنا إلى الوقوف عن الأسباب التي أدت إلى ما لحق بهم ، ولنا أن نتساءل :

ما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم صرعى على وجه الأرض، كأنهم أعجاز نخل خاوية ودمرت ما دمرت عليه، من ديارهم وحرثهم وزروعهم ودوابهم،حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟ ما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وما توا على بكرة أبيهم؟ولو تدبرنا تعقيب القرآن على هلاك الأمم المكذبة،لوجدنا أن للأمر أسبابا وعللا كامنة وراء إبادتهم . هذه الأمم التي أبيدت وإن كانت حاضرة بذكرها في القرآن الكريم،إلا أنها منقرضة في منظور التاريخ الإنساني، بائدة كما تنعتها كتب التاريخ.فما المقصود بالأمم البائدة؟

(1) سورة الشعراء:الآية 123-124.

(2) سورة الشعراء:الآيةالآية141-142.

(3) سورة العنكبوت:الآية40.

وهل يمكن أن نلتقي في القرآن الكريم بصيغ ومفردات يمكن أن نعتمدها للتعبير عن الإبادة؟ إن القرآن وهو يتحدث في منظومته القصصية عن مجموعة الأمم الغـابرة،لم يضع لها تسمّية خاصة (أي لم يسمها البائدة) واكتفى بنعتها بالأمم الهالكة تعبيرا عن فنائها وانقراضها من الوجود. كما توضحه معاني الآيات المثبتة في الجدول الآتي:

الآيات التي تحمل معنى الإبادة في النص القرآني

النجم: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾	51-50
الشمس: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾	15-14
القمر: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾	31
القمر: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾	20 - 19
الأعراف: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾	72
الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾	78
الفرقان: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾	39
الشعراء: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾	139
الشعراء: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾	158
النمل: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾	52-51
هود: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾	67
الأحقاف: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ — ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	25 - 24
الذاريات: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾	(42-41) 44
إبراهيم: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾	13
المؤمنون: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾	41
الحاقة: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ........ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾	6-5-4 8-7

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ونلاحظ على الآيات بمعناها المذكورة،في الجدول أن المصاحبات اللفظية المستعملة في النيابة بالتعبير عن معنى الإبادة الشاملة كالتدمير، التتبير، القصم،الخسف، خاوية، غثاء. قد أصابت المعنى الذي يقصد إليه القرآن من خلال عرضه لأنباء الأمم الغابرة، ودلت بشكل واضح عن المراد من بيان سنن ا لله في عقاب الأمم الظالمة العاصية بعد ثبوت كفرها وانحرافها وإفسادها في الأرض.

وإذا عدنا إلى تحديد مفهوم كلمة"بائدة"[1] فإننا نجد أن معناها اللغــــوي:ذاهبة، منقرضة، هالكة [2].

وهو المعنى الذي قصد إليه التعبير القرآني، وفي هـذا دلالـة أن لكلمـة"بـائدة"تـأصيل لغوي في القصة القرآنية،يوحي بالعمق ودقة التوظيف كمـا هـو وارد بلفـظ صريـح في قولـه تعالى:﴿مَاأَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾[3] . والمعنى ما أظن أن تهلك .

أما في الاصطلاح : فتعني مجموعة الأقوام العربية التي انقطـع خبرهـا واندثـرت بعدمـا استوطنت مناطق متفرقة من المعمورة ردحا من الزمن. وقد ذكرت العرب هذه الأمم البـائدة والقـرون السـالفة ولبعضهـم بقايـا قليلـة، وهـم أشـلاء متفرقـون مثـلا:"جرهـم" و"جاسم"و"وبار"و"وعملاق"و"طسم"و"وجديس"[4] . وفي هذا يقول ابن خلـدون:"إن جيـل العرب بعد الطوفان وعصر نوح عليه السـلام كـان في عـاد الأولى وثمود والعمالقـة وطسـم وجديس وجرهم وحضرموت، ومن ينتمي إليهم من العرب العاربة من أبناء سام بن نـوح، ثم لما انقرضت تلك العصور وذهب أولئك الأمم وأبادهم ا لله بما شاء من قدرته..."[5]

---

(1) يقال باد الشيء يبيد بيدا وبيادا وبيودا : وباد يبيد بيدا، إذا هلك وأباده ا لله أهلكه . وفي الحديث فـإذا هـم بديـار بـاد أهلهـا، أي هلكـوا وانقرضـوا. لسـان العـرب،جــ1ص394. .مـادة(بيـد) .وانظـر:أحمـد رضـا ،**معجـم مـتن اللغة**،منشورات دار مكتبة الحياة:بيروت،د،ط،1984م،جـ1ص366.مادة(بيد) .

(2) هالكة: هي كلمة تقابل "بائدة" وتودي نفس معناهـا، ومـن مشـتقاتها الإهـلاك مهلـك...وقـد تتبعتهـا في القـرآن الكريم فوجدتها قد ذكرت في أربعة وأربعين موضعا بصيغ مختلفة كلها تدل على معنى الانقراض والفناء .

(3) سورة الكهف:الآية35.

(4) أبـو عثمـان عمـرو بـن بحـر الحـافظ،**البيـان والتبيين**،تحقيـق:عبـد السـلام هـارون،مكتبـة لجنـة التـأليف والترجمـة والنشر:القاهرة،ط،2،1960م،جـ1ص167.

(5) **تاريخ ابن خلدون**،دار الكتاب اللبناني:بيروت،د،ط،1983م،جـ1ص15.

لأنهم عصوا أنبياءهم و لم يسيروا في الطريق السوي الذي أمرهم به .

ومن هنا جاز أن نقول إن الأقوام البائدة تطلق على أقدم الأجيال التي بادت وانقرضت، فأصبح الاعتماد في تدوين تاريخهم على الحدس والتخمين وروايات الإخباريين، وبعض الآثار القليلة المتبقية من مساكنهم المتفرقة .

من هنا يتضح أن المقصود بالأمم البائدة،هي كل من درست آثارهم وانقطعت تفاصيل أخبارهم إلا القليل المشهور منهم.

وإذا كان هذا هو ما تعارف عليه أهل الأخبار والدارسون للتاريخ العربي القديم، فإن لمصطلح الأمم البائدة في القرآن دلالة خاصة،ويقصد بهم الأمم الغابرة التي أهلكها ا لله نتيجة لكفرها وعصيانها لأوامره عز وجل .

ونستنتج مما سبق أن الأمم البائدة التي جاء ذكرها في كتابه العزيز هي: أمة "نوح"، "عاد وثمود"،و"مدين"،وأمة""لوط"و"سبأ". هؤلاء الذين عرضتهم المخالفات لعظيم مؤاخذة ا لله وشديد عقابه، فكانت نهايتهم المحتومة ألوانا من العذاب،استأصلت شأفتهم بأنواع المهلكات من نحو الغرق لأمة نوح، والريح لعاد، والصاعقة لثمود، والخسف لأهل سدوم، والسيل العرم لسبأ، والصيحة لمدين. فباد جمعهم وهلكوا عن آخرهم على نحو ما اورده القرآن العزيز:﴿**فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ا للهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[1] .

وفي الواقع فإن الترتيب الذي اعتمده القرآن الكريم للأمم التي جاءت بعد نوح يوحي بأنه انطلق من طوفان نوح في تأريخ العقاب الذي أنزله بالأمم الباغية[2] .

مما لا شك فيه أن مفهوم الأمم البائدة قد اتضح الآن بعد حدوث التقاطع في الدلالة حول معنى واحد بين مصطلح وضعي(بائدة) أطلقه المؤرخون على طبقة العرب الأولى والتي على رأسها قوم عاد وثمود، وبين مصطلح قرآني(هالكة) استعمله القرآن عند ذكره للأمم الماضية في منظومته القصصية التي تبتدأ بأمة نوح فعاد فثمود فأمة لوط فمدين...الخ .

---

(1) سورة العنكبوت:الآية40.

(2) هشام قبلان،**مع القرآن في الدين والدنيا**،منشورات عويدات:بيروت،ط،1،1986م،ص259.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والحقيقة أن التقاطع الحاصل بين المصطلحين الرامزين لمعنى مشترك واحد ، يوحي بأن هناك اختلافا بين المصطلح . فبائد:بمعنى زائل، والزوال سنة من سنن ا لله في خلقه، ولذا نرى أن التعبير القرآني أفصح وأبلغ، فهو يعبر عن زوالهم ليس عن سنة ا لله وهي الفناء وإنما نتيجة غضب ا لله عليهم . وهذا المعنى جعل التقاطع يلتقي في عاد وثمود ، فهما من الأقوام العربية البائدة التي يبدأ بها النظام الذي وضعه النسابون العرب للقبائل التي كانت في نظرهم السكان الأصليين للجزيرة العربية وهما من الأمم الهالكة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

فحيثما طالعت أخبارهما في القرآن الكريم ،أو في المصادر التاريخية وجدت أن "البائدة" هي الصفة الملازمة لعاد وثمود، فهما من العرب البائدة والحضارات البائدة في التاريخ الإنساني، وهما من الأمم الهالكة في القرآن. وعليه فكلمة البائدة منطبقة عليهما قرآنيا وتاريخيا .

وما يمكن أن نخلص إليه بعد هذا التوضيح أن البحث في الإبادة التي اعتقد بعض المؤرخين خطأ أنها فناء، وأنه لم يبق من تلك الأمم ديرا ولاديارا. فالأمم البائدة لم تبتلعهم الأرض دفعة واحدة،وإنما ممالكهم هي التي زالت وسلطانهم هو الذي زال فانصهرت البقية الباقية منهم في أمم أخرى .وهذه سنة الحياة تسير طبقا للأمر الرباني في قوله تعالى :﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[1] .فلا بد أن يكون حديث الآباء للأبناء عن ماضيهم مستفيضا ، ولا بد أن يكون حرص الأبناء على آثار ما ضيهم شديدا ، ولا بد أن تكون بقايا تلك الأممقد حملت معها ذكريات ماضيها في كل مكان هاجرت إليه، وبلد توطنت فيه، ولابد أن يكون منهم رواة أخبار وشعراء تغنوا بماضيهم العزيز عليهم وندبوا مجدهم الآفل [2] .

وهذا ما يفسر انه قد يحدث في بعض الظروف التاريخية أن يفقد مجتمع ما شخصيته ويمحي من التاريخ، ومع ذلك فإن عدد أفراده قد لا يتغير في هذه الحالة بل يحتفظ كل فرد بغريزة العيش في جماعة، وهي الغريزة التي تحدد معالم الإنسان ككائن اجتماعي، وإنما أصبح الأفراد مجرد أنقاض لمجتمع بائد، أنقاض مهيأة لأن تدخل في بناء جسد اجتماعي جديد. ذلك أنه إذا حدث أن اختفى الأفراد الذين يكونون مجتمعا ما في نهاية جيل معين فإن المجتمع

(1) سورة آل عمران:الآية140.

(2) أمين مدني،**التاريخ العربي وبدايته**،مؤسسة الكتاب العربي السعودي:جدة،ط،2ن،1981م،ص235.

يبقى يحتفظ بشخصيته لا يمسها شيء كما يحتفظ بدوره في التاريخ[1] .

وفي هذا دلالة على أن ما يسمى بالعرب البائدة التي فقدت مساكنها الأصلية وتفرقت ولجأت إلى مناطق أخرى لا تعني انقطاع أخبارها. بعكس الصورة التي رسمتها مخيلة الإخباريين والمؤرخيين الذين نعتوا تلك القبائل والأقوام بالأقوام البائدة. إذ لا يبيد من يترك أثرا .

وقد تركت عاد وثمود آثارا تدل عليهما لازال بعض منها ماثلا في دنيا الناس كما شهدت به آيات القصص القرآني في قوله تعالى: ﴿**وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ**﴾[3] .وقوله: ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[4]

ولا شك أن لهذا التذكير بالموضع زيادة اعتبار لمن يمر بتلك الديار ويراها خالية من أهلها .

وخلاصة القول: أن مصطلح "الأمم البائدة" قد اتضح بعد هذا التعليل ، وأصبح مسوغا، للدخول إلى الموضوع الذي نقول فيه أن المقصود بالأمم البائدة في هذا البحث هما أمتا عاد وثمود .

وبهذا المفهوم ندخل إلى الموضوع الذي نورده من خلال الإشكاليات المتعلقة بالمضمون وبالفن أيضا.

---

(1) مالك بن نبي،ميلاد مجتمع،ترجمة:عبد الصبور شاهين،دار الفكر:بيروت،د،ط،1985م، ص11.

(2) سورة العنكبوت:الآية38

(3) سورة الأحقاف:الآية25.

(4) سورة النمل:الآية52.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباب الأول

عـــاد وثمـــود التاريـــخ والحضـــارة

تمهيد وتقسيم:

هذا الباب خصصته للدراسة الموضوعية، لبحث موضوع قصتي عاد وثمـود في القـرآن بجانبه التاريخي، وما جاء فيه من أقوال العلماء، مقارنة بما ذكره القـرآن الكريـم، وبينتـه السـنة النبوية الشريفة بشأنهم. مع تسليط الضوء على الجانب الحضاري بشـروط قيـام حضـارتهم وسقوطها. وحتى تتوضح هذه الشروط ويتم تحليل العوامل والمظاهر، تلزم ذلـك تقسيم هـذا الباب إلى فصلين: بحيث نتناول في الفصل الأول: عاد وثمود بين القرآن والتاريخ.

ونتناول في الفصل الثاني: حضارة عاد وثمود مقوماتها ومظاهرها وعوامـــــــل سقوطها في ضوء سنن الله.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباب الأول

عاد وثمود التاريخ والحضارة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول

عاد وثمود بين القرآن والحديث والتاريخ

تمهيد وتقسيم:

ورد ذكر عاد وثمود في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، كما ورد ذكر أخبارهما في كتب التاريخ . أما في القرآن فقد جاء فيه تحديد لمواطن ذكرهما، وذلك بحسب ترتيب النصوص في المصحف الشريف ، كما جاء فيما ذكر بشأنهما في الحديث النبوي الشريف، وما صح عن الرسول الكريم من قصص نبوي ، لينشأ في إثر هذا الاشتراك في ذكرهما صورة حية لحياتهم في جانبها الديني، والعقلي والاجتماعي . أما في كتب التاريخ وما جاء في كتابات المؤرخين حولهم فقد تقاسمتهم أقلام المستشرقين، وأقلام الكتاب المسلمين وما كان بينهم من مبالغات وزيادات، مع عرض لآراء العلماء حول وجودهم عند أهل الكتاب .

ولكي تتجلى الصورة وتقترب من الوضوح والبيان، تلزم ذلك تقسيم هذا الفصل إلى مبحثين وخلاصة ؛ بحيث نتناول في المبحث الأول : عاد وثمود في القرآن والحديث .ونستعرض في المبحث الثاني:عاد وثمود في التاريخ .ونختم الفصل بخلاصة: نبين فيها قصة عاد وثمود في ضوء علاقة القصص القرآني بالتاريخ .

المبحث الأول

عاد وثمود في القرآن الكريم والحديث

تحدث القرآن الكريم وكذا السنة الشريفة عن قوم عاد وثمود،وماكان من أمرهم في الزمن الغابر، وذلك في مواضع عديدة تصور في كل مرة جانبا من حياتهم،سواء الديني أو العقلي وحتى الاجتماعي. ولأجل أن نلم بهذه الجوانب قسمنا هذا المبحث إلى مطلبين .

بحيث نتناول في المطلب الأول: عاد وثمود في القصص القرآني والقصص النبوي .

وفي المطلب الثاني:حياة عاد وثمود في جانبها الديني والعقلي والاجتماعي.

المطلب الأول

عاد وثمود في القصص القرآني والقصص النبوي

أولا- عاد وثمود في القصص القرآني:

وردت قصة عاد وثمود في القرآن حسب ترتيب السور في المصحف الشريف كالآتي:

1-سورة الأعراف:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ(65)قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ(66)قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(67)أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ(78)أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(69) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(70)قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ(71)فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ(72)﴾

سورة الأعراف :

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ

أليم(73) واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها
قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين(74) قال الملأ
الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه
قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون(75) قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون(76) فعقروا
الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين(77) فأخذتهم
الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين(78) فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي
ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين(79)﴾

2–سورة التوبة:

﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح **وعاد** وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين
والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم
يظلمون(70)﴾

3–سورة هود:

﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا
مفترون(50) يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا
تعقلون(51) ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة
إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين(52) قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما
نحن لك بمؤمنين(53) إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني
بريء مما تشركون(54) من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون(55) إني توكلت على الله
ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم(56) فإن تولوا فقد
أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربي على كل
شيء حفيظ(57) ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب
غليظ(58) وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار
عنيد(59) وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم
هود(60) وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من
الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب(61) قالوا يا صالح قد
كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه

مُرِيبٍ(62)قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ
إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ(63)وَيَاقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ
اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ(64)فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ
ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ(65)فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ
خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ(66)وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ
جَاثِمِينَ(67) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِّثَمُودَ(68)﴾

4-سورة إبراهيم:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ
جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي
شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ(9)قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ
لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن
تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(10)قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(11)وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا
آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ(12)وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ
أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ(13)وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن
بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ(14)وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ(15)مِّن
وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ(16)يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ
وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ(17)﴾

5-سورة الحجر:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ(80)وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا
مُعْرِضِينَ(81)وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ(82)فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ(83)فَمَا
أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ(84)﴾

6-سورة الإسراء:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا
بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً(59)﴾

7- سورة المؤمنون:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ(31)فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ
إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ(32)وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ(33)وَلَئِنْ أَطَعْتُم
بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ(34) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم
مُّخْرَجُونَ(35)هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ(36) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ(37)إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ(38)قَالَ رَبِّ انصُرْنِي
بِمَا كَذَّبُونِ(39)قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ(40)فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً
فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(41)﴾

8- سورة الفرقان:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا(38)وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا
تَتْبِيرًا(39)﴾

9- سورة الشعراء:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ(123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ(124)إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ(125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(126)وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
الْعَالَمِينَ(127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ(228)وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ(129) وَإِذَا
بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ(130)فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(131)وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا
تَعْلَمُونَ(132)أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ(133)وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(134)إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ(135)قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ(136)إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ
الْأَوَّلِينَ(137)وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(138)فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ(139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(140) كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ(141) إِذْ قَالَ لَهُمْ
أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ(142)إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(143)فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُونِ(144)وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ(145)أَتُتْرَكُونَ فِي مَا
هَاهُنَا آمِنِينَ(146)فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(147)وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ(148)وَتَنْحِتُونَ مِنَ
الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ(149)فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ(151)الَّذِينَ
يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ(152)قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ(153)مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(154)قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ
مَعْلُومٍ(155)وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ(156)فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا
نَادِمِينَ(157)فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ(158)وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(159)﴾

10–سورة النمل:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ(45) قَالَ
يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(46) قَالُوا اطَّيَّرْنَا
بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ(47) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ
يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ(48)قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا
شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49)وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ(50)فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ(51)فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ
خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(52)وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(53)﴾

11–سورة العنكبوت:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ
وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ(38)﴾

12–سورة ص :

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ
أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ(13)إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ(14) وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً
وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ(15)﴾

13–سورة غافر:

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ(31)﴾

14–سورة فصلت:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي
خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ(15)فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ
نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ(16)

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(17)﴾

15–سورة الأحقاف:

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(21)قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(22)قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ(23)فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ(24)تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ(25)وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(26)﴾.

16–سورة ق:

﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ(13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ(14)﴾

17–سورة الذاريات:

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ(41) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ(42) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ(43)فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ(44)فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ(45)﴾

18–سورة النجم:

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى(50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى(52)﴾

19–سورة القمر:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ(18)إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ(19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ(20)فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ(21)وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ(22) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ(23) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ(24) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ(25) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ(26)إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ(27) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ(28)فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ(29) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِ(30)إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ(31)وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(32)﴾

20–سورة الحاقة:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ(4)فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ(5) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ
صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ(6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ
أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(7)فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ(8)﴾

21–سورة البروج:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ(13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ(14)ذُو الْعَرْشِ
الْمَجِيدُ(15) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ(16) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ(17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ(20)بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا
فِي تَكْذِيبٍ(19) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ(20) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ(21) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ(22)﴾

22–سورة الفجر:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ(6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ(7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي
الْبِلَادِ(8)وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ(10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي
الْبِلَادِ(11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ(12)فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ(13)إِنَّ رَبَّكَ
لَبِالْمِرْصَادِ(14) ﴾

23–سورة الشمس:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا(11) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا(12) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ
وَسُقْيَاهَا(13)فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا(14) وَلَا يَخَافُ
عُقْبَاهَا(15)﴾

هذه هي الآيات التي شكلت الأساس الأول لقصة عاد وثمود وهو الأساس المشكل لموضوعنا .

ثانيا –عاد ثمود في القصص النبوي

1– عاد في القصص النبوي :

روى الإمام أحمد في مسنده عن الحارث بن يزيد البكري قال : << خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمررت بالربذة، فإذا عجوز من

من بني تميم منقطع بها ، فقالت يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله حاجة، فهل أنتَ مبلغي إليه؟ قال: فحملتها، فأتيتُ المدينةَ، فإذا المسجدُ غاصٌ بأهله ، وإذا رايةٌ سوداء تخفقُ، وبلال متقلد السيف بين يدي رسول الله، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا يريدُ أن يبعث عمرو بن العاص وجها .قال؟ فجلست، قال: فدخل منزله أو قال رحله، فأذن لي، فدخلتُ فسلمتُ، فقال: (هل كان بينكم وبين بني تميم شيء).قال: فقلت: نعم، قال وكانت لنا الدَبرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها فسألتني أن أحملها إليكَ، وهاهي بالباب، فأذن لها، فدخلتْ .فقلت: يا رسول الله ، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزا فاجعل الدهناءَ، فحَمِيَتِ العجوزُ واستفزتْ، قالت: يا رسول الله، فإلى أين تظطرُ مُضَرَكَ ؟ قال: قلتُ: إنما مَثَلي ما قال الأولُ: مِعزاءُ حملت حتفها ، حملتُ هذه، ولا أشعرُ أنها كانتْ لي خصما، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عادٍ ، قال: (هيهْ،وما وافد عاد؟) وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه .قلتُ : إن عادا قحطوا، فبعثوا وافدا لهم يقال له: قَيلٌ ، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان، يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج جبال تهامة، فنادى، اللهم أنك تعلم أني لم أجيء إلى مريض فأُداويه، ولا إلى أسير فأُفاديه، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه.فمرت به سحابات سود ، فنودي منها، اختر، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها:خذها رمادا، رِمْدِداً لا تبقي من عاد أحدا .قال:فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح إلا قدر مايجري في خاتمي هذا حتى هلكوا .قال أبو وائل : وصدق .قال:فكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدا لهم قالوا: لاتكن كوافد عاد [(1)]

يحكي هذا الحديث طرفا من قصة هلاك عاد . قوم هود ، عندما كذبوا رسولهم فأصابهم الله بالقحط والجذب، ولكنهم أصروا على كفرهم وظنوا أن بإمكانهم رفع البلاء، الذي أحاط بهم إن هم أرسلوا وافدهم إلى الأرض المباركة-مكة-ليدعو لهم بالسقيا،وجهلوا أن المغيث هو الله وأن بإمكانهم أن يدعوه في المكان الذي هم فيه، وأن أعظم سبب يغاثون به هو الإيمان برسولهم المبعوث إليهم.

---

(1) أحمد بن حنبل :المسند ، دار الفكر:بيروت،د.ط،د.ت ،جـ3ص482.

لقد أساء هؤلاء عندما لم يعلموا كيف يرفع البلاء، وأساؤا مرة أخرى عندما أسندوا مهمة طلب السقيا إلى رجل لا يصلح لها، فماذا كانت النتيجة؟ ذهب هذا الوافد ليمكث شهرا يعاقر الخمر، ويشنف آذانه بسماع الغناء عند صديق له ثرى ميسور، وبعد شهر دعا ربه دعاء البطرين الذين لا يحسنون دعاء الله و لا التعامل معه . وخيره الله بين أنواع من السحب،فاختار سحابة فيها عذاب، دمره ودمر قومه.لقد كان وافد عاد مشؤما من قوم ظالمين[1] .

كانت العرب تقول: فلان كوافد عاد وهو مثل تضربه للرجل المشؤوم الوفادة، يذهب ليطلب الخير لقومه فيأتيهم بالشر.

وعاد أمة عربية قديمة، أرسل الله إليها نبيه هوداًعليه السلام، فكذبته فامسك الله عنها القطر، فأصابها القحط والجذب،حتى جهدهم ذلك،فلما رأى قوم عاد ذلك بعثوا وفدا من السادة إلى البيت الحرام ليستسقي لهم<<وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنما يطلبونه بحرمه ومكانة بيته>>[2] .

ظنت عاد أن التعامل مع الله كالتعامل مع الملوك، يحتاج أن يرسل إليه رئيسا أو زعيما من الزعماء، ولو كان غليظ الطباع فاجر النفس، ممتلئ كبرا وعجبا، كحال وافدها .فلم يعرف هذا الوافد كيف يدعو الله، ولا كيف يبتهل إليه الله في المصائب والملمات فخرج إلى تهامة يستسقي لقومه، وهم في كرب وبلاء، فمر بمعاوية ابن بكر، فأقام عنده شهرا، يسقيه الخمر، ويستمتع بغناء جاريتين مشهورتين بالغناء تدعيان الجرادتان.اخذ وافد عاد يلهو ويتمتع بشهواته وملذاته، تاركا ما أرسل لأجله ، مشغولا عنه بأهواء نفسه.

وبعد أن شبع مما كان فيه، وتنبه إلى أن قومه بعثوه بصحبة جماعة<ليتغوثون بهم من هذا البلاء الذي أصابهم، وقد أبطئوا عنهم>>[3] .فـــــــــــخرج إلى جبال تهامة واستسقى

(1) عمر سليمان عبد الله الأشقر،صحيح القصص النبوي،دار النفائس للنشر والتوزيع: الأردن،ط ، 2،1997،ص376.

(2) أبو الفداء إسماعيل بن كثير،قصص الأنبياء،تحقيق: مصطفى عبد الواحد،دار الكتب الحديثة:مصر،د،ط،د، ت،جـ1،ص135.

(3) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك،دار الكتب العلمية: بيروت،ط،3، 1991م،جـ1ص135.

استسقاء ينبيك لفظه عن الحالة النفسية التي كان فيها وقال<<اللهم إنك تعلم أني لم أخرج إلى مريض فأداويه ولا أسير فأفاد به، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه>>[1] .أهكذا يكون الدعاء؟ أين الإخبات إلى الله ، والتواضع لجنابه؟أين حمده وتمجيده والثناء عليه؟ كأن الذي يخاطبه هذا الرجل ليس بإله عظيم جبار منتقم قوي قاهر أهكذا يقول لله << إنه لم يأت في حاجة خاصة به، وكل الذي طلبه أن يسقي عادا ماكان يسقيه، و لم يطلب سقيا الرحمة ولا السقيا المباركة"أسق عادا ما كنت تسقيه" إنه يطلب السقيا كيف كانت، غير مفرق بين سقيا الرحمة وسقيا العذاب>> [2] . فأنشأ الله سحائب ثلاث : بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السحاب: يا قيل اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب . فقال اخترت السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب[3].وكما أساء في الدعاء أساء في الاختيار، فقد اختار سحابة العذاب. فقيل له: خذها رمادا، أي رمادا دقيقا تحمله ريح عاصف تدمر كل شيء أتى عليه : فلم تبق من عاد أحدا إلا أهلكته.

2- ثمود في القصص النبوي

أخبرت كتب السنة أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر بديار ثمود المسماة بالحجر في مسيرة إلى غزوة تبوك ، فنزل بالناس في ديارهم واستسقى أصحابه من الآبار التي تشرب منها ثمود، فعجنوا منها، ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهرقوا القدور، وعلفوا الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا إلا باكين .

وينقل البخاري ما جاء بشأن نزول النبي صلى الله عليه وسلم الحجر ما نصه:(حدثنا عبد الله بن محمد الجعفي حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن سالم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر قال:(لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي).

(1) عمر سليمان عبد الله الأشقر،صحيح القصص النبيوي،ص371 .

(2)المرجع نفسه، ص372 .

(3) ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك ،جـ1،ص136 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(حدثنا يحي بن بكير حدثنا مالك عن عبد ا لله بن دينار عن ابن عمر رضي ا لله عنهما قال: قال رسول ا لله(صلى ا لله عليه وسلم عن أصحاب الحجر: لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم[1] .

روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر، قال: مر رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بالحجر قال:(لا تسألوا الآيات، وقد سألها قوم صالح، فكانت ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ، فكانت تشرب ماءهم يوما، ويشربون لبنها يوما، فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد ا لله عز وجل من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلا واحداًكان في حرم ا لله عزوجل،قيل: من هو يا رسول ا لله؟ قال: هو أبو رغال،فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه)[2] .

عندما مر الرسول صلى ا لله عليه وسلم في<الحجر> وهو موطن ديار ثمود قوم صالح عليه السلام ، الذي شهد حدث صيحة عذاب الاستئصال الذي أنزله عز وجل بالقوم نتيجة لكفرهم وعصيانهم. و وصل الرسول صلى ا لله عليه وسلم للمكان الذي وقع فيه الحدث الكبير، ورأى من الصحابة رضوان ا لله عليهم أنهم مشدودون إلى الحدث اغتنم عليه السلام هذه الفرصة وذكّرهم بما كان من قصة ثمود مع الناقة، وحذّرهم أن يفعلوا فعل ثمود، ويسيروا مسارهم، وأشار إلى الطريق الذي كانت ترد منه الناقة البئر، والطريق الذي كانت تصدر عنه، وأخبرهم أن الناقة كانت تقاسم قوم صالح الماء، فتشرب ماء البئر في اليوم الذي ترد فيه، وفي اليوم التالي كانت تمتنع عن الماء، ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[3] . ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾[4] .

ومن عجيب أمرها الذي حدّث الرسول صلى ا لله عليه وسلم به أن قوم صالح كانوا يشربون من لبنها بمقدار ما شاءوا، فيكفيهم عن الماء في يوم شربها دون كدأوعناء .

(1) صحيح البخاري بشرح الكرماني،طبعة دار إحياء التراث العربي: بيروت ط3،1985م،ص229-230 .ومسلم، الصحيح، كتاب الزهد والرقائق، لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا،دار احياء التراث العربي:بيروت،د،ط،د،ت،جـ4ص2286.والحديث مروي عن عبد ا لله بن عمر .

(2) رواه الإمام أحمد في مسنده:جـ3ص296.

(3) سورة الشعراء:الآية155 .

(4) سورة القمر: الآية28 .

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وعلى الرغم من استفادة ثمود من الناقة هذه الاستفادة العظيمة إلا انهم ضاقوا بها ذرعا، وكرهوا وجودها بينهم فعقروها بعدما اجمعوا أمرهم على تنفيذ الجريمة باختيار واحد منهم . وقد أخبر القرآن أن قاتل الناقة هو أشقى ثمود، ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾(1) . ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾(2) .

وقد وصف رسول الله عاقر الناقة في أحد أحاديثه بأنه أحمر، ، قال (محمد) بن إسحاق: حدثني يزيد بن محمد بن خثيم عن محمد ابن كعب عن محمد بن خثيم بن يزيد عن عامر بن ياسر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي :(أَلاَ أُحَدِّثُكَ بِأَشْقَى النَّاسِ؟ قَال: بَلَى.قَالَ:قَالَ:رَجُلاَنِ .أَحَدُهُمَا أُحَيمِرُ ثَمُودِ الَّذِي عَقَرَ النَاقَةَ وَالذِي يَضْرِبُكَ يَا عَلِي عَلَى هَذَا -يعني قرنه-حَتى تَبْتَلَّ مِنْهُ هَذِهِ يَعْنِي لِحْيَتَهُ)(3) .

ووصفه في حديث آخر بأنه كان سيدا في قومه. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام-أبو عروة-عن أبه عن عبد الله بن زمعة قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الناقة وذكرى الذي عقرها . فقال:(إذا انبعث أشقاها: انبعث لها رجل عارم(4) عزيز(5) منيع(6)في رهطه(7) مثل أبي زمعة)(8) .فلما عقروها وعدهم نبيهم العذاب بعد ثلاثة أيام وقال هم﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾(8) .وفي اليوم الثالث جاءهم العذاب. فقد أخذتهم الصيحة﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾(9) وقال:﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(10) .

وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم،أن تلك الصيحة أهلكت كل من كان على الأرض من تلك الأمة -ماعدا صالحاعيه السلام،والجماعة المؤمنة بدعوته-لا فرق بين

---

(1) سورة الشمس: الآية 12-13 .　　(2) سورة القمر:الآية29 .

(3) رواه أحمد في مسنده4،جـ4ص 263. الحديث مروي عن عمار بن ياسر .

(4) العارم: الشرير المفسد الخبيث. لسان العرب جـ4ص2913 (مادة عرم).

(5) عزيز: منيع لايغلب ولايقهر . لسان العرب .جـ4ص2926.(مادة عزز)

(6) منيع: أي مطاع في قومه

(7) رهطه: جماعته، قومه.

رواه احمد في مسنده.رواه الشيخان:صحيح البخاري،378/6 ورقمه3377.ومسلم:2191/4ورقمه2855.

(8) سورة هود: الآية65 .　　(9) سورة الحجر:الآية83 .　　(10) سورة فصلت:الآية17.

من كان في دياره، ومن كان مسافرا في أماكن بعيدة و لم ينجو منهم إلا رجل كان في الحرم، فمنعه الحرم العذاب، وقد ذُكر اسمه في الحديث"أبو رغال" ولكنه ما كاد يغادر الحرم حتى أصابه ما أصاب قومه . وقد حذر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يسألوا الآيات كما سألها قوم صالح خوفا أن يكذبوا بها ، فيهلكون كما هلكت ثمود .

المطلب الثاني

حياة عاد وثمود في جانبها الديني والعقلي والاجتماعي

أولا – الجانب الديني لعاد وثمود

1– الجانب الديني لعاد:

كانت عاد قوم هود عليه السلام أهل كفر بالله، فبعث الله إليهم هودا وهو من أوسطهم حسبا وأفضلهم موضعا . فدعاهم إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾[1] .

لقد كانت حياتهم في جانبها الروحي قائمة على اعتقادات باطلة ، وتصورات فاسدة نابعة من الشرك بالله، وهذا ما نطقت به آيات القصص القرآني وهي تصور موقفهم من قضايا الإيمان بجميع مستلزماته . كان موقفهم من حقيقة الإيمان بالله وتوحيده كالتالي:

1– كانوا يعتقدون بوجود الله إلا أنهم أشركوا به معبودات آبائهم ولهذا تعجبوا من رسولهم هودا عندما دعاهم إلى توحيد الله وعبادته، فكفروا بذلك واستبعدوه وقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[2] .

2– كانوا يعرفون الله، وقد ورد اسمه على ألسنتهم في محاوراتهم مع رسولهم هود وعنتهم معه فقالوا:﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾[3] .

ويعترفون بربوبيته ومشيئته فَقَالُوا ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾[4] . ولكنهم مع هذا كفروا به وبربوبيته ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾[5] .

كانوا مشركين ، اتخذوا آلهة من دون الله عبدوها . يقول الطبري:<< وكانوا أهل أوثان ثلاثة يعبدونها، يقال لأحدها صدا ، وللآخر صمود، وللثالث الهباء>>[6] .

(1) سورة هود: الآية50. (2) سورة الأعراف : الآية 70 . (3) سورة المؤمنون: الآية 38 .

(4) سورة المؤمنون: الآية24. (5) سورة هود: الآية 60 .

(6) ابن جرير الطبري، تاريخ الطبري، جـ1ص133 .

وقد ورثوا ذلك عن آبائهم وأضافوا إلى مواريثهم تلك من جهودهم وشركهم وأباطيلهم أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾[1] .

وظنوا أنها تقربهم من الله ، وأنها تملك الضر والنفع، فدافعوا عنها وجادلوا فيها، وأنكروا على رسولهم هود دعوته لنبذ الشرك وأعلنوا إصرارهم على التمسك بها وعدم تركها فقالوا له: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

3- كانوا يقرون بوجود الملائكة ويعرفونها ، ولكنهم كانوا يخلطون في حقيقتها وقد اتخذوا ذلك سبيلا لتكذيب رسولهم ، إذ اعتقدوا أن الرسل لا بد أن تكون ملائكة لا بشرا . وقد لازمتهم هذه الشبهة كما لازمت الكثير من الأمم التي ضلت من قبل .<< والطعن في بشرية الرسل شنشنة قديمة ،كشف عنها قوم نوح عندما قال لهم : ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾[3] .

4- كان موقف عاد من لقاء الآخرة والبعث يرتكز على التكذيب والإنكار، إذ أنهم << كفروا با لله وبالبعث وقصروا إيمانهم على آلهتهم واعتقدوا فيها القدرة حتى زعموا أن دعوة هود إلى عبادة الله وحده إن هي إلا أثر من غضب هذه الآلهة عليه مسته بسوء انتقاما منه فدعوته ليست إلا خبلا >>[4] .

كذبت عاد بلقاء الآخرة وما فيها من حساب وجزاء، ورفضت الإيمان بالبعث وطعن القوم في صحة الحشر والنشر، ولم يقبلوا تصديق الرسل بدعوتهم للإيمان بالبعث بعد الموت وسخروا من ذلك قائلين :﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[5] . أما موقفهم من الرسالة والرسل عامة فيظهر أنهم لم يكونوا بمعزل أو جهالة عما سبقهم، وأحاط بهم من رسالات الله ونذره.

---

(1) سورة الأعراف : الآية 71

(2) سورة هود : الآية 53 .

(3) سورة المؤمنون : الآية 23-25 .

(4) محمد الغزالي، علل وأدوية، دار الشهاب للطباعة والنشر، الجزائر، ط .2، 1986م، ص134 .

(4) أحمد عبد الغفور عطار، الديانات والعقائد في مختلف العصور، مكة المكرمة ،ط.1، 1981م ،جـ2ص22 .

(5) سورة الشعراء : الآية 138 .

فقد سبقت دعوة نوح عليه السلام دعوة هود عليه السلام،وعذاب الطوفان الذي أنزله الله بهم كعقاب لهم على كفرهم وكانوا على علم بذلك لأن<<الطوفان كان قريبا منهم وفي ذاكرتهم وعلى لسانهم >>[1] .إلا أنهم واجهوا دعوة هود بما واجه به قوم نوح بالتكذيب والعصيان والافتراء وقد شهد القرآن عليهم بذلك في قوله تعالى﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾[2] .

2- الجانب الديني لثمود:

كانت ثمود تسير في حياتها على نهج ديني وثني ، إذ كانت تتعبد لأصنام كثيرة منه (ود) و(جد) و(هد) و(شمس) و(اللات) [3] .

ويظهر أن ثمود قوم صالح كانوا مشركين بالله وكانت تصوراتهم عن الدين ومتطلباته نابعة من انحراف عقدي كبير حيث ظنوا أن الآلهة الأرضية هي المعبودات الحقة التي يجب الخضوع لها فهي وحدها التي تملك النفع والضر ولهذا أحاطوها بالرعاية والتبجيل وجعلوا لها معابد وكهنة يقومون على خدمتها وفق نظام خاص .يقول محمد الروسان :<< إن الديانة الثمودية معقدة ، فالتجمع الإلهي عندهم يدل على ديانة وثنية شركية . فقد كانت الملامح الرئيسية لهذه الديانة قائمة على نظام تعدد الآلهة>>[4] .

اعتمد الثموديون في ديانتهم على اتخاذ الحجارة والأشجار آلهة لهم،وهي لم تعبد لذاتها إنما عبدت على أساس أنها رمز للإله الحقيقي،الذي يسكن أعالي السماء .

لقد كان الثموديون مشركين لا يدينون لله وحده بالعبودية << والظاهر أنهم عبدوا الأصنام التي عبدتها عاد لأن ثمود وعاداً أبناء نسب واحد فيشبه أن تكون عقائدهم متماثلة>>[5] .

كذبت ثمود مثل عاد في موقفها من قضايا الإيمان بجميع مستلزماته .

---

(1) سيد قطب في ظلال القرآن،دار الشروق:بيروت،ط.10،1982م،جـ4ص1898 .

(2) سورة الشعراء: الآية 123 .

(3) عفيف عبد الفتاح طبارة ،مع الأنبياء في القرآن، دار العلم للملايين:بيروت،ط.17،1989م، ص92 .

(4) القبائل الثمودية والصفوية، مطابع جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، ط.1، 1987م ،ص155 .

(5) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ،الشركة الوطنية للكتاب:الجزائر،د،ط،1984م،جـ12 ص216 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- كانوا يعتقدون بوجود الله ، إلا أنهم أشركوا به معبودات آلهة آبائهم ولهذا تعجبوا من رسولهم صالح عندما دعاهم إلى توحيد الله وعبادته، فكفروا بذلك واستبعدوه وقالوا: ﴿أَتَنْهَانَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾(1) .

2- كان موقف ثمود من لقاء الآخرة والبعث نابعا من التكذيب والإنكار﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾(2)

فكذبوا بلقاء الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، ورفضوا الإيمان بيوم البعث ، وطعنوا في الحشر والنشر ، ولم يقبلوا تصديق رسولهم صالح بدعوته للإيمان بالبعث بعد الموت وسخروا من ذلك قائلين : ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾(3) .

لقد أنكرت ثمود وجود الله والبعث والنشر، وظن القوم أنهم إنما يقدمون البرهان على صحة إنكارهم <<إذ زعموا أن من يموت يستحيل ترابا لايمكن أن يعاد خلقه من جديد،ثم لا يخرج لأنه لا خروج ولا بعث >>(4) .

آمن قوم ثمود إيمانا قاطعا بالحياة المادية الفانية وصموا آذانهم عن أي دعوة فيها تذكير بالآخرة وأكدوا ذلك بقولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾(5) .لا حياة لنا غيرها﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ (6) أي يموت بعض ويولد بعض إلى انقراض العصر﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾(7) .وكل ما في الأمر أن الإنسان يعيش هذه الحياة الدنيا فإذا انتهت أيامه منها في فناء أبديّ .

هكذا أعلنوا إيمانهم بفكرة الخلود في الحياة والبقاء طول الدهر،لذلك هم يستعجبون ويعجبون من ذلك الذي يعدهم أنهم مخرجون ، ويستبعدون في جهالة أن ذلك سيكون ؛<< وجزموا في تبجح بأن ليس هناك إلا حياة واحدة وموت واحد . يموت جيل ويحيا جيل . فأما الذين ماتوا وصاروا ترابا وعظاما فهيهات هيهات الحياة لهم >>(8) .ثم إنهم لا يقفون

---

(1) سورة هود : الآية 62 . (2) سورة المومنون : الآية 33 . (3) سورة المومنون : الآية 35 .

(4) أحمد عبد الغفور عطار الديانات والعقائد في مختلف العصور، جـ2ص22.

(5) سورة المومنون : الآية 37 . (6) سورة المومنون : الآية 37.

(7) سورة المومنون : الآية 37.

(8) سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ4ص2467 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عند هذا الحد والغفلة عن تدبر حكمة الحياة التي تكشف عنها أطوارها الأولى ، إنما هم يتهمون رسولهم بالافتراء على الله ولا يعرفون الله إلا في هذه اللحظة ، ولهذا الغرض من اتهام الرسول:﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1] .

ولما كانت ثمود مثل عاد تدين بالوثنية، منصرفة إلى عبادة الآلهة بتفكيرها وقلبها، قانعة بالتوجه الديني الذي وجدت عليه آباءها الأولين ، راضية بما تركوه لها من تصورات فاسدة حول العقيدة ومتطلبات الإيمان ، عازمة على المضي على خطاهم إلى الأبد ، منحرفة عن كل قيم الخير والفلاح في الدنيا ، منقطعة إلى السخيف من الأمور والعادات والأعراف الباطلة بكل ما أوتيت من قوة وجهد ، لاهية عن العظيم من القضايا ، منصرفة كلية إلى اللهو والعبث والترف لا تمد عينيها إلى ماوراء ذلك من الغاية من خلق الكون والحياة والإنسان. <<بعث الله إليهم صالحا واعظا مذكرا ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وترك ما فيه من شرك وكفر ، فلم يستجب له إلا بعض المستضعفين ، وعصاه وكفر بدعوته السادة والكبراء منهم >>[2] . ولما رأى صالح منهم إعراضا عن الطريق المستقيم ، وعن الفكر في الآخرة والعمل لها والنظر في العاقبة ، وإشراكا مع الله في ألوهيته، وانصرافا عن عبادة الله وحده الذي خلقهم وأعمرهم في الأرض، أنذرهم وحذرهم من سوء العاقبة إذ ظلوا على هذه الحال ، ولكنهم ما فقهوا كلامه وأصروا على التمادي في الكفر والعصيان ن فحل بساحتهم عذاب عظيم ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾[3] .وقد كان لهذا التوجه الديني المنحرف أثره في طريقة تفكيرهم ورؤيتهم في قضايا الايمان ، ويظهر هذا جليا في وزنهم لأمور الحياة والانسان .

ثانيا – الجانب العقلي لعاد وثمود:

أوتي قوم عاد كمالا جسديا.فقد زادهم الله بسطة في الجسم ، وجعلهم أفضل من كثير من الأمم في أمور كرجحان العقول وقوة الأجسام وسلامتها من العاهات والآفات وقوة البأس .

(1) سورة المومنون:الآية 38 .

(2) محمد عبد المعيد خان، الأساطير والخرافات عند العرب ،دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت، ط،3، 1981م ص100 .

(3) سورة هود : الآية 68 .

وقد انعم الله عليهم بسلامة منافذ الإدراك العقلي كالسمع والبصر ؛<< ولكنهم لم يفكروا في مبدأ الخلق ، ولم يحاولوا التعرف على مصدر هذه النعم ، وغاية ما وصلت إليه عقولهم وارتاحت إليه طباعهم أن اتخذوا أصناما لهم آلهة يعنون لها جباههم ،ويحفرون لها خدودهم ، ويتوجهون إليها بالشكر كلما وقعوا على خير ويفزعون إليها بالاستنصار كلما أصابهم ضير>> [1] .

ففي اللحظة التي تركوا فيها عبادة الله إلى عبادة الأصنام . انتكست عقولهم وتعطلت مداركهم العقلية . وفقدوا الهداية بالسمع والبصر ، فكان من ذلك أن شكّوا في الرسل وكذبوا الأنبياء ورفضوا دعوة التوحيد << التي لا تحتاج إلى بينة ، وإنما تحتاج إلى التوجيه والتذكير وإلى استجاشة منطق الفطرة واستنباء الضمير>> [2] .

لقد غاب عن قوم عاد وثمود أن التصور الديني له انعكاساته على منطق العقل والسلوك . فلم يدركوا أن التوحيد في صميمه دعوة للحرية العقلية للإنسان ، وليست عبادة غير الله مأساة تتمثل في ضياع الحرية وحدها ، وإنما يمتد خطرها إلى العقل فيلوثه ، وينكّس أعلامه ويدمرها << وليس عبادة الأصنام غير ظلم خانق للعقل>>[3] .

وإذ لم يكن هناك تكافؤ بين قوة الأجسام وقوة العقول،ففي الوقت الذي كان فيه قوم عاد أقوياء في أجسامهم ، كانت عقولهم مظلمة ضيقة وصغيرة مشدودة بقوة إلى عبادة الأصنام ، وإلى عبادة موروثات الأباء والأجداد محكومة إلى تقاليد الأسلاف الخاطئة .

ويمكننا رصد أبرز مظاهر الانحراف كما تنص عليه سور و آيات القرآن الكريم في :

1– تعطيل المدارك العقلية : صم قوم عاد وثمود آذانهم عن دعوة التوحيد التي جاءهم بها هود وصالح عليهما السلام . وعطّلوا مداركهم العقلية،وكل منافذ الحس التي يمكن أن تكون مجالات فعالة في دخول الإيمان إلى قلوبهم ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾[4] .

---

(1) محمد أحمد جاد المولى،علي محمد البجاوي،محمد أبو الفضل إبراهيم السيد شحاته ،قصص القرآن، مطبعة حجازي: القاهرة ،ط،4، 1951م ،ص20 .

(2) سيد قطب ،الظلال ،جـ4،ص1889 .

(2) أحمد بهجت، أنبياء الله،دار الشروق:بيروت،ط20،1993م ،ص35 .

(3) سورة العنكبوت: الآية 38

جمعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والمعنى أن قوم عاد وثمود أشاحوابوجوههم عن سبيل الهدى ومالوا بتفكيرهم إلى سبيل الفساد << فهم لا يعدلون عن طريقهم الضال الذي ركبوه ولا يلقون السمع إلى ما يتلو عليهم من آيات>> (1) .

لقد كانوا في غفلة عن ... دعوة الدين الحق الذي جاءهم من عند خالقهم سبحانه وتعالى ، الذي يبين لهم سبل الهدى على لسان أنبيائه صلوات ا لله عليهم جميعا على فترات متفاوتة ، وكانوا في غفلة من رؤية الصلاح والخير فأعرضوا عن كل دعوة فيها معاني الاستقامة والتوبة ورفضوا كل صوت فيه دعوة للإيمان والعدل و ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾(2) .

2- التعلق الفكري بالمحسوسات: تعلق قوم عاد وثمود بالمحسوسات المادية ، ولم يتطلعوا إلى ما وراء المحسوس من عوالم الإيمان إلى أفاق الروح في اتصالها بالملأ الأعلى ، ولم يمنحوا عقولهم فرصة لتتشرب معاني العبودية لله والإخلاص لدينه الحنيف الهادي إلى سواء السبيل.

لقد جاءهم هود وصالح بالدين الحق ، وتم عرضه في وضوح وبينة بدلائل لا يتسرب إليها الشك ، إلا أن القوم ظلوا يطلبون البينة على صدق الدعوة ويلحون على رؤية المعجزات التي تدل على صحة هذا الدين ، فهاهي الجماعة من قوم عاد تخاطب هودا عليه السلام كما حكى عنهم القرآن في قوله تعالى:﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾(3) .

أي ما جئتنا بحجة وبرهان على ما تدعيه من أنك مرسل من قبل ا لله عز وجل بدينه إلى قوم عاد ، لتدعوهم إلى عبادة ا لله الواحد وترك معبودات الأباء والأجداد .

فرغم أن دعوة هود إليهم كانت ناصعة واضحة إلا أن القوم مازالوا على ضلالتهم متمسكين بعبادة الأصنام راجين الخير والنفع منها . قاصرين تفكيرهم عليها لأنها عبارة عن آلهة ملموسة تراها الأعين وتمسها الأيدي في كل حين . أما دعوة هود فهي دعوة مجردة في نظرهم من الدلائل المرئية ، ولهذا لم يقبلوها رغم نصاعتها .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن دار الفكر العربي ،د،ط،د،ت، المجلد العشرون،جـ20 ص430 .

(2) سورة فصلت : الآية 17 .

(3) سورة هود : الآية 53 .

ولم يكن هذا دأب قوم عاد وحدهم ،بل كذلك دأب قوم ثمود . ويخبر تعالى حكاية عن موقفهم من الرسالة ﴿ وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[1] .<<وذكر الله تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدل على صدق ما جاءهم به صالح كالناقة،التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح>>[2]

لقد كان القوم بعيدين بتفكيرهم عن إدراك معاني الحق رغم رؤيتهم للمعجزة الحسية وهي الناقة التي أرسلها الله لهم لتكون آية تدعوهم للإيمان والإقبال على الهدى بنفوس موقنة بعد ما رأت وسمعت ولمست آيات الله الباهرة وهي تسير أمامهم .

3–تقليد السلف دون وعي:يعد تقليد السلف أبرز مظهر عقلي ميّز الجماعة من قوم عاد ومن بعدهم قوم ثمود .

ويبدو أن فكرة التمسك بالنهج المحافظ على ماترك الآباء والأجداد كانت عميقة في نفوس العاديين والثموديين ، وكان لها انعكاسها الخطير على سلوكاتهم ومواقفهم من الدين وقضاياه المختلفة .

لقد كانت فكرة إتباع طريقة الآباء ثابتة وراسخة في ذهنية القوم انطلاقا من <<أن الفكرة حين تتعمق في النفس تكون مصدرا للأخلاق ، وما الخلق إلا السلوك الناشئ عن الأفكار معمقة ثابتة راسخة في النفس>>[3] . ولهذا كان السير على نهج القدماء من السلف ، واقتفاء آثارهم خطوة ترتقي إلى مستوى العبادة << لقد كانت عبادة السلف عبارة عن استهواء باطني واسترسال فيه>>[4] .بالنسبة لقوم عاد وثمود . ولهذا كان أشد ما يثير غضبهم دعوة الأنبياء إلى ترك معبودات الآباء والأجداد ، وأشد ما كان يخنقهم تسفيه أحلامهم والاستخفاف بعقول الأسلاف .

لقد كان لتقاليد الأباء والأجداد سلطان قوي أخذ بخانق قوم عاد وثمود ، حيث انه لم يقف عند حد معين حتى أصبح وبالا ومصيبة عليهم لأنه حولهم من أناس مفكرين إلى أناس مقلدين .

---

(1) سورة الحجر : الآية 81 .

(2) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت، ط.ـ ص170 .

(3) جودت السعيد :حتى يغيروا ما بأنفسهم ،المطبعة العربية:غرداية،ط.1،1990م،،ص122.

(4) عباس محمود العقاد: التفكيرفريضة إسلامية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط .2، 1969م ،ص25.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويشير القرآن إلى أن الأمم سواء ماكان منها قبل عاد وثمود كأمة نوح عليه السلام أو ماكان بعدهما كأمة لوط وأمة شعيب عليهما السلام .<< أنها كانت جماعة بشرية تحولت من جماعات مفكرة إلى جماعات مقلدة>>[1] .

وهكذا يظهر جليا أن آفة إتباع الآباء والأجداد قد استوطنت نفوس قوم عاد وثمود ؛ فهاهم يسيرون على نهج واحد،يردون بنفس الطريقة على دعوة هود وصالح عليهما السلام،ويعلنون صراحة تمسكهم بعبادة آبائهم وأجدادهم،ويقولون ذلك بكلمات ملؤها الثقة بما عندهم والسخرية والشك بما جاءهم به الأنبياء ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾[2] . وهو استفهام إنكاري بداعي المذمة والملامة ، والاستفهام في مقام التعليل لما قبله محصلة أن سبب يأسهم من الرسل أنهم ينهونهم من إقامة سنة من سنن سلفهم ومظهر من مظاهر قوميتهم << فإن اتخاذَ الأصنام من سنن هذا المجتمع التي يجب أن تقدس واستمرار إقامة السنن المقدمة في المجتمع دليلٌ على أنهم ذووا أصل عريق ثابت ووحدة قومية لها استقامة في الرأي والإرادة>>[3] .

ولهذا فقد عدَّت عاد وثمود أن تقليد الأباء والمحافظة على مواريثهم سنة مقدسة يجب أتابعها . والنتيجة أنهم أحلوا آباءهم محل آيات الله وسننه . ورفضوا كل دعوة دينية مخالفة لما عهدوا من دين أسلافهم في اتخاذ الأصنام ، معتبرين مخالفة طريقهم دليلا على قطع الصلة بين الآباء والأبناء << والدليل على ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾ والدال على معنى العبادة المستمرة باتصال عبادة الأبناء بعبادة الآباء و لم يقل: أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا؟ والفرق بين التعبيرين من جهة المعنى واضح >>[4] .

بهذا المعنى كان قوم عاد وثمود يفكرون ويسلكون في حياتهم بعيدين كل البعد عن قيم الإيمان وسبله . والنتيجة أنهم بذلك فقدوا مقومات الحياة الإنسانية السليمة ، كمـــا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) عبد الكريم ،صراع المذاهب في العقيدة، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط.1 ،1973م ،ص341.

(2) سورة هود : الآية62 .

(3) محمد حسين الطبطبائي ، الميزان في تفسير القرآن ،منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ،ط.1، 1991م ،ج10ص300 .

(4) المصدر نفسه، ص300 .

افتقدوا كل عوامل التماسك والبناء فعطلوا مداركهم .وكانت محصلة ذلك ناضحة في أخلاقهم وسلوكاتهم أفرادا وجماعات .

تلك كانت سمات مجتمعهم بعدما استقر فيهم ذلك التوجه السلفي الخاطئ فلم يقبلوا عنه تحويلا ولا رضوا بأحسن منه بديلا وتقوقعوا في إطاره فأحاطت بهم عاقبة الله ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1] .

ثالثا – الجانب الاجتماعي لعاد وثمود :

كان المجتمع العادي والمجتمع الثمودي كلاهما منقسم إلى طبقتين حسب التقسيم القرآني إلى الملأ والمستضعفين .أي منقسم إلى الطبقة الأولى : هم السادة والأثرياء والحكام . والطبقة الثانية هي طبقة المستضعفين التي يشكلها المؤمنون[1].

وقد وصف القرآن هذا الوضع في قوله تعالى عن مجتمع عاد :﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[2]. وعن مجتمع ثمود يقول :﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾[3] .

إن انقسام المجتمع إلى مترف ومستضعف هو الذي أوجد فئة الكافر والمؤمن . ووصف الملأ بالذين استكبروا في الآية السابقة،إنما هو لتفضيع كبرهم وتعاظمهم على عامة قومهم واستدلالهم إياهم ، وللتنبيه على أن الذين آمنوا بما جاء به صالح عليه السلام هم ضعفاء قومه [4] .

فطبقة الملأ وهم الجمهور والسادة والقادة،هؤلاء كفروا بدعوة هود عليه السلام ورموه بالسفاهة والضلال والكذب،والإحتقار والضعف والجنون . أما طبقة الفقراء فآمنت بعقيدته [5] .وإذا كانت الدراسات التاريخية والأثرية لم تتمكن من إعطاء تصور كامل لمجتمع عاد،من الداخل ومعرفة العناصر المكونة له . فهذا بلا شك راجع إلى توغل هذه الأمة في

---

(1) سورة الأحقاف: الآية 20 .

(2) سورة الأعراف:الآية 66

(3) الأعراف 73

(4)حسن سليمان، النظرية القرآنية في تفسير حركة التاريخ،مؤسسة الوفاء :بيروت،د.ط،1986م، ص214.

(5) ابن عاشور ،التحرير والتنوير، جـ08ص222.

القدم وقلة النقوش الأثرية التي يمكن أن تستعمل كدليل عند فك رموزها لمعرفة المكونات الاجتماعية له . فإن الدراسات والنقوش[1] التي عثر عليها المنقبون في المنطقة التي تواجدت بها أمة ثمود في فترة من فترات التاريخ تمكنت من رسم المعالم الكبرى لتلك الأمة من الداخل فبينت أن المجتمع الثمودي كان مجتمعا قبليا تكونت من بيوتاته وأهله وعشائره القبائل وهي مجموع الأمة التي لها نظامها الخاصة بها .فالأسرة هي أصغر تكوين اجتماعي ، وتليها فئة الأهل وهو التكوين الأكبر من البيت . ثم الفئة الكبرى وهي القبيلة هذه الفئة هي التي شكلت المجتمع الثمودي . وعلى ما يعتقد كان لكل فئة مسؤولها الأول الذي ينظم أمور حياتها، ويكون حلقة الاتصال بغيره من الفئات الأخرى . وبالتالي ربما يكون مسؤول العشيرة عضوا، في المجلس العام للقبيلة التي يكون على رأسه شيخ أو أمير وربما ملك [2] .

يبدو أن المجتمع الثمودي كان له نظام اجتماعي خاص وحدود مرسومة ثابتة،تفرض على كل أفراد الجماعة التي تعيش ضمنه أن تأتمر بأوامر رئيس القبيلة،إلى جانب التقيد بالطقوس الدينية ومتطلباتها،التي يسنها رجال الدين ، وأن أي خروج على النظام القائم يعرض نفسه للسخط الاجتماعي .

فنبذ الفرد للنظام الاجتماعي ومخالفته له ، هو بمثابة نبذ ومخالفة للمجتمع ورؤسائه ، فلا يملك شخص أن يهجر عبادة صنم قومه ، فالصنم إله ديني ورمز سياسي بل رمز لجماعة الأمة كلها،والخروج على إرادة الأمة وتفكيك لوحدتها،وهو ما لا يسمح به وإلا تعرض الثائر للعقاب [3] . وهذا ما يفسر لنا موقف الطبقة الحاكمة في المجتمع الثمودي والتي تشمل الملوك والسادة والتجار الكبار ورجال دين من دعوة صالح عليه السلام عندما طلب منهم تغيير توجههم الديني وتقبل الدين الجديد كيف كان متعنتا صلبا إلى درجة التآمر عليه بالقتل .﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[4].والقبيلة في المجتمع الثمودي هي صاحبة السيادة،ممثلة في شيخها أو زعيمها الذي يحمي القبيلة بفرسانه من الغارات والغزو ويحدد أماكن الحل والترحال والرعي

(1) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، تفسيرالقرآن العظيم ، جـ 3 ،ص186.

(2) محمود محمد الروسان، القبائل الثمودية والصفوية ، ص136

(3) عفت الشرقاوي ، في فلسفة الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر:بيروت،ط 3،1981م،ص85 .

(4) سورة النمل:الآية 49

والغزو والصيد وغيرها من المهام التي يساعده في تسييرها شيوخ القبائل والبيوتات [1] .

إلى جانب هذا فقد ضم المجتمع الثمودي الأحرار والعبيد .الأحرار كانت بيدهم السلطة أما العبيد فيصعب معرفة ما إذا كانوا من السكان الأصليين أو جاء وا بطريق التجارة وهذه فكرة واضحة على أنه كانت هناك فروق اجتماعية كبيرة جعلت طبقة الملوك والسادة والأثرياء يعيشون حياة مترفة ويتحكمون بموجب مركزهم في القرارات الحاسمة فهم أصحاب السلطة والسيادة والسلطان والمال . وجعلت في مقابل هذا طبقة المستضعفين كالحرفيين والصيادين والرعاة والزراع وغيرهم تعيش حية الاستضعاف والخدمة .

والخلاصة أن الثموديون وإن لم يصلوا إلى درجة الدولة حيث أن قبيلة ثمود لم تكن مملكة بالمفهوم الحضاري و لم تتوطن بشكل دائم في منطقة من المناطق إلا أنها وصلت إلى نظام اجتماعي متقدم .وشعب عرف مثل هذا التنظيم القبلي والذي ذكره المؤرخون المسلمون والدارسون الغربيون بعد الثموديين بوقت طويل عند وصفهم لقوم صالح عليه السلام يدل على مقدار التقدم في التنظيم السياسة والاجتماعية المدنية على ترتيب خاص [2] .

المبحث الثاني
عاد وثمود في التاريخ

تحدث المؤرخون في كتاباتهم عن قوم عاد وثمود وكان حديثهم منوعا بين طرح استشراقي وطرح اسلامي مستمد من القرآن الكريم وكلاهما شابه شيئ من النقص والزيادة ثم طرح خرافي بالغ أصحابه في رؤيتهم للموضوع بما في ذلك رأي العلماء في نفي أو إثبات وجود هاتين الأمتين عند أهل الكتاب .ولكي يأخذ هذا المبحث حقه من الشرح والتحليل قمنا بتقسيمه إلى مطلبين : نستعرض في المطلب الأول: عادًاوثمودَ في كتابات المؤرخين . أما المطلب الثاني: فتناولنا فيه عادًاوثمود عند أهل الكتاب.

---

(1) عفت الشرقاوي : في فلسفة الحضارة الإسلامية،، ص139 .

(2) محمود محمد الروسان، القبائل الثمودية، ص139 .

المطلب الأول

عاد وثمود في كتابات المؤرخين

أولا – في الكتابات الاسلامية :

يرى فريق من الباحثين أن عادا وثمودَ حقيقة تاريخية ثابتة، فقد ورد ذكرهما وحضارتيهما وتقلباتهما في معيشتهما في القرآن الكريم الذي يعد أصدق مصدر ديني يوثق به .يقول بن خلدون:<<إن أخبار القرون الماضية يمتنع إطلاعنا عليها لتطاول الأحقاب ، ودروسها إلا ما يقصه علينا الكتاب ويؤثر عن الأنبياء بوحي الله إليهم>> [1] .فأخبار عاد وثمود التي ورد ذكرها في القرآن أصبحت أخبارا ذات قيمة في البحوث التاريخية بعد أن اكتشف الباحثون آثارهم في شمالي الحجاز واليمن ، إن اتساع المعارف الأثرية أقنع جمعا غير قليل من الباحثين بان القصص القرآني يشير إلى حقائق تاريخية[2] .هذا وقد كشفت جهود علماء الآثار–وما زالت جارية– عن ثمود ومساكنهم في الشمال كما أن في الجنوب اكتشفوا في حضرموت قبرا يقال عنه أنه قبر هود عليه السلام .كما اكتشفت آثار عليها خط مسماري فيه أسماء مواطن لأمة عاد . كما عثر المنقبون في الأحقاف على مغائر محفورة في الصخور التي تراكمت عليها طبقة كثيفة من الرمال[3] .

ويبقى أن ما توصل إليه علماء الآثار والمعنيين بدراسة المنطقة العربية القديمة بعد استقرار النقوش واستنطاق الآثار كان كافيا لتدليل على أن عادا وثمود كان لهما وجود تاريخي وحضاري حقيقي والأكثر من ذلك أنه كان لهما أثر عميق في مصير الشرق[4] .

ثانيا – في كتابات المستشرقين: شك كثير من المستشرقين في حقيقة وجود أكثر الأقوام المؤلفة لطبقة العرب الأولى كعاد وثمود وغيرهما . فعدها بعضهم من الأقوام التي ابتدعتها مخيلة الرواة<< وخاصة حين عجزوا عن العثور على أسماء مشابهة لها أو قريبة منها في اللغات القديمة أو في الكتب الكلاسيكية>>[5] .

---

(1) تاريخ ابن خلدون،جـ2ص18 .

(2) أمين مدني، التاريخ العربي ومصادره،دار المعارف:مصر،د،ط،1971م،ص58 .

(3) حسن عيسى عبد الظاهر،من نبأ المرسلين،دار الثقافة:الدوحة،ط،1، 1984مص45.

(4) ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية،دار المعارف ، مصر، ط.3، 1966م،ص11 .

(5) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام،دار العلم للملايين:بيروت،ط.1، 1968م، جـ1ص298 .

وهذا التشكيك الذي غلب على تفكير بعض المستشرقين هو الذي دفعهم إلى القول <<أن ما يسمى بالعرب البائدة ليس من التاريخ الحقيقي في شيء وإنما هو جزء من التاريخ الأسطوري الذي يسبق عادة التاريخ الحقيقي لكل أمة >>[1] .

ومن ثم فإن المستشرقين إذا ما عالجوا تاريخ بعض القبائل العربية التي تسمى بالبائدة كعاد وثمود إنما يعالجونها على هذا الأساس، فهم مرة ينكرون وجودها كلية باعتبارها قبائل أبيدت وليس هناك دليل مادي يمكن أن يدل على وجودها . ومرة يشككون في وجودها وهذا التشكيك نجمل مبرارته في نقطتين: النقطة الأولى، غياب الدليل المادي الملموس من جهة والثانية، قدم تاريخ تلك الأمم من جهة أخرى بالإضافة إلى دوافع ذاتية أخرى .

هذا وإن أغلبية المؤرخين الأوربيين الآن قد عدلوا عن هذا الاتجاه وغيروا رأيهم بعدما عثر المنقبون على نقوش و كتابات أثرية تدل على الوجود التاريخي والمادي لتلك القبائل العربية القديمة وعلى رأسها ثمود .

واتضح الآن أن في هذه الأحكام شيئا من التسرع، إذ تمكن العلماء من العثور على أسماء لبعض هذه الأقوام . ومن الحصول على بعض المعلومات عنها . ومن حل رموز كتابتهم مثل الكتابات الثمودية << وقد اتضح أن بعض هذه الأقوام أو أكثرها عاشوا بعد المسيح و لم يكونوا ممعنين في القدم على نحو ما تصوره الرواة ، ولعل هذا كان السبب في رسوخ أسمائهم في مخيلة الإخباريين>>[2] .يقول العقاد: <ولولا أن اسم عاد " OADITA"واسم ثمود"THAMUDITE" قد ورد في جغرافية بطليموس لكان من اليسير على الذين يحملون اسم الخرافة على أطراف ألسنتهم أن يزعموا أنها احدى الخرافات>[3] .

والخلاصة أن العدول عن هذا الاتجاه << إنما كان بعد أن ثبت للمؤرخين الأوربيين أن بعض الأمم البائدة كعاد وثمود قد تحدث عنهم المؤرخون القدامى من الأغارقة والرومان، وبعدما ثبتت الأحافير إلى حد ما صحة ما ورد في المصادر الإسلامية عن هذه القبائل>>[4] .

---

(1) محمد بيومي مهران،راسات تاريخية في القرآن،دار المعرفة الجامعية:الأسكندرية،د.ط،1995م، ص240 .

(2) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب،جـ2،ص298 .

(3) موسوعة العقاد الاسلامية،دار الكتاب العربي:بيروت، ط،1،1971م،جـ1،ص443.

(4) محمد بيومي مهران،المرجع السابق،ص240.

ثالثا- الطرح الأسطوري

عرفت قصة عاد على الخصوص -دون ثمود- مبالغات كبيرة من قبل بعض رواة الأخبار . ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن فريقا من المؤرخين والمفسرين قد نقلوا عن غيرهم ورووا عنهم الإسراف في الاستنتاج مما ورد في بعض أي الذكر الحكيم لاسيما قوله تعالى في وصفه لعاد ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾[1] . وقوله تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾[2]

ويبدو أن هاتين الآيتين كانتا مصدر تأويل عند بعضهم. ومجالا خصبا لإعمال الخيال وإضفاء طابع المبالغة عليهما . وعن قوله تعالى :﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾.ذكر بعض المفسرين ، منهم الطبري والزمخشري والرازي وغيرهم[3] إنّ لفظ (ارم) اسم لمدينة وصفت بأنها(ذات عماد) أي أساطين ثم ينقلون أنه كان لعاد بن عوص بن ارم ابنان هما شديد وشداد ملكا من بعده ،وهلك شديد .فخلص الملك لشداد ودانت له ملوكهم وسمع شداد هذا وصف الجنة فقال:لأبنين مثلها، فبنى مدينة إرم في صحاري عدن في مدة ثلاثمائة سنة، وكان عمره تسعمائة سنة، وانه بناها على أوصاف بعيد أو مستحيل عادة أن يبنى في الأرض مثلها، فهي مدينة عظيمة فيها أصناف الشجر والأنهار المطردة، مبنية بلبن الذهب والفضة، قصورها ودورها وبساتينها وأن حصباءها لآلئ وجواهر وترابها بنادق المسك وأنهارها سارحة وثمارها ساقطة ودورها لا أنيس بها وسورها وأبوابها تصفر ليس بها داع ولامجيب وأنها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام وتارة بأرض اليمن ، وتارة بالعراق وتارة بغير ذلك من البلاد . وأيضا ينقلون عن عبد الله بن قلابة من الأعراب في زمن معاوية أنه خرج في طلب إبل له قد شردت فبينما هو يتيه في ابتغائها إذ اطلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب فدخلها وحمل منها ما قدر عليه فوجد فيها قريبا مما ذكرناه سابقا من صفات المدينة الذهبية وأنه رجع أخبر الناس . فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا

(1) سورة الفجر: الآية6-7 .

(2) سورة الأعراف الآية69.

(3) انظر ابن جرير الطبري، تفسير الطبري، دار المعرفة للطباعة والنشر: بيروت،د،ط،1983، ج28ص86.والزمخشري:الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، المكتبة التجارية الكبرى:مصر،ط.1، 1354هـ، جـ4،ص209. وفخر الدين الرازي:التفسير الكبير،دار إحياء التراث العربي:بيروت، ط.3،د،ت،جـ31ص167.

شيئا[1] .وبلغ خبره(معاوية) فأحضره وقص عليه فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك، فقال كعب هي ارم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال ، يخرج في طلب ابل له ، ثم التفت فأبصر عبد ا الله بن قلابة فقال: هذا وا لله الرجل[2] .

مناقشة هذا القول والتعقيب عليه:الظاهر أن المفسرين والمؤرخين الذين نقلوا هذا القول وفضلوا رواية القصة كما سمعوها أو كما رويت لهم من أفواه أصحابها . فما كان منهم إلا أن تحملوا أمانة النقل دون النقد أو إعمال الفكر ومناقشة ما سمعوا لما ذكر من أوصاف وأخبار تلك المدينة العجيبة .

فالطبري-وهو شيخ المفسرين والمؤرخين- كانت عنايته موجهة أساسا إلى رواية القصة كما سمعها من رواة الأخبار عن مدينة ذات العماد . ونسبة هذه الرواية إلى أصحابها دون أن ينتقدها ويقول في مقدمته[3] :<<وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه ، إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه ،دون ما أدرك بحجج العقول، واستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه إذ كان العلم بما يشاهدهم ولم يدر زمانهم إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة ولامعنى في الحقيقة فيعلم أنه لم يؤت في ذلك وإنما أتي من قبل ناقله إلينا و'أن إنما أدينا على نحو ما أدى إلينا>> .

ويستوقفنا[4] من هذا النص كيف كرر فيه الطبري اقتصاره على المروي(دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس) وان جهده كان التحري في أمانة النقل وهي مسؤولية ، أما المتن نفسه ومضمون الخبر فعهدته على ناقله إليه وإن كان فيه ما يستنكره

---

(1) محمد جمال القاسمي، محاسن التأويل ،تصحيح: محمد فؤاد عبد الباقي،دارإحياء الكتب العربية:مصر،ط.1، 1959م، جـ17ص6117 .

(2) المصدر نفسه ص6147 .

(3) تاريخ الطبري، جـ1ص7-8 .

(4) عبد العزيز كامل، القرآن والتاريخ ، مجلة عالم الفكر ،المجلد12،جـ2،العدد 8،سنة1982م،ص53.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القارئ .وهذا الكلام الذي قيل في حق الطبري إنما يقال في حق الرازي والزمخشري فكلاهما نقل في تفسيره ما روي له دون إعمال للفكر أو نقد لرأي .

فإذا كان هؤلاء المفسرون والمؤرخون قد اكتفوا بالنقل دون التعليق على ذلك، فإن هناك من المفسرين والمؤرخين من اتخذ له موقفا من قصة عاد وارم ذات العماد وما أدخل عليها من الخيالات والمبالغات . فاتجه إلى نقد السند والمتن معا لقصة هذه المدينة،كابن كثير وابن خلدون .

يقول ابن كثير في تفسيره:<< وقد أثيرت حول حقيقة ارم ضروبا من المغالاة والخيالات لا تستند عل دليل ولا يوثق مصدرها[1] . ويقول في موضع آخر: <<ومن زعم أن "إرم" مدينة تدور في أرض فتارة في الشام وتارة في اليمن وتارة في الحجاز وتارة في غيرها فقد أبعد النُجعة وقال ما لا دليل عليه ولا برهان يعول عليه ولا مستند يركن إليه>>[2]

وهكذا يتجه ابن كثير إلى نقد هذه القصة فيقول بعد نقله لما روي من صفات هذه المدينة الذهبية فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين.

ويقول عن رواية عبد ا لله بن قلابة:"فهذه حكاية لا يصح إسنادها[3] .

ولوصح إلى ذلك الأعرابي(عبد ا لله بن قلابة) فقد يكون اختلق ذلك ، وأنه أصابه نوع من الهوس والخيال فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج وليس كذلك وهذا مما يقطع بعدم صحته وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمحيلين من وجود مطالب تحت الأرض فيها قناطير الذهب والفضة وألوان الجواهر والإكسير الكبير لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها...فأما على الصفة التي زعموها فكذب وافتراء وبهت ، ولم يصح في ذلك شيء مما يقولون إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم وا لله سبحانه وتعالى الهادي إلى الصواب.

ويختم كلامه عن هذه القصة بعلماترجح له"إن المراد بإرم ذات العماد تلك الأمة القديمة المساة عاد الأولى ، وا لله أعلم"[4] .

(1) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، جـ4ص508 .

(2) ابن كثير، قصص الأنبياء، جـ1ص120 .

(3) ابن كثير ،المصدر السابق، جـ4ص07 .

(4) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، جـ4ص8 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كان لابن خلدون موقف إيجابي في نقد النص نفسه فهو ينتقد ما تناقله المفسرون والمؤرخون في هذه القصة [1] فيقول :<<وأبعد من ذلك وأعرف في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة الفجر في قوله تعالى﴿أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ﴾ فيجعلون لفظ إرم اسما لمدينة وصفت بأنها ذات عماد ...>>. ثم يقول: وينقلون عن عبد ا الله بن قلاية إلى آخر ما سبق من ذلك . ثم يقول: وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من الأرض ، وصحاري(عدن) التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن ، ومازال متعاقبا ، والإدلاء تقص طرقه من كل وجه ، ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ، ولا ذكرها أحد من الأخبار بين ولا من الأمم ، ولو قالوا أنها درست فيها درس من الآثار لكان أشبه ، إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة . وبعضهم يقول أنها دمشق بناء على قوم عاد ملوكها ، وقد ينتقي الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبة وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر ، مزاعم كلها خرافات...ويختم ذلك بقوله : وأي ضرورة إلى هذا المحمل البعيد الذي تحملت لتوجهه لمثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب ا الله عن مثلها لبعدها عن الصحة... [2]وإذا كان الخيال قد نسج حول ما فهم من ما جاء في سورة الفجر عن عاد وارم ذات العماد من قبل البعض ، فإن المغالاة والمبالغات قد عرفت طريقا إلى وصف قوم عاد وقوة أجسامهم إلى حد الخرافة فاندفع البعض بسبب سوء الفهم لقوله تعالى في سورة الأعراف:﴿وَزَادَكُمْ فِي الخَلْقِ بَصْطَةً﴾ إلى القول نقلا عن غيرهم أن عادا كانوا في هيئة النخل << فكان طول كل رجل منهم بسبعين ذراعا>> وكان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعا ، وكان رأس أحدهم كالقبة العظيمة، وكانت عين الرجل منهم تفرخ فيها السباع وكذلك مناخرهم>>[3] .

كما قيل عنه قوم عاد قوتهم أن الواحد منهم كان يأخذ الصخرة العظيمة فيقلبها على الحي فيهلكهم وأن الرجل كان يتخذ المصراع من الحجارة ، ولو اجتمع عليه خمسمائة

---

(1) حسن علي عيسى الظاهر ، من نبأ المرسلين، ص81

(2) مقدمة ابن خلدون ،ص14

(3) أبو اسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعالبي، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، دار الرائد العربي: بيروت،ط. 4، د، ت، ص91–92 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يقلوه هذا فضلا عن أنهم كانوا في اتصال الأعمار وطولها بحسب ذلك القدر.وفي هذا تحميل الآية الكريمة أكثر مما تحتمل..ولانعد الحقيقة إذا قلنا أن قوم هود كانوا يتميزون بضخامة ، ولا نزيد على ما يتميز به بعض الأفراد والعشائر بيننا اليوم من بسطة في الخلق(1) .

رابعا- النسب والموطن بين القرآن وآراء الباحثين :

1 - نسب عاد وثمود:

لم يذكر القرآن نسبا لعاد ولا لثمود ، ولم يذكر اسم الجد ولا أب ولا سلسلة نسب إلا أن المؤرخين والمفسرين هم الذين ذكروا ذلك .

أ- عاد:

يذهب معظم المؤرخين والبحثين إلى نسبة عاد إلى جدها الأول وهو عاد بن عوص ابن ارم بن سام بن نوح (2) .

<<وعاد جد جاهلي واليه تنسب إحدى القبائل العربية البائدة وتتفق في ذلك رويات الإخباريين وهو عندهم عاد بن عوص بن ارم بن نوح >>(3) .

بـ -ثمود:

تنسب هي بدورها إلى جدها ويقال إن ثمود هو الجد الأكبر لتلك القبيلة وهو ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح (4) .

وهناك من يقول أنه ثمود بن حارث بن ارم بن سام بن نوح (5) . كما وجد من

---

(1) محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن،ص250.

(2) انظر كل من:أبو الحسن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق :محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة ،مصر ط،3، 1958م،جـ2ص40 . وأبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المعارف دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1 الأولى، 1986م، ص17 . وعبد الرحمن بن خلدون ،تاريخ ابن خلدون، جـ2ص18 .

(3) أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي،مكتبة النهضة المصرية:مصر،د،ط،1963م،م، المجلد5 ص09.

(4) المسعودي، المصدر السابق، جـ2ص42 .

(5) محمد بن محمد بن عبد الكريم عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي :بيروت لبنان ط.5، 1985 جـ1 ص50 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يقول أنه ثمود بن عاثر بن ارم بن سام بن نوح[1] . ويقال إن ثمود قبيلة مشهورة باسم جدهم ثمود وهم أبناء عامر بن ارم بن سام بن نوح[2] .

2- موطن عاد وثمود:

أ - عاد:

ذكر القرآن موطن عاد أنها كانت بالأحقاف في قوله تعالى﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾[3] . والحقف في القاموس هو المعوج من الرمل أو الرمل المستدير أو المستطيل المشرف .يقول الشاعر العربي:

كَحِقْفِ النَّقَا يَمْشِي الوَلِيدَانِ فَوْقَهُ بِمَا احْتَسَبَا لِيْنَا مَسٍ وَتِسْهَالِ [4]

فالمعنى اللغوي لكلمة حقف يدل على أن عاد كانت تسكن في منطقة رملية .والحقف بهذا المعنى يمكن أن يوجد في أكثر من مكان في شبه الجزيرة العربية التي لم يحدد القرآن موضع الأحقاف بالنسبة إليها .كما أن القواميس العربية لم تحدد وجود الرمل فقط في جنوب الجزيرة كصفة من صفاته أكثر من كونه صفة لبقية أنحاء الجزيرة بل يمكن أن نقول أن الجزيرة العربية معظمها رمال [5]

يقول المؤرخون أن الأحقاف بناحية الشحر في الجانب الجنوبي الغربي من الربع الخالي بناحية حضرموت اليمن، وتحديدا بأن منازلهم بالأحقاف من اليمن وعمان من البحرين إلى حضرموت والشحر [6] .

كانت عاد ثلاثة عشر قبيلة ينزلون الرمل وديارهم بـ" الدهناء" و"عالج" و"يبرين" و"وبار" إلى "عمان" إلى "حضرموت اليمن" [7]

---

(1) أبو الفداء إسماعيل ابن كثير، قصص الأنبياء،جـ1ص145.

(2) محمد اسماعيل ابراهيم ، معجم الألفاظ والأعلام القرآنية،دار الفكر العربي:القاهرة،د،ط،د،ت،ص294

(3) سورة الأحقاف : الآية21 .

(4) امرؤ القيس، ديوان امرء القيس، تحقيق :حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت ،ط.1، 1989م، ص59.

(5) محمد بيومي مهران،دراسات تاريخية في القرآن، ص247 .

(6) أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى،دار الكتب المصرية:القاهرة،د،ط،1922م،جـ1ص18.

(7) في هذا اشارة إلى كبر عددهم وأن مجموعة القبائل يشكلون أمة عاد .انظر ابن قتيبة:المعارف،ص17.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ب – ثمود:

ذكر القرآن مواطن ثمود أنها كانت بالحجر في قوله تعالى﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾[1] . ويقول المؤرخون أن موقع أمة ثمود ما بين الشام والحجاز إلى ساحل البحر الحبشي و ديارهم بفج الناقة . وبيوتهم إلى وقتنا هذا أبنية منحوتة في الجبال ورسومهم باقية وآثارهم بادية ، وذلك في طريق الحاج لمن ورد من الشام بالقرب من وادي القرى ومواقع مساكنهم وبنيانهم بأرض الشحر[2] .

يقول ابن كثير عن أمة ثمود <<كانت تسكن الحجر الذي بين الحجاز وتبوك وقد مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين[3] .

ويحدد ابن الأثير موطن ثمود بالحجر ويقول:<<إن آثاره لاتزال باقية وتمر بالقرب منه السكة الحديدية التي بين دمشق والمدينة المنورة>>[4] .

فالثموديون قوم عاشوا في الجزء الشمالي من شبه الجزيرة العربية كما تدل على ذلك الكتابات الآشورية .<< فالقرآن وضع الثموديين في منطقة الحجر وهذه المنطقة لا تخرج عن تحديد الكتابات الآشورية .وعثر في هذه المناطق على العديد من النقوش الثمودية خاصة حول الحجر والجون وتبوك وغيرها[5] .

ذكر بطليموس ثمود في جغرافيته جعل موطنهم في الجزء الشمالي العربي لبلاد العرب وأعالي الحجاز في المنطقة التي تخترقها الطرق التجارية التي توصل بلاد الشمال ومصر وفلسطين بالحجاز واليمن[6]

3 – زمن عاد وثمود :

لم يذكر القرآن زمنا لعاد ولا لثمود سورة ما ذكره من كونهم كانوا خلفاءً لمن بعدهما من الأمم كانت عاد بعد قوم نوح عليه السلام وقد جعلهم الله خلفاء لهم بعد الطوفان بدليل :

(1) سورة الحجر :الأية80

(2) المسعودي، مروج الذهب، جـ2ص42 .

(3) البداية والنهاية:مكتبة المعارف، مصر، د، ط ،د، ت جـ1 ص142 .

(4) الكامل في التاريخ،جـ1ص45.

(5) محمود محمد الروسان ، القبائل الثمودية والصفوية ، ص06 .

(6) المرجع نفسه، ص06 .

أولا: تذكير الله هود عليه السلام لهم بنعمة الله وفضله عليهم بذلك بقوله تعالى"﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[1] . وهذا يعني أن الله جعلهم سكان الأرض بعد قوم نوح ليعمروها إذ أن الخلفاء هم الذين يخلفون غيرهم في شيء أي يولون عمل ما كان يعمله الآخرون فالمراد إذا جعلكم خلفاء في تعمير الأرض [2] .

ولما قال: ﴿مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ علم أن المقصود أنهم خلفاء لقوم نوح فعاد أول أمة اضطلعت بالحضارة بعد الطوفان وليس المراد أنهم خلفاء قوم نوح في ديارهم ومساكنهم . وفي موطن آخر نجد قوله تعالى :﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾[3] .وهذه الآية تخبرنا":

– أنه أنشأ من بعد قوم نوح عليه السلام "قرنا" [4] آخرين والمراد بهم على الأرجح والصحيح (عاد) قوم هود فانهم المستخلفون بعدهم كما يدل السياق [5] .

– أنه هو الأوفق لما هو معهود في سائر السور الكريمة من إيراد قصة عاد اثر قصة نوح وقبل قصة ثمود [6] .

– ولعل في التعبير في سورة المؤمنون الآية 31 عن الذين أعقبوا قوم نوح ولما كثر انتشار الناس بلفظ (قرنا) مفردا ، ثم التعبير بعد ذلك بلفظ (قرونا) في الآية 42 حين كانت قد مضت أجيال وكثر انتشار الناس . ولعل في هذه المخالفة في التعبير بين الفرد (قرنا) والجمع (قرونا) ما يزكي الرأي القائل: إن المراد بهم في هذه المواطن هم عاد ولذلك قدمهم ومجيئهم بعد قوم نوح لأنه لم تنشأ أمة في اثر قوم نوح عليه السلام إلا عادا فكانوا (قرنا) ثم تكاثرت الأمم من بعدهم وتوالت فكانوا (قرونا) [7] .فإذا كان القرآن قد حدد زمن عاد بأنه كان

(1) سورة الأعراف: الآية 69 .

(2) ابن جرير الطبري، تفسير الطبري ،جـ8 ص216 .

(3) سورة المؤمنون: الآية31.

(4) للقرن لغويا مدلولان أولهما : زمني مدته عشر سنين الى مائة سنة . وثانيهما: بشري وهو الأمة تأتي بعد الأمة وأهل كل زمان مأخوذ من الاقتران فكأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم .انظر ابن منظور: لسان العرب، جـ3ص76 مادة قرن .

(5) محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل،،جـ 12،ص4398.

(6) انظر السور الآتية الأعراف،هود ، الشعراء، العنكبوت، فصلت وغيرها .

(7) حسن عيسى عبد الظاهر، من نبأ المرسلين ،ص63 .

المطلب الثاني

عاد وثمود عند أهل الكتاب

التوراة أسبق مصدر ديني ، نزل قبل القرآن . فهل جاء فيها ذكر لعاد وثمود؟

هناك شبه اجماع بين الباحثين أن التوراة [1] لم تتضمن أخبارا عن عاد وثمود. يقول ابن خلدون:<<إن أهل التوراة لا يعرفون ، أخبار عاد وثمود ، لأنهم لم يقع لهم ذكر في التوراة، ولا لهود ولا لصالح عليهما السلام،أو لأحد من العرب العاربة. لأن سياق الأخبار في التوراة عن أولئك الأمم إنما لمن كان في عمود النسب بين موسى وآدم صلوات ا لله عليهم ، وليس لأحد من آباء هؤلاء الأجيال ذكر في عمود النسبب فلم يذكروا فيها>>[2].

ويفهم من كلام ابن خلدون أن التوراة خالية من ذكر عاد وثمود ، وبينهما هود وصالح وذلك بسبب بعدهما عن عمود النسب بين موسى وآدم .

وقد أورد الطبري ملاحظة مهمة عن قوم (عاد) وعن رأي أهل الكتاب فيهم إذ قال:<< فأما أهل التوراة، فإنهم يزعمون أن ذكر لعاد و لالثمود ولا لهود ولا لصالح في التوراة، وأمرهم عند العرب في الشهرة في الجاهلية والإسلام كشهرة ابراهيم وقومه>>[3] .

ويعلق جواد علي على ما أورده الطبري في كتابه لتوضيح الموقف بقوله :<<ويظهر من ذلك أن المسلمين حينما راجعوا اليهود يسألونهم علمهم عن عاد وأمثالهم أخبروهم بعدم وجود ذكرهم في التوراة والواقع أن التوراة لا علم لها فيهم فأحاديث عاد وثمود وهود وصالح إنما هي أحاديث عربية ، تحدث بها الجاهليون ، وليس لها ذكر في كتب اليهود>>[4] .

وما يعضد ما ذهب إليه ابن خلدون والطبري وجواد علي رأي باحث آخر وهو يؤكد بقوله:<<إن أقدم من أخبر ا لله عنهم ولم يذكر كتاب العهد العتيق شيئا عنهم، إنما آثارهم تدل عليهم من الأمم العربية البائدة وأقدم هؤلاء أمة عاد>>[5] .

(1) أشير هنا أني فضلت أن أقول عاد وثمود عند أهل الكتاب بدل عاد وثمود في التوراة، وذلك لأن التوراة الأصلية مفقودة والموجودة المتداولة قد دخل عليها التبديل والتحريف ولهذا فهي تأخذ حكم كتاب تاريخ .

(2) تاريخ ابن خلدون،جـ2ص24

(3) تاريخ الطبري،جـ1، ص141.

(4) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام،جـ1 ص299 .

(5) موسى شحادة:الحق والباطل،مطبعة نصر ،د،ب،د،ط،1991،ص112 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والظاهر أن عادا وثمود كانوا من القصص العربية التي لم تتضمن الحديث عنهم كتب التوراة << فعاد من القصص العربية الخالصة التي لم يرد لها ذكر في غير المصادر العربية . فالتوراة لم تورد خبر عنهما لأنها معدومة الصلة بالتاريخ العربي>>[1] .

وفي ضوء ما تقدم ذكره من النصوص ترجَّح لدى الباحثين أن عادا وثمودا لا وجود لهما في التوراة و لا في غيرهما من كتب أهل الكتاب .

وهذا الترجيح جاء لإثبات أمرين: الأول : اثبات ميزة للقرآن. إذ يعد المصدر الديني الوحيد الذي تضمن الحديث عن عاد وثمود . يقول العقاد في موسوعته :<< إن كتب اليهود لم تذكر قط اخبار عاد وثمود ، وانفرد القرآن بذكرها>>[2] .والأمر الثاني : نفي التهمة التي ألصقها اليهود بالرسول (صلى ا لله عليه وسلم) بانه كان ياخذ القصص من التوراة، وينسبها إلى القرآن .<< فها هي التوراة خالية من ذكر عاد وهود عليه السلام ، بل وخالية من ذكر كثير من القصص ودعوات الرسل (صلوات ا لله عليهم) مما ورد ذكره في القرآن من حقائق التاريخ البعيد وعلى لسان الرسولا(صلى ا لله عليه وسلم)>>[3] .

إن عدم ذكر عاد وثمود في التوراة أو في غيرهما من كتب أهل الكتاب لا ينفي وجودهما بحال من الأحوال ن وليس دليلا على ذلك ، وعدم علم أهل الكتاب بهما ليس علما، ويكفينا يقينا ورود ذكرهما في القرآن وما جاء فيه مالم يجيء فيها فهو حق انفرد به القرآن . واذا ترجح لدى الباحثين قدامى ومحدثين أن التوراة كانت خالية من ذكر عاد وثمود فإن هذا لا يعني أن أهل التوراة لم تكن لهم معرفة باخبار تلك الأمتين العربيتين القديمتين ، بل الظاهر أنه كان منهم من له علم بما حدث لهما في غابر الأزمان.

يقول القاضي عياض:<<وأنبأ ا لله نبيه صلى ا لله عليه وسلم عن أخبار القرون السابقة ، والأمم البائدة، والشرائع الدائرة. مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أخبار أهل الكتاب الذي قضى عمره في تعلم ذلك>>[4] .

---

(1) أحمد عطية ا لله، القاموس الإسلامي،ص09 .

(2) ـ ـ ،محمود عباس العقاد، موسوعة العقاد الإسلامية،جـ1،ص443 .

(3) حسن عيسى عبد الظاهر، من نبأ المرسلين،ص141..

(4) القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى،دار الكتب العلمية: بيروت،د،ط،د،ت،جـ1ص270.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وهذا معناه أن معرفة قصة عاد وثمود كانت مقتصرة على الصفوة من أخبار اليهود الذين كانوا يتتبعون الكتب القديمة ، وينقبون عن ماضي الأمم الغابرة ويسألون عن قصصهم وما حل بهم. ولهذا نبأ الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن علماء أهل الكتاب يعلمون شيئا من أخبار الأمم البائدة التي تعد عاد وثمود من جملتها . وفي هذا يقول ابن كثير:<< إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب ، وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة، ولكن في القرآن مايدل على أن موسى أخبر عنهما>>[1] . كما قال تعالى ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ، أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾[2] .<<الظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه ، ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيدا، ولا اعتنوا بحفظه، وإن كان خبرهما كان مشهورا في زمان موسى عليه السلام>>[3]وغير بعيد عن ابن كثير نجد المراغي وابن عاشور في تفسيرهما يتفقان في فهمهما لآية قرآنية كريمة من سورة طه تتحدث عن الحوار الذي دار بين موسى وفرعون عندما سأله هذا الأخير عن القرون الماضية .بقول تعالى:﴿ قال فما بال القرون الأولى قال علما عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾[4] .

يقول المراغي تفسيره الآية الكريمة:<<(فما بال القرون الأولى) أي فما حال القرون الماضية كعاد وثمود الذين لم يعبدوا الله بل عبدوا غيره>>[5] .

يقول ابن عاشورفي تفسيره لسؤال فرعون لموسى عليه السلام في الآية السابقة من سورة طه<<والحاصل أن موسى تجنب التصدي للمجادلة والمناقضة في غير ما جاء لأجله، وفي هذا الاعراض فوائد كثيرة، وهو عالم بمجمل أحوال القرون الأولى وغير عالم بتفاصيل أحوالهم وأحوال أشخاصهم>>[6] .

ولبيان أن بني اسرائيل كانوا يعرفون بعض الأخبار عن عاد وثمود يقول العقاد <<وقد

(1) ابن كثير، قصص الأنبياء ، جـ1،ص149 .

(2) سورة ابراهيم : الآية8-9.

(3) ابن كثير: المصدر السابق، ص 149.

(4) سورة طـه : الآية51-52.

(5) أحمد مصطفى المراغي ، تفسير المراغي،دار الفكر،بيروت،ط3،1974م،المجلد6،جـ16،ص118.

(6) تفسير التحرير والتنوير،جـ16،ص234 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ورد اسم عاد وثمود في جغرافية طليموس[1] وليس موقعها كما وصفه الجغرافي الكبير بعيدا عن مملكة اسرائيل>>[2] .وفي هذا دليل على أن الموقع الجغرافي للعرب ساعد بلا شك بني اسرائيل على أن يكونوا على علم بعض أخبار الأمم العربية البائدة والتي من بينها عاد وثمود،فالتوراة وإن كانت خالية من ذكر عاد وثمود وأنها لم تتضمن قصصا عنهما إلا أن ذلك لم يمنع من أن أحبار اليهود كانوا يعرفون بعض أخبار الأمم البائدة،غير أن خصومتهم مع العرب جعلتهم ينكرون وجود خبرهما ويمعنون في نفي الوجود التاريخي لعاد وثمود ،وذلك كمحاولة منهم لقطع الصلة بين التاريخ العربي قديمه وحديثه ،وقد كان لهذه الخصومة التاريخية أثرها في كتابات اليهود حول التاريخ العربي القديم،يقول أحمد مدني:<< والأسفار الاسرائيلية عندما تتحدث عن العرب تتحدث عنهم أعداء لدولتها كافرين بعقيدتها، فهي بذلك تحرص على ذكر الجوانب المظلمة من حياتهم>>[3].وهكذا عادة اليهود يتجاهلون تاريخ هود وصالح وشعيب في توراتهم التي كتبوها، لأنهم من الأنبياء العرب وهم يحسدونهم على ذلك [4] .وفي هذا الجو المشحون بالخصومة والتنكر التي كتبوها بأيديهم لأنهم من الأنبياء العرب وهم يحسدونهم على ذلك. وفي هذا الجو المشحون بالخصومة والتنكر يبقى القرآن هو المصدر الديني الوحيد الذي حوى قصصا عن الأمم الغابرة وتفرد بذكر أخباهم على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم الذي حدث الناس بما كان من أصل الأمم كعاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط وقوم شعيب وقوم موسى وقوم عيسى–عليهم السلام جميعا– في العصور الغابرة وهذا عليه السلام وجه من الوجوه الاعجاز له .فعاد وثمود لم تذكر في كتاب من الكتب المقدسة سوى القرآن الكريم<<وليس بيد أحد من أخبارهم مايوثق به ويصح التعويل عليه، سوى القرآن وحده فقد ذكر قصتهم وأحوالهم وجسامة

(1) بطليموس: من اشهر الفلكيين الأقدمين ، يوناني ولد بمصر في القرن الثاني بعد الميلاد وهو واضع نظرية الأرض مركز العالم والشمس وجميع الأجرام حولها . انظر محمد فريد وجدي:دائرة معارف القرن العشرين،دار الفكر، بيروت،1972م،جـ2،ص238 .

(2) محمود العقاد، موسوعة العقاد الإسلامية ،جـ1،ص435 .

(3) أحمد مدني : التاريخ العربي ومصادره،ص29.

(4) جمال عبد الهادي محمد مسعود وفاء محمد رفعت جمعة:أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ،دار الصديقية للطباعة والنشر،السعودية،د،ط،د،ت،ص82.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

واجسامهم وقوتهم وما كانوا ناعمين فيه من خصب ورغد عيش، وما استمسكوا به من الكفر والأوثان وعتوهم وفسادهم في الأرض وتماديهم في الاستمساك بعبادتهم الباطلة>>[1]

وما بذله هود وصالح عليهما السلام ارشادهم وهدايتهم الى الحق وردهم عن فاسد اعتقادهم، وما قابلوه به من العناد والسخرية والإستهزاء الى أن تأذن ا لله بإبادتهم لقوله تعالى:﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى، وَثَمُودَ فَمَآ أَبْقَى ﴾[2] .وقال:﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3]

الفـــــــلاصــــــة: عاد وثمود في ضوء علاقة القصص القرآني بالتاريخ :

إن المرجعية الدينية الوحيدة لقصتي عاد وثمود هي القرآن الكريم رغم ورود خبرهم عند أهل الكتاب كما ذهب إلى إثباته بعض العلماء والمؤرخين على اختلاف بينهم في مسألة وجود أو خلو التوراة من ذكر قوم عاد وثمود وما كان من أمرهم في غابر الأزمان.وهذا يدل على أن القصة بحسب الاجمال كانت معروفة أما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة إلا في القرآن الكريم في منظومته القصصية التي ازدادت ذكرا وتوضيحا بما جاء منها في الحديث النبوي الشريف على لسان رسول ا لله (صلى ا لله عليه وسلم) للعبرة والعظة.ولما كانت السنة شارحة لما ورد في القرآن مُبينة لما غومض منه فقد جملت من الدلالات والمعاني ما ساعد على شرح القصة وتوضيح أبعادها ، فبعدما كانت مجملة بدأت تتضح معالمها بما ورد عنه عليه السلام من أمر القوم كخبر وافد عاد وعاقر ناقة ثمود .

ونظرا لهذه الأهمية فقد انصب اهتمام المؤرخين بها إذ عكفوا على دراسة تاريخ قوم عاد وثمود ، وتقصوا أخبارهم وتتبعوا مآثرهم مستعينين في ذلك بما توصل إليه الرحالة- عرب وغربيون الذين جابوا جزيرة العرب- في تحديد موطنهم وزمانهم ونسبهم وماكانت عليه حياتهم في تلك العهود البعيدة في جانبها الديني والاجتماعي والفكري . وإن كان ذلك التقصي لأخبار قوم عاد وثمود قد حمل في كتابات بعض المؤرخين شيئا من الخيالات وأدخل على القصة كثيرا من المبالغات التي لم تستسغها المعرفة العلمية الأثرية في

(1) عبد الوهاب النجار،قصص الأنبياء،مكتبة رحاب:الجزائر،د،ط،د،ت،ص49 .

(2) سورة النجم: الآية53 .

(3) سورة الشعراء:الآية 139 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عصر تطورها وجلائها للحقائق التاريخية لاسيما عند تطابق ما جاء به القرآن الكريم مع ما عثر عليها علماء الآثار من حفريات ونقوش وتروي معالم حضارة عرب منطقة الأحقاف والحجر القدماء .

وفي هذا اشارة أن تعليم عاد وثمود بواسطة القصة مثلما هو صنيع الله عزوجل في كتابه العزيز ساعد على تصور تاريخ القوم بوضوح، وتجلّت تلك المرحلة الحاسمة من حياتهم في جانبها الديني الرامز إلى بعثة نبيا الله هود وصالح عليهما السلام ودعوتهما لدين الله القويم على بناء العقيدة الصحيحة النابعة من التصور الاسلامي الأمثل لمفهوم الكون والحياة والإنسان . ولاشك أن الإطلاع على هذا التصور سيضيف للمعرفة التاريخية العربية شيئا مفيدا ، ويوضح في ضوء دراسات المؤرخين قضايا مهمة نذكر منها :

1- أن تاريخ عاد وثمود هو تاريخ عقيدة ونظام حياة أمم لها مميزاتها وخصائصها وسماتها.

2- أن تاريخ عاد وثمود هو الصورة التطبيقية للأمم البائدة وهو الوثيقة الصحيحة على نمط الحياة في تلك الفترة .

3- أنه التاريخ الحقيقي لبدايات الدين في الجزيرة العربية.

4- إثبات الرسالات السماوية التي وقعت في جزيرة العرب ودعت كلها للإسلام.

5-تصحيح تصور تاريخ نبيا الله هود وصالح عليهما السلام على أساس أنه تاريخ أسطوري سبق التاريخ الحقيقي للجزيرة العربية .

6- نفي التهمة عن شعوب الجزيرة أن جلها كان تاريخه وثني جاهلي محض لاأثر لدعوة الرسل .7-نفي أن التاريخ الإسلامي يبدأبرسالة محمد (صلى الله عليه وسلم)وأنه لاوجود للإسلام في حياة جزيرة العرب قبل رسالة محمد .

8- تصحيح ماعرف القصة من خيالات القصاص والرواة مع مرور الزمن .

ليتضح بعد هذا العرض أن القصص القرآني وثيق الصلة بالتاريخ العربي القديم ، ذلك أننا حين نطالع في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وما ورد في كتب التاريخ عن قصة عاد وثمود ، فإن العلاقة بين القصص والتاريخ تتجلى ويفهم من خلالها آراء ومقاصد العلماء حين بيّنوا الاشارات التاريخية الواردة في القرآن الكريم وأزالوا اللبس الذي قد يثار إلى الذهن من وجود التاريخ بأحداثه وتفاصيله في القصص القرآني .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

<<فالقصص التاريخية، وإن كانت قد تضمنت أحداثا تاريخية عن الأمم الماضيـة ، إلا أنها ليست تاريخا، و لم تلتزم به بما يلتزم به التاريخ من سرد الأحداث وتفاصيلها>>[1] .

وفي هذا يقول رشيد رضا:<<ولكون التاريخ غير مقصود لـه لأن مسـائله مـن حيـث هي تاريخ ليست من مهمات الدين من حيث هو دين وإنما ينظر الدين من التاريخ الى وجه العبرة دون غيره>>[2] .

ويتوسع في موضع آخر من تفسيره في بيان رأيـه في المسـألة . فيقـول:<< ليسـ، في القرآن شيءمن التاريخ من حيث هو قصص وأخبار للأمم أو البلاد لمعرفة أحوالها فإنمـا هـي الآيات والعبر تجلت في سياق الوقائع بين الرسل وأقوامهم لبيان سنن ا لله تعـالى فيهـم انـذارا للكافرين لما جاء به محمد(صلى ا لله عليه وسلم) وتثبيتا لقلبه وقلوب المؤمنين >>[3] .

ويزيد على رأي أستاذه فيقول :<< قال الأسـتاذ الإمـام: بينـا غـير مـرة أن القصـص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ... فحكاية القرآن لا تعدو موضـع العبرة ولا تتجاوز موطن الهداية >>[4] .

وأن القرآن يجيء بمعطياته التاريخية من اجل أن يحرك الإنسان صـوب الأهـداف الـتي رسمها له ، ويبعده في الوقت ذاته فردا وجماعـة عـن المزالـق والمنعرجـات الـتي أودت بمصـائر عسرات بل مئات من الأمم والجماعات والشعوب [5].

صحيح أن بالقرآن إشارات تاريخية ، ولكنها إشارات بالحدود التي تؤكـد على شمـول الاحاطة الإلهية بمجريات التاريخ الإنساني من بدايته إلى نهايته وذلك<<لأن القرآن منبثق عن علم ا لله الكامل ورؤيته المحيطة بمجريات الزمان كله ماضيا وحاضرا ومستقبلا >>[6] .

إن الشمول والاحاطة الإلهية التي تحدث عنها النص السابق تدل على أن القرآن جاء

---

(1) محمد جابر الفياض ، الأمثال في القرآن الكريم،الدار العالمةو: أمريكا، ،ط،2،1995م،ص229 .

(2) تفسير المنار،دار المعرفة للطباعةوالنشر:بيروت،ط،2،د،ت،جـ1ص279 .

(3) المصدر نفسه، جـ2ص205 .

(4) المصدر نفسه جـ1ص39 .

(5) عبد العليم عبد الرحمن خضر ، المسلمون وكتابة التاريخ،الدار العالمية للكتاب الاسلامي، منشورات المعهـد العـالمي للفكر الاسلامي، أمريكا،د،ط،1995م، ص70 .

(6) محمد بيومي مهران، التاريخ والتأريخ،دار المعرفة الجامعية،الأسكندرية،مصر،د،ط،1992م ص90.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بنظرة عامة للتاريخ ، وأهمل الجزئيات والتفاصيل تاركا ذلك للعقل البشري .واكتفى بالتركيز على مواطن العبرة في الأحداث الماضية ذلك أنه لم يات ليطرح نفسه بديلا عن قدرة الإنسان في محاولته لاكتشاف القوانين التي تسير حركة التاريخ . ولا ليبلور مفهوما علميا في كل ذلك .

ولهذا<< لاينبغي أن نترقب من القرآن أن يتحدث عن قوانين التاريخ ومسيرة تطور المجتمعات الإنسانية ، لأن البحث في التاريخ بحث علمي كالبحث في الطبيعة والذرة والنبات .والقرآن لم ينزل كتاب اكتشاف علمي بل كتاب هداية >>[1] .هدفه بعث المثال من التاريخ لاثارة الإنفعالات الموحية بالهداية والإيمان ، واستغلال الأحداث التاريخية في معالجة النزاعات النفسية في الإنسان وأمراض المجتمع الذي يعيش فيه بما لتلك الأحداث من قوة مفروضة على النفس تحدث فيه انصهارا ووعيا ويقظة إحساس [2] .

من هنا كانت الأحداث الماضية في القرآن متخذة طابع القصصي لا طابع التاريخ لأن القصص أشد تأثيرا في النفوس وأسمى طموحا من التاريخ لأنه يمد الإنسان بسلاح الإيمان والثبات ، ويعرفه بما لله من نواميس في سير الكون والحياة في الأمم والجماعات .

هذه السنن تساير الارادة الإلهية بالثواب والعقاب و البقاء والفناء .لأنها محور عدل الله وحكمته وتدبيره[3] .

وصدق الله العظيم حين يقول :﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[4]

وصدق الله العظيم حين سمى كلامه عن الأمم الماضية "قصصا" ولم يسمه "تاريخا" وذلك لكي تقع العبرة بسماعه لمن يتدارسه ولأخذ الأسوة منه ويتجنب سوء العاقبة عند ذكر ما حل بالسابقين من العذاب .

---

(1) حسن سلمان ، النظرية القرآنية في تفسير حركة التاريخ،ص56 .

(2) محمد بيومي مهران، التاريخ والتأريخ، ص86 .

(3) المرجع نفسه ،ص86 .

(4) سورة يوسف: الآية 111 .

إن اطلاق كلمة "قصص" على الحوادث الماضية ، إنما هو تفضيل رباني صادر عن حكيم خبير محيط بمجريات التاريخ وبأبعاده الثلاثة ماضيا وحاضرا ومستقبلا ، وهو انتقاء نابع ممن يرى أن القصص أبلغ في التعبير عن الماضي وأوضح في عرض حوادثه وتصويرها ، وأوقع في النفس الإنسانية عند سماعه ، وأنفع في تحريك العقل ودفعه للتفكير واستخلاص العبرة والموعظة مما حل بالسابقين .

<< فالتاريخ الإنساني في مفهوم القرآن ليس أحقابا تدرَّجت في إدراك الحياة حتى تغلبت عليها بالعلم والتقدم كما يشاع ، بل هي مجموعة من الأسباب والنتائج يتلبسها الواقع ليثري الإنسانية بالتجربة والعبرة >>[1] .

وهذا التفضيل لا يعني أن القرآن جاء بـ"القصص" ليهمل التاريخ ، أو ينتقص من فائدته في تبصير الناس بالعوقب بل على العكس من ذلك ، فالقرآن جاء وفيه آيات بينات تذكر قصصا وأخبارا عن الأولين والماضين لا على سبيل التذكير بوجودهم التاريخي فقط ، وإنما بالدعوة الى دراسة تاريخهم والوقوف على مواطن العبرة فيه باستخلاص القوانين التي تتحكم في مسيرة ذلك التاريخ .وهذا ماجعل فكرة التاريخ في القرآن ترتكز على معنيين هما : تأكيد مغزى للتاريخ واثبات قانون كلي له [1] .وهنا تكمن جدية النظرة القرآنية للتاريخ ، وذلك حين نفى عنه الخضوع للصدفة والعشوائية،وأثبت ارتباطه بقوانين ثابتة ، تدفع الفكر البشري الى التقاط "الحوادث" بوصفها عبرا ، وذلك هو أعظم تجديد فكري من ناحية النظر الى التاريخ [2] .

إن العلاقة التي تربط التاريخ بالقصص القرآني هي التي جعلت كل منهما يلتقي في نقطة تقاطع واحدة وهي تتتبع الأحداث الماضية وتحليلها للاستفادة منها لفهم الحاضر وبناء المستقبل ، هذا التقاطع الذي نشأ بينهما خلق نوعا من التكامل . فإذا كان القصص القرآني يتحدث عن الأمم الماضية باجمال مكتفيا بذكر أهم الأحداث التي أثرت في حياتها ، وأبرز التطورات التي كان لها دور في تغييرها نحو الأحسن أو الأسوء، فإن التاريخ قد اختص

---

(1) عمر كامل المسقاوي،وحدة الحضارة ،دار الفكر: دمشق ،ط. 1،1988م ،ص112.

(2) عفت الشرقاوي،في فلسفة الحضارة الإسلامية،ص282.

(3) عبد العليم عبد الرحمن خضر، المسلمون وكتابة التاريخ، ص70.

بالتساسل الزمني للأحداث ، عُني بالتفاصيل والجزئيات الـتي سكت عنهـا القـرآن عمـدا لا سهوا . واذا كان القصص القرآني قد ركز على مواطن العبرة في الأحداث الماضية هدفه في ذلك مد النظرة التاريخة وتوسيعها لتشمل الأبعاد الثلاثة للتاريخ المـاضي والحـاضر والمستقبل وربطها برؤية موحدة تؤكد على أن المنطلق واحـد هـو ا لله والعـودة والمصير الى ا لله أي أن بداية التاريخ الإنساني كانت بأمر من ا لله لأن الخلق بيده سبحانه وتعالى ، والإماتـة والفنـاء أيضا ستكون بيده وبأمره يوم تقوم الساعة . فإن التـاريخ لا يسـعه الا أن يشـغل الفراغـات الزمنية ويعمل على البحث عن الأحداث التي دارتفي العصور الغابرة .

وحينها تصبح الاستعانة بالتاريخ ضرورة لفهم القصص . وهكذا تتجلى نظرة القرآن الحكيم الثاقبة إلى أهمية التاريخ والإحاطة به وكأنه بمطالع سور القصص يدعونـا إلى السـعي إلى تفصيل ما أجمله القرآن من نبأ ليلتقي الاجمال والتفصيل على بينات من الحق .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثـانـي

حضارة عاد وثمود مقوماتها ومظاهرها وعوامل ضعفها حتى سقوطهافي ضوء سنن الله

تمهيد وتقسيم:

تحدث القرآن من خلال قصصه عن حضارة عاد و ثمود، مبينا أنهما إنتعشتا في ظروف زاهرة من الحياة، و عرفتا رخاء في العيش و أمنا في السكن تشهد لهما بذلك آيات القرآن الكريم و هي تصف ما حضيت به كل واحدة منهما من أسباب،من ذلك ما جاء في وصف مظاهر تلك الحضارة في جانبها العمراني من ذلك،قوله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلَادِ﴾[1]. و كذلك قوله:﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ، وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[2].وأيضا قوله عزوجل: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَ تَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتًا، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ وَ لَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[3]. وأيضا قوله سبحانه :﴿أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ، فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَطِيعُونِ وَ لَا تُطِيعُوا أَمْرَ المُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ﴾[4].فهذه الآيات الكريمة و غيرها تشير بوضوح إلى مظاهر تلك الحضارة التي وضفها الله عز و جل في كتابه العزيز بالسبق و القوة و التنوع و البراعة :

فمن حيث مقومات البناء فقد توفرت لهم الأرض و الإنسان و الزمن و هي عوامل ساعدت على قيام حضارة في تلك الربوع الواسعة من جزيرة العرب، و التي تذكر كتب التاريخ أنها كانت في الماضي عامرة بالزراعة و الرعي و العمران و هي الأسباب التي كفلت لقوم عاد و ثمود الأمن و الاستقرار في الأرض. إذا القرآن تحدث عن وجود حضارتي عاد و ثمود ضمن سلسلة الحضارات الكبرى التي سادت في زمن بعيد و تم لأصحابها التمكين في الأرض و ذلك باستخلاف فيها و تعميرها لقوله تعالى عن عاد ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ

(1) سورة الفجر : الآية 6 – 8.

(2) سورة الشعراء : الآية 128 – 129.

(3) سورة الأعراف : الآية 74.

(4) سورة الشعراء : الآية 146 – 152.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]. و قوله تعالى عن ثمود :﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[2]. مبينا عن أصحاب تلك الحضارة من قوم عاد و ثمود بحكم استخلافهم للأرض قد وهبوا نعمة البنين لقوله تعالى:﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَ بَنِينَ، وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ﴾[3].

مما يدل على أن حضارتا عاد و ثمود قد قامتا و أرتقتا و ازدهرتا بفضل شروط حددها دارسوا الحضارات في الأسباب المادية: الأرض (الموقع) و المناخ، وأسباب معنوية تتلخص في الإنسان و الزمن.

غير أن توفر هذه القومات – الإنسان و التراب و الزمن – ليس كافيا، فلكي نتوصل إلى إقامة حضارة يقتضي تدخل (مركب) ما بدونه لا تتم عملية تكوين حضارة. هذا المركب يطلق عليه (مركب حضارة) أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها إلى البعض، فكما يدل عليه التحليل التاريخي، نجد أن هذا المركب موجود فعلا، هو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ[4]. فإذا إتضح صدق هذه العبارات عن التفاعل بين هذه الأسباب المذكورة و الواقع الإجتماعي كان لنا أن نفهم أن الرسل هم الذين يحملون الدين إلى أهل الحضارات و هذا ما يفسر مجيء الرسالة إلى عاد و ثمود على يد نبيي الله هود و صالح عليهما السلام و دعوتهما إلى دين الله الحق لقوله تعالى :﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾[5].و قوله تعالى أيضا :﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[6].

و تتجلى في ضوء هاتين الآيتين الرابطة التي تجمع بين الدين و الحضارة في أن العلاقة بينهما قائمة على أساس "إطراد الحاجة إلى الدين كلما إتسعت حضارته، لأن الحاجة إليه – حينئذ– أوجب و ألزم. و الناس إليه أفقر، لما تشيعه المظاهر الحضارية من خلل و اضطراب، في علاقات الناس لكثرة تداخل المصالح و تصادم المنافع، و قدرة الناس على التفنن

(1) سورة الأعراف : الآية 69 (2) سورة هود : الآية 61.

(3) سورة الشعراء : الآية 133–134.

(4) مالك بن نبي، شروط النهضة،ترجمة:عبد الصبور شاهين،دار الفكر:الجزائر،ط4،1987م، ص 50.

(5) سورة هود : الآية 50. (6) سورة هود : الآية 61.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والإحتيال، و اصـــطناع الوسائل و الأساليب"[1].

و على هذا الأساس كان الدين روح الحضارة، و ضرورتها اللازمة التي يسير معها طرد لا عكسا، و ما جاء الدين إلا ليقوم بحماية الحضارة و يعمل على توجيهها الوجهة الصحيحة التي تستقيم في ظلها حياة الأمم و الأفراد و تزدهر نحو مستقبل مشرق، فتصان فيها كرامة الإنسان و تحفظ فيها جهوده من الضياع و الفساد، وتتنزه فيها منجزاته الحضارية عن العبث و الإسراف ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ، وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَ إِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُم جَبَّارِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ﴾[2]، ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ﴾[3].

و إذا كان القرآن قد نبه إلى ضرورة إجتناب العبث و الإفساد في الأرض حفاظا على الإنسان و منجزاته الحضارية، فإنه أوضح أن هذا الأمر لا يكون إلا في المرحلة الـتي تضعف فيها الحضارة و ذلك حين يعلو صوت الغريزة على صوت الروح، و هي المرحلة التي تتوسط بين مرحلة النمو و القوة و مرحلة السقوط و الإنهيار و الإبادة. و هي المراحل الطبيعية الـتي تمر بها كل حضارة.

ونظرا لأن للحضارة أسسا تقوم عليها في ضل العطاء الإلهي الذي كان له الدور في تهيئة الأجواء في قيام حضارة عاد وثمود في مهدها الأول "الأحقاف" و" الحجر" أين عرفت النمو والإزدهار الذي تجلت مظاهره في العمران والزراعة ، وهي من أسباب الاستقرار الذي تطلب عرضها وتحليلها تقسيم الفصل إلى تمهيد ، وثلاث مباحث ؛ بحيث :

نتناول في المبحـث الأول:مقومات حضارتي لعاد وثمود

ونستعرض في المبحث الثاني: مظاهر الحضارة

وفي المبحث الثالث : مرحلة الضعف والانحلال.

وتختم هذا الفصل بخلاصة نستعرض فيها مرحلة سقوط حضـــــــــارة عاد وثمود

(1) عبد الستار فتح الله سعيد:الدين ضرورة للحضارات،مجلة الأمة،رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية:قطر،العدد44،سنة4،ماي1984م، ص 9.

(2) سورة الشعراء : الآية 128-131.

(3) سورة الشعراء : الآية 151-152.

المبحث الأول

مقومات حضارتي عاد وثمود

توفر لعاد ولثمود أسباب مادية وأخرى معنوية ساعدت على قيام حضارة في تلك الربوع الواسعة من جزيرة العرب في تلك الأزمنة الغابرة . ولتوضيح هذه المقومات وفهم دورها الايجابي في قيام حضارة عاد وثمود تطلب منا ذلك تقسيم هذا المبحث إلى مطلبين: بحيث؛ ندرس في المطلب الأول:المقومات المادية :1-الأرض (الموطن الجغرافي). 2- المناخ

وندرس في المطلب الثاني: المقومات المعنوية: 1-الإنسان .2-الزمن

المطلب الأول

المقومات المادية

تبدو هذه المقومات في ضوء ما قدمته آيات القرآن الكريم و قررها دارسوا الحضارات أنها تتلخص في : الأرض و الإنسان و الزمن[1] . من المعلوم أنه حينما إنطلقت عاد و ثمود في بناء حضارتيهما، لم تكن أمام أصحابها سوى العوامل المادية الثلاثة التي ألمح الدارسون إليها : الإنسان، و الأرض و الزمن. إنطلاقا من أن هذه العوامل ينحصر رأس مال الأمة الإجتماعي الذي يمدها في خطواتها الأولى في التاريخ[2]. و إذا أردنا تحليل العوامل المذكورة في ضوء آيات القصص القرآني مستعينا بما توصل إليه علماء الآثار من خلال الحفريات. و علماء التاريخ في مجال رصد و تتبع دور الأمم و المجتمعات في حركة التاريخ وفق شروط قيام الحضارة، و التي لا يتم فيهما من إلا من خلال المعطيات الآتية:

---

(1) و هي العوامل المادية الثلاثة التي إشترطها مالك بن نبي في تكوين حضارة حين قرر أم كل ناتج حضاري تنطبق عليه الصيغة التحليلية الآتية: ناتج حضاري : إنسان + تراب + وقت. كما هو مثبت في كتاب "شروط النهضة" للمؤلف، ص 49.

و قد إرتأيت إستعمال مصطلح (الأرض) بدل مصطلح (التراب) و ذلك تماشيا مع إختيار القرآن له في سياق عرضه للقصص التي تتحدث عن حضارة عاد و ثمود بدليل قوله تعالى : (و اذكرو إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد و بوأكم في الأرض). سورة الأعراف : الآية 74. كما إرتأيت استخدام مصطلح (الزمن) بدل مصطلح (الوقت) و ذلك إعتبار أن الزمن في القرآن جاء مطلقا غير محدد بفترة، ونعني به العمر.

(2) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 55.

أولا- الأرض (الموطن الجغرافي)

اعتمدت حضارة عاد في قيامها على الموطن الذي نشأت فيه لقوله تعالى:﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1]، ذلك أن الموطن بالنسبة للحضارة كالوعاء بالنسبة للمادة، فالموقع الجغرافي الملائم من حيث التربة الخصبة التي تمتاز بجودتها، و باستقرار الحياة فيها مع توفر مصادر المياه اللازمة، هذا فضلا عن البعد عن مناطق الإضطرابات الطبيعية : كالزلازل و البراكين و ما شابههما، كل ذلك يتيح بيئة و مهدا صالحين لقيام الحضارة.(2) و هي الأسباب الجغرافية التي نجدها في بيئة عاد إذ أشار القرآن إلى موطن عاد أنه كان بالأحقاف لقوله تعالى:﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾[3]. و هي الأرض غير المغطاة بكاملها "وهي أقرب إلى البادية منها إلى الصحراء"[4].و يبدو أن موطن عاد بتنوعه قد سمح لأصحابه في أن ينقلبوا من نعيم إلى نعيم و هو :

1- الأحقاف ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾[5].

2- الأودية﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾[6].

3- البنايات العالية (الريع) :﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[7]. و كل هذا يعطي صورة لما كان عليه موطن عاد من التنوع و التكامل.

و هكذا اجتمعت لعاد خصائص الأماكن الرملية الصحراوية، و ما تتمتع به من مناخ جاف و صاف و مزارع و كلأ تساعد على الحياة القريبة من الفطرة و البساطة و الراحة.

كما اجتمعت لها خصائص الوديان و ما فيها من خصوبة و زرع، و مراع إستقرار و كل ما تتمتع به المجتمعات الزراعية. و جمعت خصائص الأماكن المرتفعة، و ما تتمتع به من طيب الهواء و رفاهة العيش و كثرة المطر مما جعل "بلادهم أخصب بلاد و أطيبها"[8].

(1) سورة هود : الآية 61.

(2) عبد اللطيف الصعيدي، حضارات ورد ذكرها في القرآن الكريم، مكتبة الدار العربية للكتاب: مصر، ط1، 1996م، ص31.

(3) سورة الأحقاف : الآية 21.

(4) عبد اللطيف الصعيدي، المرجع السابق، ص 31.

(5) سورة الأحقاف : الآية 21. (6) سورة الأحقاف : الآية 24.

(7) سورة الشعراء : الآية 128-129.

(8)-عدنان ترسيسي، بلاد سبأ و حضارات العرب الأولى، دار الفكر بيروت، ط.2، 1990م، ص 508.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أما موطن حضارة ثمود فذكر القرآن أن الله بوأ أصحابها أرض الحجر، و جعلهم خلفاء فيها لقوله تعالى:﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتًا...﴾(1). و قوله تعالى :﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِينَ﴾(2).و قد حدد علماء الآثار موطن حضارة ثمود "بأنه كان في الجزء الشمالي الغربي لبلاد العرب، و أعالي الحجاز التي تخترقها الطرق التجارية التي توصل بلاد الشمال و مصر و فلسطين بالحجاز"(3).

و قد كان لهذا الموقع الجغرافي الحسن أثره في إزدهار حضارة ثمود، لا سيما و أنه مكن قوم ثمود من الإشتغال بالوساطة التجارية بين شعوب البحر المتوسط، و شعوب البحر الأحمر و الخليج العربي(4). و لا شك أن دور الوسيط التجاري الذي كان قوم ثمود يقومون به ساهم إلى حد بعيد في إزدهار حضارتهم، حين كانت السماء تمطرهم مدرارا و كانت الأنهار تجري في تلك الأراضي فتمنها الخصب و الخير، فعاش أبناؤها حينا من الدهر في جنات وارفة الظلال (زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ)(5). كما عبر عن ذلك القرآن الكريم.

ثانيا – المناخ

مقوم من مقومات المساعدة على بناء حضارة، و هو تابع للموقع الجغرافي في الغالب و له دخل في تكوين المزاج العقلي و النفسي و الصحي لأفراد الأمم.

و يبدو أن المناخ الذي كان يسود مناطق عاد و ثمود لم يكن صحراويا جافا كما هو الحال بالنسبة لبعض المناطق العربية، بل كان يتميز بالإعتدال حين وصفه أحد الباحثين بقوله : "فالجفاف و الجو الحار المحرق ليسا سائدين في جزيرة العرب كلها، ففي جزيرة العرب بقاع متسعة إتساع الدول الأوروبية المهمة كثيرة الخصب كبلاد اليمن، و بلاد نجد التي لم يرأ نفع من جوها للصحة في العالم"(6).

(1) سورة الأعراف : الآية 74. (2) سورة الحجر : الآية 80.

(3) حسن عبد الظاهر، من نبأ المرسلين، ص 92.

(4) لبيب سارتر، الحضارات، دار الشرق : بيروت، ط 10، 1983م، ص234.

(5) سورة الشعراء : الآية 148.

(6) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة : عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي و شركاؤه: مصر، ط4، 1964، ص 41.

كما وصف باحث آخر و هو يؤكد خصوبة منطقة اليمن -التي كانت عاد تقطنها- بقوله: "إن أرض اليمن التي صادفتها الطبيعة فأحسنت إليها و وهبتها هبات، وهبت أمطارا موسمية و جوا حارا رطبا في نهاية اليمن، و جوا معتدلا في المرتفعات، و جوا لطيفا في الجبال"(1).

و لا شك أن هذا الموقع الجغرافي الحسن، و ذلك الجو المعتدل قد أثّر على أفراد أمة عاد و ثمود فنشأوا في إثره أقوياء في أجسامهم سالمين من الأمراض و العلل. لذلك استطاعوا أن يستثمروا ما بأرضهم من عومل حيث المناخ أكثر ملائمة للزراعة، و حيث الموقع يغري بقيام نشاط عمراني و تجاري و هما من أبرز مظاهر الحضارة التي شيدها القوم في الأحقاف و الحجر آنذاك. بفضل سواعد أبنائهم الذين تجسدت فيهم صورة الإنسان صانع الحضارة عبر التاريخ.

المطلب الثاني

المقومات المعنوية

أولا- الإنسان

الإنسان عنصر فعال في بناء الحضارة. إذ قيام الحضارة ليس عملا عشوائيا يتم بمحض الصدفة، و لكنه عمل إنساني لا يكون في أمة إلا في وجود أفراد توكل إليهم مهمة بناء الحضارة في كل زمان و مكان. أولئك الأفراد الذين يشترط فيهم العدد و القوة و السلامة من الأمراض حتى يستطيعوا القيام بالأعمال الصعبة التي تتطلبها الحضارة في مرحلة بنائها حتى تنهض و تكون قوية بين أمم الأرض. و إلى هذا المعنى لفتت آيات القصص القرآني نظر المتلقي قراءة أو سماعا، حين تعرضت لذكر حضارة عاد و ثمود، و ما أسبغه الله عز و جل على أفرادها من نعمة القوة في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾(2). و قوله تعالى تعبيرا عن نعمة البنين أي العدد الكثير للأفراد الذين قامت على سواعدهم حضارة عاد: ﴿وَ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَ بَنِينَ وَ جَنَّٰتٍ وَ عُيُونٍ﴾(3).

فبالبنين يكثر أفراد الأمة و يتسع مجال العمل و تتنوع الأعمال و تتطور و تزدهر الحياة

(1) ناجي معروف، أصالة الحضارة العربية، دار الثقافة : بيروت، ط 3، 1975م، ص 75.

(2) سورة الأعراف : الآية 69. (3) سورة الشعراء : الآية 133 – 134.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فيها فتبدو قوية إلى أن تبلغ الأوج، كما يفسره ما جاء في تعليق صاحب الميزان في تفسيره لمعنى قوله تعالى :﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ في قوله : "خص الله قوم عاد بنعمتين ظاهرتين وهما الخلافة في الأرض، و عظم الأجسام، إذ خصهم من بين الأقوام ببصطة الخلق و عظم الهيكل البدني المستلزم لزيادة الشدة و القوة، و من هنا يظهر أنهم كانوا ذوي حضارة، و تقدم و حيت في البأس و القوة و القدرة"[1].و هذا أعطى إنطباعا أن حضارتي عاد و ثمود في مرحلتي قيامهما لكي يصلا إلى الأوج إحتاجا إلى قوة و قدرة الأفراد، لكي ينهض البناء و يكون سليما، و يتم التمكين في الأرض إشارة إلى قوله تعالى :﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾[2]. و ما أمدهم به من أسباب القوة و المقدرة، " والقوة هنا معناها القدرة على الأعمال، أو يراد بها العزة و عدة التغلب باستكمال العدة و العدد، و هذا كله يأتي من كثرة الأموال و الأولاد الذي يأتي بدوره من الأمن بسبب لقاء الأنفس، و من الخصب المؤثر لقوة الأبدان، و السلامة من المجاعات، و من حسن المناخ بالسلامة من الأوبئة المهلكة، و من الثروة بكثرة الأزواج"[3]. و في هذا الكلام تأكيد على عنصر القوة و ضرورة توفر في بناء الحضارة التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى:﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[4].

ثانيا – الزمن

و أعني به هما الوجود التاريخي لحضارتي عاد و ثمود ضمن سلسلة الحضارات الكبرى اللاحقة عن الفترة التي سادت فيها هاتان الأمتان العربيتان حين إستخلفهم الله تعالى في الأرض، دون تحديد للمدة التي تم لهم فيها التمكين و بناء حضارة، فيما إذا استغرق ذلك قرنا أو أكثر، ما عدا الإشارة إلى أن كل واحدة منهما كانت خلفا للأخرى كما جاء في قوله تعالى على لسان هود عليه السلام بني عاد قوله :﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[5]، و على لسان صالح عليه السلام بني ثمود قوله :﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾[6].

(1) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج2، ص 182. (2) سورة الانعام : الآية 7.

(3) ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج10، ص 257.

(4) سورة هود : الآية 52. (5) سورة الأعراف : الآية 69. (6) سورة الأعراف: الآية 74.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و هذا يعني أن عاداو ثمود باستخلافهم الأرض قد أتيحت لهم فرصة طيبة ليستثمروا ذلك الظرف التاريخي،و يحوّلوا تلك الفترة الزمنية المعينة لصالح بناء حضارتهم، التي تعكس مستوى تفكيرهم و نمط معيشتهم في حياتهم الدنيا، و تعطي صورة عن قيمة الوقت في أعمار تلك الأقوام البائدة من عاد و ثمود و يضعهم أمام مسؤولية حمل أمانة الخلافة في أرض الله التي كلفوا بتعميرها و إصلاحها :﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1]. و نهو عن العبث و الإفساد فيها ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2]، و أمروا باستغلال خيراتها و نعمها على الوجه الذي يحقق لهم الفلاح :﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].و يضعهم أمام مسؤولياتهم التاريخية في حمل أمانة تعمير الأرض عن طريق البناء و تطوير إستثمار الأسباب المادية و المعنوية،التي سخرها ا لله لهم على الوجه الذي يضمن لهم تسجيل الحضور، بإضافة لبنة جديدة لصرح الحضارة الإنسانية الكبرى.

المبحث الثاني

مظاهر حضارة عاد و ثمود

إن المقومات المادية و المعنوية التي توفرت لقومي عاد و ثمود و المؤلفة من العوامل الثلاثة : الأرض، الإنسان، الزمن، تفاعل بعضها ببعض. فاسحة المجال لأصحابها أن يبدعوا في وجودها تلك الألوان الرائعة المعبرة عن مظاهر حضارتهم، التي نقل القرآن صورة عنها تنبئ عما كان لهم من قصور و بروج و حصون متبينة بنوها بكل ريع، و ما تستلزمه تلك الأبنية من فن و عمارة، و ما كان لهم من زراعة و ما تتطلبه من مهارات كمعرفة إتجاه الرياح و ما تسوقه من أمطار و ما تختزنه الأرض من عيون، و شق الآبار، و بناء السدود لتجميع المياه وغير ذلك. و أنطلاقا من هذا يمكن التعرف على مظاهر حضارة عاد و ثمود من خلال دراسة المطالب التالية؛بحيث :نتناول في المطلب الأول: العمران.ونتناول المطلب الثاني: الزراعة.و المطلب الثالث: التجارة.وأما المطلب الرابع: علاقة التداخل بين مقومات الحضارة ومظاهرها بالدين في حياة عاد وثمود.

(1) سورة هود : الآية 61.

(2) سورة الأعراف : الآية 74.

(3) سورة هود: الآية 69.

المطلب الأول

العمـــــــــران

ورد في القصص القرآني ما كان لعاد و ثمود من قوة البناء و المهارة فيه و إن كانت الآيات قد أوجزت أبلغ إيجاز نعتهم بما ينم على العظمة و القوة على ما يفهم من قوله تعالى عن عاد:﴿إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾(1)، و قوله تعالى أيضا :﴿أَتَبنُونَ بِكُلِّ رِيْعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ، وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾(2).

و على ما يفهم من قوله تعالى عن العمران في حضارة ثمود في سورة الأعراف :﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتًا﴾(*)، و نظيرتها في سورة الشعراء في قوله تعالى :﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا فرهين﴾(**).

و ورد في كتب المؤرخين و الرحالة الحديث عن عظمة ملك عاد و ثمود و عمرانهم العجيب الذي جسدته آثار بقايا المنازل و القصور، و المعابد و الأضرحة و الحصون و الأسوار و الأعمدة و غيرها.

و التي تشهد على أن قومي عاد و ثمود عرفوا فن البناء، فابتنى الأغنياء منهم القصور و البروج والهياكل و بالغوا في إتقانها حتى أضحت ظاهرة لفتت نظر الزائر إلى اليمن منذ القديم مما جعل بعض الرحالة الجغرافيون يطلقون على المنطقة اسم بلاد القصور(3).

و لكي تتجلى صورة العمران في حضارة عاد و ثمود كان لا بد من الرجوع إلى القرآن الكريم لنلتمس منه التوضيح فيما عرضته آيات قصتي حضارتي هاتين الأمتين. لا سيما ما جاء في سورة الفجر و نظيرتها سورة الشعراء.

ففي سورة الفجر نقرأ قوله تعالى واصفا حضارة عاد :﴿إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلَادِ﴾(4).

(1) سورة الفجر : الآية 7-8.

(2) سورة الشعراء : الآية 128-129.

(*) الآية: 74.

(**) الآية 149.

(3) فليبي حتى، تاريخ العرب المطول، دار الكشاف، ط.4، 1965م، ج1، ص 75.

(4) الآية 7-8.

ففي ذات العماد قالوا أنها تعني القوة، و قيل المراد "بالعماد"[1] ذات البناء الرفيع. " فالمعنى أنها ذات أساطين، أي ذات أبنية مرفوعة على العمد"[2].و هو المعنى الذي يتفق مع الوصف القرآني لصورة المكان بمعلمه العمراني البارز المميز لحضارتي عاد في زمنهما كما استقام له فهمي في ضوء إيحاءات سورة الفجر و تفسير معناها الذي قال به الرازي في النص السابق، و تقول به عائشة عبد الرحمان في كلام هذا نصه : " و أقرب ما يفهم من ذات العماد أنها ذات القوة، و المنازل العالية، على مألوف البيان العربي في رفيع العماد، و بهذا اللفت البليغ الموجز إلى ما مكن ا لله من أسباب القوة لعاد التي لم يخلق مثلها في البلاد" [3].

أما في سورة الشعراء فنقرأ قوله تعالى واصفا أبرز مظهر عمراني في حضارة عاد دائما و الذي يتجلى من خلاله بشكل الطراز المعماري الذي يعزى إليه رقي تلك الربوع العامرة، و يتم بفضله تميز تلك الحضارة بما يتم عن التنوع و التكامل و العظمة:﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[4].

يقول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى:﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾: "الريع : البروج يكون في الصحراء، و الريع هو التل العالي، و معنى الآية أنكم تبنون بكل مكان مرتفع علما"[*] . و بنحو المعنى الذي وقف عنده ابن كثير وقف عنده الشوكاني و زاد عليه بقوله : "إختلف المفسرون في الريع بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة و يبنون هناك بنيانا محكما هائلا باهر و لهذا قال (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً) أي معلما بناء مشهورا كالقصور و نحوها"[5].و إذا نظرت إلى الشق الثاني من الآية و هو قوله تعالى:﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ

(1) اكثر المفسرون الكلام عن عاد ارم ذات العماد بما لم تتجه إليه عناية القرآن إلى شيء مما ذكروه، و اختلفوا فيه، و هو الرأي الذي أوردته عائشة عبد الرحمن في كتابها "التفسير البياني للقرآن الكريم"، دار المعارف : القاهرة، ط.4، د.ت، ج2، ص 143. هذا الاختلاف الذي جاء على لسان المفسرين في تفسيرهم لهذه الآية في سورة الفجر(ارم ذات العماد)أوردته في الفصل الأول من هذا البحث. ولا أرى ضرورة لإعادته في هذا الموضع و أكتفي بالتركيز على معنى (ذات العماد) التي تحمل في مدلولها اللغوي ما يفيد وصف العمران في حضارة عاد.

(2) الفخر الرازي، التفسير الكبير، جـ31، ص 167.

(3) عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم، جـ2، ص 143.

(4) الآية 128 – 129.

(*) تفسير القرآن العظيم: جـ5ص195

(5) محمد بن علي محمد الشوكاني: فتح القدير،ضبط وتصحيح: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية ،بيروت، ط.4، 1994م، جـ4، ص 136.

﴿تَخْلُدُونَ﴾. لأتبين معنى كلمة "مصانع"[1] و دلالتها في الكشف عن النمط المعماري المميز لحضارة عاد، لتطلب مني العودة ثانية لأقتبس من تفسير الشوكاني لمعنى الآية قوله : "المصانع هي الأبنية التي يتخذها الناس منازل، و قيل هي الحصون المشيدة، أو هي مصانع الماء التي تجعل تحت الأرض، و بلغه اليمن هي القصور العالية"[2]. فهو المعنى نفسه الذي عبر عنه امرؤ القيس بقوله : *أَزَالَ مِنَ المَصَانِعِ ذَا نُوَاسٍ ... وَ قَدْ مَلَكَ الحُزُونَةَ وَ الرِمَالاَ* [3].

فإذا كانت "المصانع" المعبر عنها في القرآن الكريم هي التي تعني "القصور" عند أهل اليمن: و التي عرفوا و اشتهروا ببنائها و غدت رمزا لحضارتهم، و نمطا معماريا ميز حضارة عاد، و كان علامة على تمدنهم في ذلك الزمن البعيد.فإن حضارة ثمود، كان لها هي الأخرى طرازها العمراني الخاص الذي ميز أصحابها عن غيرهم من أهل الحضارات الغابرة، و ذلك بما عرف عنهم من فن النحت، و قد قيل : "إن ثمود أول أمم الأرض نحتوا الصخر"[4].إذ أن سابق أعمالهم أنهم قطعوا الصخر و اتخذوا منه بيوتا لهم كما قال تعالى:﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾[5].

و معنى جابوا هنا قطعوا الصخر، أي الحجارة العظيمة الموجودة بين جبلين منخفضين "و لا نرى حمل كلمة "جابوا" على غير معناها الأصيل من القطع و النفاد، دلالة على ما أتيح لثمود من قوة و منعة إذ قطعوا الصخر بالوادي، و قد كانت لهم فيه ديارهم و مساكنهم المشيدة المأهولة"[6].و الواد، علم بالمغلبة على منازل ثمود، و يقال له وادي القرى، بإضافته إلى القرى التي بنتها ثمود، و فيه واد سمي واد الحجر، و يقال لها حجر ثمود[7].

(1) أجمل ابن منظور الفروق الجزئية للمعاني المختلفة لكلمة "المصانع" و التي تعني أنها الآبار و الأبنية، كما تعني الصهاريج التي يجمع فيها مياه الأمطار، و قد تعني الحصون أيضا، أو هي القصور، و العرب تسمي القرى مصانع.أنظر تفاصيل ذلك بشيء من التوسع و الشمول في لسان العرب – جـ4، ص 2509، [مادة صنع].

(2) المصدر السابق ، جـ4، ص 136.

(3) المصانع هنا بمعنى الحصون و القصور، ديوان امرؤ القيس، تحقيق حنا الفاخوري، دار الجيل بيروت، ط1، 1989م، ص365.

(4) الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، جـ 30، ص 320.

(5) سورة الفجر : الآية 9.

(6) عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم، جـ2، ص 144.

(7) الطاهر بن عاشور، المصدر السابق، جـ 30، ص 320.

و قد كان هذا الواد صخري القاع و الجدران، فأغرى ساكنيه بأن يتخذوا من فن النحت متعة و مورد كسب في آن معا، "إذ كانوا يبيعون التماثيل للمسافرين من الجزيرة العربية إلى الشام، أو من الشام إلى الجزيرة العربية"[1].هذه المساكن التي تجلت فيها براعة الإبداع جاء وصفها فيما اوجزه التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾[2]. لتدل على أن قوم ثمود كانوا ينحتون بيوتهم من الجبال بطريقة حادقة ماهرة تجعل البناء على غاية من الدقة و البراعة و الجمال.

و هذا ما أظهرته الدراسات الأثرية التي أجريت في "الحجر" و التي دعمت النص القرآني و زادت في توضيح الطراز المعماري في حضارة ثمود. من هذه الدراسات ما قال به صاحب كتاب شمال الحجاز مبينا مدى تطابق مع ما جاء به التصوير القرآني لآية سورة الشعراء، و ما توصل إلى كشفه علماء الآثار في موطن ثمود ما نصه : "و هذه البيوت المنحوتة في الصخر، يوجد فيها الكثير من المداخن التي صممت تصميما هندسيا بديعا رائعا و مزخرفا يعتبر في منتهى الدقة، مما يدل على المستوى الرفيع و الذوق الحضاري الذي بلغته تلك الأمة التي عاشت و كونت حضارة عظيمة في الحجر، و هي قبيلة ثمود العربية التي يقال أنها هلكت"[3].

بنى الثموديون بيوتهم و قصورهم و سدودهم بمهارة عالية، "إذ أنهم كانوا ينحتون من صخور الجبال بيوتا شاهقة مستوفية نصيبها من صلاحيتها السكنية"[4] بعد إختيار بعناية فائقة الأماكن الصالحة للبناء بالنحت و تفننوا في زخرفته "بحيث لا يتبين للرائي الفواصل بين الأحجار"[5] بحيث ينتهي هذا النحت في شكل غرف و أبواب و واجهات كبيرة و أعمدة و زخارف دلت على أن الثموديين كانوا أصحاب عمران كما وصفهم صاحب المنار بقوله :

(1) زكي نجيب محمود، هموم المثقفين، دار الشروق : بيروت، ط 1، 1981 م، ص 136.

(2) سورة الشعراء : الآية 149.

(3) حمودةبن ضاوي الفثامي، شمال الحجاز، العصر الحديث للنشر و التوزيع : بيروت، ط.3، 1991، ج1، ص 147.

(4)- عبد المنعم سيد حسن عبد الشفيع، نماذج من الحضارة القرآنية في سورة الروم،مطبعة دار البيان:مصر،د،ط،1985م ص 14.

(5)- إبراهيم أحمد العدوي، نهر التاريخ الإسلامي، دار الفكر العربي: القاهرة، د.ط، د.ت،ص 20.

"اتخذوا من السهول قصورا زاهية، و دورا عالية، بما حذقوا بإلهامه تعالى من فنون الصناعات، كضرب الآجر و اللبن و الجص و هندسة البناء ... و أنهم بنوا من الجبال بيوتا بما علمهم الله من فن النحت"[1]. و التي لا زالت بقايا آثاره ماثلة تشهد على عظمة ملكهم و مهارتهم في فن العمارة، و لا زالت طريقة النحت في الصخر تدهش الزائر إلى الحجر إلى يوم الناس هذا، "إذ لا زال ملك ثمود و ديارهم بفج الناقة منحوتة في الجبال، و رسومهم باقية و آثارهم بادية، و ذلك عن طريق الحاج لمن ورد الشام بالقرب من وادى القرى و بيوتهم منحوتة بالصخر بأبواب صغيرة"[2].

و تلك الآثار الباقية هي في الواقع أضرحة و معابد تتخذ شكل بيوت لا زالت حتى الآن في مدائن صالح [3] تعد آية تسترعي الانتباه إلى ذلك الفن المعماري القائم على نحت الجبال بيوتا باقية على مر العصور شاهدة على عظمة حضارة ثمود.

المطلب الثاني

الزراعة

ذكر القرآن أن أرض عاد و ثمود على عهد هود و صالح عليهما السلام كانت ذات سهول و عيون و جنات ذات زرع و نخل. قال تعالى مذكرا بما في أرض عاد من خيرات ﴿وَأَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[4]. كما قال تعالى مشيرا إلى ما حظيت به ثمود من نعم: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَا هُنَا آمِنِينَ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾[5].

و ذكر المؤرخون و الرحالة في كتبهم ما كانت تزخر به تلك الربوع العربية الخصبة في ذلك العهد البعيد من أنواع النباتات كالأشجار و المعادن و التوابل، و الطيوب التي جعلت بلادهم من أخصب بلاد الله و أغناها بالمنتوجات[6].

(1) رشيد رضا: جـ 8، ص 503.

(2) المسعودي: مروج الذهب، جـ 2، ص 14.

(3) لطفي عبد الوهاب يحي: العرب في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعية : مصر، ط2، 1966م، ص 134.

(4) سورة الشعراء : الآية 133 – 134.

(5) سورة الشعراء : الآية 146 – 148.

(6) راجع كتب كل من : "المعارف"، لابن قتيبة، ص 17. فتح القدير للشوكاني، جـ2، ص 505. المنار، لرشيد رضا، جـ12، ص 116. تفسير المراغي، للمراغي، جـ 12، ص 53. حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص 48.

عرف قوم عاد و ثمود حياة الاستقرار بما توفر لهم من العوامل الطبيعية التي ساعدتهم على التجمع "و ممارسة أمور الزراعة بلا انقطاع"[1] لكثرت ما اغترسوا من الحدائق و البساتين حتى أضحت الخضرة هي اللون الغالب للرائي عندما يزور اليمن –موطن عاد– "مما دفع العرب القدامى إلى تسميتها بالعربية الخضراء"[2].

و يرجع الباحثون سبب إزدهار الزراعة في ذلك العهد إلى وفرة الأمطار و وجود الأنهار التي تساعد على سقي الأراضي و هذا ما يؤكد أحد الباحثين بقوله : "تتخلل تلك البلاد كثير من الأنهار، و يهطل عليه مطر غزير في الصيف فيكون لهم بذلك موسمان زراعيان في السنة الواحدة"[3]. و ربما في هذا المعنى إشار إلى قوله تعالى :﴿يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[4].

كان هناك تكامل لعاد و ثمود في بيئتهم حيث ساد طرازان من الحياة لكل منهما دوره في إزدهار حضارة تلك الأمتين و تزويد أصحابها بأسباب البقاء.

الطراز الأول : هو حياة الإستقرار و الزراعة و البناء و هي التي مهدّت مع الزمن لتكون القرى.الطراز الثاني: هو حياة التنقل و الرعي و سادت في البوادي، و لم تكن أقل شأن و أهمية من حياة الإستقرار "فالمجتمعات المتنقلة (البدوية) أشد مراسا، و أوسع نظرة إلى الحياة و أكثر علما بأحوال الجو و المرعى بفضل عدم الإستقرار في أرض واحدة"[5].

و إلى جانب الزراعة اشتغل قوم عاد و ثمود بالفلاحة بإجراء العيون و إنشاء الجنات و النخل و الحرث،ومارسوا حرفة الرعي التي كانت معروفة في الجزيرة العربية منذ القدم بشهادة القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ﴾[6]، هذه الأنعام التي تتطلب الرعي

(1) سيديو: تاريخ العرب العام، تعريب: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية: القاهرة، د.ط، 1948 ص 26.

(2) محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجارية، مطبعة الجمالية: مصر، ط 2، 1329 هـ، ص 16. و عدنان ترسيسي:حضارات العرب الأولى، ص 15.

(3) ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي و قيمتها التاريخية، ص 9.

(4) سورة هود : الآية 52.

(5) إبراهيم العدوي، نهر التاريخ الإسلامي، ص 11.

(6) سورة الشعراء : الآية 133.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والمياه و الكلأ و التنقل في المناطق البدوية. و لهذا نجد <<من الثموديين من قام بهذه الحرفة و خاصة البدو منهم الذين كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر طلبا للرعي و المياه، و قد تركوا نقوشا هنا و هناك تدل على أنهم حلوا هنا و باتوا هناك، و قيظوا في ذلك المكان و أوقدوا نارا بتلك الديار و هكذا>>(1).

رعى الثموديون مختلف أنواع الحيوانات مثل الخيل و الماعز و الجمال، و التي تعد أبرز ما عنيو به لأنه كان وسيلة النقل التي عبر بها العرب الرمال للتجارة عندما كان العبور في الرمال أمرا في غاية الصعوبة في تلك الأزمنة الغابرة <<و قد أتاح لهم إستخدام الجمال أن يحتكروا الوساطة التجارية بين أمم الشرق ... ذلك الإحتكار الذي ساعد على قيام حضارة و ازدهار الحياة في المنطقة>>(2).

و جملة القول أن موطن عاد و ثمود بفضل الإمداد الرباني قد عرف تلك النقلة الكبرى من رمال قاحلة إلى جنات و زروع :﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ، وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ﴾(3). و ما تحمله هذه الصورة من ظلال و ما فيها من دلالة الخضرة والماء الذي هو مصدر الحياة والأحياء،لقد بث الحياة في تلك الربوع و تغير وجهها لتغدو في إثر العطاء الإلهي واحة زاهرة عامرة <<تدر على أهلها الخير، و تخرج لهم الزرع الذي يعيشون به، و تنبت لهم الكلاء الذي به حياة أنعامهم>>(4).و هي دلالات تتطابق مع وصف ما عرف من مآثر و نشاط تلك المنطقة من جزيرة العرب وعمرانها و جناتها و مياهها و خزاناتها (5).

المطلب الثالث

التـــــجـــــارة.

لم يتحدث القرآن الكريم في قصصه عن التجارة و دورها في نمو و تطور حضارتي عاد و ثمود، غير أنه أشار إلى ترفهم و وصفهم بالغنى، و الذي تفسره الدراسات التاريخية المختصة

(1) محمود محمد الروسان، القبائل الثمودية، ص 142.

(2) محمد عبد القادر بافقيه، تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر:بيروت،د.ط،1973، ص 24.

(3) سورة الشعراء : الآية 132 – 133.

(4) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، ص 51.

(5) محمد عزة دروزة، تاريخ الجنس العربي،المكتبة العصرية للطباعة والنشر:بيروت، ط1، 1976 م،ج1،ص 77.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بتاريخ و حضارة الجزيرة العربية في تلك الفترة بأنه يعود إلى المورد التجاري، لا سيما "و أن الخط التجاري الذي يربط جنوب شبه الجزيرة بشاطيء الخليج و بوادي الرافدين و هو الخط الذي يمرُّ بمنطقة الأحقاف حيث موطن عاد الأولى"[1]. مما يفسر أن الموقع الجغرافي لبلاد العرب كان دائما في خدمة التجارة.

و يؤكد بعض الباحثين على غنى المنطقة العربية بالحاصلات التجارية التي جعلت أهلها يتجارون بمختلف الأنواع سواء التي كانت أرض العرب تنتجها، أو التي كانت تجلب من الخارج ثم تتم المتاجرة بها بعد ذلك.[2]

وتفيد الدراسات التاريخية أن الثموديون إشتغلوا بالتجارة، و أنهم عملوا كوسطاء تجاريين <<على الطريق التجاري الذي يربط جنوب الجزيرة العربية بشمالها و البلاد الشام ومصر>>[3].

و قد تمثلت الوساطة التجارية للثموديين في حماية القوافل و تأمين الطريق لها حتى لا تتعرض للسلب من طرف قطاع الطرق، و توفير محطات الإستراحة للتجار و تزويدهم بالطعام و الشراب لهم و لغيرهم في الذهاب و في العودة أثناء مرور تلك القوافل بأرضهم قادمة أو عائدة من بلاد الشام إلى بلاد العربية الجنوبية و هذا ما يفسر. "أنهم كانوا من أمهر سكان العالم القديم في تجارة القوافل"[4]. حين كانت المنطقة مجالا واسعا لإقتصاد عوامل العصور الغابرة تجوب فيه القوافل التجارية و يصدر من أرضها النحاس و الذهب و البخور و الأعشاب و المر و غيرها من المواد التي لا غنى عنها لدخولها في صناعة العطور المستعملة للتجميل و التحنيط[5]. جاء في كتاب جرجي زيدان نقلا عن هيرودس عن انفراد البلاد العربية بإنتاج البخور الذي عدا آنذاك السلعة الأكثر رواجا في العالم القديم قوله : "و بلاد العرب وحدها فيها البخور و المر و القرفة"[6].

(1) لطفي عبد الوهاب يحي، العرب في العصور القديمة، ص 173.

(2) أمين مدني، التاريخ العربي و بدايته، ص 41.

(3) محمود محمد الروسان، القبائل الثمودية، ص 144.

(4) محمد السيد أيوب، اليمن بين القات و فساد الحكم، دار المعارف : القاهرة، د.ط، 1963، ص 14.

(5) أمين مدني، المرجع السابق،ص 41.

(6) تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النشر، د.ط، 1969م، ص 141.

و إذا كان البخور قد تصدر قائمة المنتوجات التجارية في العصور القديمة، فـإن العصـور الوسطى قد عرفت تجارة التوابل التي عدت من أهم حاصلات بلاد عاد و غيرها من المنـاطق العربية حيث استعمل لتحنيط الموتى و تقديم القرابين في مصر آلافا متعاقبة من السنين[1].

إلى جانب التوابل عرفت المنطقة العربية خصوصا حضرموت -موطن عاد التي عدت من أغنى المناطق بمادة اللبان الطبيعي الأبيض الذي مصدره أشجار كانت في حضرموت و المهرة و من هذه المناطق كانت القوافل التجارية تسلك طريقها نحو الأسواق.

و الظاهر أن الطيوب و التوابـل لم تكـن تعـاني مـن أي بـوار في تسـويقها سـبب رواج تجارتها. فقد كانتا مطلوبتين بكثرة. مما جعلهما تدران على البلدات المنتج لها ما يـدر النفـط في أيامنا على بلدات إنتاجه[2].

كل هذا يلقي أضواء هامة على المداخل التجارية و المردود المالي الكبير الذي كـان وراء غنى المنطقة العربية في تلك الفترة، و كان سببا في ظهور الإرستقراطية التجارية الـتي جعلـت المال يتركز في يد فئة معينة من الناس.

و يبدو أن غنى المنطقة أطمع بعض الإمبراطوريات في غزوها. يقول أحد الباحثين : "إن نشاط المنطقة العربية في التجارة و سيطرتها على الطرق بجارة البخور و اللبـان كـان من أهـم الأسباب التي دفعت الإمبراطورية الرومانية إلى محاولة غزو المنطقة"[3] .

و يبدو من خلال المعلومات التاريخية حول المنطقة أن رقي تلك الربوع يعزي إلى عوامل عديدة منها نصيبها الوافر من الأمطار و قربها من البحـر، و مركزهـا الجغـرافي الخطـير علـى خط الإتصال بين أمم الشمال و الجنوب، ساعد قـوم عـاد و ثمـود علـى إقامـة حيـاة زاهـرة أساسها العمران و الزراعة و التجارة.

و مما لا شك فيه أن هذه المعطيات الحضارية قداسهمت في اسـتقرارهم و مكنتهـم مـن العيش بسلام و أمن، فنمت و ازدهرت حضارتهم كغيرها من الحضارات في ظلال المنــح

(1) أمين مدني، التاريخ العربي وبدايته، ص 280.

(2) عبد المنعم عبد الحليم السيد، الجزيرة العربية مناطقها وسكانها في النقوش القديمة،ص63.

(3) عدنان الترسيسي، حضارات العرب الأولى، ص60.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإلهي المادي و المعنوي حتى بلغوا مرحلة العظمة و القوة في ذلك الموطن -الأحقاف والحجر- الذي اختاره الله تعالى ليكون أرض الأنبياء و الرسالات، حيث تمم الله نعمته عليهم و مكن أهله من استقبال دعوته على يد نبييه هود و صالح عليهما السلام اللذين كان من مهمتهما توجيه تلك الحضارة نحو آفاق التعمير و الخير و الصلاح و الهدى على اعتبار "أن الأنبياء بالمفهوم القرآني لم يكونوا دعاة عقيدة و شريعة فحسب، بل كانوا مؤسسي حضارة و اجتماع و أسلوب من الحياة جديد خاص"[1] . بما يضمن للناس البقاء و القوة وفق شروط قيام الحضارة الراشدة السائرة بتوجيهات الدين في ضوء سنن الله في الاجتماع الإنساني، و المبتعدة عن سبيل الغواية و الفساد بما يحفظ لأصحاب تلك الحضارة وجودهم في حركة التاريخ، و يحميهم من الانحراف و الضعف و الإنحلال، و من كل أسباب الهلاك و الإبادة.

و هذا لا يتحقق إلا إذا فقه أصحاب تلك الحضارات سنن الله التي يتم فهمها من خلال فهم حقيقة العلاقة بين الإنسان و المعطيات المادية التي سخرها الله تعالى لتكون في خدمته.

و السؤال الذي نطرحه في ضوء ما سبق الحديث عنه هو كيف تعامل قوم عاد و ثمود مع نعم الله بالمعطيات المادية و المعنوية التي ساعدتهم على بناء حضارتيهم حتى نمتا و ازدهرتا و بلغتا مرحلة القوة ؟ و كيف تفاعلوا مع الدين بإعتباره روح الحضارة ؟ و إلى أي مدى وصلت حضارتاهم؟.

---

(1) عفت الشرقاوي، في فلسفة الحضارة الإسلامية، ص 294.

المطلب الرابع

علاقة التفاعل بين مقومات الحضارة والدين في حياة عاد وثمود

الظاهر أن قوم عـاد وثمود لم يـأخذوا في حسـابهم التوجيهـات الدينيـة الـتي تضمنتهـا رسالة نبيي الله هود و صالح عليهما السلام، معرضين عن كل دعوة فيهـا تصحيح فكـرة أو تصويب سلوك، ففضلوا السير وفق ما تمليه عليهم أهواؤهم من بقايا ديـن أو تقـاليد الآبـاء و الأجداد : ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾[1]. رافضين الأخذ بما جاء به الأنبياء لتصحيح خط سير الحضارة نحو آفاق الخير و الفلاح.

و في هذه المرحلة من عمر حضـارتهم أخـذ صـوت الـروح يضعـف بداخلهـم فاسـحا المجال للغريزة أن يرتفع صوتها لتعلن عن انتصار قوتها علـى قـوة الديـن. و لم يفهمـوا <<أن الأساس الأبقى الذي يمكن أن تقوم عليه الحضارة الإنسانية الحقيقية، هو العقيدة الدينيـة بـلا جدال، لأن هذا الأساس يستمد مقومات قوته و بقائه من خـالق الكـون و الإنسـان، و هـو سبحانه أعلم بما يصلح أمر الكون و الإنسان>>[2].

كما لم يتطلعوا إلى فقه أن الإيمان شرط أوّلي لبسط النعمة، أو إلى المصطلح المعاصـــــــــر "الحضارة" مصداقا لقول رب العزة سبحانه : ﴿وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُــــــــرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَ اتَّقَوْا۟

(1). سورة البقرة: الآية 169.

(2). أحمد محمد كنعـان، أزمتنـا الحضاريـة في ضـوء سـنن الله في الخلـق،مركـز البحـوث والمعلومـات :قطر،ط1،1991م ص .152

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَ الأَرْضِ﴾[1]. و أن الحفاظ على هذه النعمة (الحضارة) مرتبط بالصلاح تحقيقا لقوله تعالى : ﴿وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[2].

و أن الدين منظومة حياتية شاملة لها أثرها العميق في تكوين الحضارة و الحفاظ على قيمها و منجزاتها كما وضحه سيد قطب حين تحدث عن أثر الدين في تكوين الحضارة، حيث قال : "حين ينهض الإنسان بالخلافة في الأرض على عهد الله و شرطه، و يصبح و هو يفجر ينابيع الرزق، و يضع المادة الخام، و يقيم الصناعات المتنوعة، و يستخدم ما يتيحه له كل الخيرات التي حصل عليها في تاريخه كله... حين يصبح و هو يضع هذا كله ربانيا يقوم بالخلافة على هذا النحو –عبادة الله– يومئذ يكون هذا الإنسان كامل الحضارة، و يكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة"[3].

لقد اتسعت الهوة بين قوم عاد و ثمود و بين دعوة نبيي الله هو و صالح عليهما السلام القائمة على الهدى و الصلاح، و نتج عنها اختلال ميزان تقسيم حضارتهم، إذ رغم ما بلغته كل واحدة منهما في زمانها من تطور و ازدهار إلا أنهما كانتا متذبذبتين في الجانب الروحي الذي "كان سببا في كبح النمو الحضاري المتكامل عندهما"[4].و يتجلى ذلك بوضوح من خلال معاني قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾[5].فالآية "أتبنون" لا تعني العبث و الحسية القاتلة إلا من خلال معناها الثاني العميق الذي يتوجه بها نحو الحضارة المادية. فقوم عاد و ثمود شأنهم شأن الحضارات المادية المعاصرة الآن التي حققت جزئيات الإيجاب، و تركت الأهم و هو الروح أو العقيدة.

و النتيجة أن حضارتيهم تقدمت ماديا و تأخرت روحيا، و المعنى أنه لم يكن هناك تكافؤ في النمو بين المادة و الروح، ففي الوقت الذي نمت فيه الجوانب المادية لم يواكب

(1) سورة الأعراف : الآية 96.

(2) سورة الأنبياء : الآية 105.

(3) معالم في الطريق، دار الشروق : بيروت، ط 16، 1993، ص 126..

(4) شايف عكاشة، الحضارة العربية الإسلامية بين التطور و التخلف، ص 37.

(5) سورة الشعراء : الآية 128.

ذلك التزام بالدين، و اهتمام بالعقيدة، جعل تلك الحضارة العملاقة في زمانها تضعف و تفقد التوازن، ذلك <<أن الحضارة التي لا تنمو فيها إلا النواحي المادية، دون أن يواكب ذلك نمو متكافئ في ميدان الروح هي أشبه ما تكون بسفينة اختلت قيادتها، و مضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التي ستقضي عليها>>(1).

و يتسرب إليها الوهن، فتنحل شيئا فشيئا حتى تأتيها لحظة الحسم الإلهي فتسقط، أما مصدر الانحلال في مجتمع عاد و ثمود فهو ذلك الجنوح عن الحق الذي يرتبط بجهل النفس و التخلي عن حمل الأمانة تحت تأثيرات الأهواء و الغرائز، و تكون سببا في تدهور الحضارة، الذي نتج بدوره عن فساد بطيء و انحطاط تجلى في جوانب حياة عاد و ثمود و نخرا قوتهما. و لا ريب أن نهايتهما كانت قد تتأخر بعض الوقت و لكنها لن تصرف عنهما قط، و لا بد أن يحل بهم ما حل من الانهيار و الإبادة ﴿وَ تِلْكَ سُنَّةُ اللّهِ فِي الَّذِيْنَ خَلَوْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبْدِيْلاً﴾(2).

إن الضعف الذي دب في كيان مجتمع عاد و ثمود نتيجة لتخليهم عن حمل أمانة الخلافة طبقا لأوامر الله و نواهيه و كان سببا في انهيار حضارتيهم، لم يظهر فجأة بل إن في القرآن الكريم آيات تشير إلى ما يسبق ذلك الانهيار من مقدمات، مثل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ القُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنَا لِمُهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾(3).معنى ذلك أن حضارتي عاد و ثمود لم تسقطا فجأة، و إنما كان الانهيار هو المرحلة النهائية من تغير طويل الأمد، تجمعت خلاله الأسباب، و تفاعلت فيما بينها. و يمكن أن نحلل تلك المقدمات و الأسباب التي أضعفت هاتين حضارتين و ساعدت على انحلالها و تدهورها، ثم انهيارها و سقوطها، ثم هلاكها في العوامل الآتية:

(1) ألبيرت أشفتزر، في الفلسفة الحضارة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس للطباعة و النشر ط.3، 1983 ص 106.

(2) سورة الأحزاب : الآية 62.

(3) سورة الكهف : الآية 59.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث

عوامل ضعف وانحلال حضارة عاد وثمود

لم يتفاعل قوم عاد وثمود مع مقومات الحضارة ومظاهرها تفاعلا ايجابيا، وذلك حين رفضوا دعوة الأنبياء، ولم يفقهوا أن الدين روح الحضارة وهو الذي يحافظ على وهجها ويمد من عمرها ويحميها من الانحرافات. فواصلت حضارهم بعد هذا الرفض للدين خط سيرها التنازلي عى وقع مجموعة من السلوكات الخاطئة التي أخذت تتفاعل فيما بينها داخل المجتمع إلى أن ادت إلى اضعافها. وهنا دخلت الحضارة مرحلة الضعف والتفكك وبدأ الإنحلال يتسرب إليها شيئا فشيئا، إلى أن تجمعت لها أسباب السقوط وفقدت مبررات الوجود فجاءتها لحظة الحسم الإلهي بالاهلاك والابادة. وحتى تتضح العوامل التي كانت وراء سقوط حضارتي عاد وثمود ، ويستوفي هذا المبحث حقه من الشرح والتحليل قمنا بتقسيمه إلى مطالب،بحيث:

ندرس في المطلب الأول: الظلم وأثره في اضعاف حضارتي عاد وثمود

وأما المطلب الثاني: الترف وأثره في انحلال حضارتي عاد وثمود

والمطلب الثالث: الطغيان ودوره في التعجيل بسقوط حضارة عاد وثمود.

وأخيرا المطلب الرابع: سقوط حضارتي عاد وثمود

المطلب الأول

الظلم وأثره في اضعاف حضارة عاد وثمود

أولا-الظلم(سنة الله في الظلم والظالمين)

تعريف الظلم:الظلم يعني وضع الشيء في غير موضعه. و أصل الظلم الجور و مجاوزة الحد.[1] و الظلم عند أهل اللغة : وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة، و إما بعدول عن وقته أو مكانه[2].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، جـ4، ص 2756، مادة ظلم.

(2) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن،ضبط ومراجعة:محمد خليل عيتاني،دار المعارف:بيروت،ط.1،1998م، ص 318.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أما المعنى الشرعي للظلم فهو : وضع الشيء في غير موضعه الشرعي[1]. و الظلم ضد العدل و نقيضه. في القرآن الكريم آيات كثيرة صريحة في تحريم الظلم بذكر اسمه، و آيات كثيرة في تحريم الظلم بصورة غير مباشرة و ذلك بالأمر بالعدل لأن الأمر بالعدل نهي عن الظلم فمن ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ﴾ و هكذا أمرا مطلقا بالعدل بكل ما هو عدل و لكل إنسان فلا يجور ظلمه و لو كان كافرا أو ظالما، قال ابن تيمية : <<و لهذا كان العدل أمرا واجبا في كل شيء و على كل أحد و الظلم محرما في كل شيء و لكل أحد فلا يحل ظلم أحد أصلا سواء كان مسلما أو كافرا أو كان ظالما>>[2]. فالظلم عاقبته وخيمة و نهايته مظلمة، و لشدة خطورته على المجتمعات حين يستفحل في أوساط أفرادها. و تأثير ذلك على نفسية كل واحد منهم حرمه الله تعالى حتى على نفسه، و جعله محرما بين الناس، كما جاء في الحديث القدسي الذي يرويه النبي صل الله عليه و سلم عن ربه :<< يَا عِبَادِيَ إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَ جَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا>>[3].

و هذا الأمر الرباني بتحريم الظلم، إنما الهدف منه حماية الإنسان من ظلم نفسه، وحماية الجماعة من ظلم بعضها البعض، إذ يمثل مبدأ عدم الظلم شرط الحياة في المجتمع وبه تظل شبكة العلاقات الاجتماعية مترابطة ومتماسكة لفترة زمنية طويلة، ولا تصاب بالتلف والتمزق.و من المعلوم أن الظلم معصية، وأن الظالم إذا لم يتب من ظلمه عوقب عليه في الآخرة، وأنه إذا تاب توبة نصوحا مقبولة فتوبته تسقط عنه عقوبة ظلمه. والغالب أن الظالم –حسب سنة الله في الظلم والظالمين– يعاقب في الدنيا على ظلمه، يدل على ذلك حديث رسول الله الذي أخرجه أبو داود: <<مامن ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعه الرحم>>[4].وجاء في شرحه:<< ما من

(1) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني،فتح الباري شرح صحيح البخاري،كتاب المظالم،دار المعرفة:بيروت،د.ط،د.ت، جـ5، ص 95.

(2) أبو العباس تقي الدين بن تيمية، الفتاوي الكبرى، تقديم حسن محمد مخلوف، دار المعرفة: بيروت د.ط، 1966م، ص 419.

(3) مسلم، الصحيح ، كتاب البر،باب تحريم الظلم،عن أبي ذرعن النبي فيما رواه عن الله تعالى،جـ 4، ص 1994. وأحمد في مسنده،جـ5ص160. والمعنى <<إني حرمت الظلم عن نفسي>> قال العلماء:معناه تقدست عنه وتعاليت.<<فلا تظالموا>>أي لا تتظالموا.والمراد لايظلم بعضكم بعضا .

(4) سنن أبي داود،مطبعة مصطفى البابي الحلبي:مصر،ط1،1952م،جـ2ص573.عن أبي بكره.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ذنب أحق وأولى لصاحبه أي لمرتكب الذنب أن يعجل ا لله له العقوبة مع ما يُؤجل من العقوبة له في الآخرة مثل (البغي)، أي بغي الباغ وهو الظلم[1]. وهذا لا يعني أن كل ظالم يناله العقاب على ظلمه في الدنيا حتما وفورا أو عاجلا لأن من سنة ا لله أيضا إمهال الظالم ولكن دون إهماله. "وقد يكون في عدم تعجيل عقوبته في الدنيا لحكمة يعلمها ا لله ولا نعلمها مثل استدراجه"[2].

ثانيا-هلاك الأمة بظلمها

من سنة ا لله في الظلم و الظالمين هلاك الأمة بظلمها، و في بيان هذه السنة العامة في آيات كثيرة في كتاب ا لله العزيز منها قوله : ﴿وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾[3]، و قوله تعالى:﴿وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾[4]، و كلمة (لما) ظرف يدل على وقوع فعل لوقوع غيره مما هو سبب له. و هذا يدل على وقوع هلاك الأمة لوقوع سببه و هو الظلم. و هذا الظلم نوعان (الأول) ظلم الأفراد لأنفسهم بالفسق و الفجور. و الخروج عن طاعة ا لله و التظالم فيما بينهم (و الثاني) ظلم الحكام لهم على نحو يهدر حقوقهم و يذهب بعزتهم و يعودهم على حياة الذل و المهانة مما يجعل الأمة ضعيفة غير صالحة للبقاء فيسهل على الأعداء الاستيلاء عليها و استبعادها فيكون هذا محقا لها و فناء لشخصيتها[5]. فيصدق عليها قول ا لله تعالى : ﴿وَ كَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَ أَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾[6] و هذه السنة دائمة في الأمم و لها مواقيت لهلاكها بسبب الظلم، الذي أشار القرآن إلى معناه في ذكر قصص الأمم البائدة في قوله تعالى:﴿وَ كَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَ أَخَذَ الْقُرَى وَ هِيَ ظَالِمَةٌ﴾[7] أي أنهم ظلموا أنفسهم بارتكابهم ما به أهلكوا و هو بيان من ا لله للناس أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم

---

(1) عون المعبود بشرح سنن أبي داود،أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي،شرح:الحافظ شمس الدين بن القيم الجوزية،في باب النهي عن البغي،دار الكتب العلمية:بيروت،ط.1،1998م،جـ13،ص166.

(2) عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية.مؤسسة الرسالة : بيروت،ط.3، 1994م، ص 117

(3) سورة هود: الآية 66.

(4) سورة يونس : الآية 13.

(5) رشيد رضا ،تفسير المنار، جـ11،ص315.

(6) سورة الأنبياء : الآية 11.

(7) سورةهود : الآية 102.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الشديد،فالآية تحذير من وخامة الظلم، فلا يغتر الظالم بالإمهال[1].

و هو المعنى الذي أومأ السرد القرآني إليه في ذكره لقصص عاد و ثمود،إذ جاء الظلم بمعناه ظلم النفس بالشرك و الكفر، و ظلم الغير بالتجبر و البطش، و نلمس ذلك جليا حيث ماورد في مواضع عديدة، بصيغ متعددة و بأذكار مختلفة و بسنن كثيرة في قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[2].

و قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3]، و المعنى أن الأمم المذكورة في هذه الآية و من بينها عاد و ثمود هي التي ظلمت نفسها بارتكابها الذنوب و مخالفتها لأوامر الله التي بينها الرسل عليهم السلام للناس، و إصرارها على المعاصي و تماديها في الضلال رغم وجود معجزات الله في أرضه ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾[4].

فهذه الآيات و غيرها تبين بوضوح أن قوم عادٍ و ثمودَ كانوا ظالمين لأنفسهم بارتكابهم للمذمومات من الأمور و الآثام المنهي عنها في شريعة الله. و هو من الأسباب المباشرة في إضعاف حضارة عاد و ثمود و تقويض أركانها.

ثالثا – الظلم ودوره في اضعاف حضارة عاد وثمود

يفهم في ضوء ما ذكره القرآن أن الظلم ذكر في إطار الإنحراف العام الذي يصيب الأمة، إذ لم يكن الظلم سمة الملأ الحاكمين في عاد و ثمود إنما هو سلوك عام للإنسان عندهم. فعلى مستوى

---

(1). تفسير الزمخشري، ج2، ص 447.

(2). سورة فصلت : الآية 15.

(3). سورة التوبة : الآية 70.

(4). سورة الإسراء : الآية 59.

الأفراد نجد أنهم كانوا ظالمين لأنفسهم و ذلك بتكذيبهم لرسالة نبييهما الله هود و صالح عليهما السلام لقوله تعالى :﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ، وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ، إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾(1)، و قوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾(2). و إنّ أولئك الأفراد كانوا ظالمين لأنفسهم باتخاذهم الظلم سبيلا لحياتهم و ذلك حين أعلنوا رفضهم للإصلاح، و تقبلهم للإفساد في الأرض إذ كانوا ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ﴾(3). " و هذا يعني أنهم كانوا مُكبين على الإفساد بجوارهم و عقولهم و قلوبهم، فهم يمارسون طرائق الإفساد بطبعهم و لا رغبة لهم قط في الإقبال على شكل من أشكال الإصلاح إن دعوا إليه، أو حملوا عليه حتى كأنهم مفطرون على العبث و الفساد"(4).

و هذا ما جعل ظلم أولئك الأفراد لانفسهم يأتي مقرونا بالكفر بنعم ا الله في الأرض و العبث فيها رغم ما تمدهم به من خيرات، و ما تخرجه من رزق طيب فيه فائدة لهم و لأنعامهم لقوله تعالى : ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَ لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(5).

أما على مستوى الحاكمين (الملأ) من أمة عاد و ثمود، فنجد أنهم كانوا ظالمين لأنفسهم لاشتراكهم في الكفر و جحود نعم ا الله مع بقية أفراد المجتمع على حد سواء، و ظالمين لغيرهم بالاعتداء على حقوق المستضعفين، و كبت حريتهم.

و لما كان الظلم هو السمة الغالبة في مجتمع عاد و ثمود، و كان من سنة ا الله تعالى في الظلم و الظالمين أن الرعية الظالمة التي يتظالم أفرادها فيما بينهم يولي عليهم حاكما ظالما فيكون تسلطه عليهم من العقاب لهم على ظلمهم قال تعالى : ﴿وَ كَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(6).

(1) سورة ص : الآية 12-14.

(2) سورة الحاقة : الآية 4.

(3) سورة النمل : الآية 48.

(4) عبد المنعم سيد حسن عبد التفيع، نماذج من الحضارة القرآنية في سورة الروم، ص 20.

(5) سورة الأعراف : الآية 74.

(6) سورة الأنعام : الآية 129.

و جاء في تفسيرها : تسلط بعض الظلمة على بعض فيهلكه و يدله. و هذا تهديد للظالم إن لم يمتنع عن ظلمه يسلط الله عليه ظالما آخر و يدخل في الآية جميع من يظلم نفسه أو يظلم الرعية [1].

و قال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية :<<الآية تدل على أن الرعية متى كانوا ظالمين فالله تعالى يسلط عليهم ظالما مثلهم، فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم>>[2].

و حين يتولى حكام (الملأ) ظلمه على أمة عاد و ثمود أصيب أفرادها بالمذلة لشدة القهر المسلط عليهم، فأصبحوا عاجزين عن المقاومة و الدفاع عن النفس و مبررات الشجاعة و البسالة ما يقع عليهم من ظلم كرهوا الحياة و رفضوا الوقوف لرد الاعتداءات عليهم فيستسلموا لكل ظالم أو طاغية من تلقاء أنفسهم و شيئا فشيئا و مع مرور الزمن صدق عليهم قوله تعالى : ﴿وَ مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[3]. "فالظلم في الأمم يقضي عقابها في الدنيا بالضعف و الاحتلال الذي يقضي إلى الزوال أو فقد الاستقلال، و مثل هذا العقاب يقع على الأمة بأسرها لا على مقترفي الظلم وحدهم منها، لأن الظلم الذي ينتشر فيها دون أن يقاومه أفرادها و جماعاتها يعم فساده"[4].

إن كثرة الظلم و استفحاله في مجتمع عاد و ثمود تحول إلى فساد عظيم يجلب البوار و الخسارة لأهله و كان سببا في حلول عذاب الإستنصال بهم "لأنه ما كان فيهم من ينهى عن الفساد و يأمر بالرشاد"[5] .

إن وزر ممارسة الظلم الذي ينقلب إلى فساد في الأرض ينقل كواهل الأفراد و الجماعات على السواء فالعاكفون على الإفساد –والمقرون له– و الساكتون عليه شركاء في الإقرار به، و الرضا عن أمره لا فرق في ذلك بين حاكم و محكوم أو تابع و متبوع. ذلك أن بيوت أهل ثمود قد خربت بسبب ما مارسه لفيف منهم[6].

(1) عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية ،ص 118..

(2) التفسير الكبير، جـ13، ص 194.

(3) سورة هود : الآية 116.

(4) عفت الشرقاوي، في فلسفة الحضارة الإسلامية، ص 290.

(5) الشوكاني، فتح القدير، م2، ص 679.

(6) عبد المنعم سيد حسن عبد الشفيع، نماذج من الحضارة القرآنية في سورة الروم، ص 22.

من هنا نفهم أن القرآن يطرح مبدأ مقاومة الظلم مقابل مبدأ الظلم، و يؤكد في أكثر من موضع على أن آية أمة إنما تحمل مسؤوليتها كاملة عما يلحق بحضارتها صعودا أو نزولا من تقدم أو إنهيار "إن نعم الله تعالى على الأقوام والأمم موطة إبتداء ودواما بأخلاق وصفات و عقائدوعوائد و أعمار تقتضيها، فما دامت هذه الشؤون لاحقة بأنفسهم متمكنة منها كانت تلك النعم ثابتة بثباتها و لم يكن الله لينزعها منهم إنتزاعا بغير ظلم منهم ولا ذنب".[1]

إن الظلم الذي أقترفه أفراد أمة عاد و ثمود هو الذي أوصلهم إلى عقاب الله، و أدى بهم و بحضارتهم إلى الهاوية و ذلك نتيجة لما كسبت أيديهم و دون أن تصيبهم شائبة ظلم في ذلك تحقيقا لقوله تعالى : ﴿وَ مَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُم، وَ لَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[*] .أي لم يكن الله ليهلكهم بغير جرم إجترموه، لأن ذلك ليس من سنته تعالى، و هو لا يوافق منهج الحكمة فلا يصدر عن الحكيم، " و لكنه أهلكهم بذنوبهم، و كفرهم بربهم و جحودهم نعمته عليهم و تقلبهم بآلائه، و عبادتهم غيره، و معصيتهم من أنعم عليهم"[2].وحقيق بنا أن نقف عند هذا الجزاء العادل الذي دمغت به عاد و ثمود، إذ كتب الله عليهما العذاب و الهلاك و البعد عن رحمة الله و جعلهما شركاء فيه ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾[3] ﴿أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾[4]." ونحسب أن البعد هنا تنحية هاتين القبلتين أفرادا و جماعات عن كل ما يصلهم بأسباب الخير و طرائقه في الدنيا فلا وزن لفعلهم فيما سجله التاريخ المعول عليه"[5]. فا لله عز و جل لم يكن ليهلك عاد و ثمود إلا بظلم من أفراد تلك الأمتين العظيمتين اللتين حادتا عن جادة الصواب. فمثل بهما القرآن لبيان عاقبتهم، و أن حضاريتهما أبيدت لعدم استرشادهم فيها بتوجيهات الله و نصح رسله و تلك سنة الله في كل من كفر بأنعمه. فما كان الله ليهلكهم إلا بظلم منهم مصداقا لقوله : ﴿وَ مَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَ أَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[6]. أي و لا نهلك القرى التي نبعث فيها الرسل الذين يدعوهم إلى الحق

(1) عفت الشرقاوي، في فلسفة الحضارة الاسلامية، ص289.

(*) سورة العنكبوت:الآية40.

(2) أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، دار الفكر: بيروت، ط3، 1974م، م7، ج19، ص 142.

(3) سورة هود الآية 60. (4) سورة هود : الآية 68.

(5) عبد المنعم سيد حسن عبد التفيع، نماذج من الحضارة القرآنية في سورة الروم، ص 21.

(6) سورة القصص : الآية 59.

يرشدونهم إلى سبيل السداد إلا إذا ظلموا بتكذيب الرسل وفروا بالآيات، فلا نهلك قرية بإيمان، و لكن نهلكها بظلمها و اجترامها المعاصي، و أرتكابها الآثام، و قوله: بظلم إشارة إلى أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلما منه تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيرا [1].

و يقول الشوكاني في تفسيره الآية في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي ما يصح و لا يستقام أن يهلك سبحانه أهل القرى بظلم يتلبسون به و هو الشرك و الحال أن أهلها مصلحون فيما بينهم في تعاطي الحقوق لا يظلمون الناس شيئا. "و المعنى أن الله لا يهلكهم بمجرد الشرك وحده حتى ينضم إليه الفساد في الأرض. و يكون المراد بالآية تنزيهه سبحانه و تعالى عن صدور ذلك منه بلا سبب وجيه على تصوير ذلك بصورة ما يتحيل منه، و إلا فكل أفعاله كائنة ما كانت لا ظلم فيها، فإنه تعالى ليس بظلام للعبيد[2].

و خلاصة القول إن المجتمع الذي يتسم بالعدل و الإنصاف يجعل أفراده ينشطون في حركاتهم و أعمالهم وتزدهر حياتهم الإقتصادية و الإجتماعية نظرا لما يتوفر لهم من أمن و طمأنينة فتقوى آمالهم و تنشرح نفوسهم و يقبلون على الأعمال المختلفة بجد فيحققون النمو والتطور و يصبح المجتمع قويا.

بخلاف المجتمع الذي يكثر فيه الظلم و الإعتداء على حرية افراده و هضم حقوقهم و الحط من كرامتهم، فإنهم يمقتون الحياة، و يتخلون عن العمل الجدي و يميلون إلى الأساليب الخبيثة التافهة كرد فعل على ما يعاملون به، و تثبيت العزائم و القضاء على المواهب و كل النشاطات الأخرى، و يدفع الناس إلى السخط على النظام المتسلط عليهم، بل و يكرهون الحياة نفسها ويدمرون منها و يتخلون عن كل نشاط عملي في مختلف الميادين وذلك من شأنه أن يصيب الأمة بالوهن ماديا و معنويا، و عندما تتدهور هذه الناحية تتدهور معها العلاقات الاجتماعية و تساء أحوال الرعية التي تصبح عرضة للمخاطر و المهالك [3]. ذلك أن التحول من العدل إلى الظلم و الجور في أي مجتمع يعمل على إضعافه و حينها يأذن الله بذهابه و زوال ملكه[4].

---

(1). تفسير المراغي، م7، جـ19، ص 77.

(2) الشوكاني، فتح القدير، م2، ص 680.

(3). إدريس خضير، التفكير الاجتماعي الخلدوني. ديوان المطبوعات الجامعية: الجزائر، د.ط، 1983م، ص 158.

(4). سيد سابق، عناصر القوة في الإسلام، دار الكتاب العربي : بيروت، ط.2، 1978 م، ص 150.

المطلب الثاني

الـتـــرف وأثره في انحلال حضارتي عاد وثمود

أولا- تعريف الترف

جاء في لسان العرب الترف : التنعم و الترفة النعمة و أترفته النعمة: أطغته. و المترف : هو الذي قد أبطرته النعمة و سعة العيش. و المترف : المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا و شهواتها[1]. و في المفردات في غريب القرآن : الترف : التوسع في النعمة [2]. و في الفتح القدير : المترفين هم الذين أبطرتهم النعمة، أي صاروا تابعين للنعم التي صاروا بها مترفين من خصب العيش، و رفاهية الحال، و سعة الرزق و آثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة، و استغرقوا أعمارهم في الشهوات النفسانية [3]. و من معاني الترف في اللغة يتبين أن لهما ثلاث صفات هي :- الترف بطر النعمة و المترف هو الذي أبطرته النعمة و سعة العيش.

- الترف الطغيان بسبب النعمة. و المترف هو الذي أطغته النعمة.
- الترف : التنعم و التوسع في ملاذ الدنيا، و المترف هو المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها.

ثانيا -صفات المترفين

أ- من عادة المترفين لما يفعله فيهم الترف من بطر النعمة و انغماس في الملذات و الشهوات أنهم يسارعون قبل غيرهم في تكذيب رسل الله و رد الحق الذي جاؤوا به استدلالا باطلا بما هم عليه من كثرة المال و الأولاد و سعة الجاه و السلطان و كثرة الأتباع و علو منزلتهم عند الناس قال تعالى : ﴿وَ مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. وَ قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَ أَوْلَادًا وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[4]. فهذه الآيات تبين عادة مطردة للمترفين و هي أن الله تعالى لم يبعث رسولا في قرية إلا كذبه مترفوها و هم أولو الحشمة و النعمة و الثروة و الرياسة[5].

وتخصيص المترفين بالتكذيب لأنهم في الأغلب أول المكذبين للرسل عليهم السلام لما شغلوا به أنفسهم من زخرفة الدنيا و ما غلب على قلوبهم منها فهم منهمكون في الشهوات ومستهينون بمن لم يظفر منها ما ظفروا بهم[6].

---

(1) ابن منظور، جـ1، ص 429. (2) الراغب الأصفهاني،المفردات في غريب القرآن، ص 81.مادة ترف.
(3) الشوكاني، جـ2. ص 680. (4) سورة سبأ : الآية 34-35.
(5) تفسير ابن كثير، جـ 5، ص 556. (6) أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسي:روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،دار احياء التراث العربي:بيروت تفسير الألوسي، ط4، 1985. جـ 22، ص 147

أو إنما نسب القول بتكذيب الرسل إلى المترفين مع أن غيرهم أيضا قالوا : ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، لأن الأغنياء المترفين هم الأصل في ذلك القول، ألا ترى أن الله تعالى قال عن الذين استضعفوا إنهم قالوا للمستكبرين : ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[1].

ثالثا – حجتهم في التكذيب

أما حجتهم في تكذيب رسل الله فهو ما حكاه القرآن في قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[2]، أي نحن أكثر منكم أموالا و أولادا أو إن أموالنا و أولادنا كثيرة جدا و ما نحن بمعذبين شيئا من أنواع العذاب الذي يكدر علينا لذة كثرة الأموال و الأولاد من خوف الملوك و الأمراء و الحكام و قهر الأعداء و عدم نفوذ كلمتنا في الناس و نحو ذلك من المكدرات[3].

و حاصل قول أولئك المترفين و حجتهم : إدعاؤهم بأنهم في نعمة لا يشوبها نقمة، و هذا في زعمهم – دليل كرامتهم على الله عز و جل و رضاه عنهم، و أنه لو كان ساخطا عليهم لشركهم لما أنعم عليهم بهذه النعم. و قد رد الله عليهم هذه الحجة بقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[4]. أي يبسط الرزق لمن شاء الله بسط الرزق له، و يضيّقه على من يشاء، يفعل كل من ذلك حسبما تقتضيه مشيئته تعالى و حكمته و لكن أكثر الناس لا يعلمون حكمة ما يفعله الله من البسط و التضييق في الرزق على عباده[5].

جـ- منهج المترفين في الحياة:و هذه سبيل المترفين. فحين تنجم دعوة من دعوات الخير يكون المترفون أول من يلقونها بالنكير، و يرجمونها بكل ما يقدرون عليه، وما جاء رسول من رسله الله يدعو قومه إلى الهدى إلا وتصدى له المترفون منهم، و أعلنوا عليه الحرب،وجمعوا له الجموع للوقوف معهم في وجهه [6].وهي الحقيقة التي أثبتها القرآن الكريم و من بعده التاريخ الحافل بتجارب الأمم و الحضارات بما لا يدع للشك،أن هناك تشابه عجيب بين المترفين في تصورهم للأوضاع الاجتماعية الراهنة، النابعة من رؤية موحدة للحياة

(1) تفسير الرازي، جـ5ص261.

(2) سورة سبأ : الآية 35.

(3) عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية، ص 185.

(4) سورة سبأ : الآية 36.

(5) محمد الألوسي، المصدر السابق جـ22، ص 148.

(6) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي:بيروت، م2، جـ21، ص 829.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في كل زمان و مكان، فمترفوا الأمس هم أنفسهم مترفوا اليوم، و سيكونون مترفي الغد، مهما تغيرت الأحوال و المجتمعات و المفاهيم فسيظل المترفون هم المترفون لا يهتمون إلا بملاذ الدنيا و شهواتها و جمع المال لذلك، لا يهمهم ما يكون عليه المجتمع من الخير و الصلاح.

رابعا - جزاء المترفين

و قد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة فكذبوا برسل الله و ردوا دعوة الله أن يهلكهم و يذيقهم العذاب في الدنيا كما يذيقهم العذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ، فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ، لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾[1]. و جاء في تفسير هذه الآيات أرجعوا إلى ما أترفتم فيه من العيش و الرفاهية و الحال الناعمة[2].

خامسا - هلاك الأمة بفسق مترفيها

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[3]. فإذ عدنا إلى تتبع ماقصه القرآن الكريم من أقوال المرسلين عليهم السلام فإننا نجد تشابها تاما في موقف المترفين مع كل رسول مهما اختلف الزمن. والقرآن يعرض لنا هذا التشابه في ألفاظ متشابهة فهود عليه السلام -ومن قبله- نوح عليه السلام عندما أرسله الله إلى عاد كفروا به وعاندوه، يحكي القرآن موقفهم هذا فيقول: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[4]. وظل صالح عليه السلام يدعو قومه ثمود إلى الهدى فيتصدى له المترفون كذلك، يبرز القرآن موقفهم هذا فيقول: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[5]. ومثله شعيب عليه السلام يتجبر معه المترفون من أمة مدين ويتوعدونه بالطرد من قريتهم إن لم يرجع عن دعوته ويعود إلى ملته. ولعل قصة موسى مع فرعون الذي طغى تحكي أبرز ما فعله المترفون مع الدعاة المصلحين، ولعلنا نستنير أكثر حين نعود إلى استعراض ماقاله الله تعالى بشأن أولئك المترفين وموقفهم من دعوة الإصلاح، فيقول: ﴿وَمَا

(1) سورة الأنبياء: الآية 11-15.

(2) تفسير الرازي، جـ22، ص 146.

(3) سورة الإسراء: الآية 16.

(4) سورة الأعراف الأية66

(5) سورة الأعراف75-76

أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[1] .

و جاء في تفسيرها : و إذا دنا وقت هلاكها أمرنا مترفيها أي متنعميها و خياريها و ملوكها بالصلاح و الاعتدال، فلم يمتثلوا و فسقوا فيها فحق عليها القول فأهلكناها. و إنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة و الصلاح و الإعتدال إلى الجميع لأنهم أئمة الفسق و رؤساء الضلال، و ما وقع من سواهم إنما وقع بإتباعهم و إغوائهم، فكان توجه الأمر عليهم آكد[2].

سادسا – الترف و أثره في انحلال حضارة عاد و ثمود

مثلما فعل الترف بالمترفين في الأمم و الحضارات الأخرى، فعل بمترفي أمة عاد و ثمود حين أبطرتهم النعمة حتى خرجوا بها عن حد الاعتدال فأفسدتهم و قتلت فيهم معاني الإنسانية بما نشأ فيهم من الفسق و كل ما من شأنه أن يغذّي العواطف،و يوقظ الغرائز على حساب المطالب الروحية و كانوا بذلك آفة المجتمع، و مظهرا سيئا لذلك الجيل من الناس بما بلغوا من الصفات المذمومة الموجبة للهلاك و التدمير الغاية القصوى.

و الظاهر أن الترف الذي نعمت به أمة عاد و ثمود قد أفسد فطرة القوم و بعث فيهم الغرور و التطاول، و حال بينهم و بين التمسك بالفضائل و القيم العليا و هداهم إلى الانغماس في الرذائل و شهوات الدنيا حتى عميت أبصارهم عن الحق فردوا كل دعوة للفضيلة و الخير، قال تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[3].

فالآية تحكي موقف المترفين من الرسل الذين جاؤوا لهدايتهم، و أن أولئك المترفين كانوا أعداء الأنبياء و المصلحين[4].

---

(1) سورة سبأ :الآية34.

(2) تفسير الألوسي، جـ 15، ص 42.

(3) سورة إبراهيم : الآية 9.

(4) محمد سيد طنطاوي، التفسير البسيط للقرآن الكريم، مطبعة السعادة: مصر، دط، 1985، م11، ج20، ص187.

يصرّح القرآن أن المترفين من أمة عاد و ثمود مثلوا أعلى طبقة في السلم الاجتماعي بعدما وجدوا حظهم و نعيمهم في ظل وضع معين، جعلهم يكونون أصحاب النفوذ و الكلمة المسموعة، و خول لهم حق السيادة في المجتمع و التحدث بإسمه، فالتصدي للدعوة التي جاء بها نبيا الله هود و صالح عليهما السلام. قال تعالى ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ، قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [1].

و قال تعالى على لسان المترفين من أمة ثمود : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [2].

و الآيات تحكي أن قوم عاد و ثمود بزعامة الملأ المترفون منهم كذبوا نبيا الله هود و صالح عليهما السلام، و استكبروا على الهدى و أصروا على الباطل، فهم ما احترموا الدعوة التي عرضت عليهم، و لا لان قلبهم لها ولافكروا في تصديق رسولا الله، بل مضوا و استرسلوا كأن شيئا لم يقع، أو بتعبير القرآن:﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [3]، كل شيء كما هو، دعوات المصلحين هذه لا قيمة لها، صيحات الأنبياء لا قيمة لها [4]، بل هم أصحاب ثراء و جاه، لما رأوا ما هم فيه من نعيم حسبوا أن هذا امتياز خصهم به الله دون غيرهم. و قد خول لهم هذا الفهم احتكار السلطة، و تسرب من هذا الفهم إلى نفوسهم المتعالية فملأها غرورا و عجبا.

و أطمأنت نفوسهم أنهم الطبقة التي نالت الحظوة عند الله بما تراه من النعيم و البسط في الأموال و الأرزاق و غيرها من النعم التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [5]، فصرفت حياتها إلى الشهوات و الملذات غير آبهة لدعوة نبيي الله هود و صالح عليهما السلام و ما تحمله من إيمان بالله و ضرورة توحيده في العبادة، و نبذ الشرك، و التصديق بالبعث و بلقاء الآخرة و غير هذه المعاني التي تضمنتها سورة

(1) سورة الأعراف : الآية 65-66. (2) سورة الأعراف : الآية 73-76. (3) سورة القمر : الآية 3

(4) محمد الغزالي، نماذج من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، منشورات المركز الثقافي الإسلامي: الجزائر 1987م ص38

(5) سورة الشعراء : الآية 133 - 134.

المؤمنون و هي تحكي موقف المترفين المتكبرين من قوم ثمود و هي تواجه دعوة نبي الله صالح عليه السلام بالكفر والتكذيب في قوله تعالى :﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ، وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ، وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ، أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ، إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ، إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1].

لقد خدع الترف المستكبرين من قوم عاد و ثمود ". و هكذا المترفون تخدعهم القيم الزائفة و النعيم الزائل، و يغرهم ما هم فيه من ثراء و قوة فيحسبونه ما نعهممن عذاب الله، و يخالونه آية الرضى عنهم "[2]. و معاني أخرى ورد ذكرها حكاية عن الذين أبطرتهم النعمة فأستكبروا من قوم عاد في مواجهتهم لدعوة نبي الله هود عليه السلام في قوله تعالى :﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ، إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[3].

و المعنى : أننا أفضل عند الله، فنحن نعيش حياتنا في آمان و اطمئنان و ما نحن بمعذبين[4].

أعتقد المترفون حسب ما تنص عليه الآية أن الله خصهم بنعمة الترف لمكانتهم عنده وحسبوا في غمرة تعاليهم و عزتهم بأنفسهم،أن ذلك دليل على الرضوان عليهم.

يقول ابن كثير في وصف هذا الاعتقاد الباطل : " اعتقد المترفون أن ذلك دليل على محبة الله لهم و اعتنائه بهم، و أنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة- و هيهات لهم ذلك- قال تعالى : ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ لاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[5].

و يبدو أن الزيادة في الترف و التنعم فيه إشعار بأن ذلك أفضى بعاد و ثمود إلى الاستكبار عن الحق كما تفيده الآية ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ و كأنهم ضمنوا لأنفسهم السعادة

---

(1) الآية 32 – 38.

(2) سيد قطب، الظلال، ج5، ص 2910.

(3) سورة الشعراء : الآية 136 – 138.

(4) محمد سيد طنطاوي، التفسير البسيط للقرآن الكريم، م11، ج20، ص187.

(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم – ج5، ص 557.

في الدنيا، وسيضمنون السعادة في الآخرة، و سيكونون حتما بعيدين عن كل عذاب ذلك، "أن من شـــأن الإتراف و التقلب في نعم الدنيا، أن يجعل قلب الإنسان متعلق بها، و سيعظمها فيرى السعادة فيها سواء وافق الحق أم خالفه- فلا يذكر إلا ظاهر الحياة و ينسى ما وراءه"[1].

و ها هنا وجه آخر و هو أنهم لغرورهم بما رزقوا به من مال و الولد ظنوا أن لهم كرامة على الله سبحانه و هم على كرامتهم ما داموا، و المعنى أننا ذوو الكرامة على الله بما أوتينا من كثرة الأموال و الأولاد و نحن على كرامتنا فما نحن بمعذبين لو كان هناك عذاب[2].

إنهم بما لهم من كثرة المال و الأولاد لن ينزلوا عن مقام السيادة لأحد، ثم أنهم إذا عذب غيرهم من الفقراء و المستضعفين لن يعذبوا هم. فإن الله أعطاهم هذا الوفر في المال بين الناس فهم في الآخرة – إن كان هناك عندهم آخرة – في هذا الموضع أيضا، حيث يعذب الفقراء و المستضعفون أما هم فلن يعذبوا. بل ينزلوا منازل الإكرام و الإعزاز .. ذلك ظنهم بأنفسهم و في هذا يقول تعالى على لسان واحد منهم و هو صاحب الجنتين المترف ﴿وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾[3].

فكان رد القرآن على هذا الفهم المغلوط الفاسد الذي فهمه المترفون لما لله في عباده من بسط الرزق أو قبضه. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ، وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فليس بسط الرزق أو قبضه من الله بحسب منازل الناس عنده، و إنما منازل الناس عند الله بأعمالهم الصالحة[4].

و ربما يسأل سائل فيقول: ما بالنا نرى أقواما كثيرة في التاريخ قد امتلأت الأرض بمفاسدهم و مبا لهم و ظلمهم و قتلهم الأنفس بغير الحق، و إفراطهم في الترف إلى حد البطر، و مع ذلك نراهم قد دارت عليهم الأموال، و أنس لهم في الآجال و هم في نعيم بعيد المنال. بل هم على حال في خير الأحوال.

---

(1) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج16، ص 388.

(2) المصدر نفسه ، ص 389.

(3) سورة الكهف:الآية 36

(4) انظر في ذلك كل من: التفسير القرآني للقرآن- عبد الكريم الخطيب، م6،ج21،ص 830. و تفسير ابن كثير لابن كثير-ج5، ص 557، و التفسير البسيط للقرآن الكريم – محمد السيد طنطاوي. م21، ج20، ص 188.

رويدك أيها السائل : إن هؤلاء متبر ما هم فيه و باطل ما كانوا يصنعون، إن هؤلاء يملي لهم الله ليستدرجهم من حيث لا يعلمون.حتى إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر [1].

و يقول صلى الله عليه و سلم : "إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ"[2]. ثم قرأ قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذْ أَخَذَ القُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[3].

و الله تعالى يمهل و لا يهمل أبدا، فإذا أعطى أمة ما نعمة من النعم الدنياوية و هي عاصية لأوامره. إنما هو إستدراج منه عز و جل، حتى يوقع بها عذابه الأليم بعد حين.

و قد محض الرسول صلى الله عليه و سلم هذا السلوك من الأمة العاصية و العاقبة التي يقررها الله تعالى في حقها بقوله :<<إِذَا رَأَيْتَ اللهَ عَزَ وَ جَلَ يُعْطِي العَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُ، فَإِنَّمَا هُوَ إِسْتِدْرَاجٌ>>[4]. و ما ينطبق على الفرد العاصي ينطبق على الأمة العاصية، فما الأمة إلا مجموعة أفراد. ثم تلى بعد ذلك عليه السلام قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[5].

ففي الإستدراج الفتنة، و فيه المحنة، و فيه السقوط إلى مهاوي الضلال فلا يغتر أحد بما بدا من آثار النعمة على الطغاة والمترفين، ففي هذه النعمة النقمة والعذاب الآليم، و الله عز و جل ليس بغافل عن فرد أو مجتمع أو أمة و الله عز و جل غالب على أمره و لكن أكثر الناس لا يعلمون.

و هكذا نصل إلى ما لا يدع للشك في أن الترف كانت له عواقب وخيمة أدت إلى سقوط الأمم و الحضارات، بيد أن القرآن بادر إلى شرح و توضيح الأبعاد الخطيرة التي تنجم عن الترف و بين أن ذلك ينعكس على شخصية المترفين ونفسيتهم فيميل بهم عن طريق الحق و يدفعهم إلى الفساد في الأرض و التكبر و التجبر على الخلق فتكون النتيجة أن يحل عذاب الله عليهم بتحقيق سنة الله و وعده في أن الترف يؤدي إلى الهلاك حتما، و لو تركت

(1) محمد محمود الصراف، العوامل الخطيرة التي تهدم بنيان الأمم، مجلة رابطة العالم الإسلامي موسسة مكة المكرمة،

د.ط، 1967م، ص 109

(2) مسلم: الصحيح،كتاب البر،بابتحريم الظلم عن أبي موسى، ج4، ص 1997.

(3) سورة هود: الآية102.

(4) أحمد في مسنده،جـ4ص145.

(5) سورة الأنعام : الآية 46.

المجتمعات لهؤلاء المترفين لأصبحت مجتمعات فارغة من العمل، مقرعة باللهو و اللعب، يطفو على سطحها الفارغون، و يصبحون حينئذ من أهم الأسباب لنكبتها و انحلالها، و نزول أسوأ العذاب من أجلهم، و تتمثل فيهم القاعدة التي قررها القرآن الكريم في وضوح و استقامة [1] ﴿وَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [2].

و المعنى و إذا أردنا أن نهلك أهل قرية بعد قيام الحجة عليهم و إرسال الرسل إليهم أمرنا مترفيها أي رؤساءها و ساداتها بالطاعة و إتباع الرسل أمرا بعد أمر نكرره عليهم و بينة بعد بينة تأتيهم بها إنذارًا للعصاة و إنذارًا لهم و توكيدا للحجة ففسقوا فيها بالمعاصي و أبوا إلا تماديا في العصيان و الكفر ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ أي فوجب حينئذ عليها الوعيد ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ أي أهلكناها إهلاكا و أبدناها إبادة شاملة بسبب الأمر العام لجميع المتلفين أغنياء كانوا أو فقراء مترفين كانوا أو غير مترفين. لكن خص الأمر بالمترفين لأنهم هم المنعمون و الرؤساء و القادة و غيرهم تبع لهم فيكون الأمر لهم أمرا لإتباعهم لأن شأن العامة تقليد الكبار و الزعماء دائما. ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي سلطنا أشرارها فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بعذاب الاستئصال [3].

و على ضوء الآية السابقة نفهم أن القرآن يوضح لنا بأن هناك سنن ثابتة تتحقق بموجبها حركة التاريخ و سير الحضارات حيث يتم الارتباط بين المقدمات و النتائج و تبدو العلاقة بينهما في غاية التوافق و الانسجام. و لهذا يربط القرآن في قصة عاد و ثمود بين الظاهرة الاجتماعية كالترف و الظلم و القوة والثروة و بين مآلاتها حين تسير في خط مائل أو تخرج عن حد الاعتدال مخلفة بذلك نتائج سيئة لا تعود على المجتمع إلا بالخسارة و الانحلال و الهلاك. فالترف في علاقته بالحكم يتخذ في معظم الأحيان طابع الفساد. والمترفون دائما في كل زمان و مكان هم دعاة التخريب و الانحلال و الانحراف الأخلاقي في المجتمعات، و هم السبب المباشر في القضاء على الأمم و انهيار حضارتها.

---

(1) عبد المنعم النمر، بين الدين و الحياة، الدار القومية للطباعة والنشر، د،ط،د،ت، ص30 .

(2) سورة الإسراء : الآية 16.

(3) أنظر كل من التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر بيروت، ط1، 1991م،

ج15، ص 37. و مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي، دار المعرفة، ج6، ص 626.

<<إن القرآن يربط بين الترف في العيش و الحكومة و بين الفساد في الحكم و الربط مستمر في كل الآيات التي جاء فيها ذكر لـترف،بوصف للمترفين أو حالة الترف دائما و آثارها و كيف تعقب الضياع في الدنيا و سوء الحساب في الآخرة>>(1).

لقد كان للترف أثره السيء على أمة عاد و ثمود فحين سرى في كيانهم دفع بقيمها إلى التحلل و الاسترخاء فألفت الراحة و فقدت تبعا لذلك حيوتها و عناصر قوتها، و أسباب بقائها فهلكت و هذا ما أشار إليه ابن خلدون عندما تحدث عن الترف و علاقته بطبيعة الملك و كيف أنه يؤدي إلى السكون مبينا أن الأمة التي تصاب بالترف فإن وجهتها ستتحول حتما مع مرور الزمن إلى السقوط و هذه سنة الله في خلقه. <<إذا حصّلوا الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه، و آثروا الراحة و السكون و الدعة و رجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني و المساكن و الملابس فيبنون القصور و يجرون المياه و يغرسون الرياض و يتمتعون بأحوال الدنيا، و يؤثرون الراحة على المتاعب و يتأنقون في أحوال الملابس و المطاعم ما استطاعوا، و يألفون ذلك و يورثونه من بعدهم من أجيالهم، و لا يزال ذلك يتزايد فيهم إلى أن يتأذن الله بأمره و هو خير الحاكمين>>(2).

إن اللجوء إلى الدعة و الراحة علامة من علامات الانهيار. لأنه يميل بالأفراد إلى الهذمات والاشتغال بالشكليات، فيفقدون النشاط العملي فتضعف قوتهم فيؤثر ذلك سلبا على الأمة(3).

و الخلاصة أن الترف كان وراء تقويض حضارة عاد و ثمود طبقا لسنن الله في المجتمعات الظالمة المترفة <<و هذا بيان لسنة عظيمة من سنن الله تعالى في نظام الاجتماع البشري يعلم منها بطلان تلك الشبهات التي كانت غالبة على عقول الناس في جميع الأمم، و لا يزال جماهير الناس يخدعون بها و هي ما يتعلق بنوط سعادة الأمم و قوتها و غلبها و سلطانها بسعة الثروة و كثرة حصى الأمة>>(4).

و هكذا يفعل الترف بأهله المترفين، و يفعل المترفون بمجتمعاتهم فهم أصحاب السلطة و القرار و عندما تؤول القيادة إليهم ماذا يحدث ؟ الذي يحدث أن ساعة الانحلال

---

(1) عبد العزيز كامل، القرآن و التاريخ، مجلة عالم الفكر، م12، ج2 العدد 4، 1982م، ص 53.

(2) ابن خلدون ، المقدمة، ص 186.

(3) إدريس خضير، التفكير الإجتماعي الخلدوني، ص 157.

(4) رشيد رضا، تفسير المنار، ج10، ص 42.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الاجتماعي و السقوط تحين <<حين تتسلم طبقة المترفين و الظالمين القيادة، و يمارسون من مواقع السلطة تلك كل أسلوب من شأنه أن يؤول إلى إلحاق التفكك و الدمار بالجماعة و الأمة التي يقودونها>>[1].

و هكذا فعل الترف بالمترفين من قوم عاد و ثمود فكانوا سببا مباشرا في إضعاف حضارة الأمة و التعجيل بنزول العذاب بها عندما جاءتها لحظة الحسم الإلهي بالإهلاك : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

المطلب الثالث

الطغيان ودوره في التعجيل بسقوط حضارة عاد وثمود

أولا– تعريفه لغة وشرعا

1– معنى الطغيان لغة :

جاء في لسان العرب : طغى يطغى طغيانا و يطغوا طغيانا : جاوزا القدر، و ارتفع و غلا في الكفر. و أطغاه المال جعله طاغيا. و كل شيء جاوز القدر فقد طغى[3].

و جاء في المعجم الوسيط : طغى طغيا و طغيانا : جاوز الحد المقبول، و طغى فلان : غلا في العصيان. طغى فلان : تجبر و أسرف في الظلم.[4]

2– معنى الطغيان في الشرع :

و معنى الطغيان في الشرع يقوم على أساس معناه في اللغة، فيراد به تجاوز الإنسان حده و قدره. و حد الإنسان هو ما حده ا لله من حدود لا يجوز تجاوزها.

و قدر الإنسان هو قدره باعتباره عبدا لله تعالى فتلزمه طاعة سيده و مولاه، و بقاؤه في نطاق العبودية له، فإن تجاوز ما حد ا لله تعالى للإنسان من حدود و لا يتجاوزها أو تجاوز قدره وقع في المعصية و التمرد على ا لله [5]. بدليل قوله تعالى : ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ مَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[6]. ومعنى (و لا تطغوا) و لا تخرجوا عن حدود ا لله.

---

(1) حسن سلمان، النظرية القرآنية في تفسير حركة التاريخ، ص 211.

(2) سورة المومنون : الآية 41.

(3) لابن منظور، ج4، ص 2678 [مادة طغى]

(4) ابراهيم أنيس و آخرون، دار المعارف: مصر، ط2، 1972م، ج2، ص579.

(5) عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية، ص 190.

(6) سورة هود : الآية 112.

و قال تعالى مخاطبا موسى عليه السلام : ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾[1]. و معنى ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أي إنه عصى و تكبر و كفر و تجبر و جاوز الحد[2].

3- ما يحمل الإنسان على الطغيان.

و أعظم ما يحمل الإنسان على الطغيان ما يصير عنده من مال كثير أو ما يكون له من سلطان نافذ. فالأول هو طغيان المال، أي الطغيان الذي سببه المال. و الثاني هو طغيان السلطان أي الطغيان الذي سببه السلطة التي تكون للإنسان. و كلا النوعين من الطغيان مدمر و مهلك وفقا لسنة الله تعالى التي لا تتخلف[3].

4- سنة الله في الطغاة.

من سنة الله في الطغاة إنزال العقاب فيهم في الدنيا، فهي سنة ماضية لا تتخاف جرت على الطغاة السابقين و ستجري على الحاضرين و القادمين فلن يفلت أحد منهم من عقاب الله في الدنيا كما لا يفلت أحد منهم من عقاب الآخرة.

و هذه السنة العامة إنما يعتبر بها من يخشى الله تعالى و يخاف عقابه و يعلم أن سنة الله قانون ثابت لا يحابي أحدا. قال تعالى في بيان المعتبرين بسنته في الطغاة، بعد أن ذكر ما حل بفرعون من سوء العقاب ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[4].

ثانيا- الطغيان و أثره السيئ في التعجيل بنهاية حضارة عاد و ثمود

صرح القرآن الكريم بأن قوم عاد و ثمود قد طغوا في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ. وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ. وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[5]. و المعنى أنهم تجاوزوا الحد في العصيان و الظلم قال ابن كثير " في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ أي تمردوا و عتوا و عاثوا في الأرض بالإفساد و الأذى للناس"[6].

(1) سورة طه الآية 24.

(2) تفسير القرطبي، ج11، ص 191.

(3) عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية، ص 190.

(4) سورة النازعات : الآية 25-26.

(5) سورة الفجر : الآية 6 - 14.

(6) تفسير ابن كثير، ج4، ص 508.

و الظاهر أن قوم عاد طغوا في البلاد بسبب ما رأوهوا في أنفسهم من عظم الأجسام لقوله تعالى ﴿وَ زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾[1] فكانوا به أقوى أهل زمانهم، و بما حباهم له ا لله تعالى من كثرة الأولاد و الأموال التي صاروا بموجبها في نعيم كبير، لهذا السبب إغتروا و ظلموا أنفسهم بعصيانهم لأوامر ا لله عز و جل و تمردهم على دعوة هود عليه السلام، كما ظلموا غيرهم بالأذى و الجور و العدوان.

لقد أعجب قوم عاد بقوتهم و أغتروا بسلطانهم و أغراهم ذلك بالكفر بدين ا لله تعالى و رفض ما جاء به هود عليه السلام ﴿وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِيْنَ﴾[2].و الذي وقع أنهم لشدة إعتزازهم بما هم عليه، و إصرارهم على التمسك بدين آبائهم دخلهم الغرور و امتلأت نفوسهم بالعجب فأنطلقوا يبعثون في الأرض فسادا ﴿فَأَكْثَرُوا فِيْهَا الفَسَادَ﴾. فأذلوا الناس و استضعفوهم لدرجة البطش و التجبر لقوله تعالى ﴿وَ إِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِيْنَ﴾[3].

و قد كان لهذا السلوك إنعكاسه السيء على النسيج الإجتماعي داخل مجتمع عاد الذي أصبحت العلاقة القائمة بين أفراده مبنية على القوة و الإذلال و البطش و التجبر فتحولت البيئة بموجب ذلك إلى بيئة يسودها الخوف و الإرهاب الذي تبثه الطبيعة الحاكمة بقيادة الملأ المستكبرين الذين وصفهم تعالى في قوله : ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَ قَالُوا مِنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[4].

تباهى المستكبرون من قوم عاد بقوتهم و بسطوا آذاهم و مساوئهم على المستضعفين من أبناء مجتمعهم غافلين بذلك عن حقيقة مهمة و هي << أن التباهي بالقوة و الإفراط في استعمالها يدفع بالإنسان إلى أن يدخله العجب و الغرور، و هما من أكبر العوائق على الكمال، و من أعظم المهالك في الحال، فكم من نعمة انقلبت بهم نقمة، و كم عز صيّروه ذلا، و كم من قوة أحالوه ضعفا، فكفى بهما داء عضالا، و كفى بهما على صاحبهما وبالا >>[5].

(1) سورة الأعراف الآية 69.

(2) سورة هود : الآية 53.

(3) سورة الشعراء : الآية 130.

(4) سورة فصلت : الآية 15.

(5) أبو بكر الجزائري، منهاج المسلم، دار البعث للطباعة و النشر : قسنطينة، ط.4، 1981 م ، ص 187.

لم يدر بخلد قوم عاد أن القوة كما تكون وسيلة لإغراز جانب الأمة في وقت ما أنها حين تتجاوز الحد المطلوب تنقلب إلى وسيلة لإضعاف الأمة و إنهيار حضارتها في وقت لاحق كما عبر عن ذلك و أبتعد بقواه : "إن اللجوء إلى القوة مهما كان أمرا لا مناص منه، فإنما هو إعلان عن إخفاق الحضارة ... و إن أولئك الذين يتخذون القوة سبيلا في الشؤون الإنسانية ينحدرون من المستوى الإنساني إلى المستوى الحيواني"[1].

و نفهم من هذا أنه قد تتوفر القوة في المجتمع الذي لا يحتكم إلى شريعة ا لله، و لكنها قوة خالية من المشاعر الاجتماعية فإذا استندت القوة إلى جانب واحد من السنن الكونية كالعمل و النظام و وفرة الإنتاج فهذه وحدها لا تدوم لأن فساد الحياة الشعورية و الاجتماعية يقضي عليها بعد حين.

إن القوة و إن كانت في نظر الكثير من الجماعات البشرية مقياس لتقدم الأمم و ازدهارها فإن القرآن قد أثبت ما يخالف هذه النظرة حين بين أنه ليس بالقوة و البطش تحيا الأمم و تزدهر و تواصل مسيرتها الحضارية، محذرا في الوقت نفسه من أن القوة إذا ترسخت في النفوس فإنها تتحول إلى طغيان و تجبر منهي عنه[2].إن أي طغيان للقوة و البطش على حساب الجوانب الأخرى يعرض الجماعة إلى فقدان قدرتها الخلاقة على مواجهة متطلبات مسيرتها و تحدياتها الدائمة و سيدفعها دفعا إلى أن تقتصر هذه الاستجابة على نطاق القوة و البطش الأمر الذي يؤول بها حتما إلى الاستنزاف فالدمار [3].

و هذا بالفعل ما وقع لقوم عاد حين اعتمدوا على القوة التي أخرجتهم عن حد الإعتدال فطغوا و أفسدوا في البلاد و تجبروا و بطشوا بالعباد. فبدل ما كانت قوتهم عاملا قويا في دعم حضارتهم على اعتبار أن الحضارة في بدايتها تكون بحاجة إلى قوة الأموال و الأفراد لكي تنهض و يعمر بناؤها و يرتفع. أصبحت تلك القوة مصروفة إلى غير وجهها الصحيح فخرجت عن دائرة الإنتفاع و الصلاح و الفلاح التي نبههم إليها نبيهم هود عليه السلام بقوله : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4].

(1) ا. هـ – جنسون ، في فلسفة وايتهيد للحضارة، ترجمة : عبد الرحمان ياغي، المكتبة العصرية: صيدا، ط.2، 1965م، ص 42.

(2) سيد قطب، الظلال، ج4، ص 1898.

(3) عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ،دار العلم للملايين:بيروت،د،ط،1991م، ص 116.

(4) سورة الأعراف : الآية 69.

هذا الفلاح يمكن فهمه و تفسيره من خلال تذكير هود عليه السلام لقومه عاد حين نهاهم عن توجيه مظاهر تلك الحضارة إلى البناء بهدف العبث، و اتخاذ القصور بنية الخلود. في قوله تعالى على لسان هود : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[1] ثم نهاهم بعد ذلك عن التوجه إلى سلوك البطش و التجبر في قوله ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾[2].

و من خلال هذه الآيات تتجلى لنا الرابطة بين الحضارة بمظاهرها المادية و سلوك أفرادها، وندرك بعمق أنّ هلاكهما مرتبط بالآخر سلبا أو إيجابا بدايا أن قوم عاد لما صرفوا قوتهم إلى عوالم الطغيان و التجبر و البطش إبتعدوا عن الحق و الصواب و لم يعيروا إهتمامهم لخوف رسولهم هود عليه السلام عليهم حين قال لهم ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ و لم يفقهوا توجيهه،وقابلوه بالإستهزاء : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ، إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ، فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[3]. و هو الجزاء العادل طبقا لسنته تعالى في الطغاة كما عبرت عنها الآية الأخيرة من سورة الفجر تتميما لقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[4].

و ما قاله القرآن عن جانب الطغيان في حياة قوم عاد و أثره السيء على توجيه حضارتهم نحو الإنحلال و السقوط، قاله عن قوم ثمود، الذين لاقت حضارتهم المصير نفسه و الجزاء المماثل لخلفائهم قوم عاد بشهادة ما جاء ذكره في سورة الفجر.

---

(1) سورة الشعراء : الآية 128 – 129.
(2) سورة الشعراء : الآية 130 – 131.
(3) سورة الشعراء : الآية 136 – 139.
(4) سورة الفجر : الآية 11 – 14.

المطلب الرابع

مرحلة سقوط حضارة عاد و ثمود

لقد جمع قوم عاد و ثمود لأنفسهم و لحضارتهم كل أسباب الضعف و عوامل الانحلال من ظلم و طغيان ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغَى﴾[1]، و ترف ﴿وَ أَتْرَفْنَاهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[2]، واستكبار ﴿فَاسْتَكْبَرُوا بِغَيْرِ الحَقِّ﴾[3]، و تكذيب لرسل الله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ المُرْسَلِينَ﴾[4] ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ المُرْسَلِينَ﴾[5]، و إنكار للبعث و الجزاء ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[6]. و إعراض عن آيات الله في الأرض : ﴿وَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[7]، و الكفر برسالة الأنبياء : ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[8]، و إفساد في أرض الله : ﴿يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَ لاَ يُصْلِحُونَ﴾[9].

فكانت هذه العوامل هي المقدمات الأساسية التي بني عليها قوم عاد و ثمود تفكيرهم و هم يوجهون حضارتهم تلك الوجهة بعيدا عن الهدى الذي جاءتهم به دعوتا هود و صالح عليهما السلام، و هي العوامل نفسها التي تحولت إلى معاول هدم نخرت المجتمع و أدت إلى تآكله من الداخل، و مهدت لتفكيك شبكة علاقته الإجتماعية التي تربط بين أفراده حكاما و محكومين حتى سقط. هذا السقوط وضحه القرآن أنه لم يكن وليد الصدفة و لم يكن مفاجأ، و إنما هو بيد أسباب تجمعت فيما بينها و ارتبطت مع بعضها بعضا لأمد طويل، حتى انتهت إلى السقوط و أدت إلى الهلاك و الإبادة.

و طبقا لسنة الله في الأمم الظالمة و الطاغية و المترفة فقد تحقق لقومي عاد و ثمود الهلاك و أصاب حضاريتهم الفناء و الإضمحلال و هو الجزاء العادل الذي خصهم الله تعالى به بسبب عتوهم و تمردهم و عصيانهم لأوامر الله، و تجاوزهم الحد الأقصى في الظلم و العدوان فما لحقت بهم شائبة ظلم لقوله تعالى : ﴿وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[10].

---

(1) سورة النجم : الآية 53.

(2) سورة المومنون : الآية 33.

(3) سورة فصلت : الآية 15.

(4) سورة الشعراء : الآية 123.

(5) سورة الشعراء : الآية 141.

(6) سورة المومنون : الآية 37.

(7) سورة الحجر : الآية 81.

(8) سورة ابراهيم : الآية 9.

(9) سورة النمل : الآية 48.

(10) سورة التوبة : الآية 70.

فمصير الهلاك الذي عرفه قوم عاد و ثمود، كان هو الجزاء الأوفى لسلوك أولئك القوم الجبابرة الذين عثوا في الأرض فأكثروا فيها الفساد بدل إصلاحها و تعميرها على الوجه الذي إرتضاه ا لله عز وجل لعبادة حين نهاهم على لسان هود عليه السلام في قوله : ﴿وَ لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[1]. و هو الجزاء الأوفى لسلوك أولئك الظالمين الذي ظلموا أنفسهم بالكفر فسلط ا لله عز و جل عليهم حكاما ظالمين أذاقوهم سوء العذاب و استضعفوهم و أذلوهم حتى قتلوا بداخلهم روح مقاومة الظلم فركنوا إليهم و استسلموا فشملهم عقاب ا لله : ﴿وَ كَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2]. و هو الجزاء العادل لسلوك أولئك المترفين الذي استكبروا في الأرض بغير الحق بما رأووا عليه أنفسهم من نعمة الأموال و الأولاد و حول لهم هذا الفهم الإعراض عن دعوة هود و صالح عليهم السلام و ما تحمله من توجيهات هادية، حين أمروا بالصلاح و الاعتدال، فلم يمتثلوا فخرجوا عن طاعة ا لله فأوردوا الأمة موارد الهلاك تحقيقا لقوله تعالى : ﴿ وَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[3].

و على هذه السنة الكونية جرى تدمير قرى عاد و ثمود بعدما آذن سبحانه عز و جل بانقراض ملكهم و زوال حضارتهم بإنزال عذاب الهلاك المناسب لمعصية كل واحدة منها، فأهلكت عاد بالريح، و أهلكت ثمود بالصيحة لقوله تعالى :﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ، وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[4] و المعنى أن ثمود أخذوا بالصيحة الطاغية لأنهم نادوا صاحبهم فتعاطى فعقر، فلما كان نداؤهم سببا في عقر الناقة جرأة على ا لله كان هلاكهم بالصيحة ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ، كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾[5].

أما عاد فلطغيانهم أخذوا بالريح. و الريح و هو أرق و ألطف الأشياء عوقبوا به و هو مما لم يكونوا يتوقعون منه المضرة[6].

---

(1) سورة الأعراف : الآية 74.

(2) سورة الأنعام : الآية 129.

(3) سورة الإسراء : الآية 16.

(4) سورة الحاقة : الآية 5 – 7.

(5) سورة هود : الآية 67 – 68.

(6) محمد الأمينبن بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن، عالم الكتب: بيروت، ج8، ص 442. تفسير سورة القمر.

و هكذا نصل في النهاية بعدما تتبعنا المراحل التي مرت بها حضارة عاد و ثمود إلى تقرير حقيقة و هي أن حضار عاد و ثمود كغيرهما من الحضارات حملتا في طياتها عوامل نموها و قوتها و إزدهارها، كما حملتا أسباب فنائها و اندثارها، و أنطلاقا من أن الحضارة تقع بين حدين اثنين هما : الميلاد و الأفول [1]. ففي مرحلة الميلاد توفرت لعاد و ثمود المعطيات المادية و المعنوية اللازمة من إنسان، و أرض و زمن فقامت حضارتهما التي طبع مظاهرها العمران و الزراعة، و في هذه المرحلة عرفوا الإستقرار فجاءتهم رسالة الله على يد نبيي الله هود و صالح عليهما السلام حاملة إليهم دين الله القويم لتوجيه حضارتهم إلى آفاق الخير و الصلاح و الفلاح و التعمير و التمكين.

غير أن قوم عاد و ثمود لم يحترموا دعوة الله و رفضوا توجيهات رسله و كذبوهم و كفروا بالنعمة، فظلموا أنفسهم و عتوا عن أمر الله و طغوا و تجبروا في الأرض و بطشوا بعباده غير آبهين بأية دعوة فيها نصح لهم، أو توجيه لتصحيح سلوكهم ﴿سَوَآءٌ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ مصرين على البقاء على دين آبائهم و شريعة أجدادهم ﴿وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ رافضين تغيير ما بأنفسهم من أفكار و قيم خاطئة، فهم على هذه الحال لم يفقهوا فحوى رسالة الله لهم التي بيّن من خلالها هود وصالح عليهما السلام ضرورة الدين في توجيه الحضارة نحو الصلاح و حمايتها من الإنحراف و الضعف و الإنحلال، كما ربط في كلامهما و نصحهما بين الأخلاق و مظاهر الحضارة موضحين أن دور الأخلاق الحميدة في تدعيم الملك وتثبيت أركانه. والمحافظة على نسيج الأمة الإجتماعي و تمتين الروابط الأخوية بين أفراده في مرحلة النهضة و قيام البناء حتى ينهض و يكون سليما. و في مرحلة الأفول لم يصغ قوم عاد و ثمود بجد إلى دعوة هود وصالح عليهما السلام لهم بالنهي و التحذير من العوامل التي تؤدي إلى إضعاف الحضارة والتعجيل بسقوطها كالترف و الظلم و الطغيان، فكانوا مترفين و كانوا طغاة و كانوا ظالمين ففسقوا في المجتمع و تجاوزوا الحد في التمرد على أوامر الله، وتمادوا في عصيانهم فوجهوا الأمة على حسب أهوائهم إلى الهلاك، و حينها آذن الله بانقراضهم فأنزل بهم العذاب فأهلكهم بعدما كان قد نجى المؤمنين منهم تحقيقا لقوله تعالى: ﴿وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَ نَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [2].

(1) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 73 .

(2) سورة هود : الآية 58.

و أباد الآخرين و لم يترك منهم من أحد ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾[1].

و في هذا المعنى أن الإبادة كانت للبشر، و لم تكن للمنجزات المادية بدليل قوله تعالى : ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2]، أي أنه لم يبق من قوم عاد و ثمود إلا بقايا مساكن خربة بقيت كمعالم أثرية قائمة في المكان تشهد في كل حين على عظمة ملك زال بما كسبت أيدي أصحابه، و ترمز في كل زمان إلى حضارة كانت عملاقة قامت وازدهرت،ثم اندثرت في تلك الربوع العربية الخالية من كل شيء،إلا من العبرة التي دعا القرآن إلى البحث عنها بالدراسة و النظر فيها بالتأمل و ذلك من خلال السير في الأرض الذي فرضه الله على المسلم في قوله تعالى :﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾[3].

هذا السير، و هذا الإستقراء هو الذي يحقق الإعتبار لأولي الأبصار ليدركوا بعمق "العلاقة الوطيدة القائمة بين البعد الإيماني الغيبي، و السنن التي تحكم عالم الشهادة، و دور البعد الإيماني في الهداية إلى هذه السنن، و التفاعل الذي يحدثه الإيمان بين هداية السماء و استجابة الأرض لتحقيق الشهود الحضاري، و ربط نتائج ذلك بقضية الإيمان"[4]. ويكتشفوا في ضوءها أن سقوط حضارة عاد و ثمود لا يمكن أن نعزوه إلى غضب إلهي مفاجئ، و يمكن أن نجمله في أسباب و عوامل نابعة من أفعال أفراد الأمة و التي أرتبطت بغياب القيم الموصلة بالسماء، أي غياب التوجه الديني الصحيح الذي انعكس سلبا على سلوكات الأفراد المسؤولين عن توجيه تلك الحضارة إلى منعطفات الضعف و الإنحلال إلا أن إنهارت وهلكت.

---

(1) سورة الحاقة : الآية 8.

(2) سورة النمل : الآية 52.

(3) سورة الروم : الآية 30.

(4) عمر عبيد حسنة، مراجعات في الفكر و الدعوة و الحركة، دار الهدى: عين مليلة الجزائر، د.ط، 1991م، ص 25.

الباب الثاني

عناصر السرد في قصتي عاد وثمود في ضوء فنيات القص القرآني

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباب الثاني

عناصر السرد في قصتي عاد وثمود في ضوء فنيات القص القرآني

-الدراسة الفنية-

تمهيد وتقسيم:

أما موضوع الرسالة فخصصته إلى الجانب الفني القصصي ، وحاولت فيه تحليل تقنيات القصة ودراسة عناصرها أو بمعنى أخر وحداتها القصصية والعلاقة التي تربط كل عنصر بالآخر وأثر ذلك في تشكيل بنية قصة عاد وثمود مع رصد لمظاهر الإعجاز في العرض والآداء. وحتى تأخذ هذه العناصر حقها من الفهم والتوضيح،قمنا بتقسيم هذه الدراسة إلى فصول ،بحيث نتناول في :

الفصل الأول :الحدث ؛ دوره ، طبيعته ، مميزاته وأساليب عرضه في ضوء فنيات القص .

الفصل الثاني: الشخصية؛ دورها ، أبعادها، وكيفية رسمها في ضوء فنيات القص .

الفصل الثالث :الزمن؛ دوره،ايقاعه، وحركته في ضوء فنيات القص .

الفصل الرابع : المكان، دوره، معالمه، جمالياته في ضوء فنيات القص .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول

الحدث دوره مميزاته صورته وأساليب عرضه في ضوء فنيات القص القرآني

تمهيد وتقسيم:

للحدث دور أساسي في القصة الأدبية وكذا القصة القرآنية، وقد كانت له أهمية كبرى في بناء قصتي عاد وثمود؛ وذلك بالنظر إلى طبيعته ومميزاته وتسلسله وارتباطه بعناصر السرد الأخرى، ثم بالنظر إلى مكوناته من بداية ووسط مشوق ثم نهاية مفتوحة على المفاجئات،في شكل بنية تعتمد قصة المشهد والقصة المفتوحة،في ضوء أساليب العرض القصصي القائم على الايجاز والقصد ، ودقة التصوير في رصد مشاهد الإبادة لنهاية حدث مفتوح على صور العذاب . وحتى يستوفي هذا الفصل حقه من التحليل قمنا بتقسيمه إلى مبحثين؛ بحيث :

نتناول في المبحث الأول: الحدث دوره ومميزاته في قصة عاد وثمود.

ونستعرض في المبحث الثاني: الحدث طريقة وأساليب عرضه في ضوء فنيات القص.

المبحث الأول

الحدث دوره ومميزاته في قصة عاد وثمود

لقد كان للحدث في قصة عاد وثمود دوره وذلك بالنظر إلى طبيعة تكوينه ومميزاته التي تجلت فيها روعة الاعجاز في العرض والآداء. ولكي تتضح هذه المميزات قمنا بتقسيم هذا المبحث إلى مطالب؛ بحيث: ندرس في المطلب الأول: الحدث ودوره ومميزاته في القصة

وندرس في المطلب الثاني: الحدث ودروه في قصة عاد وثمود.

وندرس في المطلث الثالث:الحدث وصورته بين الرؤية العربية والطرح القرآني الإعتباري .

المطلب الأول

الحدث ودوره في القصة

أولا-الحدث ودوره في القصة الأدبية:

من المعروف أن القصة تروي خبرا ، ولكن لايمكن أن نعد كل خبر أو مجموعة من الأخبار قصة ، فلأجل أن يصبح الخبر قصة يجب أن تتوفر فيه خصائص معينة هي أن يكون له بداية ووسط ونهاية، أي أن يصور ما نسميه بالحدث[1] .والقصة تقوم على الحدث كيفما كانت طبيعته، إذ هو جوهر الفعل القصصي، وإطاره الموضوعي والفني، أو هو الحادثة التي تشكلها حركة الشخصيات لتقدم في النهاية تجربة إنسانية ذات دلالات معينة ضمن شروط السياق الزمني والمكاني.ولهذا كان الحدث محور القصة وعمودها الفقري الذي يقام به هيكلها، وهو من الأسس الفنية التي ترتفع عليها عمارة القصة ، فهو والأمر كذلك عبارة عن معادل موضوعي لقصة فكرية يريد المؤلف أن يوصلها إلينا بشكل فني [2] .وإذا اعتبر الحدث هو العنصر السائد في القصة أول ناحية جديرة بالإلتفات في نظر القارئ ، فلا شك في أن تصوير الحدث هو الناحية الثانية التي تلي تلك في الأهمية <<إذ هو الذي يبعث في القصة القوة والحركة والنشاط باعتباره العصا السحرية التي تحرك الشخصيات على صفحات القصة وتسوق الحوادث، الواحدة تلو الأخرى>>[3] .

(1) الحدث في اللغة: هو وقوع شيئ لم يكن ،حدث أمر، أي وقع .أنظر:ابن منظور : لسان العرب ،مادة حدث.

والحدث في الاصطلاح النقدي : يعني تركيب الأفعال أي تسلسلها وترابطها .انظر محمد طول : البنية السردية في القصص القرآني ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،د.ط،1991م،ص15.

(2) يحي الجبوري ، المدخل لدراسة الفنون الأدبية واللغوية،دار الثقافة ،الدوحة،د.ط،1987م،ص63.

(3) محمد يوسف نجم ، فن القصة ،دار صادر ،بيروت ،د.ط،1996م،ص26.

إلى الحد الذي يجعل القارئ يعيش في جو القصة ويشارك بوجدانه في صفوفها وكدرها، ويطعم من حلوها ومرها بإحساسه وتذوقه << ولهذا يشترط في القصة لكي تكون رائعة أن تكون كاملة وأن تبتدأ بداية قوية أخاذة تجذبه وتجعله يتبعها مشغوفا يسير معها حتى النهاية الطبيعية>>[1] .

وهذا يتأتى بتوزيع عناية الكاتب إلى كل جوانب الحدث، فهو مرة يسير في إثر شخصية رئيسية لرجل، وأخرى لإمرأة وثالثة في دائرة شخصية ثانوية،<<وهكذا ليتحرك بالحدث ملتحما مع كل الشخصيات متشابكا مع شتى العلاقات حتى تتحقق له جودة الآداء وروعة البناء>>[2].

من الواضح أن كل حدث من الأحداث لا يقع بالطريقة التي وقع بها في القصة إلا لوجود أشخاص يجري على أيديهم هذا الحدث المعين ، كما أن هؤلاء الأشخاص أنفسهم بسماتهم الخاصة يترتب على وجودهم وقوع الحدث بطريقة خاصة تتميز بالنصح والاكتمال [3] .

فالحدث الفني الناضج هو ما كانت له ثلاثة أجزاء متضافرة ، بداية وتوتر فيه إثارة ، ونهاية مفتوحة تمثل أركان الحدث يساند كل منها الآخر ويقوم على خدمته << ونعني بالمفتوحة أن تسمح بتولد الحدث من الحدث، الأمر الذي يعني نمو الفكرة من داخلها متسلقة على أكتاف الحدث. وهذا الشكل للحدث يسمح له أن يسهم مباشرة في تنمية الفكرة العامة للقصة >>[4] . حتى وإن جاءت التفاصيل فيما بعد يكون الهدف منها شرح الفكرة الأساسية أو تهيئة جو القصة أو التشويق الذي يقصد منه دفع القارئ إلى الفكرة الأساسية .

ولهذا السبب اشترط نقاد القصة في الحدث أن ينبني على عناصر : هي البداية ، وتتوتر فيه إثارة وهو ما اصطلح على تسميته بعنصر التشويق. ونهاية قوية . وأما عنصر التشويق فهو لازمة من لوازم الفن القصصي في القديم والحديث وضرورة يتطلبها حركة أحداث القصة لتسير في خطها الطبيعي نحو النهاية المأمول الوصول إليها . والنهاية على أساس أن كل حدث لا بد له من لحظة يتوقف عندها ، وهي بلا شك أخطر لحظة في مسيرة

(1) عبد المجيد السحار، القصة من خلال تجاربي الذاتية، دار مصر للطباعة ،مصر، د.ط،1990م،ص35.

(2) يحي الجبوري ، المدخل لدراسة الفنون الأدبية واللغوية،ص65.

(3) عبد العزيز شرف، الأسس الفنية للإبداع الأدبي، دار الجيل ،بيروت،د.ط،1993م،ص194.

(4) خالد أحمد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية،دار الشهاب للطباعة والنشر،باتنة،د.ط،1983م،ص148.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحدث ، لأنها تترك الانطباع الأخير في ذاكرة القارئ ، ذلك أن لحظة التنوير هي التي يكتمل فيها معنى الحدث [1] .

ثانيا – الحدث ودوره في بناء القصة القرآنية

يلعب الحدث في القصة القرآنية دورا فنيا بارزا في قيام عمارتها على أساس قوي ومتين .<<إذ يمثل إشكالية الوقائع في ترابطها العضوي، وتتابعها عبر مسار سردي زماني ومكاني تصاغ به، في نهاية المطاف تلك الوقائع في ماهية حدثية هي مآل لتجربة إنسانية >>[2] .

عرض القصص القرآني أحداث تاريخية ومضى بها الزمن ومنحها من العناية والاهتمام ما جعلها تبدو جوهر الفعل القصصي ، والمحور الذي يجتمع عنده شمل الوقائع الكبرى ذات الصلة القوية بمقومات بناء القصة بتحريك عناصرها من أشخاص وحوار وزمان ومكان نحو الترابط والائتلاف .والذي يتأمل القصة القرآنية و الأحداث المتكونة منها يجد أنها ليست خبرا أو مجموعة أخبار نقلت ، ولا هي مجموعة حوادث تكفل السرد القصصي بتسجيلها وعرضها ، وإنما هي حادثة متميزة لها خصوصيتها . وأن فحواها في النص القرآني قد تأسس في الأغلب الأعم من نوعين:

1–**القصة ذات المرجعية التاريخية** : وهي المتعلقة بأنباء الرسل ، والأقوام والأمم الغابرة، وماكان من أمرهم من تكذيبهم لرسل ا لله تعالى، وما انتهى إليه مصيرهم، من جراء هذا الموقف .

2– **القصة ذات المرجعية المثلية:** أي التي تعتمد على ضرب المثل ، وهو نوع أقل تواردا من النوع الأول . وقد ساقها القرآن على سبيل التمثيل ، وهي أيضا تجانس القصص التاريخي من حيث اشتمالها على مغزى وعظي تربوي [3] .وكلا النوعين القصصيين يصدران من حيث الطرح، والرؤية عن واقعية لا اغراب فيها ولا تهويم .

ثالثا – مميزات الحدث في القصة القرآنية

ما يميز الحدث في القصة القرآنية عن الحدث في القصة الأدبية، وهي انطباعها بمجموعة من المميزات شكلت عن اتحاد بعضها مع البعض الجماليات الفنية للمشهد الحدثي في القصة . ويمكن ذكر المميزات التي طبعت الحدث في القصة القرآنية في العناصر الآتية :

(1) رشاد رشدي، فن القصة القصيرة،دار العودة، بيروت،ط.2 ،1975م،ص94.

(2) سليمان عشراتي،الخطاب القرآني،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر، ط.1، 1998م،ص79.

(3) المرجع نفسه، ص80.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- **الحقيقة الخالصة**: بني الحدث في القصة القرآنية بناءا محكما على الحقيقة الخالصة ، وأسس على الحق والواقع بعيدا عن الخيال والوهم ، ولهذا جاء نسيجا خالصا من الصدق معافى من الزيف ، قادرًا قدرة مطلقة على أن يحمل الحق كله ويضمه إلى فنه ، لأنه هو في ذاته حق مطلق [1] . وهذه إمارة من إمارات الصدق الذي لا يُتلبس به تمويه أو يدخل عليه لون من ألوان الخداع والتخيل . وهذا ما لايليق بمقام القرآن وبجلاله حيث يرتفع مقامه عن أية شائبة تمس الحق الذي نزل به أو تعلق به [2] .لقوله تعالى:﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[3] . وهو الأقرب لما وصف به الله عزوجل القصص القرآني :﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾[4] .

2- **الإرتباط الوثيق بالشخصية** : من البديهي أنه ما من حدث يقع بالطريقة المعينة التي وقع بها إلا كان نتيجة لوجود شخص معين ، أو أشخاص معينين . وبذلك يكون من الخطأ الفصل أو التفرقة بين الشخصية والحدث ،<<لأن الحدث هو الشخصية وهي تعمل أو الفاعل وهو يفعل>>[5] .

فلو أقتصر على تصوير الفعل (الحدث) دون الفاعل (الشخصية) لجاء العمل القصصي أقرب إلى الخبر المجرد منه إلى القصة .<<لأن القصة إنما هي تصور حدثا متكاملا له وحدة ، ووحدة الحدث لا تتحقق إلا بتصوير الشخصية وهي تعمل>>[6] .

من هنا كانت الصلة بين الحوادث والشخصيات في القصة أقوى من أن يدلل عليها أو يلفت الذهن إليها،ذلك لأنهما العنصران الرئيسيان في كل قصته ، إذ لا يتصور أن يكون هناك شخص من غير حدث يلم به أو يقع عليه . نعم نحن لاننكر أن القصة القرآنية لقصرها قد تجعل العنصر البارز في تكوينها عنصر الحوادث، ولكن ذلك لايدفع إلى التسليم بخلو القصة من هذا العنصر مهما برز العنصر الآخر ويقف وحده في الميدان[7] .

---

(1) فؤاد علي رضا، من علوم القرآن، دار إقرأ:بيروت،ط.1،1982م،ص199.

(2) عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه. دار المعرفة :بيروت،د.ط، ص81

(3) سورة الإسراء: الآية105. (4) سورة آل عمران: الآية62.

(5) رشاد رشدي، فن القصة القصيرة،ص29.

(6) المرجع نفسه،ص29.

(7)محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم،مكتبة الأنكلو المصرية:القاهرة،ط.3،1965م،ص290.

ويلاحظ أن العمل القصصي في القرآن يقوم على محورين: إما الشخصية، وإما الحدث، بمعنى أن تكون الشخصية هي الفلك الذي تدور حوله الأحداث، أو أن تكون الأحداث هي المركز الذي تدور في دائرته الشخصيات . مما يجعل وجود توازن في العمل القصصي بين الشخصية والحدث، فيتبادلان نقطة الإرتكاز والتجمع مرة بعد مرة [1] .

3- الحدث مادته من الماضي : القصة في القرآن ترجمة لأحداث وقعت في الماضي البعيد. فيسعى عن طريق السرد أن يكشف عن آثارها، وينقب عن الأخبار التي نسيها الناس أو غفلوا عنها . فهذا الإتجاه منه شطر الماضي الغاية منه إعادة عرض الأحداث من جديد لتذكير الناس بما وقع للأمم السالفة في الزمن الغابر << وللفت إنتباههم إليها لتكون العبرة والعظة>>[2] . تمثلا لقوله تعالى:﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[3] .

4- التنوع في طريقة العرض: رسم السرد القرآني في القصة طريقا حافلا بتصوير المشاهد المنوعة والتي يلمس من خلالها المتلقي ذلك التدبير العجيب المعجز في توزيع المشاهد القصصية توزيعا محكما يميزه التفنن في العرض والتنوع في الرسم ، بحيث صور الحادثة الواحدة بصور متعددة [4] .فكان من جمال النظم القرآني أنه نقل المشاهد بجميع أبعادها بأمانة وصدق ، ولكن على دفعات ولقطات ، وليس من معرض واحد ، حتى لاتتراكب وتتراكم <<وإنما وزعها وباعد بين مواضعها ، بحيث يمكن أن تستقل كل لقطة منها بذاتها مستغنية عن كل تفصيل ، مثل البحث الموسيقي المتجانس الأنغام>>[5].

5-التركيز: للقرآن طريقته في عرض الحدث في القصة ، وذلك بتركيزه على الجوانب الهامة منه حتى يظهر وحده الذي سلط عليه جميع الأضواء في القصة ليكون التركيز كله في إدراك مغزى القصة والتأثر بإيحاءات حدثها دون شاغل من شخصيتها ودون إلتفات إلى مقوماتها التاريخية [6] .

(1) عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه. ص40

(2)محمد محمود حجازي، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: دار الكتب الحديثة،مصر د.ط،1970م،289.

(3)سورة يوسف: الآية 111. (4)محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم،ص291.

(5)عبد الحافظ عبد ربه، بحوث في قصص القرآن، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط.1، 1972م،ص55.

(6) محمد شديد ، منهج القصة في القرآن الكريم، شركة مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية،ط.1، 1984م، ص78.

6- تدخل عنصر القضاء والقدر: إن الأحداث في القصة القرآنية ، تبدو بأنها تمثل القدرة الإلهية في صورة خارجة عن المألوف للبشر<< وذلك لتقديم الدليل على صدق النبوة، أو الإنتقام من المخالفين ، أو البشرى للمؤمنين، وذلك مما يدخل في الخوارق والمعجزات>>[1] .

هذه المميزات التي ذكرتها هي التي طبعت الحدث في القصة القرآنية، وإن كانت هناك مميزات أخرى أحجمت عن ذكرها في هذا المقام ، وذلك لأنني سأتركها لموضعها اللائق بها عند التطرق إلى الحدث وبنيته في قصتي عاد وثمود .

المطلب الثاني

الحدث في قصة عاد وثمود

أولا- دوره في قصة عاد وثمود

شكل الحدث في قصتي عاد وثمود مركز الدائرة التي تدور حولها جميع عناصر القصة ، ونقطة الارتكاز التي تقوم عليها عمارة القصة ككل ، إذ نجد أن الأضواء كلما كانت متجهة إليه ليجده وقد بني بناءا فنيا مميزا ،وقد بدت فيه الصور متلاحمة مترابطة شاخصة حاضرة تتفاعل وتتحرك وتلد العبرة والعظات وكأن الحياة قد نفخت فيها بعدما طويت في ضمير الماضي وأوغلت في أطوائه وأحنائه وضربت في متاهات الدهور والأحقاب [2] .

وينبئ عنه تلك الطريقة الرائعة التي تم بها العرض . حيث بدأ يعرض عظمة عاد وثمود ، وما أتاهما الله من أسباب العيش الرغيد والحياة الهادئة الآمنة، ومامنحهما الله من قوة بلغوا بها درجة من الحضارة والتقدم بين أمم الأرض ، ثم ذكر ماكان منهما من نكرات للنعم وجحود لآلاء الله ، ومقابلة الخير بالكفر والشرك والطغيان .ثم انتقل السرد القرآني بعد ذلك إلى عرض وتصوير ما آل إليه أمرهما كنتيجة لموقفهم من الدعوة، ثم إنقلاب أحوالها بسبب الكفران من صورة النعيم إلى صورة العذاب والخسران المبين، وكيفية إهلاكهما بواسطة الظواهر الطبيعية كالريح والصيحة ، وذلك حين سلط الريح عاد ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ

---

(1) مأمون فريز جرار: خصائص القصة الإسلامية،دار المنارة للنشر والتوزيع،جدة، ط1،1988م،ص81.

(2) عبد الحافظ عبد ربه، بحوث في قصص القرآن، ص46.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

اَللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ ﴾(1) .

وسلط الصيحة على ثمود التي أخمدت أنفاسهم وتركتهم جاثمين على الأرض، دون حركة أو صوت . كما لخصت مشاهد العرض القصصي القرآني في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾(2)

ثانيا- الواقعية وعلاقتها ببناء قصة عاد وثمود

استمد السرد القرآني مادة الحدث في قصتي عاد وثمود من الماضي البعيد، وشكل وقائعه ومشاهده من زمن بعيد، تعود جذوره إلى تاريخ الحضارة العربية الأولى، وإلى زمن بعثة نبييَّ الله هود وصالح عليهما السلام لهداية قومهما إلى دين ا لله القويم .والتي قال فيها الله تعالى:﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ .﴾(3)
. ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .﴾(4) .

ومن الواضح أن السرد القصصي القرآني جاء بالحدث من الماضي ، وذلك لكي لا يتجاوز الواقع، بل ليجعله مرتبطا به.<<لأن الواقع ليس هو اللحظة الراهنة منفصلة عن ذلك الماضي، بل كلاهما معا : فالواقع هو الحاضر مرتبط بالماضي، وكل لحظة زمنية لا يمكن أن تنفصل عن اللحظة التي سبقتها>>(5) .

وصنيع السرد القرآني في تعامله مع الحدث في قصتي عاد وثمود يدعو للإعجاب والحيوية، فهو قد أعاد الوقائع التي عاشتها تلك الأمتين في الماضي البعيد إلى الواجهة وكأنها حدثت الساعة معتمدا في ذلك على الأسلوب الفني القائم على ألوان البيان في عرض المشهد وتقريبه إلى ذهن المتلقي ومخيلته لتتملاه. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) سورة فصلت : الآية15-16

(2) سورة الحجر:الآية80-83.

(3) سورة الأعراف: الآية65.

(4) سورة الأعراف:الآية73.

(5) أحمد بسام ساعي، الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد،دار المنارة للنشر :جدة،ط.01، 1985 م،ص167.

فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ، قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1] .

إن مسار الحدث القصصي في هذه الآية يتوجه إلى الخلف بعدما أحاله السرد إلى الزمن السبقي المشار إليه بالظروف الزمانية والأفعال الدالة على الماضي <ولقد> <أرسلنا> التي تفيد أن الحدث وقع في الماضي . هذا الماضي الذي طوقه من كل جوانبه وأخمد أنفاسه حتى لا يسمع له صوتا .ولقد تم إستدعاء الحدث من الماضي وتجليته للمتلقي ليتدبر معانيه ويتأمل في وقائعه لعل العبرة تقع من نفسه موقعها الملائم فيعتبر وهو يسمع إلى قوله تعالى :﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾[2] .إنه الإستدعاء الحي الذي يمكن من إقامة جسر بين الماضي بأحداثه والحاضر بوقائعه في صورة يتطابق فيها الماضي ببعده الزمني والحاضر بقربه ليشكلان معا صورة لحدث قصصي واحد يتضمن الأفكار والمعاني الهادفة ، ويجعل الزمان والمكان يتلاشى أمامهما لتظل العبرة هي الفكرة المسيطرة التي تشد إنتباه المتلقي إلى الحدث دون سواه من العناصر المكونة للبنية السردية في القصة <<ومن هنا كنا نرى عنصر الحدث هو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصد منها التخويف والإنذار>>[3] .

وهي صورة من الماضي البعيد الذي تم استدعاؤه بحسب الظروف التي إقتضتها مرحلة الدعوة الإسلامية والتي من أساليبها في الاقناع الاعتماد على أخبار الغيب[4] والتي وإن كان

(1) سورة النمل : الآية 45-52. (2) سورة النجم: الآية50-52.

(3) محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن ،ص261.

(4) الغيب: قد يطلق ويراد به الماضي﴿ذلك من أنباء الغيب﴾ .وقد يطلق ويراد به الأمر الغائب عن ساحة المشاهدة ، وقد يطلق على المستقبل في عالم الشهادة، وقد يطلق على العالم الآخر <ما بعد الموت> . والذي يعنيني من هذه المعاني هو المعنى الأول<<الماضي>> .أنظر:أحمد محمد كنعان ، أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، ص21. أما الغيب فمعناه اللغوي هو كل ما غاب عنك .

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

للناس معرفة ببعض جزئياتها إلا أنه لا يعلم تفاصيلها الحقيقية إلا الله سبحانه وتعالى المهيمن على الأحداث والأزمنة . ولهذا السبب نجد أن القرآن قد سمى الأحداث القصصية أنباء ، لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾[1].

والسياق السردي في ضوء المعنى الذي تدل عليه كلمة "نبأ"[2] يدل على أن القرآن<< يختار اللفظة المعبرة عن الموقف الخاص اختيارا دقيقا >>[3]. ولهذا نجده في عرضه للحدث ، إستعمل المترادفات إستعمالا صحيحا كتفريقه بين كلمتي النبأ والخبر . ويظهر هذا جليا في حسن توظيف لفظة "نبأ" في قوله تعالى:﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾[4].أي ذلك الذي قصصناه عليك أيها الرسول بعض أنباء الأمم أي أهم أخبارها وأطوارها في القرى والمدائن [5].ليغدو الحدث في إثر هذا المعنى، وكأنه لون من الإبداع القصصي الفني المبني على فكرة الاعتبار بالماضي عن طريق إسترجاعه وإدخاله في النسيج التركيبي لبنية القصة ليكون عنصرها المشوق الذي ينجذب إليه المتلقي بذهنه وبإحساسه وبوجدانه وبشوقه إلى المعلوم من الأحداث غير المتكفل بالتفاصيل ليتابعها بشغف وتوتر كبيرين ، وهي تمر بخاطره في صورتها الحية وكأنها قطعة من الحياة الحاضرة يزينها جمال العرض، وحسن إختيار الصورة أو المشهد ، وتنسيق الآداء وبراعة الإخراج .

إنها الواقعية في العرض وفي الآداء الفني ،سلكها السرد القصصي واختارها كلبنة في بنائه للحدث ورسم مشاهده، وتصوير مواقفه، حتى يتراء شاخصا في مخيلة المتلقي لا يشوبه زيف من أي ناحية من نواحيه، فجاء الحدث تبعا لهذا نسيج من الحقيقة الخالصة

---

(1) سورة ابراهيم: الآية 09.

(2) النبأ:الخبر والجمع أنباء.انظر:علي مهنا :تهذيب لسان العرب،دار الكتب العلمية:بيروت،ط.1،1993،ص586،مادة (نبأ) .وتدل كلمة نبأ عن الخبرعن الحدث العظيم.

(3) محمد ناصر بوحجام: أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، المطبعة العربية ،غرداية،ط.01،1992م،حـ1ص131.

(4) سورة هود: الآية100.

(5) رشيد رضا ،تفسير المنار ،حـ12ص154.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التي زادتها معرفة العرب بالقصة قبل نزول القرآن وضوحا واشراقا وتقبلا وتأكيدا على صدق نبوة محمد بن عبد الله(صلى الله عليه وسلم). وبأن ماجاء به هو وحي من عند الله سبحانه وتعالى وهو حق لامرية فيه﴿لَقَدْ جَآءَكَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [1] .

ولاشك أن البناء الحدثي في القصة قد تأثر بهذه الرؤية دون أن يكون للخيال دور في استرداد وقائعه ومجرياته التاريخية تماشيا مع شروط القصة التاريخية <<التي يجب أن تكون صادقة في حكاية الحوادث الواقعية التي جرت في أيامها ، ويجب أن تصور تصويرا أمينا عادات العصر ومزاجه>>[2] .

ويبدو أن تشكيل الحدث على هذا النهج الفني الذي رسمه السرد القرآني داخل بنية القصة ،هو الذي وفر له الصدق بنوعيه ، الصدق التاريخي مع الصدق الفني محققا بذلك انسجاما وتوافقا في إرضاء مطالب التاريخ ، ومطالب الفن في آن واحد .ويبدو أن القرآن عمد في بناء الحدث القصصي في قصتي عاد وثمود على المواد الاخبارية التي كانت معروفة – عن قصة عاد وثمود– ومتداولة في الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية وهذا ماذهب إلى تأكيده الطبري بقوله:<< وأمر عاد وثمود عند العرب في الشهرة في الجاهلية كشهرة إبراهيم وقومه>>[3] . وشاطره الرأي صاحب كتاب تفسير البحر المحيط بقوله:<<وثمود وهذه الناقة وسقبها مشهور قصتهما عند عرب الجاهلية>>[4].

إن شهرة القصة استنادا لما جاء به النصان السابقان ، ساعد على فهم ميزة الواقعية التي نسج بها السرد القرآني الحدث في قصة عاد وثمود وساهم في تقريب صورة حياة تلك الأمتين لذهن القارئ للقرآن ليحدث بموجب تلك النقلة إلى الواقع الماضي ، فيحصل الارتباط العقلي بذلك العهد ويتقبل الحدث كواقع حي جاء ليكون محلا للعبرة والعظة .﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾[5].

(1) سورة يونس:الآية94.

(2) أحمد أمين: النقد الأدبي ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة،د،ت،1952م،ص127.

(3) تاريخ الطبري، جـ1ص148.

(4) أبو حيان الأندلسي، دار الفكر،ط.1،1983م،جـ4ص328.

(5) سورة يوسف: الاية 111.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وعنصر الواقعية الذي حرص القرآن على اثباته في بنائه للحدث ، هو ما توصل إليه دارسو القصة الحديثة حين قرروا : أن ما تمتاز به القصة اليوم أمران: عنصرها الفني ، واستجابتها لواقع الحياة . مما يجعلها تتوفر على الانسجام الفكري والارتباط العاطفي والتحليل الباطني بحيث يجد القارئ فيها شيئا غير مجرد الخبر أو المتعة العابرة [1].

كما هو الحال حين تطالعك القصة عن حكاية أمتين عربيتين عظيمتين كانتا في الماضي البعيد ، كل واحدة عاشت في منطقة ، عاد سكنت "الأحقاف" وثمود سكنت "الحجر" ، وكلا المنطقتين معروفتان عند العرب . وكلا الأمتين بتاريخهما محفوظتان في الذاكرة العربية.

المطلب الثالث

صورة الحدث بين الرؤية العربية الجاهلية والطرح القرآني الاعتباري

قص السرد القرآني الحوادث التي لم يكن العرب يجهلون حوادثها وشخصياتها غير أنه حملها دلالات غير التي كانت تحملها من قبل، بحيث وجهها لخدمة الدعوة الجديدة وتثبيت مثلها. كيف ذلك؟

فمن حيث البناء الموضوعي صحح القرآن التصور العربي الجاهلي حول محتوى الحدث في قصتي عاد وثمود ، وعرضه بطريقة واقعية وصحيحة ، مجردا إياه من الخرافة التي كانت عالقة به. أما من حيث البناء الفني، فإنه بعدما ابتعد بالحدث عن الخيال ،صاغه صياغة فنية محكمة مترابطة الأجزاء، متماسكة المشاهد، بروابط نحوية لغوية وبلاغية ،خدمت المعنى وزادته وضوحا واشراقا وتقبلا وإقناعا وتأثيرا .

وحتى لايكون ذلك محاكاة لها ولا تمثيلا لشخوصها ومشاهدها. وإنما هو بعث لها وإعادة لوجودها في النظم المعجز الذي نقل إلى المتلقي ماضي الحادثة، ونقل المتلقي في نفس الوقت إلى ماضيها ليطالع وجوه الحياة في زمان تلك الأمتين ومكانهما ، حتى لكأن القارئ إبن تلك القطعة من الزمن وأهله [2] .

---

(1) أنيس المقدسي،الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة،دار القلم للملايين: بيروت،ط.05،1990م،ص497.

(2) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه،ص49.

وكأن القرآن بهذا الأسلوب كان يرمي إلى دفع الذاكرة العربية إلى استرجاع ماتعرفة من أخبار ووقائع ماضية عن أولئك الغابرين . وهي تحاول تحريك مخزونها المعرفي التاريخي المخبأ منذ مئات السنين لتتذكره وتستحضره ، فواقع الماضي هو حاضر اليوم ، والأمس لا يعد أن يكون نظير اليوم . وهذا من باب <<أن التذكير بالنظائر واستحضار الأمثال يقرب إلى الأذهان الأمر الغريب الوقوع ، لأن بعد العهد بحدوث أمثاله ينس .. الناس،ةإذا نسي استبعد الناس وقوعه ، فالتذكير يزيل الاستبعاد>>[1] .

ويبدو أن القرآن تعمد بهذه التذكرة وضع العرب زمن نزول القصة وجها لوجه مع ماضيهم البعيد الغابر لعله بذلك يتسنى لهم الوقوف أمام ذواتهم في موقفهم من دعوة محمد بن عبد ا لله (عليه الصلاة والسلام)حين رفضوها وقابلوها بالتكذيب والكفر ، مذكرا إياهم بما وقع لأسلافهم من قوم عاد وثمود وما نزل بساحتهم من العذاب والإستئصال، وهو أمر لا مفر منه لكل أمة تتنكب طريق الصواب وتنحرف عن مسار الحق، وتخالف تعاليم الأنبياء عليهم السلام ، وتتمرد على توجيهات الرسل . فمصيرها حتما سيكون شبيه إلى حد التطابق بمصير ما مضى من الأمم والشعوب مصداقا لقوله تعالى:﴿سُنَّةَ ا للهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ا للهِ تَبْدِيلاً﴾[2] .ويلاحظ على الحدث داخل بنية القصة في ضوء توجيهات الخطاب القرآني أنه حمل طابع التحذير للعرب لما سيؤول إليه أمرهم إذ هم أصروا على التكذيب والكفر بدعوة النبي (صلى ا لله عليه وسلم) ، محاولا دفعهم إلى توظيف معلوماتهم، والإستفادة من موروثهم المعرفي عن عاد وثمود سواء كان شعرا أو نثرا أو أمثالا ذلك أن الرجوع إلى ذلك الرصيد الثقافي العريق أمر لا مناص منه لأنه هو السبيل الوحيد الذي يمكنهم من إعادة مراجعة معرفتهم التاريخية المستوطنة في ذاكرتهم الجماعية العربية قبل البعثة المحمدية فلعلهم يعتبرون ويعودون إلى رحاب الحق ويتقبلون الدعوة الجديدة .

أولا– الشـــــعر

يقول الشاعر الجاهلي: كَوَاغِبَ الطَّرْفِ مَنْقُوبًا حَوَاجِبُهَا ** *كَـــأَنَّهُ قَلْبُ عَادِيَةٍ مُكَلُ[3]

(1) تفسير التحرير والتنوير،ص317، ج30 (2) سورة الفتح: الآية23.

(3) العادية: أي بئر قديمة ، كأنها آبار عاد . والبيت للقطامي، واسمه عمير بن شييم بن عمر بن عباد بن بكر .انظر :جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والاسلام، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي:تحقيق وشرح :علي محمد البجاوي،دار نهضة مصر للطباعة والنشر:القاهرة،ط.1،د،ت،ص809.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والظاهر أن الحدث القصصي قد كشف عن جانب مـن بقايـا أنبـاء تداولتهـا أجيـال عاصرت هودا وصالحا، وجمعت ما احتفظت من بقايا تلك الأمم مـن آثـار وأخبـار وأشعار تتجدد وتتلون مع الزمن، وتتسع مع المفهوم والمعارف . والذي يستلفت الإنتباه في القصـص الجاهلي : أن أصل القصة التاريخية لم يحجبه الخيال على كثافتـه وأن أحداث القصـة لا يـزال متفقا عليه عن عاد وثمود وغيرهما من الأمم العربية البائدة يلتقي جميعه في نقطة واحدة . على أن قوم عاد : أمة من أقدم الأمم ذات قدرة فنية بارعة وقوة حربية لا تطاق(1).

مما يدل على أن العرب حرصوا علـى نقـل الحـدث القصصـي وأوصلـوا روايـة القصـة متواترة عبر الأجيال التي توارثت أرض الجزيرة العربية، وتداولوها في أسمـارهم وجلسـاتهم ، وكان هذا لدافع لسببين أولهما: الاعتزاز بإنتسابهم لأمة قوية كأمة عاد وهو الذي ولد عندهم ذلك الاحساس العميق بأنهم إمتداد لعاد وخلق لديهم هذا الشعور القوي بأن ارتباطهم بتلك الأمة لأنها موطن افتخارهم لما

جبلت عليه من الزيادة في العقول والصحة . حتى أن حكيم سوق عكاظ النابغة وهو يصف قوم عاد في قوله : وقد اشتهر عند العرب نسبة العقول الراجحة إلى عاد ونسبة كمـال قـوى الأجسام إليهم :

وَأَحْلَامُ عَادٍ وَأَجْسَادٍ مُطَهَّرَةٌ   مِنَ المَعَقَةِ وَالآفَاتِ وَالإِثْمِ (2)

والبيت الثاني هو لإحتفاظ الذاكرة العربية بأخبار عاد وثمود ، هو التمثيـل بمصيرهـم التعس والخوف من الهلاك الذي عصف بملكهم وأبادهم، ولعل خير وأصدق من يصور هـذا الشعور الإعتباري بماضي الغابرين ، الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد حين قال :

وَلَقَدْ بَدَا لِي أَنَّهُ سَيَغُولُنِي   مَا غَالَ عَادًا وَالقُرُونَ فَأُشْعِبُوا (3)

والمعنى أنه سيهلكني ما هلك عادا والقرون الأخرى . وهذا المعنى نفسه الـذي رمـى إليه زهير ،كما مثله هذا البيت الذي أجتزأه من ديوانه إيمانا مني بأنه يمثل نظرة هذا الشاعر

(1) أمين مدني، التاريخ العربي ومصادره،ص155.

(2) المعقة: العقوق والإثم جمع إثم الآثام أو ارادتها. والبيت للنابغة الذبياني. انظر:أشعار الشعراء الستة الجاهليين،يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمري،منشورات دار الآفاق الجديدة :بيروت،ط2،1981م،جـ1ص235.

(3) ديوان طرفة بن العبد، دار البيروت للطباعة والنشر ،بيروت،د.ط،1986م،ص12.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لما امتاز به في عصره من الحكمة واصابة الرأي في اقراره في أن الله هو الذي أهلك عادا ومن قبلها من الأمم ،حين يقول :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَهْلَكَ تُبَّعًا وَأَهْلَكَ لُقْمَانَ بْنَ عَادٍ وَعَادِيَا [1]

ثانيا – المثـــل

وإذا كان الشعر الجاهلي هو من تمثل صورة الحدث في قصة عاد وثمود وكشف عن ملامح الوقائع كما جرت في زمانها مع بعض المبالغات التي أدخلها القصاصون والتي أخذت تزيد وتنقص مع تعاقب الأجيال واتساع مخيلة الرواة،بالحذف والإضافة بحسب مقتضى الظرف الزماني والمكاني . فإن المثل العربي هو الآخر كان بدوره القناة الرئيسية التي مر منها الحدث القصصي بصوره ومشاهده،إذ نجده قد بسط ملامح الحادثة وحمل دلالاتها التاريخية وايحاءتها الواقعية،وإن كان في أحيان كثيرة قد كساها لباس من انخرافه،التي يستلها العربي من شبكة الوهم التي كانت تكبل عقله وتغل تفكيره،حتى أصبحت حقيقة ممزوجة بكثير من الخيال .

للعرب في الجاهلية أمثالهم ذات الأحداث العظيمة التي تلخص نظرتهم للوقائع التاريخية الكبرى التي عاشها أسلافهم في الزمن الغابر منها ذلك المثل الذي تضربه العرب للشؤم فتقول (أشأم من أحمر عاد)[2] .والمقصود به قدار بن سالف –عاقر الناقة– وهو الذي عقر ناقة صالح عليه السلام فأهلك الله بفعله ثمود .

والمعنى الذي يحيل إليه هذا المثل، هو الملامح الأسطورية المحاطة "بالناقة" لدى المجتمع الجاهلي وهي مستوحاة من قصة النبي صالح عليه السلام ، إذ كان للناقة فيها مقام رفيع ، بوصفها معجزة النبي صالح عليه السلام ،حسبماتأكده الآيات القرآنية ، حتى أن هذه القصة عرفت في الكتب الدينية والتاريخية بقصة "ناقة صالح" .بمعنى آخر أن المجتمع العربي الجاهلي بعد أن وقف مليا على أحداث تلك القصة واستوعب نتائجها، أطلق العنان لخياله بأن يلحق

(1) ديوان زهير بن أبي سلمى، دار بيروت للطباعة والنشر ،بيروت،د.ط،1986م،ص107.

(2) أبو الفضل أحمد بن محمد بن أبي إبراهيم النيسابوري الميداني، مجمع الأمثال،تقديم وتعليق : نعيم زرزور ،دار الكتب العلمية،بيروت،ط.1 ،1988م،جـ1ص378.

بالناقة أساطير [1] ومعتقدات تسبغ عليها صفات التأليه والتقديس . فحسبنا أن نعرف أن قتل الناقة كان مدعاة للحزن والشؤم، وتتضح أثارها في أن يجعل الشاعر موضوع قصيدته "مرثية أو موعظة" استرجاعا لما آل إليه قتل ناقة صالح ، المخزونة آثارها في وعي العرب . حتى أنهم ضربوا بها المثل فقالوا "أشأم من أحمر عاد" . على أن الخلاصة تتقرر في نظرة زهير بن أبي سلمى الشمولية من حيث موازنته الرائعة بين حصيلة الحرب ومعطيات التاريخ المستندة إلى ماجره(قدار بن سالف) في عقره تلك الناقة .

إذا يقول: فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَ مَ كُلُّهُمْ   كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ [2]

المعنى قوله كأحمر أي كلهم في الشؤم كأحمر عاد ، وأراد أحمر ثمود فغلط . وقال بعضهم لم يغلط ، ولكنه جعل عاداًمكان ثمود اتساعا ومجازا إذ قد عرف المهنى مع تقارب ما بين عاد وثمود في الزمن والأخلاق واراد بأحمر ثمود عاقر الناقة [3] .

وهكذا يتبين من أشعار الجاهلين وأمثالهم أن الحدث القصصي ظل معروفا ومشهورا طوال الفترات التاريخية <<يؤكد أن حكاية مثل هذه الحكاية قد حدثت ، ولكن تواتر الرواية خلال الأجيال المتعاقبة قد أدخل فيها الغرائب والعجائب ما صبغها بصبغة الأسطورة >>[4] .

إن المنحى الواقعي الذي سلكه القرآن في رسمه للحدث في قصتي عاد وثمود هو الذي كفل للحدث الوضوح وأضفى عليه طابع الواقعية وأبعده عن دائرة الأسطورة وما ينجم عنها من مبالغات خيالية لايستسيغها العقل في معظم الحيان .

فالقرآن من هنا كان بطريقته الفنية وأسلوبه المعجز،قد جرد الحدث في قصتي عاد

(1) أساطير:جمع أسطورة وتعني الأكذوبة يخترعها الانسان ، وفي المصطلح قصص شعبي ، تعبير عن تجارب الشعوب الإنسانية البدائية . وتهتم بالحديث عن موقف الإنسان من قوى الطبيعة ومن الآلهة الخيالية كما تخيلها القدماء وموقفه من الكائنات الواقعية . خالد أبو جندي : الجانب الفني في القصة القرآنية ،ص42.وتبدو الأسطورة من ناحية المضمون أكثر من خرافة أو حكاية تسرد لغرض الأسهار وتزجية الفراغ ،فالأسطورة ليست إلا حديث خرافة بمفاهيم دينية حقة وعلمية صرفة. أحمد اسماعيل النعيمي: الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام،سينا للنشر ،القاهرة، ط.1،1995م،ص326.

(2) ديوان زهير ، شرح: أبو يوسف بن سليمان المعروف بالأعلم النحوي الشنتمري،تصحيح :محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي،مطبعة التقدم، مصر ،ط.1،1323هـ،ص106.

(3) ديوان زهير ، ص9.

(4) الجانب الفني في القصة القرآنية، ص45.

وثمود من الخرافة وضمنها الحقيقة المطلقة التي لا يشوبها زيف . فاتحا بذلك آفاقا رحبة لكيفية بناء الحدث داخل بنية القصة على الصدق،واضعا في الوقت نفسه تقليدا جديدا في الحياة الأدبية وهو ضرورة تقصِّي الحقيقة والبحث عن موطنها في العمل الأدبي أيٍّ كان نوعه، نابذا بهذا الصنيع كل مقولة فيها دعوة لاتخاذ من الأسطورة سبيلا،وعنصرا مشوقا لبناء الحدث في القصة،واضعا بذلك حدا للإدعاءات التي سولت لأصحابها يوما أن يعلنوا عن وجود الأسطورة في القصص القرآني [1] .بصوره المتعددة المتنوعة الناتجة عن التصورات الخاطئة لبعض المواقف التي ربما لم تقع لعاد وثمود في تلك الفترة، وإنما هي نابعة من روح الأسطورة والخرافة[2] .التي تتلبس بمعظم أخبار الأمم البائدة وتملؤها بالغرائب والمبالغات[3].

وليس العرب بدعا في ذلك ، فما أصدق جورجي زيدان حين قال:<<لم يختص العرب بادخال الخرافات على التاريخ فقد كان ذلك شأن الأمم القديمة>>[4].

ومن هذا المنطلق يفهم سعي السرد القرآني في بناء الحدث على الوقائع الذي لم يتلبس بشيئ من الخيال كما يفهم سعيه في تخليص القصص من الزوائد والحواشي التي لاتعني في تصوير الحدث وعرضه في معرض الإعتبار والعظة، وليس هذا التلخيص إلا عملية غربلة وتصفية غايتها تنقية الحدث من الشوائب، وتخليصه من الغثاء والزبد، ليصفو مورده ويسوغ مذاقه للواردين، وليس ذلك عن عجز أو غفلة عن جميع الملابسات التي اتصلت بالحدث من كل جهاته ، والتقت به من قريب أو بعيد[5].

(1) يرى محمد خلف الله أن القرآن وضع تقليدا جديدا في الحياة لأدبية وهو بناء القصص الديني على بعض الأساطير ، وهو بذلك قد جعل القصة الأسطورية لونا من ألوان الأدب الرفيع للوقوف على حيثيات الفكرة . انظر في كتابه : الفن القصصي ،ص182. وحكم كهذا ينقصه الإيمان ليتحقق له شرط الموضوعية.

(2) يشترك مصطلح "الخرافة" مع مصطلح "الأسطورة" في الدلالة على وقائع وأحداث غير معقولة أو على ما يكذبونه من الحكايات والقصص والأحاديث على كا ما يستملح ويتعجب منه ، غير أن الفرق بينهما أن الأسطورة موضع اعتقاد .والخرافة خلاف ذلك .ولمزيد من الاطلاع .انظر كتاب الأسطورة في الشعر العربي،ص331.

(3) وقد مر معنا الحديث عن تلك المبالغات .راجع ذلك في الفصل الأول ،مبحث عاد وثمود في المصادر التاريخية،ص55.

(4) محمد مصطفى هداره،تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام في المصادر الأدبية،مطبوعات جامعة الرياض السعودية،د.ط،1977م،جـ1ص338.

(5) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه،ص69.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وهذا التصرف الذي كان من صنيع القرآن في عرض الأحداث، وفي تخيير الجوانب التي تخدم بروز الأحداث وتجلياتها ، وليس مما يصح أن يقال معه أن القرآن قد أباح التصرف في الأحداث على أي وجه من الوجوه .

فهذه الرؤية التي يرمي إليها السرد القرآني من خلال الحدث في قصتي عاد وثمود هي التي أعطت الحدث القصصي معناه الإعتباري والوعظي .وجعلت خيوط الحدث كلها تلتقي عند موطن العبرة ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1] إن القرآن الكريم في عرضه لقصة إنما ركز على بعض المواقف،وكشف عن الوقائع التي تدخل مباشرة في نسيج القصة وتخدم فكرتها العامة <<والتي من شأنها أن تحدث في النفس أثرا وتقيم في الضمير وازعا،وتفتح العقل والقلب على مواضع ماثلة للعبرة والعظة>>[2].

كما هو الشأن في سورة القمر التي يتميز فيها الحدث القصصي بالتركيز الواضح وفيها دعوة صريحة قوية مؤثرة لتأمل في مصير المكذبين والاعتبار بقصصهم يقول الله تعالى عن قصة عاد :﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[3].

يقول تعالى عن قصة ثمود ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[4]. والواضح أن هذه الآيات لم تعن بتصوير شخصيات القصة وإنما عنيت بتصوير حدث التكذيب ومصارع المكذبين<<تحقيقا لهدفها من بث الرعب واشاعة القلق في نفوس طغاة قريش>>[5].ومن هنا جاءت عناية السرد

---

(1) سورة يوسف : الآية 111.

(2) القصص القرآني في منظومه ومفهومه،ص68.

(3) الآية18-19.

(4)سورة القمر: الآية 23-31.

(5) محمد شديد،منهج القصة في القرآن،ص72.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القرآني بأن يكون الحدث القصصي معبر يدل دلالة واضحة عن العظة والعبرة ، ويتلاءم مع الجو الذي سيقت له الحادثة في القصة .

ونسيج الحدث في قصتي عاد وثمود كان على هذا النمط،حيث كان تسليط الضوء على مواطن العبرة إنما هو تصحيح فحوى القصة بأحداثها في الذاكرة العربية،وتحويل الاهتمام بها من دائرة الإفتختار بماضي هاتين الأمتين وشرف الإنتساب إليهما والإعجاب بقوتهما والمبالغة في وصفهما،إلى دائرة الاعتبار بما حدث لهما والإتعاظ بموقفهما من الرسالة والمرسل بها -هود وصالح عليهما السلام-.

كل هذا على اعتبارأن السياق القصصي ككل خاضعاللغرض الديني ومتوجهامباشر إلى جعل الوازع الوعظي والاعتباري،مركز فاعلية الحدث القصص القرآني غايته الكبرى :تمكين المسلمين من معرفة أخبار وسير الأمم التي سبقتهم،والاعتبار بمصير الأفراد والمجتمعات الإنسانية في حالة إيمانها أو حالة كفرها[1] . إن هذا الشرط الاعتباري أساسي في مرامي قصتي عاد وثمود على غرار القصص القرآني كله،يحكم حديثها ويعطيها طابع الجوهرية في دعوة كل مرسل رغم اختلاف الملابسات التاريخية والبيئية التي يتحرك فيها الرسل .فالحدثية التبليغية في بعثاتهم جميعا كانت واحدة تواترت في سياقات النص القرآني ، بتنوع سردي ملموس دواعيه هي بناء الإنسان الملتزم بشريعة الله،القادر على عمارة الأرض وعلى إرساء دعامة العدل فيها[2] .

من أجل تحقيق هذه الغاية أخذ السرد القرآني يتوجه بالحدث في القصة رأسا إلى المجرى الوعظي القائم على صور شتى من الوعد والوعيد .﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾[3]

(1) صلاح الفوال ، التصوير القرآني للمجتمعات ،دار الفكر العربي: القاهرة،د،ط،د،ج1،ص318.

(2) سليمان عشراتي، الخطاب القرآني،ص79.

(3) سورة الحاقة:الآية 4-8.

المبحث الثاني

الحدث: طريقته وأساليب عرضه في ضوء فنيات القص القرآني

إتسمت البنية الشكلية للحدث في قصة عاد وثمود بمميزات في طريقة العرض أضفت عليه خصوصية فنية عززت أدبية الاعجازي فيه، وعمقت وظيفته التأثيرية بصورة رائعة، وهذا بفضل الخصوصية السردية التي نسجت بها تلك الأحداث والقالب الذي وضعت فيه .وحتى يتم توضيح هذه الخصوصية قمنا بتقسيم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب:

نتناول في المطلب الأول:الحدث وفنية القص.

ونتناول في المطلب الثاني:الحدث وطريقة عرضه.

والمطلب الثالث: الحدث وأساليب عرضه.

المطلب الأول

الحدث وفنية القص القرآني

لايمكن أن يكون الحديث عن الحدث في القصة بمنأى عن الفنية إذ أن طبيعة إحداهما ترتب عنها مواصفات أخر حتما وتحددها . فسياق حدث قصصي إخباري ما يفترض أصالة سياقا أدبيا ملائما،وصياغة أدبية مناسبة تفي بدلالات القصة والهدف من سياقها، لاسيما إذا تعلق الأمر بالنص القصصي باعتبار القصة فن العرض ، وتقديم الحادثة بالكيفية التي تلائم موضوعها ، والسياق المقدمة فيه والغاية التي تنشدها والمحيط الذي يتلقاها أو تترشح له...إنها جميعا عوامل متحكمة في البنية القصصية [1]. على اعتبار أن بنية الحدث هي التي تستدعي شكلها السردي،والصورة التي تخرج عليها إلى الوجود بنسيجها، وبمواقفها والصور ومن الايحاءات ، ومن حركة الحدث والحوار،وذلك كله مظهر الفنية حيث جاءت هذه العناصر لتلتحم مع هيكل القصة وتحقق الغرض من وجودها والتأثير الذي تريد أن تبلغه في ذهن ووجدان المتلقي، بحيث تستأثر بانتباهه عند كل قراءة، وتلاقي رضا في نفسه ،في مختلف الظروف ضمن إحداثية الزمان والمكان<< حتى تؤدي إلى تلك النتيجة

(1) سليمان عشراتي، الخطاب القرآني،ص68.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المريحة المقنعة التي تطمئن إليها نفس القارئ بعد طول التجوال>>[1]. والتي تتفق مع منطق الخطاب القصصي القرآني ونظرته المميزة للإنسان وحياته. فنية السرد القرآني في بنائه للحدث في قصتي عاد وثمود.

ولما كانت قصة عاد وثمود بأحداثها العظمى لها مغزى تاريخي إعتباري جاهز مرن ولها قابلية الحضور أو الاستدعاء في كل حين ، وقابلية التبلور على العديد من الصور والسياقات ،كان عرضها بأشكال متنوعة بتنوع المواقف والمساقات ، فهي قد جاءت مفصّلة أو مختزلة، مسترسلة أو مشهدية، مفردة أو مدرجة ضمن سلسة قصصية مسوقة لاستعراض أحداث رسل ومصائر غابرة أو مؤجلة لغاية اعتبارية تنسجم مع أدبية التبليغ القرآني[2].

القصص القرآني لم يحدد خطاطات Shémas جامدة، لفن القصة ولكنه أصل تخريجات سردية تبلورت فيها قصتا عاد وثمود في صور متعددة جعلتها <<فنا مفتوحا على التنويع، ويراوح بين القصة الموقف، حيث الحوار يبني الحدث ويجلي الوقائع،وبين القصة المشهدة حيث يقوم السرد بالرصد والعرض من خلال المنظر والملابسة،وبين الاجمال والتفصيل القصصيين تحقيقا للمغزى القرآني وترسيخا للرسالة في ذهن المتلقي بكيفية تأثيرية تحرك الخيال والعقل معا >>[3].

ويمكن أن نميز شكل بنية الحدث في قصة عاد وثمود كما عرضها السرد القرآني أنها كانت عبارة عن قصة مفتوحة .<<ونقصد بها ذلك السياق السردي المتواتر في أكثر من سورة ، وبتنويعات إخبارية وسردية تتجدد كثيرا أو قليلا من سياق لآخر سواء على مستوى الشكل الخطابي أو من حيث الإفادات التي يحملها>>[4].ونجد قصة عاد وثمود ذات البنية المفتوحة قد وردت في سياق غير مستقل والسور حين سردتها قدمتها ضمن توارد لأخبار أمم أخرى.جاءت لتشير بصفة إجمالية إلى تاريخ البعثات السماوية وتذكر بماضي أهل القرى[5]، وصلتهم بالوحي السماوي ومعاناة انبياء ا لله المختارين لتأدية رسالة ا لله في أرضه، وهداية عباده.من ذلك ماورد في سورة الأعراف على سبيل المثال لا الحصر .

(1) محمد يوسف نجم، فن القصة،ص26.

(2) الخطاب القرآني،ص69. (3) المرجع نفسه،ص69.

(4) سليمان عشراتي :الخطاب القرآني ،ص70.

(5) سورة يوسف : الآية 109ومابعدها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقد وردت قصتا عاد وثمود المفتوحتان ضمن تداعي قصص ساقته السور من أجل تبليغ دعوة الله والتأثير في دعوة المتلقين لها من ذلك ماورد في النصوص القصصية التي تضمنتها سور كل من : الأعراف ، هود ، الشعراء ، النمل، الأحقاف، الأنبياء، الحاقة، العنكبوت، الشمس، البروج، وغيرها [1]. ويمكننا إذا أن نمثل لهذا الكلام بسورة الأعراف وما ورد فيها من قصص مفتوحة تمثلها قصة نوح (من الآية 59–64) وقصة عاد (من 65–72) وقصة ثمود (من الآية 73–79) وقصة لوط (من الآية 80–84) وقصة مدين(من الآية 85–93) . فهذه القصص المتلاحقة جميعا قصص مفتوحة نلقى لها حضورا استدعائيا في سياق قرآني آخر يفيد كل مرة في الكشف عن جوانب سيرة الأمة ونبيها ووقائع حياتهم في ذلك الزمان البعيد .

أولا–شكل بنية القصة المفتوحة(قصة عاد)

قصة عاد هي قصة مفتوحة كما أسلفت لأن موضوعها توارد في سور كثيرة من القرآن [2] وفي كل مرة تتجدد <<إما من حيث الإفادة الإخبارية التي يضفيها إلى محتوى التخريجات السابقة ، وإما من حيث الشكل التعبيري الفني الذي ترد فيه>>[3].

فسورة هود مثلا ، عندما تطرقت إلى قصة عاد فإنها صوغتها في بنية شكلية شغلت مساحة معينة من السياق ما بين الآية 65والآية72 ويمكن أن أشير إلى أحداثها السردية في الآتي :

– موقف هود عليه السلام حيال قومه عاد :دعوته إياهم إلى توحيد الله، والإستغفار والتوبة.
– إنكار قوم عاد لبنية هود واصرارهم على التمسك بعبادة آلهتهم وعدم الايمان بدعوة هود.
–إتهام قوم عاد لهود بالمس والسوء من قبل آلهتهم المزعومة.
– تبرء هود من شرك قومه عاد وإشهاد الله على ذلك
– طلب هود من قومه عاد أن يكيدونه جميعا إذا استطاعوا ذلك
– إعلان هود لقومه عاد توكله المطلق على الله .
– اشهاد هود قومه عاد على تبليغه إياهم رسالة الله .

(1) وقد تم تقديمها بترتيب في الفصل الأول عند الحديث عن القرآن وقصص عاد وثمود فلا داعي لإعادتها هنا .

(2) وقد أحصيت عدد نصوصها في السور القرآنية فوجدت أن قصة عاد ذكرت في ست عشرة سورة .

(3) الخطاب القرآني ،ص73.

- بيان هود لقومه عاد قدرة الله في استخلافه لقوم آخرين غيرهم في حالة كفرهم فذلك لا يضر الله في شيئ فهوعلىكل شيئ حفيظ .

-مجيئ أمر الله ونجاة هود والذين آمنوا معه برحمة الله من العذاب الغليظ .

-لعنة الله على قوم عاد في يوم القيامة وابعادهم من رحمته إلى الأبد .

فالمسار القصصي قد عرض حادثة عاد وموقفه من دعوة نبيها هود عليه السلام ومآل هذه الدعوة ثم حادثة الإعراض والكفر والاصرار على الشرك،ثم حادثة التبرء التي أعلنها هود من دين قومه عاد ومجيئ أمر الله ونزول العذاب بهم.

ثانيا- شكل بنية القصة المفتوحة(قصة ثمـــود)

إذا تحولت إلى قصة ثمود نفسها -سورة هود- لوجـدت إطارهـا يمتـد في سياق مـن الآيات المعينة على مساحة السورة مـن بين الآيـة73والآيـة 79. ويمكـن الاشـارة إلى أحداثهـا السردية في الآتي:

-بعثة صالح عليه السلام إلى قوم ثمود ودعوته إياهم إلى عبادة الله الواحد الذي أنشـأهم مـن الأرض وأمرهم بعمارتها .

طلب صالح لقومه ثمود بالاستغفار في التوبة مع بيانه لهم بأن ربه قريب مجيب للدعوة .

- تفاجؤ ثمود وتعجبهم من دعوة صالح واستنكارهم لطريقته في نهيهـم عـن عبـادة الأجـداد والآباء والشك في هذه الدعوة من الأساس .

- توضيح صالح لثمود أنه على بينة من ربه وأنه لا ناصراولاعاصم إلا الله .

- إشارة صالح لثمود بالناقة لأنها آية بعثت لهم خصيصا،ودعوته بتركها حرة تأكل في أرض الله محذرا إياهم من التعرض لها بسوء .

-قومه ثمود يعقرون الناقـــــــة ، فيتوعدهم صالح بحلول النقمة بعد ثلاثة أيام .

-مجيئ الأمرِ الالهي ونجاةُ صالحٍ والمؤمنين بدعوته .

-نزول العذاب بهم إذ أخذت الصيحة المكذبين فأهلكتهم في ديارهم .

ويبدو أن السياق الحدثي تفاوت في السور السردية، حيـث الموقـف الـذي يسـتدعيه والغرض الذي يقصده ، والاطار التعبيري الذي اندرج فيه، فتشـكل الحـدث في قصـتي عـاد وثمود كان مشروطا ببنية القصة التي جسدته وبالمقام التبليغي الذي سيقت من أجله .

وطالما أن الحدث في قصتي عاد وثمود -وهو يروي قصتي سيرتي أميّن مع نبيهما لم يكن نهائيا ، حيث بادر السرد القرآني كشف مشاهده من زمن البعثة ليستمر شريط الوقائع يدور في فلك الدعوة ومراحلها ، ومنهج النبي في إقناع قومه بالتوحيد وبقضايا الايمان ، لتمضي من ثمة حياة النبي محكومة بوظيفة التبليغ وبمكابدات الصمود والدعوة إلى ا لله،حتى مجئ أمر ا لله ونزول العذاب . وحلول النقمة الالهية على قوم بإبداتهم واستصال شأفتهم من على الأرض﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (1).

فالحدث هنا لم يستكمل بنيته في اطار سورة واحدة لأن موضوعه السردي جرى استدعاؤه في مواطن سردية أخرى من النص القرآني ، وانتقل حبل السرد بالنبي من مرحلة البعثة والدعوة إلى مرحلة المواجهة والصراع ، وأصّل الأطوار التي تخللت المرحلتين بسلسلة من المواقف التي تبلورت فيها شخصيتا النبيين صالح وهود عليهما السلام- في محاورتهما مع محيطيهما-عاد وثمود-ومع ما قدر لهما من أحداث ، ليؤول بهما الأمر في نهاية المطاف إلى تسليم بنتيجة التبليغ والمواجهة والصراع والتبرؤ من شرك قومهما،والصبر على الأذى حتى يأتي أمر ا لله بالنجاة ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾(2).

ولما كانت بنية قصتي عاد وثمود مفتوحة ، متواترة في سياقات قرآنية عديدة ، كان الحدث في هذه البنى مفتوحا أيضا، ذلك <<لأن الحدث في هذا النوع القصصي القرآني لسيت مستقرة في نطاق سردي واحد، بل هي تراكمية إذ السياقات في سور تترافد فيما بينها ، ويضيف بعضها إلى بعض اضاءات جديدة>>(3) . عن حياة الأمة في مرحلة تلقيها للرسالة على يد نبي ا لله -هود وصالح عليهما السلام- ، وعن جهادهما في سبيل الدعوة ومن أجل التحمل وتخطي المحن والأزمات . فبنية الحدث في قصتي عاد وثمود تركيبي،

(1) سورة النمل:الآية51-52.

(2) سورة الأعراف: الآية 72.

(3) الخطاب القرآني، ص83.

يستجمع ذهن المتلقي مستوياته المختلفة من خلال الإفادات التي تتضمنها السياقات في السور القرآنية، حيث تتم تشكيل جزئيات مشاهده في صورة مكتملة تتحقق من خلالها وحدة الحدث القرآني جملة .

ولو شئنا بناء الحدث في قصة عاد مع نبيها هود عليه السلام، وهي قصة تستعرض جزءًا من حياة أمة عاد ونبيها هود أثناء البعثة، وبعدها للزمنا تتبع التداعي القصصي في مسافات تتوزعها سور عديدة .

1- ففي سورة الأعراف يتحدث السرد عن ارسال الله هودا إلى قومه عاد ودعوته إياهم لعبادة الله الواحد وتقواه، إتهام قوم عاد هود ورميه بالسفاهة والكذب ثم دفاع هود عن نفسه وتوضيح أنه رسول ناصح أمين لقومه، وتذكيره لهم بالنعم الإلهية ، طلب عاد البينة على صدق دعوته لترك معبودات الآباء والأجداد ، توعد هود لقومه بالعذاب، نجاته والذين أمنوا معه ، وقطع دابر المكذبين من عاد .

2-وفي سورة التوبة ، يتحدث السرد إجمالا عن نبأ قوم نوح وعاد وثمود وابراهيم ، وأصحاب مدين ، الذين أتتهم رسلهم بالبينات ، فظلموا أنفسهم ، والحدث يسلط الضوء على مرحلة البعثة بتركيز دون الدخول في تفصيلات الهدف منه التذكير بأخبار من مضى من الأمم ضمن سياق اعتباري عام.

- قومه يتهمونه بأنه جاء ليصرفهم عن عبادة آلهتهم .

-قومه يطلبون منه تحقيق ما توعدهم به إن كان صادقا .

-هود يفوض أمره لله ويبين لقومه أنه بلغ ما أرسل به ، ويشهد عليهم بأنهم قوم جاهلون.

- قومه يرون سحابا متجها إلى أوديتهم فيظنون أنه سحاب ممطر سيسقي أرضهم وأنعامهم فيستبشرون به ويهللون له .

- يتفاجأ القوم إذ أقبلت عليهم ريح عاتية دمرت كل شيئ بأمر ربها .

-بقاء مساكنهم خاوية جزاء اجرامهم . الحدث يركز على مواقف النبي وقومه زمن البعثة وما أفرزته من مشاهد أفادت في إنارة جوانب الحدث في القصة، إذ هي كل مرة تكشف عن جزء من القصة تدريجيا وتقدم معطا جديدا عن حيثيات دعوة هود عليه السلام ومواجهة عاد لها .

3- وفي سورة الأحقاف ، هود عليه السلام ينذر قومه من عذاب يوم عظيم.

4- وفي سورة القمر : يتولى السرد عرض الحدث من مرحلة تكذيب عاد لهود عليه السلام ، وتحقق وعد الله وإنذار نبيه، إذ أرسل الله عليهم ريحا صرصرًا في أيام نحس مستمر .

- أصبح القوم من شدة الريح وقوتها وآثرها عليهم كأعجاز نخل خاوية، السرد القرآني يباشر عرض الحدث من زمن التكذيب ويصف الريح ومافعلته بالقوم . وهو وصف سردي لمرحلة البعثة وما بعدها، وهو وصف محصور في ثلاثة مواقف : التكذيب ،وإرسال الريح العاتية ،وإهلاك القوم نتيجة لقوتها ، وهو وصف موجز مختصر فيه طي لكثير من المراحل والمواقف التي تخللت المواقف المذكورة،والقصد من هذا العرض القصير هو التخويف والتحذير من العقاب الرباني لكل مكذب أو متكبر للدعوة في أي زمان ومكان .

5- أما في سورة الحاقة : فالسرد القرآني يتولى عرض الحدث في زمن التكذيب والضلال والتوعد الإلهي لهم بالقارعة .

- إهلاكهم بالريح الصرصر العاتية .

-تسخير الريح عليهم لمدة سبع ليال وثمانية أيام متتالية دون انقطاع .

- تسليط الريح عليهم وتعذيبهم بها نكالا لكفرهم وجحودهم لنعم الله .

-أصبح القوم بعدها كأعجاز نخل فارغة لاقيمة لها .

-اختفوا من الحياة و لم يبق لهم وجود، الحدث تم بناؤه من مواقف مختصرة محصورة في زمن البعثة وبعد التبليغ وبالضبط من موقف التكذيب بيوم القيامة وركز السرد على ذكره لا لأنه حدث مهم في القصة وإنما لأنه أحد الأسس المتينة التي يقوم عليها ركائز الإيمان في الإسلام. والتكذيب به هو التكذيب بيوم الجزاء والثواب الذي هو من تمام عدالة الله بين عباده .

إنها خمس وقائع توزعتها خمس سور (مكية ومدنية) شكلت مجتمعة الحدث العام لقصة هذه الأمة ، كما عرضها السرد القرآني في تداعيات مختلفة وهذه الوقائع جميعها موصولة بالحدث الرئيسي أي البعثة والدعوة ولأجل ذلك لم يخرج السرد في بنيته الموضوعية «عن نطاق السيرة في تطوراتها المختلفة ليربط حدثيته بمرحلة حاسمة عاشها النبي وهو بصدد إحداث التغيير الجذري الذي شاءه الله وانتدب به من أجل تحقيقه . من هنا كان حادث البعثة أساس هذه القصة ، فهي تتمحور في دائرة تتصل بوقائع البعثة وما يترتب عنها من

مصير [1] .

لقد ركب الحدث في قصتي عاد وثمود على هذه الشاكلة ليسلط الضوء الكاشف على طبيعة الرسل ، من حيث إنهم بعثوا مبشرين ومنذرين ، وإنهم على صلة دائمة بالله :﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾[1] . وأن سيرة أولئك المرسلين إلى أقوامهم قد عرضها القرآن الكريم، في قالب أدبي جميل بلغ من الروعة والإعجاز مبلغا كبيرا تجلت فيه كل السمات الفنية التي يمكن فهم طريقة عرضها كالآتي:

1- واقعية الحدث القصصي . 2- مجيئ الحدث للعبرة والعظة 3- تضمنه للمعجزات الحسية .

4- ارتباطه الوثيق بالشخصية 5- تضمنه عنصر الغيب 6- التنوع في طريقة عرضه .

المطلب الثاني

الحدث القصصي وطريقة عرضة

ويمكن أن نقف على الأجزاء الثلاثة المتضافرة لبناء الحدث في القصة من خلال :

أولا – بداية الحدث

بدأ الحدث في قصتيّ عاد وثمود مختصرا مركزا مستمدا هدوءه من هدوء شخصية نبييّ الله هود وصالح عليهما السلام ،وهما يقومان بعرض الدعوة على قومهما ،كما جاء وصفها في قوله تعال عن عاد :﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[2] وعن ثمود :﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[3] .

إفتتح السرد القرآني في بداية الحدث في قص عاد وثمود بمشهد الإخبار عن مجيئ الرسالة على يد فرد من المجتمع﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[4] .﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾[5] .

(1) الخطاب القرآني ،ص85.

(2) سورة الأنعام، الآية 48

(3) سورة الأعراف: الآية 65.

(4) سورة الأعراف : الآية 73.

(5) سورة الأعراف : الآية 65.

(6) سورة هود : الآية 61.

العلاقة هنا ذات بنية اجتماعية واحدة فهو ليس غريبا عنهم. وقد تم التركيز على هذه الحقيقة الاجتماعية القائمة على فكرة الأخوة ،والإحساس بوشائج القربى ،وصلة الرحم﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ، من منطلق القرابة فلعل ذلك يستثير في نفوسهم الاستجابة لدعوته . ويلاحظ على هذا المشهد أن الحدث فيه جاء مرتبطا بالشخصية المحورية ارتباطا وثيقا إذ هي التي صنعته، بمواقفها منذ البداية وأدارته ،وعبرت عنه بلسانها﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ والحدث هنا يكشف أن الشخصية مست الجانب المهم في حياة تميز في بداية هذا المشهد أمرين . الأول: التركيز على القضية الجوهرية جعلت الحدث ينبنى على أساس متين ويتوجه توجها سليما . الثاني: أن تبليغ الدعوة ارتبط بالشخصية .

لقد تم التبليغ ، ووصلت الدعوة إلى أسماع القوم عاد وثمود ، وأخذت تتغلغل في أوساطهم ، ويظهر أثرها بينهم ، إذ بعدما كان المجتمع هادئا يسير على المألوف من عادات أجداده وآبائه ، يخرج عليه فرد منه بدين جديد مخالف لما ألفوه يأمرهم بالتخلي عن شركهم ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾. وهنا ينتهي المشهد الأول .والظاهر أن الدعوة لاقت استجابة من بعض الأفراد وهم المستضعفون في المجتمع ، وأنها قوبلت بالرفض والسخط والكفر من السادة (الملأ) ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ . وهنا وقع الاصطدام وظهر الخلاف وبدأ التوتر . وهنا يبدأ المشهد الثاني في هذه المرحلة ينتقل الحدث مرتبطا بالشخصية الرئيسية وقد تعرضت إلى صعوبات تعيق سيرها ووصولها إلى غايتها . وهذه الحلقة هي التي بدأ فيها التوتر ومنها تحرك الحدث مدفوعا إلى موطن الصراع ليكشف عن دواعيه وأسبابه . هذا الصراع تولى عرضه الحوار من خلال جواب الملأ من قوم عاد وثمود في ردهم على دعوة نبي الله﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [1] . في هذا المشهد وقد تولى الحوار التعبير عن ردود فعل السادة على صاحب الدعوة وذلك بإعلان الرفض لدعوته ،ومحاولة النيل منه والانتقاص من قيمته، وإتهامه بالكذب . وهنا أخذ يتجلى الخلاف في صورة تدريجية تدل على أن النبي والسادة من قومه قد وقع بينهم شقاق كبير في العقيدة ، نلمس ذلك من خلال إتهام القوم الذي رد

(1) سورة الأعراف : الآية 66.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عليه النبي بقوله:﴿قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾(1) .

يبرز العرض موقف داعية هادئ الأنفاس كريم الأخلاق ، ويبرز أمة شرسة تقول لنبيها أنت سفيه وتتحدث عنه بهمجية . هذا الموقف دفع بالنبي إلى نفي هذا الهجاء وإثبات أنه مبلّغ عن ربه بكل نصح وأمانة،وهي القيمة الخلقية الاجتماعية التي شكلت محور اللقاء بين النبي وقومه . بهذا الموقف بدأ التوتر يسري في ثنايا الحدث بايقاع زمني بطيئ لكنه يلّوح بالعداء واتساع هوة الخلاف والانشقاق بين الطرفين . وهي بداية الصراع وذلك بتغير المواقف واستعداد الشخصيات للدفاع عن فكرتها . وفي هذا انطلق الصراع وبرز كعنصر فعال في مجريات القصة يشيع فيها التشويق الذي يغذي الرغبة في القارئ ويشده إلى متابعة الحدث ومعرفة الصعوبات التي تعيق سير الدعوة والأشخاص الذين يعترضون صاحبها ويصارعونه . وقد شكل هذا التعرض الحلقة الموالية من مشاهد وسط الحدث وهو ما يسمى بالعقدة.

ثانيا- وسط الحدث

وفي هذه المرحلة أخذ السرد في عرض وجه الصراع ودواعيه إذ قدم لصورة سعي الطرف الرافض للدعوة وتبرير رفضه بتكذيب النبي بحجة بشريته ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾(2) . وهي صعوبة اخرى اعترضت سبيل النبي بعد صعوبة الكفر ، يأتي التبرير كونه بشرا. فكيف يخصه الله بالذكر دون غيره . وفي هذه المرحلة ينتقل الحدث ممسكا بالشخصية من صعوبة إلى صعوبة أخرى ، وبذلك تعددت حلقات الحدث لكن دون أن تحل العقدة . وكأن الحدث قدر أن يمر بالمعوقات وهي بمثابة الضرورة لاستمرار الصراع الذي به يستمر الفعل القصصي،أو قل السرد ليستمر كضرورة لتغلب على ما يعيق دعوة النبي ويحول دون تحقيق غايتها . وفي هذا المجال تتحرك الشخصية

(1) سورة الأعراف: الآية 68.

(2) سورة القمر: الآية 24.

الرئيسية وتمارس دورها كمعاناة ومكابدات الصمود في الدفاع عن الدعوة ، ورد دواعي الرافضين لها والمتمسكين بالعرف والعادة .ويتقدم الحوار في هذا الموقف لتصوير الوضعية النفسية لأولئك المعاندين وهم يعرضون عن الحق ، وتصوير صراعهم النفسي الداخلي ، وهم يأخذون بشر الإتباعية والجمود وما فيه من ارضاء للذات [1] . وفي قوله تعالى:﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[2] . ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[3] .

يبرز الحدث هنا الشخصية في الحالة الأولى تتحرك الرسالة من موقع يرتبط بالحقيقة الواسعة للكون والحياة ، وفي الحالة الثانية تتحرك من موقع العادة المرتبطة بالجانب العاطفي من تراث الآباء والأجداد << ومن الطبيعي أن يترك الاختلاف في نوعية التحدي تأثيره الكبير على الأسلوب الذي يستخدمه كل منهما في حركة الصراع>>[4] . الذي تزداد حدته كلما تقدم الحدث وتطور من الداخل واتضحت فكرته الأساسية ، وانكشفت بعض جوانبه الخفية بفهم حركة الشخصيات وهي تقود الحدث في مجاهيل العمل القصصي وتنير الطريق في أن يتعدى عتبة الصراع ويصل بسلام إلى غايته المنشودة .في هذه المرحلة يكون الحدث قد بلغ منتصفه وتشابكت خيوطه وازدادت الوضعية تأزما بتعنت السادة من قوم النبي في موقفهم من دعوتي هود وصالح عليهما السلام ، وذلك حين طالبوهما بالإتيان بالمعجزة المادية كدليل على صدق النبوة وأحقية الرسالة .

في هذه الخلال ينتقل السرد إلى عمق الصراع وتأزم المواقف بين الشخصيات داخل القصة وقد نقلتها كما هي في الحياة صورة حقيقية منتزعة من عمر الصراع المحتدم بين الخير والشر وهما ظاهرتان متحكمتان في الحياة وفيهما يتقلب الناس ويتعاملون [5] .

---

(1) عبد الكريم: صراع المذهب والعقيدة في القرآن ،،ص16.

(2) سورة الأعراف : الآية 70.

(3) سورة هود ، الآية 53.

(4) محمد حسين فضل الله ، الحوار في القرآن .دار المنصوري للنشر:الجزائر،د.ط،1986م،حـ1ص70.

(5) عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه،ص193.

وهكذا ينقل مشهد الصراع وقد ارتبطت صورته بالمشهد الذي يليه ويعضد فكرته ويمده بالمعطيات اللازمة للنمو والتطور والحركة ليظهر من خلالها الحدث وقد بنيت جزئياته بناء محكما <<وأخذ ينمو نموا منطقيا مقصودا، ويتطور حتى وصل إلى ماهو أعمق>>[1] .بعدما كان الحدث قد مر بعدة محطات والتي من خلالها واجهت الشخصية الرئيسية(النبي) المواقف التالية:

1-الدعوة والتكذيب بها .

2- الاعتراض على بشرية الرسول.

3- إعلان التمسك بتراث الأباء والأجداد .

ويتدرج مع مسيرة الصراع وتأثيره على نمو الحدث، مساهمته في ابراز قضية التقليد كاشفا شخصية القوم (الملأ) وهم قد أعلنوا رفضهم لدعوة الله مفضلين البقاء على طريقة آبائهم وأجدادهم ،ذلك أنهم ارتبطوا بما ألفوا أنفسهم عليه من آراء ومذاهب إرتباطا شديدا صعب عليهم الإحساس بأنهم هم وآباؤهم كانوا في ضلال ، ولهذا عندما جاءت رسالة هود وصالح عليهما السلام لتمزق الغشاوات عن العيون ، وتكشف للناس مالم يكونوا يعرفون ،تلقوها بالإنكار، والتكذيب والمعارضة[2]

ويمضي السياق السردي في عرض موقف مابعد المعارضة ، وهو الاعتراض على بشرية الرسول﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾[3] . أخذت نوازع العظمة من نفوس قومي عاد وثمود فلم يقبلوا من بشر مثلهم الدعوة إلى الحق فكذبوا دعوته بل كابروا ورفضوا تميز هود وصالح وتفضيلهما بأن كانا دعاة لله من دون الناس . ولهذا أيد الله رسله وعزز دعوتهم بأدلة حسية معنوية تثبت لأولئك المتشككين المعاندين صدق الرسل وتدعم موقفهم <<من هنا كانت المعجزات التي أيد الله بها رسله واحدة من سائل الهداية والوصول إلى الإيمان بعد الوسائل الطبيعية الأولى من عقل وآيات ، بل هي آخر الوسائل وأشدها على المعاندين>>[4] .

(1) يحي الجبوري، المدخل لدراسة الفنون الأدبية واللغوية،ص65.

(2) محمد الغزالي، نظرات في القرآن،دار الشهاب للطباعة والنشر:باتنة،ط.6،1986م،ص125.

(3) سورة القمر: الآية،24-25.

(4) أحمد شامية، خصائص العربية والإعجاز القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية: الجزائر،ط.1،1995م،ص16.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

استجاب الله لطلب الملأ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ . والمشهد المعروض هنا يبرز المفاجأة التي نبهت المفجوئين ،جعلت الحدث يتشكل حين انتقاله ويتطور من مشهد غير مألوف ،وهو خروج الناقة من الصخر ، فتلك هي معجزة نبي الله صالح عليه السلام إلى قوم ثمود وهي قاعدة خرقت الناموس .

لقد كان لوجود الناقة أثره في تنوير الحدث وتسليط الضوء على مرحلة حاسمة من عمر الدعوة المحكومة بملابسات الزمان والمكان والأشخاص. وكان لتحديد الطارئ القصصي دوره في توجه الحدث نحو موطن الإثارة والصراع والإمتحان لما سيؤول إليه أمر قوم ثمود بعد رؤيتهم لناقة الله التي تجاوز السرد القرآني عن خوض في ذكر صفاتها بالتفصيل ،ليركز على موقف التحذير من إصابتها بسوء مؤكدا أن ذلك سيعرض القوم لعذاب الله في وقت قريب ﴿وَيَاقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾[1] .ذكر السرد هذه الجزئية لعلاقتها الوطيدة بنهاية الحدث إذا تعرض القوم للناقة بسوء سوف يترتب عنه نزول العذاب بهم وهنا انتهى الانذار لثمود .فماهو موقف القوم من هذا التحذير النبوي؟

أخذ الصراع بالقياس إلى الحدث صورة اتفقت مع نوع شخصية الملأ ومكوناتهم الإجتماعية والنفسية التي لم تنجح في صراعها الفكري فتدرجت إلى الصراع المادي حيث ستلعب فيه القوة المادية دورا كفيلا بتطويره . وهذا ما كشف عنه السرد في قوله تعالى:﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[2] .

ينطلق الحدث من المدينة وقد ذكرت الصفات الخلقية للشخصيات القاطنة بها والمعروفة في وسطها بالإفساد في الأرض ونبذ الاصلاح فيها وهم تسعة هؤلاء الذين أوكل إليهم أمر التخطيط لقتل ناقة الله .

ويبدو أن هؤلاء الجماعة قد اتفقوا على الاجتماع لإيجاد الحل المناسب والوسيلة المناسبة لايقاع الضرر والتخلص من ناقة الله.

(1) سورة هود : الآية64.

(2) سورة النمل: الآية48.

يكشف السرد من المشهد في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾(1).وقد بدأ التدبير للقيام بالإغتيال في جو مشحون بالغضب والخداع والتآمر تحت جناح الظلام (لنبيتنه) حيث هدأت الأوضاع، وكانت الجماعة بعيدة عن العيون في آخر الليل كظرف زماني مناسب لإتمام الفعل حينئذ، تم تآزر الليل مع ظلام الجريمة التي نسجت خيوطها في هذا الوقت بالذات .

تم الاجتماع على ذلك الأمر الخبيث بتدبير المكيدة للتخلص من الداعية واختير الشخص المناسب لتنفيذ الجريمة ، ودرست القضية من جميع وجوهها وقرر المجتمعون بعد اتفاق أنه إذا انكشف الأمر في الصباح فعلى الجميع الانكار والتبرؤ من هذا الفعل وذلك حتى لا تمتد إليهم أصابع الإتهام .

يمضي المشهد بالحدث بعد اتفاق الجماعة إلى الشروع في تطبيق الفعل بقيادة اشقى عنصر في الجماعة المتآمرة على القتل ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾(2).

عقرت ناقة الله وقضى أمرها على يد أعتى مجرم في قوم ثمود . وقد كان مشهدا رهيبا أغتيلت فيه معجزة الله ومحيت آياته من على الأرض وغاب حسها عن الأنظار ،لقد تم تنفيذ الأمر كما اشتهى الملأ المجرمون من قوم ثمود وارتاحت ضمائرهم لهذا الاغتيال الشنيع وانصرفوا مطمئنين البال بالقضاء على الدليل المادي الذي كان يدعم دعوة صالح عليه السلام .

بعد هذا المشهد المروع يميط السرد القرآني اللثام عن موقف جديد هو من حيث الترابط العضوي الداخلي بين المواقف تكملة لما سيسفر عنه حادث مكيدة القتل التي تمت بنجاح وهنا انتهت القضية .

---

(1) سورة النمل : الآية 49.

(2) سورة القمر: الآية29.

وقف نبي الله صالح عليه السلام على الفعل الاجرامي المقترف في حق ناقة الله معجزته إلى قوم ثمود ، لينذرهم بالعذاب الذي سيحل بهم قريبا نتيجة لما كسبته أيد. وهي نتيجة منطقية لهذا الفعل المقترف ونهاية متماشية مع تسلسل المواقف المترتب المرتبط منذ بداية الحادثة إلى قرب نزول العذاب .وهنا ينتهي المشهد .

يطل السرد القرآني على مشهد الحادث قبل الأخير من مسلسل الدعوة قبل الهلاك،وقد تم فيه منح الفرصة الأخيرة للتوبة واتباع سبيل الحق ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾(1) و﴿ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (2) ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾(3) .هذا المشهد معروض يتناول بالصورة الجانب المكمل للمشهد السابق على ايقاع زمني بطيئ فيه دلالة واسعة على التمهل(حتى حين) أمهل صالح عليه السلام قوم ثمود على أمل أن يعودوا إلى تقبل الدعوة والايمان بها . وانتظر معهم بوعد إلهي مدته الزمنية ثلاثة أيام لعله يأتي منهم الإعتراف المصحوب بالندم والحسرة ، لكنهم ما أدركوا الغفلة التي كانوا فيها ولم يحصل الندم واستشعار الذنب الذي ارتكبوه . وتكمل الآية الصورة حين تبين أنهم عصوا وأنهم كانوا قاصدين الكفر متعمدين الظلم﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ (4). ويمكن ان نميز الحدث بمرحلتيه الأولى والوسطى أنه جاء مرتبطا متسلسلا تسلسلا فنيا طبقا لوقائع الأحداث ونتائجها حيث جاء الحدث مرتبطا بالشخصية التي ساعدت على تجلية الحدث والعمل على ترابطه من عدة زوايا ويتجلى ذلك في:

1-مجيء الدعوة.

2- رفض الدعوة وتكذيب النبي.

3- الاعلان عن التمسك بدين الآباء.

4- احتدام الصراع .

5- الاعتراض على بشرية الرسول وطلب البينة.6- رؤية المعجزة رغم ذلك كان الإصرار على الكفر 7-مقاومة الدعوة ومحاربتها .8- تدبير المكيدة للتخلص من ناقة الله وهي الدليل المادي على صدق دعوة النبي .

(1)سورة هود: الآية65.
(2) سورة الذاريات: الآية43.
(3) سورة المومنون: الآية40.
(4) سورة الذاريات: آية45.

وتبعا لترابط هذه الصور والمشاهد ،يأتي الختام الواقعي والفني ببلوغ خط سير الحدث مرحلته الأخيرة ووصول الصراع قمته فتوقف في محطته الأخيرة وهي لحظة التنوير التي انفرجت فيها الأزمة وحلت العقدة بتدخل القدرة الالهية لإنهاء الموقف ووضع النهاية المناسبة للحدث حيث جاءت لحظة الحسم الالهي .

بنزول عذاب الابادة على قوم ثمود﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَاكَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾[1] . وهو الختام الواقعي والفني للحدث في القصة الذي يوقع في الحس شعورا بالقدرة الإلهية الكبرى،وبضآلة الكائن الإنساني تجاه هذه القدرة.

ثالثا-نهاية الحدث (مشهد الإبادة)

عرض القرآن مشهد الحدث الأخير في القصة محافظا على التناسب والتناسق أثناء السرد بحيث جاءت الحوادث متتابعة منسابة دون تلكؤ معتمدا اللاحق منها على السابق[2].فجاء قص الحوادث بارعا متسلسل حتى وصل إلى عرض المشهد الذي عرض فيه صورة نزول العذاب على القوم المكذبين جاعلا الحدث ينتهي بحركة سريعة تعكس العاصفة التي أعقبت تصرفات الملأ من قوم عاد وثمود المتأججة والضارمة التي بلغت درجة المعصية والكفر بدعوة ا لله وبأنبيائه .

وفي خضم هذا التعنت والاصرار على الكفر ،كما يعرضه الحدث وهو ينتقل في خط سيره صاعدا نحو القمة التي هدأت في الختام بنهاية منطقية مناسبة للجرم المقترف في حق الدعوة بتسليط العذاب بحسب نوع المعصية،فكانت الريح العاصف لعاد وكانت الصاعقة لثمود كما تصورها سورة الذاريات في قوله تعالى:﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ،مَاتَذَرُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ،وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ،فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ، فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾[3].

ونضيرتها في سورة القمر:﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ، تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ. كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ. ﴾[4].

(1) سورة الذاريات:الآية45.

(2) محمد يوسف نجم،فن القصة،ص59.

(3) الآية41-45. (4) الآية18-31.

وسورة الحاقة :﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ،فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ، فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾[1].

يبدأ عرض الحادث الأخير في القصة بتشنيف الأذان بتلك الصيحات الراعدة والنداءات والايقاعات المزلزلة،والموسيقى المرعية والأنغام الصافية الأمر الذي يجعل كل الألسنة تتساءل: ماهذا؟ إن الدقات أشبه ما تكون بالرعد وإن لايقاع أشبه مايكون بالقصف . إنه يوم القرع ويوم الكرب[2] .إنه موقف هائل رهيب ، يتلقاه الحس بهزة عميقة، وهو افتتاحه إلى ختامه يقرع الحس ويطالعه بالهول القاصم والجد الصارم.

والموقف بجملته يلقى في الحس بكل قوة وعمق إحساسا واحدا بمعنى واحد...أن أمر الدين والعقيدة جد خالص حازم جازم ، جد كله لا هزل فيه، وأي تلفت عنه من أي أحد يستنزل غضب الله الصارم، وأخذه الحاسم فالأمر أكبر من البشر إنه الحق من رب العالمين[3]

يبرز هذا المعنى في عرض الحادث الأخير في جو مملوء بالصخب والرغب، وهو أشق على قوم عاد منه على قوم ثمود ، وتتراءاشخصيات القصة في هذا الجو المشحون بالفزع وهي تجني ثمار تلك المواقف المعادية لدعوة نبي الله-هود وصالح عليهما السلام-وتلقى جزاءها العادل في هذا اليوم العصيب وتتطلع إلى مصيرها المحتوم بعدما أوصلت نفسها إلى طريق مسدود منطلق من فكرة الرفض وهي مأساة الكفر والعصيان لقومي عاد وثمود الذين لم يمنحهم إلا العذاب والاستئصال . وقد ظلت الشخصية الشقية من الملأ ترفض الدعوة وتقاومها بشدة وعنف وتكابر في قبول الحق والانصياع له . إلا أن جاءها الهلاك ونزل بها الدمار في يوم عاصف مزلزل .

إنه يوم الفزع والخوف يتراءالموقف وقد نزل العذاب بساحة القوم وكان يوما عصيبا طال عذابه على قوم عاد نتيجة لكفرهم وتجبرهم في الأرض بغير الحق .

---

(1) سورة الحاقة:الآية4-8.

(2) محمد الدالي،الوحدة الفنية في القصة القرآنية،مون للطباعة والتجليد:القاهرة،ط.1،1993م،ص231.

(3) سيد قطب، الظلال،جـ6ص3674 .

وامتد على مدار سبعة أيام متتالية دون أن ينقطع لحظة واحدة، إنه العذاب، عذاب الصيحة التي أخمدت أنفاس قوم ثمود ، وعذاب الريح العاتية التي طوحت برؤوس الجبابرة من قوم عاد وأحالتهم إلى أجساد فارغة محطمة ممتدة صرعى مجدلة﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ كما أخمدت الزلزلة العنيفة أنفاس قومي ثمود وتركتهم جاثمين على الأرض بغير حراك .

لقد جاء موعد الحسم،جاء الأمر بأن يهلك الكافرون من قوم عاد وثمود، فلا مجال للتراجع، ولاضرورة للإمهال، واستوى كل شيئ أمام الريح العاتية والزلزلة ،الأرض والإنسان،فلا الأرض تملك من نفسها شيئا ولا الإنسان يقوى على المواجهة في هذا اليوم العصيب.<< لقد تكافأ العجز في الطبيعةوالإنسان وهو تأكيد وترسيخ للقدرة الإلهية والعظمة الربانية>>[1] .

بهذا الموقف الرهيب وصلت حركة الحدث إلى ذروتها، وآن لها أن تجد قرارها وتستكين، لقد هدأت العاصفة ونجى الله الفئة المؤمنة، وبدأ السكون يخيم ويتمشى الهدوء وتستقر الحياة من جديد وسط ركام من الخراب . انتهى الحدث بإهلاك القوم الكافرين وابادتهم من على الأرض ولم يترك الله منهم أحد﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ . تمت النجاة لمستحقيها وتأكدت الابادة والفناء في حق العصاة ، ذهبوا ولم يبق من آثارهم إلا مساكنهم الخربة﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[2] . يعرض السرد مشهد هذا الحادث فازعا خاليا من الحركة ومن الناس تصفر فيه الريح لتذكر بالقضاء المحتوم العادل لقوم عاشوا تجبروا وطغوا زظلموا فكانت نهايتهم الابادة . لقد انتهى أمرهم فلا حس ولا صوت ولا حركة﴿هَلْ تَرَى مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[3] . إنها النهاية .

(1) محمد قطب عبد العال،من جماليات التصوير في القرآن الكريم،رابطة العالم الإسلامي،مكة المكرمة،العدد :99،سنة1990م،ص64.

(2) سورة النمل:الآية53.

(3) سورة مريم:الآية98 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثالث

أساليب عرض الحدث في قصتي عاد وثمود

اعتمد القرآن في عرض الحدث في قصتي عاد وثمود على أساليب متنوعة بين الإيجاز والبسط، تهدف كلها إلى بث الحركة و الحياة في القصة و تكبير الرتابة والتأثير بها على المتلقين لتقع لهم بها العبرة و العظة .

أولا- الايجاز وأسلوب السرد في عرض الحدث في قصتي عاد وثمود

هذا التنوع في أساليب عرض الحدث القصصي راعى فيه القرآن مستويات الفهم عند المتلقين ،من هنا كنا نلاحظ فيما يتصل بالحدث أن السرد القصصي يوجز في مواطن ويسهب في مواطن أخرى ، ولما كان الإيجاز و الإسهاب عملا من وظائف اللغة ، كما أنه يدخل في حقلها و طبيعتها ، إلى جانب ملكة المتلقين الذين قد يكونون من أهلها أو من التابعين لهم ، فإن المسألة تحتاج للإيضاح ، يقول الجاحظ :<<ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب و الأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة و الوحي و الحذف ، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد في الكلام >[1] . وذلك فيها تعتقد لكونهم لا سليقة لهم كالعرب وليسوا في حكمهم من البيان .

وفي هذا القول إشارة إلى أنّ العرب كانوا يستحسنون الكلام الموجز ويفضلونه على غيره من أنواع الأساليب حتى أنهم جعلوا البلاغة معادلة للإيجاز ، إذ نجد أحدهم يقول : <الإيجاز بلاغة >[2] .

ولقد اختصروا كلامهم وأخرجوه في صورة مكثفة مبرقة وموحية، تتعاقب على الذهن بسرعة كومضات البرق . وهذا اللون من الكلام يتطلب من المتلقي أن يكون سريع البداهة، لبيبا بالإشارة يفهم[3].

وكانت قريش أشد العرب فهما وذكاء، وأحدهم منطقا وكلاما، ومقامهم وهم كذلك يقتضي

(1) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، الحيوان،تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل :بيروت، د،ط،1992.جـ1ص94.

(2) الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق: أحمد خلف الله، زغلول سلام،دار المعارف: القاهرة،ط،4،1991،ص78.

(3) قال أبو العباس:<<من كلام العرب الاختصار المفهم، والإطناب المفخم، وقد يقع الإيماء إلى الشيء فيغني ذوي الألباب عن كشفه>> .أنظر المبرد، الكامل ، تعليق: محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته، مكتبة نهضة مصر: القاهرة،د،ط،1956،جـ1ص27.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقالا مناسبا، و اللغة الجديرة بهذا المقام هي لغة الإيحاء، ولغة التكثيف والإبراق[1] .

و القرآن الذي نزل معجزا لهم ، راعى فيهم هذه الخاصية فجاء أسلوب ما نزل بمكة متماشيا مع العادة الأسلوبية المتفشية فيهم فتقوى عليهم ، إذ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :< إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ ، وَاخْتُصِرَ لِي الحَدِيثُ اخْتِصَارًا >[2] .

ولكي نتبين ظاهرة الإيجاز في أسلوب السرد في عرض الحدث في قصتي عاد وثمود لابد أن نرتكن إلى هذه الأمثلة :

مثلنا الأول : من سورة الفجر حيث عرض أحداث قصتي عاد وثمود في الآيات قائلا فعبر عن قصة عاد بجملتين من عشر كلمات: ﴿ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلَادِ﴾. كما عبر عن قصة ثمود بجملة واحدة تتركب من خمس كلمات: ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالوَادِ﴾. تشتركان في مقدمة واحدة بسرعة مختصرة ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾.

ومن الواضح أن القرآن أعطانا مع السرد صورة حضارية مكتملة، فعاد أنشأت إرم ذات العماد ، وثمود قطعوا الصخر بالواد، لكي يعملوا به البيوت و التماثيل[3] .

وفي هذا إشارة للتفوق الحضاري الذي أحرزته هاتان الأمتان، فأطغاهما .

لقد كان لهذا العرض البليغ الموجز للحدث في القصة أثره في دعوة العقل إلى النظر و التفكير فيما عرض عليه من أمر حادثة قوم عاد وثمود ، الهدف منه تحويل المتلقي من طرف سلبي متلق فقط ، إلى طرف إيجابي يؤكد حضوره بكثافة في جو الخطاب الوعظي المبثوث إليه .

ومن هذا اللون الذي اقتصر فيه السرد على عرض الأحداث في قصتي عاد وثمود بصورة موجزة، ما تقف عليه في سورة الحاقة، حيث ورد فيها الحدث مختصرا وسريعا﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالقَارِعَةِ ، فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَاغِيَةِ ، وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) محمد طول ،البنية السردية في القصص القرآني،ص129.

(2) علي بن عمر الدارقطني،سنن الدارقطني، كتاب المكاتب،باب النوادر والأحاديث المتفرقة،عن ابن عباس(رضي الله عنه)،عالم الكتب: بيروت،ط،4،1986م،جـ4ص145.

(3) محمد متولي الشعراوي،المنتخب من تفسير القرآن العظيم،تفسير سورة الفجر،دار العودة: بيروت،د،ط،1987م،جـ3ص64 .

لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾[1]. لقد استهل القرآن في عرضه للقصة بذكر الحدث في قصة ثمود ، ثم أتبعه بذكر الحدث في قصة عاد وأشار في كل منهما إلى صورة الهلاك التي أصابتهم جزاء عصيانهم لرسولي الله هود وصالح عليهما السلام فكان هذا العرض مكثفا مقتصدا فيه بحكمة، على أن كل لفظة فيه تعد رمزا دلاليا واشارة تثير كل تفاصيل الحشد اللفظي < على افتراض أننا جعلناه معبرا بديلا على القول الموجز>[2] .

لقد تمكنت الآيات القلائل التي عرض فيها الحدث من تحقيق وظيفتين اثنتين في آن واحد ، حيث أنها أدت ما يؤديه الكلام عادة وهو إبلاغ الرسالة الدلالية ، وفي الوقت ذاته سلطت تأثيرًا ضاغطا على المتلقي تمثل في تحذير المشركين من أن يصيبهم ما أصاب عاد وثمود .

ولقد نتج عن هذا التأثير فيما نعتقد من عاملين أولهما اختيار الإيجاز في ذاته وسيلة للقص بهدف التحذير و الإنذار . وثاني العاملين انتقاء مادة العناصر المسرودة ذاتها لتحفظها كل أذن ، فتكون عظة لمن يأتي بعد[3] .

إن الخصائص الأسلوبية التي اتسم بها الحدث في قصتي عاد وثمود في سورة الفجر و التي أوجز القرآن فيها القصة حيث بدأها الخالق تبارك و تعالى بسؤال يثير الاهتمام ويقرر خبرا كان معلوما عند العرب ، وهو ما حدث لعاد وثمود وكان النبي(صلى الله عليه وسلم) يعلم علما كالمشاهد المرئي و لذا لم يجئ الحدث في السرد بمجيء الخبر المفصل و ذلك حتى لا يكون حديثا معادا، فلقد وصف ما حظيت به كل من عاد وثمود من أسباب الحضارة في عدة كلمات وفيهم من البلاغة و الإعجاز ما يغني عن الوصف ثم بعد ذلك جاء السرد بنهاية الأحداث، مع الإبقاء على مسببات هذه النهاية حتى تبقي الإشارة مستمرة ومتزايدة ففضل الفعل المذكور المتعجب منه[4] بقوله :﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[5] .

---

(1) الآية :4-8.

(2) محمد طول،البنية السردية،ص132.

(3) المرجع نفسه،ص132.

(4) نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان،دار المعرفة: بيروت،د،ط،1983،جـ30ص85.

(5) الآية :14.

لقد عبّر عن النهاية بكلمات قليلة هي في غاية الوضوح و الإبانة ، إذ يتعرف المتلقي فيها على أن عاداً و ثمود قد عذبوا و استئصلوا بسبب طغيانهم .

لقداسهمت في روعة هذا الأسلوب ما شحنت به كلماته من توقيع موسيقي موجز ، إلى جانب ما احتوته من كثافة في الدلالة .ونجد هذه الخصائص الأسلوبية للحدث في قصتي عاد وثمود ، كذلك في سورة القمر والذاريات التي اكتفى السرد فيها بذكر ماله علاقة بعرض الحدث وقصده، فأوجز في عرضه، عدل عن التفصيل بقصد تركيز الذهن على قضية واحدة دون تشتيته بين أنواع منها، بحيث جعل السرد همه مقصورا على إبراز الفكرة الأساسية وهي العظة متجنبا جهد الطاقة أن يتطرق إلى جوانب أخرى من حياة قومي عاد وثمود، وذلك هو الجوهر الجدير بالعناية و الإشارة و عمق التأثير.

ونستطيع أن نستخلص من هذا أن السرد في عرضه للحدث بأسلوب القصة القصيرة التي من خصائصها الفنية الوحدة و التركيز[1]. ومنها تلك القصة القصيرة الرائعة المركزة على قوم عاد . لقد ذكرها الله في إحدى وعشرين كلمة فقط ! وعلى الرغم من ذلك فقد احتوت هذه الكلمات الكريمة كل مقومات وعناصر القصة الهادفة ، المؤثرة قال تعالى في سورة القمر عن قوم عاد :﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾[2] .في هذه الكلمات القليلة الموجزة تتوفر كل شروط و مقومات القصة القوية الكاملة [3]. و نحن إذا اعتبرنا قصة عاد كما وردت هكذا في سورة القمر قصة قصيرة استمدت جزء من قيمتها من كونها مركزة تركيز القصيدة، إذ منحت عطاءها في لحظات[4]. فقد دارت حول موقف و هو التكليف بالرسالة و ما نتج عن ذلك كما جاء لحظة الكشف و التنوير، دون امتداد في الزمن و المكان. فهي برغم تركيز الحدث و اختصاره تناول السرد القرآني عرضه في قطعة صغيرة في حياة قوم عاد و ثمود، في صورة سريعة قوية في تعبيرات مركزة و مشّعة، مهمتها الإيحاء السريع و التأثير القوي و ذلك من أجل أن تبلغ غايتها الوعظية في أقصر وقت و من أقرب طريق[5].

(1) عباس خضر،القصة القصيرة في مصر،الدار القومية للطباعة والنشر والتوزيع:مصر،د،ط،1966،ص76.

(2) الآية:18-20.

(3) كمال حسن المحامي،القرآن والقصة الحديثة، دار البحوث العلمية، بيروت، ط1، 1970م، ص 13

(4) ماهر حسن فهمي،قضايا في الأدب والنقد،دار الثقافة للنشر والتوزيع،الدوحة،د،ط،1986،ص340.

(5) محمد شديد ،منهج القصة في القرآن، ص 35

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و بهذا الأسلوب المركز استطاع السرد أن يوفر العناية بمعنى (العبرة) بعينه و هذا الهدف الذي سيقت لأجله القصة هو الذي أوجب حذف ما حقه أن يثبت و ذلك حتى أن يتجه الاهتمام إلى الشيء المذكور حيث يكون<<ترك الذكر أفصح من الذكر، و الصمت عن الفائدة أزيد للفائدة، و تجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، أو أتم ما تكون بيانا إذ لم تبن>>[1] .

إن الاختصار في أسلوب عرض الحدث في قصتي عاد و ثمود هو نحو من البناء السردي، الذي يفجر الإمتاع الذهني عند المتلقي، بنحو بالغ المدى، إنه يجعل المتلقي مسهما في الكشف الفني مفجرا تنقلاته الفكرية هنا وهناك مثريا الذهن بربط شذرات الأحداث ، و اللين لتداعياتها[2].

ثانيا-البسط و أسلوب السرد في عرض الحدث في قصة عاد وثمود

وقفنا على اللون الأول الذي يعد من مميزات أسلوب السرد عرض الحدث في قصتي عاد وثمود وهو الإيجاز ، وسنقف على لون آخر من أساليب العرض و الأداء يتخذ البسط[3] و الشرح منهجا .

ونبدأ بعرض المواقف التي يتضح من خلالها أسلوب البسط و الإسهاب في الكلام على لسان نبيي الله -هود وصالح عليهما السلام- في حوارهما مع قوميهما - عاد وثمود - تماشيا مع متطلبات الدعوة ومراحلها كما صورتها كلٌّ من سورة الأعراف و سورة هود ، وسورة الشعراء ، والتي كان الهدف منهم بسط الكلام فيهم هو التحذير من المعصية. ونبدأ بملخص نجتزئه من قول بلاغي عربي : <الإطناب فيه بلاغة>[4] . ويكون لتفصيل المعنى وما يتعلق به في المواضع التي يحسن فها ذكر التفصيل . وهو يأتي لأداء المعنى بلفظ زائد عن أصل المراد . لفائدة وهي إيضاح بعد إبهام ، التحذير من المعصية ، الترغيب في الطاعة ، وغير ذلك مما له بال ، فحينئذ يجب على المتكلم أن يبدئ ويعيد ، ويحذر بالتكرير ، وينذر بالترديد ولتكن رقى مواعظه أولج في المسامع ، وحجته أظهر في مختلف الأفهام و الطبائع[5].

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز،تعليق:محمود محمد شاكر،مكتبة الخانجي :القاهرة،ط،2،1989،ص146.

(2) محمد طول،البنية السردية،ص140.

(3) البسط: مصطلح اختاره البلاغيون القدامى وهو يودي معنى الاطناب الذي لم نر مسوغا لاستعماله هذا مختارين البسط أوالاسهاب،كمصطلح بديل له تماشيا مع قدسية النص القرآني، وجلال كلامه الذي شمل كل أنوع الاعجاز.

(4) أبو بكر بن الطيب الباقلاني،اعجاز القرآن،تحقيق: عماد الدين احمد حيدر،مؤسسة الكتب الثقافية: بيروت،ط،1،1991،ص269.

(5) أحمد حملاوي،زهرة الربيعفي المعاني والبيان والبديع،مطبعة الاعتماد:مصر،ط،3،د،ت،ص76.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويظهر هذا اللون من الأسلوب في قصتي عاد وثمود التي جاءت لتوضيح العقيدة الجديدة للقوم حين حاول نبيا الله هود وصالح عليهما السلام أن يضعا حقائق الرسالة الواضحة المتميزة أمام قومهما ليستفيقوا من غشيتهم وليحسوا إحساسا لما هم فيه من ضلال . فيكون ذلك دافعا للعدول الأسلوب القصير إلى الأسلوب المرسل المشحون بالبرهان و الدليل ، حتى يأخذ قومهما بالحجة و الدليل .

وليوضح هذا الكلام نأخذ مثلا محاورة هود عليه السلام للملأ من قومه حول التوحيد ، فلقد وردت هذه المحاورة في سورة هود في قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ، وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾.

إن في أسلوب عرض الدعوة الذي اتبعه هود مع قومه عاد كما عرض فيه السرد القرآني الحدث مبسوطا ظهرت فيه شخصية القصة - نبي الله هود - وكله أمل في ترغيب قومه في طاعة الله وطلب معرفته و التوبة إليه من المعاصي و العودة إلى رحاب الحق بإتباع دعوة الرسول المبعوث إليهم.

ولا شك أن هذا الترغيب يتطلب من النبي بسط الكلام لقومه أن يذكر ما سيترتب عنه من جزاء لو أنهم استغفروا وتابوا إلى ربهم ولهذا زاد في الكلام وفصل فيه ربطا العلاقة بين التوبة والامداد بالمطر الذي هو سببا في زيادة القوة .

إن تفصيل القول في هذا الموقف كان يهدف فيه النبي أن الترغيب في أمر الدين وتقريبه من نفوس المعاندين من قومه لعلهم يستجيبون لدعوته ، فكان بذلك في غاية الدلالة ومنتهى الإيفاء .

وقد كان لهذا التفصيل دور في تطور الحدث وتأزم الصراع وإتساعه وتحويله من مجاله الفكري الهادئ إلى مجال مادي حركي .ومن هذا اللون الذي يتخذ البسط منهجا ، ما استهل به السرد قصة عاد في سورة الشعراء ، حيث يقول تعالى ﴿واتَّقُوا الَّذِيَ أَمَدَّكُم بِمَا تعلمونْ ، أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِيْنَ ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[1] .ولما كان الموقف موقف تنبيه إلى نعم الله المبسوط على قوم عاد و التي يدل عليها لفظ"أمدكم" [2] في التعبير القرآني . كان المقام يقتضي الاعتناء بهذا الشأن فإن جملة ﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِيْنَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وردت لتفصيل ما أجملته الأولى لكونها أوفى من سابقتها في تأدية المراد .

(1) الآيات:132-134.

(2) أمد: قال الراغب: أكثر ما جاء في الامداد ما يتعلق بالمحبوب.أنظر:محمد اقبال عروي،اطرادات أسلوبية في الخطاب القرآني،دار الأمام: الرباط،ط1،1996م، ص28.

خلاصة الفصل:

إن الحدث في قصتي عاد وثمود جاء على صورة تألفت من حدث مألوف جرى به العرف والعادة إلى آخر كسر السنن ونأى عن ألفة وخرق الناموس.وقد كان هذا اللون الآخير نتيجة للأول ونهاية له ، ساقه الخالق سبحانه وتعالى من الأنباء ما جعله بصائر للناس، ودساتير تنوير وهداية ،وسجلا حافلا بحياة هاتين الأمتين الغابرتين، وأزاح به الستائر عن صحائف منسية كان للعرب عهد بأخبارها دون تفاصيلها. ويلاحظ على الحدث أنه عندما كان غير مألوف ترتبت عليه فاعلية خاصة، وكان له وقع على النفس، وهذا ما يفسر أن الأسلوب المعجز الذي ساق به القرآن الأحداث قد أسفرت فاعليته بصورة أكيدة في صنع الحدث وفي تعيين معالم سيره ومرساه الأخير. خصوصا وأنه جاء مرتبطا بالماضي منتزعا من الواقع في شكله الموجز المركز حول موضوع العبرة والعظة ، مجردا من الخرافات التي أخذت تزيد وتنقص مع كثرة التداول وتطاول الزمن. كما جاء ملازما للشخصية الفاعلة ، وثيق الصلة بسلوكاتها وما ينتج عنا من مواقف متعددة، إزاء قضايا الحياة، وقد كان لهذا الترابط والملازمة بين الحدث والشخصية أثره في إشاعة الحركة والتجدد داخل القصة .

لقد تم عرض الحدث بأساليب متنوعة تراوح بين الايجازتارة والبسط تارة أخرى، بحسب متطلبات الغرض الديني الذي من أجله سيقت القصة في القرآن . ولا شك أن الخضوع للغرض الديني كان له أثره الفني في طريقة بناء الحدث وأسلوب عرضه في هيكل سردي متصل بثلاثة أجزاء متظافرة..بداية قوية ووسط اشتد فيه الصراع حتى بلغ قمة توتره ثم انحداره إلى مستقره الأخير في نهاية مفتوحة على مشهد الدمار والإبادة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني

الشخصية ودورها وأبعادها وكيفية رسمها في ضوء فنيات القص القرآني

تمهيد وتقسيم:

للشخصية دور فعال في القصة الأدبية وكذا القصة القرآنية، وتحديدا دورها الأساسي في تشكيل بنيتي قصتي عاد وثمود ، فهي التي صنعت الأحداث فكانت مصدر امتاع وتشويق لمطابقتها لنماذج انسانية واقعية. وقد بنيت في القرآن على أساس عقدي محكوم بثنائية الإيمان والكفر. وقد عرضها السرد القرآني بابعادها المختلفة مع تحديد للوظائف التي أدتها داخل القصة في تحريك الحدث وتطوره خدمة للغرض الديني الاعتباري الذي سيقت لأجله القصة في القرآن العزيز.

ولبيان هذه الجوانب المميّزة في شخصيات قصتي عاد وثمود قمنا بتقسيم هذا الفصل إلى مبحثين؛ بحيث:

نتناول في المبحث الأول: الشخصية ودورها في العمل القصصي.

والمبحث الثاني: نتعرض فيه إلى الشخصية وأبعادها وطريقة رسمها في ضوء فنيات القص .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول

الشخصية ودورها في العمل القصصي

لعبت الشخصية دورا فعالا في القصة وتحديدا في قصتي عاد وثمود؛ حيث كانت صانعتي الأحداث وقائدتيه في مجاهيل العمل القصصي. ولتوضيح ذلك قمنا بتقسيم هذا المبحث إلى مطلبين:

المطلب الأول: ندرس فيه الشخصية ودورها في القصة الأدبية والقصة القرآنية.

أما المطلب الثاني: فجاء فية الشخصية دورها وبناؤها في قصتي عاد وثمود .

المطلب الأول

الشخصية ودورها في القصة الأدبية والقصة القرآنية

أولا– الشخصية ودورها في القصة الأدبية

الشخصية عنصر أساسي في تشكيل بنية القصة ، وهي بمثابة العمود الفقري الذي يشد فقرات الحدث بعضها إلى بعض بشكل مترابط يخدم الفكرة العامة للعمل القصصي .

<< والأشخاص في القصة مدار المعاني الإنسانية، ومحور الأفكار والآراء العامة . ولهذه المعاني والأفكار المكانة الأولى في القصة منذ انصرفت إلى دراسة الإنسان وقضاياه>>(1) .إذ لا تساق الأفكار منفصلة عن محيطها الحيوي، بل ممثلة في الأشخاص الذين يعيشون في المجتمع، وإلا كانت مجرد دعاية، وفقدت بذلك أثرها الاجتماعي وقيمتها الفنية معا . <<فلا مناص من أن تحيا الأفكار في الأشخاص، او تحيا بها الأشخاص،وسط مجموعة من القيم الإنسانية يظهر فيها الوعي الفردي متفاعلا مع الوعي العام>>(2). على حسب ما يهدف إليه الكاتب، في رؤيته إلى القيم والمبادئ ومدى اتساقها مع الغرض الفني.

والأشخاص في القصة مصدرهم الواقع. ولهذا فهم في العادة يقدمون وهم يتحركون داخل عالمهم القصصي بما يقومون به من أفعال وأقوال وهي في العادة <<ممكنة الحدوث أو التماثل مع واقع الحياة التي يحياها البشر بالفعل>>(3) .

---

(1) غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت،ط1،1982م،ص562.

(2) المرجع نفسه،ص562.

(3) يحيى الجبوري: المدخل لدراسة الفنون الأدبية واللغوية،ص59.

وإن كان لهؤلاءِ الأشخاص كيانهم المستقل،الـذي يجـب أن يظـل حيـا في حركـاتهم وسكناتهم حتى يحس القارئ من أعمالهم حرارة الحياة، ويعرف من أفعـالهم مـا يتميـزون بـه من قيم إنسانية تجعل تصرفاتهم مطابقة لما يحدث في واقع الحياة.

حتى أن المشكلات التي تعترض القصة هي نفسـها المشـكلات الـتي تعـترض المجتمـع، ولذلـك فحـل هـذه المشـكلات ينبغي أن يتفـق ومنطـق الحيـاة، وهــذا يعطــي انطباعــا أن الأشخاص في القصة لا يختلفون عنهم في الحياة .

كل قصة تحتوي على عدد معين من الشخصيات بعضها يمثل أدوارا رئيسية، وبعضها يمثل أدوارا ثانوية، وأخرى هامشية.<<وأما الشخصيات الرئيسية فهـي الـتي تسـهم في صنـع الأحداث أو تدور الأحداث حولهـا . وأمـا الشـخصيات الثانويـة فإنهـا ذات دور محـدود في القصة ولا يتكرر ظهورها فيها . وأما الشخصيات الهامشية فهي التي لا نكاد نتبين شيئا مـن ملامحها ولانرى لها دورا بارزا في مــجريات القصة ، وإنما تمثل خلفية للمشهد، او هي جزء من البيئة التي تجري فيها الأحداث>>(1) .

وإذا نظرنا إلى هذه الشخصيات جميعها وهي تؤدي أدوارها على مسرح القصة نجـد أنها تساهم بمواقفها في نمو الفكرة الأساسية للحدث وسيره الطبيعـي عـبر احداثيـات الزمـان والمكان حيث تتجلى المواقف ،وتتضح المشاهد في ذهن القـارئ ،ويـدرك صلـة الشـخصيات بالحدث القصصي وتطوره من الداخل . <<والشخصية ينبغـي أن تنمـو بنمـو الحـدث نفسـه ...وتتراكم معلوماتنا عنها شيئا فشيئا حتى نحـس ان الكـاتب يقدمهـا مـع كـل فصـل شـيئا جديدا ومدهشا . لأن القارئ إذا فقد الدهشة فقد الرغبة في مواصلة القـراءة ، وفقـد العمـل القصصي نفسه شيئا من لوازمه وهو التشويق والإستثارة>>(2) .

بهذا المفهوم ندرك أن دور الشخصية هام في العمل القصصي ، وأنـه لا جـدوى مـن العمل القصصي الذي يخبو فيه التشخيص وتغيب فيه الشخوص بأفكارها وقيمها . وبالمفهوم نفسه ندخل إلى الشخصية في دورها الباني الفاعل في الأحداث في القرآن الكريم .

---

(1) مأمون فريز جرار: خصائص القصة الإسلامية،ص79 .

(2) يحي الجبوري:المدخل لدراسة الفنون الأدبية واللغوية،ص61 .

ثانيا -الشخصية ودورها في القصة القرآنية

لم يغمط القرآن الشخصية [1] ما تستحق من اهتمام ، بل صورها أحسن تصوير وأعطاها قوامها الذي كانت تدب به بين الناس بطريقة تخول للقارئ أن يتبعها بدقة، وأن يميز بين الخبيث من الطيب ، ومن هو أهل للقدرة، ومن هو حقيق بالتجنب [2] .

والأشخاص في القصص القرآني -أيا كانوا- ليسوا مقصودين لذاتهم من حيث هم أشخاص تاريخيون يراد ابراز معالمهم، وكشف أحوالهم، والتمجيد أو التنديد بأعمالهم . وإنما يعرض القرآن ما يعرض من شخصيات كنماذج بشرية في مجال الحياة الخيرة والشريرة، وصراعها مع الخير والشر، وفي تجاربها أو تعاندها مع الأخيار والأشرار .

<<والشخصية في القصة القرآنية ينظر إليها بهذا الاعتبار الذي تؤدي فيه دورها كشاهد من الشواهد الإنسانية في قوتها واو ضعفها ، وفي استقامتها أو انحرافها ، وفي هداها أو ضلالها ، وفي رشدها أو غيها، وفي حكمتها أو سفاهتها، إلى غير ذلك مما تندرج تحته عوالم الإنسانية >>[1].

لذلك نجد كثيرا من الشخصيات <<تأخذ مواقف متعددة في القصة ، وذلك في أزمنة متباعدة في عرض القرآن لها حسب النزول>>[2] .

والشخصية في القصة القرآنية لا تاتي إلا مرتبطة بالحدث ، نلمس هذا من اهتمام السرد القصصي بها إلى جانب اهتمامه بالحدث إضافة لرعاية الفكرة . والقصص القرآني لا يرسل الأوصاف والسمات الخاصة فضلة ، وإنما يختار منها ما له علاقة بالقصة ويدخل في تصميم الحدث بمشاهده المختلفة وفي تصوير ظلاله الملونة <<ويكون

(1) لم يرد في مصطلح الشخصية في القرآن الكريم ،وإنما ورد بلفظ المرء الذي هو بمعنى: الرجل إنسان -بل لم ترد مادة:ش،خ،ص إلا في تشكيلتين في القرآن الكريم كله: في قوله تعالى:﴿**وإنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار**﴾سورة إبراهيم،الآية 42 . **وقوله تعالى:**﴿ **اقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا**﴾،سورة الأنبياء ،الآية97 .انظر: محمد فواد عبد الباقي:المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم،دار مطابع الشعب،(د،ط)،(د،ت)،ص376.

وفي النقد: ورد مصطلح الشخصية بمعنى الفاعل الذي يقوم بالفعل ، ويكون مدار المعاني الانسانية ، ومحور الأفكار ةالآراء العامة . انظر: محمد غنيمي هلال: **النقد الأدبي الحديث**،ص562 .

(2) محمد طول : البنية السردية،ص56 .

(1) عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه،ص41 .

(2) **فواد علي رضا**:من علوم القرآن ،ص200 .

كمفصل متتحرك من مفاصل الحركة العامة لنمو الفكرة>>[1] . وإذا نظرنا في القصة القرآنية نجد هناك عددا كبيرا من الشخصيات منها ما ينتمي إلى عالم الغيب . ومنها المنتمي إلى عالم الشهادة.

فمن أمثلة شخصيات عالم الغيب الملائكة الذين لهم حضور ومشاركة قصة آدم ، وبعض مشاهد قصة مريم وزكريا، ويتجسدون في صورة بشرية تخفي على من يراهم فيظنهم بشرا كما حدث في قصة ابراهيم مع ضيفه من الملائكة الذين أرسلوا بالعذاب إلى قوم لوط﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[2] .

وأما شخصيات عالم الشهادة ،فإننا نجد منها الأنبياء والصالحين والطغاة، ومنهم الرجال والنساء الذين يذكرون بصفاتهم دون أسمائهم فمنهم العبد الصالح الذي لقيه موسى ، والشيخ الكبير في مدين ، ومؤمن آل فرعون ، ومنهم شخصيات جماعية كالحواريين وأصحاب الكهف . واما الشخصيات الكافرة فغالبا ما تتعلق بالملأ من قوم فرعون وهامان وقارون . ومنهم من ذكر بصفة من صفاتهم كالملك أو العزيز في قصة يوسف . أو يذكر القوم بأسمائهم مثل قوم عاد وقوم ثمود وأصحاب مدين وسبأ . وقد ينسبون إلى نبيهم مثل قوم نوح وقوم لوط .

وهذا التنوع جعل باحثا يقول :<<إن ا لله عزوجل قد جعل القصة القرآنية مجلى لهذا الكون بما فيه من مخلوقات خفية وظاهرة ، مؤمنة وكافرة ،مما يجعل متدبرها يستشرق آفاق الوجود كله >>[3] .

وقد كشف هذا التنوع عن عدد من الظواهر ،منها ذكر أسماء بعض الشخصيات ، وإغفال بعضها الآخر ، وبهذا << يذكر من الأسماء ما تدعو إليه حاجة القصة حتى تترك أثرها في نفس القارئ أو السامع >>[4] .

(1) محمد طول:البنية السردية،ص67 .

(2) سورة هود : الآيتان 69-70 .

(3) مأمون فريز جرار:خصائص القصة الإسلامية،ص76 .

(4) المرجع نفسه، ص76 .

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولا يسرف في ذلك البيان حتى لا تفتر روعته ،<<ولكنه يمثل للقارئ أو السامع صورا حية تهز المشاعر في دائرة الشخصيات التي تدور حولها أحداث القصة>>[1] . والظاهر أن أسماء الأنبياء أكثر ذكرا من أسماء رؤوس الكفر ولعل في هذا تكريما لجهود أولئك الصفوة المختارة من خلق الله ومعاناتها في سبيل الدعوة إليه . وأما بعض رؤوس الكفر الذين ذكروا مثل فرعون وهامان وقارون <<ففي ذكرهم تشهير بهم واستمطار اللعنات عليهم إلى يوم الدين ليكونوا نماذج في السوء ويكون في عاقبتهم عبرة>>[2] .

ومن هنا نقول إن الأسماء لم تكن مقصودة لذاتها في القصة القرآنية إلا إذا كان في ذكرها زيادة عبرة تذكر أسماء الأقوام الذين حل بهم العذاب . لاسيما الذين كانت ديارهم على مقربة من العرب كديار الحجر ومدين وديار قوم لوط .

ويلاحظ في القصة القرآنية وجود تنوع جلي في الشخصيات المشكلة للأحداث وسيرها في اطار الفعل القصصي بحركة طبيعية تكشف عن تنوع النماذج البشرية في مجالها الفردي والجماعي.

ففي مجال السياسة يقدم السرد القرآني لشخصية فرعون كنموذج للحاكم المتسلط المستعلي على شعبه[3] .وفي المقابل نجد الملك الصالح المصلح في شخصية ذي القرنين، وشخصية سليمان عليه السلام الذي جمع بين الملك والنبوة، ونجد الوزير المفسد المعين على الشر في شخصية هامان.ثم نموذج الملك البصير بالرجال في شخصية ملك مصر الذي جعل يوسف حفيظا على خزائنها، ونموذج الوزير الحفيظ العليم في يوسف.ونموذج المستشيرة لرعيتها في ملكة سبأ. وفي مجال المال والأعمال نجد قارون نموذجا للشخصية التي أتاها الله المال فجعلها فتنة للناس.

وفي ميدان رحابة الحياة الاجتماعية عرض القرآن الكريم شخصيات في نماذج بشرية لحالات متنوعة ، من أبرزها الأب المؤمن والولد الكافر في نوح وإبنه ، والرلد المؤمن والأب الكافر في إبراهيم وابنه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) عبد الحافظ عبد ربه : **بحوث في قصص القرآن**،ص65 .

(2)مامون فريز حرار،المرجع السابق،، ص76 .

(3) انظر كل من سورة القصص وسورة طه.

وإلى جانب النماذج البشرية المذكورة عنى السرد القصصي بعرض صورة لشخصيات أخرى مثلت نماذج للفساد الاجتماعي :كشخصيات قوم لوط الموسومة<<بالفجور والكفر، وسوء الطوية والسلوك،مما دفع بهم إلى قطع الطريق للسلب، وإتيان في ناديهم المنكر علنا>>[1] .

وفي مجال رسم الشخصيات في القصة عرض السرد نموذجين من الشعب : الأول[2] الشعب الجاهل . والثاني[3] الشعب المستعصي على القيادة المتأبي على الهداية الذي تأثر بالعبودية فظل أسيرا ذليلا .

والخلاصة أن الشخصية عنصر مهم في تشكيل بنية القصة ، وهي تأتي دائما مرتبطة بالحدث عن طريق الحركة في إطار الزمان والمكان ، أو في إطار الفكر والوجاد ، ويظهر هذا من خلال رصد الشخصية وتصرفاتها وما تحمله من أفكار وقيم ومبادئ .

كما تأتي لتؤدي دورا هاما في توضيح القصة ، فهي تقود القارئ في مجاهل العمل القصصي، وتوجه حبكة الأحداث ، كما تقوم بالتعليق على الحوادث في هدوء وارتياح أو سخرية وامتعاض بحيث تلقي ضوءا كاشفا على مجريات القصة وتطورها ،في خط سيرها حتى تبلغ غايتها المنشودة في استكمال عناصر بنائها الفني ، وتحقيق الأثر المطلوب للمتلقي من حيث الإفادة والمتعة.وبهذا المفهوم حرص القرآن الكريم على العناية بشخصيات قصصه، وقدمها كنماذج انسانية جاءت لتمثل مبادئ الخير والفضيلة أو مساويء الشر والرذيلة محدودة في شخصية الأنبياء والمؤمنين وشخصية الكافرين افرادا وأقواما، مما يكشف ما تفرد به كل نموذج من سمات تتناسب مع دوره في القصة كما تتناسب مع دوره في المجتمع ، وذلك بحسب ما يتطلبه الغرض الديني الذي سيقت لأجله القصة في القرآن الكريم ،بإعتبارها قصة ذات هدف تأخذ من الشخصية الجانب الذي يحقق لها الغاية ويصل بها إلى الهدف << فإن كان ذلك يتحقق من خلال التعرف على اسم الشخص وذكر اسمه،وإن كان يتحقق من خلال التعرف على سجاياه وصفاته عرف وترك ماعدا ذلك >>[4]

(1) عفيف عبد الفتاح طبارة:**مع الأنبياء في القرآن الكريم** ،ص142 .

(2) المقصود بهم القوم الذين وجدهم ذو القرنين ،كما جاء في سورة الكهف.

(3) المستعصي وهم بنو اسرائيل .انظر سورة كل من : القصص ، طه، الكهف .

(4) محمود السيد مصطفى:**الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية** ،تقديم: حسن عون،مؤسسة شباب الجامعة ، الأسكندرية ،ط 1 ،1981م ،ص 135 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني

الشخصية ودورها وبناؤها في قصة عاد وثمود

أولا- دور الشخصيات

الشخصية عنصر أساسي وركيزة من ركائز البناء الفني في قصتي عاد وثمود أظهرها السرد القرآني كنماذج إنسانية شكلت بسلوكاتها ومواقفها وحركاتها صور الحدث . وكانت وراء صنع مشاهده داخل القصة التي سيقت بهدف العظة والعبرة،وذلك بما حملت من مبادئ وقيم ، وما أفرزته من صراع كان هو المحرك في سير القصة وانتقالها من مرحلة إلى مرحلة أخرى،بما يتلائم وفنيات البناء القصصي ويلقي علىالفضاء السردي عوامل النشاط والحركة،وهما من لوازم صيرورة الحدث وتوجيهه نحو غايته المنشودة .

وقد تعاونت على خدمة الحدث ودفع وتيرته في قصتيعاد وثمود مجموعة من الشخصيات اضطلعت بأدوار متفاوتة داخل عالمها القصصي بين شخصيات رئيسية صنعت الحدث وقادته ، وبين أخرى ثانوية جاءت لتدعم الشخصيات المحورية في القصة وترافقها على توضيح الجوانب الخفية من زوايا الحدث ، وذلك عن طريق رصد حركات الشخصية وتصرفاتها في إضافة بعض المعلومات التي تسهم في نمو الفكرة الأساسية للقصة ، وذلك بحسب ما يتطلبه السياق القصصي ، وإن كان التركيز السردي على الشخصيات الرئيسية في إدارة الحدث إلى جانب الشخصيات الثانوية التي تطلّب الفعل القصصي أن تقوم بينهم جميعا رباط وحدة اتجاه القصة،وتضافر على ثمار حركتها،أو على دعم الفكرة الجوهرية فيها[1] .

وعلى هذا الأساس جاءت شخصيات قصة عاد وثمود متنوعة مقسمة إلى شخصية محوريةمثلها نبيا الله هود وصالح عليهما السلام ، والجماعة من الملأ من قوميعاد وثمود .وشخصية ثانوية مثلها عاقر الناقة والفئة المؤمنة والفئة الكافرة من القومين . وكلا الصنفين من الشخصيات سواء المحورية أو الثانوية وظفها السرد القرآني ليعضد بها جانب الحق يرمز بها إلى قيم الخير والشر التي يريد القرآن من خلالها أن يوصل خطابه الإعتباري القصصي إلى ذهن المتلقي ويوقظ ما بنفسه من دوافع العبرة والعظة،وهو الهدف الأسمى من وجود القصة في القرآن الكريم فإذا نحن استعرضنا

(1) محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث ص 569 .

في قصتي عاد وثمود الشخصيات الفاعلة والمؤثرة في الأحداث القصصية ، فإننا سنجدها خاضعة في تقسيمها في القصة للغرض الديني . وقد <<ترك هذا الخضوع آثارا واضحة في طريقة عرضها، بل في مادتها>>[1] . ونعرض فيما يلي أوضح التقسيمات المشخصية لتتضح أمامنا النماذج :

أ- شخصيات قصة عاد :

هود عليه السلام، الملأ من عاد، الفئة المؤمنة بالدعوة، الفئة الكافرة بها.

ب-شخصيات قصة ثمود:

صالح عليه السلام، الملأ من ثمود، الرهط التسعة، عاقر الناقة، الفئة المؤمنة بالدعوة، الفئة الكافرة بها .

وكلها شخصيات تقاسمت أدوارها داخل القصة على أساس ديني، بين مؤمنة ، وكافرة .

فالشخصيات المؤمنة يستعرضها السرد القصصي ممثلة في هود وصالح عليهما السلام . والفئة المؤمنة بدعوتها من قومي عاد وثمود .

والشخصيات الكافرة يظهرها السرد القرآني ممثلة في << الزعماء وعليّة القوم والملأ ، وهي صفة يوصف بها رؤوس الكفر في مواجهة الرسل ،كما تشمل عامة أهل الكفر >>[2] .

والملاحظ أن شخصيتا هود وصالح عليهما السلام ذكرت أسماؤهما ، وأن الملأ المعارضين للدعوة أغفل السرد عمدا ذكر أسمائهم ، مكتفيا بنسبتهم إلى أمة عاد وثمود . ذلك أن الأسماء لم تكن مقصودة لذاتها في القصة ، وما جاء ذكره من الأسماء إنما هو زيادة عبرة. ويبقى الأهم في جانب الشخصية هو الموقف الذي تتخذه داخل القصة . وأما ذكر الاسم فهو زيادة لا قيمة لها في البناء القصصي أو الغاية المقصودة .من هنا نرى إهمال القرآن للأسماء اهمالا تاما في القصص التي يراد بها التخويف والذي يبرز فيه عنصر الحوادث ويختفي ما عداه ، وذلك من أمثال قصتي عاد وثمود، إذ نلحظ اسم الجماعة أو القوم وتختفي شخصية الرسول اختفاء يكاد يكون تاما، وذلك من أمثال قوله

(1) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن،دار الشروق:بيروت،ط.1،1993م،ص 155 .

(2) مأمون فريز جرار:خصائص القصة القرآنية،ص 76 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تعالى:﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾[1] .<<ونستطيع هنا أن نذكر حكما عاما فنقول: إن القصص الذي يقصد فيه إلى التأثير بالأحداث تبرز فيه الحادثة ويختفي ما عداها ، ومما يختفي الأسماء وصور الأشخاص>>[2] .

وهو حينا آخر يذكر الأسماء ، ولكنها في هذا الوضع تشبه الرموز التي يجيء بها ليتمكن القارئ أو السامع من متابعة الأفكار والوقوف على مجراياتها . ولذا نلاحظ في قصتي عاد وثمود ذكر القوم أولا ، ثم ذكر الألفاظ العامة المبهمة كلفظ المرسلين ، ثم اسم الرسول ، وذلك هو الواضح تماما في قصص سورة الشعراء ، فتراه يقول﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ...﴾[3] وأيضا :﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. ﴾[4] . والذي نستطيع قوله هنا ان عنصر الشخصية يكاد يختفي في بعض المواطن من القصة لولا بعض الأسماء والصفات .

وأما في سور أخرى فإن الشخصية القصصية قد بدت واضحة بأسمائها وكانت العنصر البارز في القصة ؛ كما هو الحال في سورة هود التي جاء فيها ذكر الشخصية صريحا ، وذلك حين قصد القرآن إلى تثبيت قلب النبي (صلى الله عليه وسلم) ،ومن اتَّبعه من المؤمنين . <<وهنا برزت الشخصية بروزا قويا وإن تفاوتت بتفاوت الظروف والأحداث>>[5]

ومن هنا نخلص إلى أن ذكر الشخصية بصفتها الفردية والتصريح باسمها ونسبتها إلى امتها في إطارها الجماعي وربطها مباشرة ببيئتها وما يدور فيها من أحداث ، إنما الهدف منه في القرآن جعل شخصيات قصصه معالم انسانية تترجم من خلال تصرفاتها في الحياة المنقولة سردا لمعاني التآزر والتآخي والحرص على المصلحة الجماعية، والدعوة إلى كل ما فيه خير للمجتمع .

---

(1) سورة الحاقة: الآية 4-7 .

(2) محمد أحمد خلف الله:**الفن القصصي في القرآن**، ص274 .

(3) سورة الشعراء الآية 123-125 .

(4) سورة الشعراء : الآية 141-143 .

(5) محمد خلف الله :**المرجع السابق** ،ص297 .

ومن هنا كنا نرى أن الشخصية النبوية لهود وصالح عليهما السلام لم يأت ذكرهـا في قصص عاد وثمود إلا مرتبطة باسم قومهما -عاد وثمود- في الغالب .

ثانيا-بناء الشخصيات

قدم السرد القرآنـي شـخصيات قصـتي عـاد وثمـود في شـكلها المستمد مـن الواقـع ،وبصورتها الفعلية المعروفة المنتزعة من التاريخ الإنساني الحي .

وكان هذا اختيارا واقعيا منه لعنصر الأشخاص في القصة ،جعله يركـز الحديـث عـن الأسماء المعروفة كهـود وصـالح عليهمـا السـلام والـتي تشـكل بذاتهـا معـالم تاريخيـة وتصنـع بوقائعها الحقيقية مشاهد الحدث في القصة من هنا كان اختيار من أحوالها ما كـان معروفـا ، وذلك حتى تكون شخصية فنية واضحة وغير غامضة ، وتعطي الفائدة المرجوة من وجودهـا في القصة،وحتى تغدو واقعيتها امتداد لواقعية القصة القرآنية . وإن كـانت أحداثهـا التاريخيـة المعروفة هي التي ميزت شـخصياتها عـن شـخصيات القصـص القرآنـي .كمـا يذهـب إليـه صاحب كتاب "الفن القصصي ".

وهو رأي له وجاهته فيما نعتقد ونحب أن نفيد منه في هذه النقطة في قول هذا نصه :<<كلما كثرت الأحداث تميزت الشخصية ووضحـت الصـورة ، وكلمـا قلـت جـرى الأمـر علـى العكس وجاءت الشخصية مبهمة غامضة حى ليصبح أن يقال إنها شخصية كل رسول>>[1]

وعلى هذا الأساس فإننا نستطيع أن نميز اشـخصتي هـود وصـالح إذ كانتـا مرتبطتـين بأحداث قصصهما ونتعرف عليهما من أحداثهما ومواقفهما مع أقوامهمـا بسـهولة ويسـر . ولا نستطيع أن نميزها أحيانا أخرى .

والواقع أنـه لـولا بعـض الأحـداث المميزة، كالناقـة، والريـح الصرصـر، والصيحـة، والنحت في الصخر...لأصبحت صورة شخصيتي صالح وهود عليهما السلام مبهمة غامضة .

ومن دواعي الإبانة عن واقعيـة شـخصيات قصـتي عـاد وثمـود ، أن السـرد القرآنـي عرضها على نحو ما كانت عليه في المجتمع حيث <<نقل إليك سماتها حتى كأنك تراها رأي

---

(1) محمد خلف الله :الفن القصصي في القرآن ،ص281 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

العين>>[1] .وهي تتعامل مع شخصيات المجتمع كما يمليه عليها الظرف الاجتماعي في البيئة الواحدة جعلها تبدو على صورة من الترابط والانسجام، وإن اختلفت في المبادئ و الأفكار والاتجاهات ، وتقتضيها ظروف العمل الفني داخل الحدث من أن تكون متضامنة جنبا إلى جنب في دفع الأحداث والمواقف في الاتجاه المطلوب والغاية المحددة في القصة .مظهرا لشخصيات القصة بما يتفق وواقع الحياة داخل المجتمع بمختلف صوره ومناحيه . مرتبطة بمحيطها الحيوي ، فلم يكن هود وصالح سوى شخصيتين إنسانيتين عاشتا في قومهما واختلطتا بحياة أشخاصه، واندمجتا مع أفراده انطلاقا من كونهما صاحبي دعوة إلى الله جاءا لتبيان الحق ، والدفاع عن المبادئ والقيم التي تظهر في ضوء العرض الفني أوضح جانبا بسلوك معلل بدوافع دينية وأخلاقية،وبنوازع مفسرة انسانيا ايمانيا ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[2] .

وبالمقابل أظهر السرد القرآني الشخصيات المناوئة للدعوة النبوية ممثلة في الملأ من قوم عاد وثمود ، وذلك من خلال رصد حركتها وتصرفاتها حيال ما جاء به هود وصالح عليهما السلام من مبادئ الصلاح والإستقامة ، وذلك بما أبدته من نفور وتبرم ، واستنكار وجحود لرسالة الله وعصيان رسله ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[3] .ومن هنا نلمس أن السرد القرآني كان متزامنا في عرضه لشخصيات القصة كما كانت في واقعها البيئي الاجتماعي في صورتها الخيرة والشريرة كالشخصيات العادية التي نراها في حياتنا اليومية، منها الطيب الذي يحب الخير ويقبل عليه، ومنها الخبيث الذي يحب الشر ويتمسك به. وفي كلا الحالتين فإن الشخصية برزت في القصة بالمظهر الإنساني الحي الذي يحوي مزيجا بين هذين اللونين ، وباختلاف نسب هذا المزيج تختلف الشخصيات الإنسانية بعضها عن بعض [4] .وبهذا الطرح الواقعي للشخصية القصصية ،وثّق السرد الصلة بين الشخصية والحدث وعمق ترابط حركتهما داخل البناء القصصي ، بما

(1) محمود تيمور : **القصة في الأدب العربي**، منشورات المكتبة العصرية: بيروت،د.ط،د.ت، ص15 .

(2) سورة الأعراف : الآية 65 .

(3) سورة هود: الآية 65 .

(4) محمد يوسف نجم : **فـن القصـة** ، ص 88 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عرضه من مواقفهم وتصرفاتهم وانفعالاتهم وحواراتهم وأفكارهم ومبادئهم << وهي في الحق القوى الفعلية التي من وراء الحوادث التي تتألف منها القصة>>[1] .

فليس هناك فصل بين الشخصية والحدث في قصتي عاد وثمود بعدما بنيت شخصياتها على الواقع البيئي بقيمه وأفكاره ، وأن التغيير الديني الذي نادى به نبيا الله هود وصالح إنما كان مناسبا لحجم تلك القيم والأفكار التي ستكون لاحق محل صراع وجدل كبيرين والتي سيعرف الحدث من خلالها تطورا وانتقالا في المراحل والمشاهد والمواقف يجعل القصة في صورة حدث متكامل له وحدة -وحدة الحدث- <<هذه الوحدة التي لاتتحقق إلا بتصوير الشخصية وهي تعمل>>[2] .

وبهذه الطريقة في بناء الشخصية داخل عالمها القصصي ، وقدرتها على ربط أجزاء الحدث بعضها إلى بعض يمضي السرد القرآني راصدا ملامح الشخصية بأبعادها العقلية والنفسية والاجتماعية وأثر ذلك في حركة القصة حتى تكتمل صورة البناء القصصي وتستقيم لبناته وتمضي القصة نحو هدفها المنشود في تحقيق الفائدة والمتعة الفنية للقارئ .

المبحث الثاني
الشخصية أبعادها وطريقة رسمها في ضوء فنيات القص

من سمات السرد القصصي في القرآن الكريم اعطاء الإهتمام الأكبر للبعدين الذاتي والاجتماعي للشخصية القصصية، وإن لم يغفل أحيانا الوصف لبعض الملامح الحسية وذلك بالقدر الذي يمكن أن يكون لها تأثير مباشر على تطور الحدث وحركته داخل القصة .

ونلمس هذا بجلاء حين نقف على اهتمام السرد بالبعدين النفسي والاجتماعي في عرضه الشخصيات قصتي عاد وثمود، وهذا امر طبيعي ،<< إذ أن البعد الحسي لا قيمة له في ذاته، والملامح
الجسدية لا أهمية لها إلا بقدر ما يشدنا إلى سمة نفسية أو روحية >>[3] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) أحمد أمين :النقد الأدبي ، ص139 .

(2) رشاد رشدي :فن القصة القصيرة ، ص29 .

(3) جابر قميحة: الأدب الحديث بين عدالة الموضوعية وجناية التطرف ، الدار المصرية اللبنانية للنشر والتوزيع،ط 1 ،1992م،ص 177.

وطالما أن الصراع في قصتي عاد وثمود ليس صراعا جسديا، وإنما هو صراع فكري ذو طبيعة دينية أخلاقية نابعة من تعارض قيم أفراد المجتمع الواحد في أصلها وتوجهها، إنه صراع بين الإيمان والكفر، بين الحق والباطل، وما ينجم عن ذلك من عقليات تختلف مناحيها ومفاهيمها حول الدين والحياة والكون والإنسان، وحضها من الصحة والعمق والثبات ، أو من الخطأ والسطحية والتقليد في تقبل هذه المفاهيم وممارستها في حياتها الواقعية وانعكاساتها على الحياة النفسية والروحية لأفراد الأمة، ونصيبها من التماسك أو الإنهيار .

ومن هنا كان اهتمام السرد بالبعدين النفسي والاجتماعي في محله ، حيث يمثل البعد الأول : طبائع المتصارعين ومزاجهم ، ويمثل البعد الثاني: طبيعة العلاقة والمركز الذي يحتله كل فرد في امته .

هذه نظرة كلية يكشف عنها القارئ من خلال تتبعه للسرد القرآني في رسمه لشخصيات قصتي عاد وثمود وهي تدير الحوادث داخل عالمها القصصي، وذلك بما تظهره من تصرفات حيال المواقف التي تتعرض لها والمبادئ التي تعرض عليها في كل حوار دار بين نبيي الله صالح وهود وبين قومهما .

من هنا نقول: أن القرآن الكريم لم يعرض من الشخصية الإنسانية في القصة القرآنية إلا جانبها النفسي والاجتماعي دون الإلتفات إلى جانبها المادي إلا في النادر ، سواء ماكان من شخصياته الفردية كالأنبياء أو شخصياته الجماعية كالملأ من أقوامهم . وهم الذين سنخصهم بالحديث .

وقداتسمت شخصيات قصة عاد وثمود في أبعادها الجسدية والنفسية والعقلية والاجتماعية سواء على مستوى الفرد أو الجماعة بمميزات ازدادت وضوحا في ضوء طريقة العرض القرآني في رسمه لها . ولأجل أن نقف على هذه الأبعاد وطريقة رسمها قمنا بتقسيم هذا المبحث إلى مطالب:

نتناول في المطلب الأول: البعد الجسدي للجماعة

المطلب الثاني: البعد النفسي والعقلي للشخصية في اطارها المفرد والجمعي

المطلب الثالث : البعد الاجتماعي للشخصية في اطارها المفرد والجمعي

المطلب الرابع: طريقة القرآن في رسم شخصيات قصة عاد وثمود

المطلب الأول
البعد الجسدي للجماعة

اتجه الرسم الجسدي في السرد القصصي لجماعة عاد وثمود بأكملها عندما كانت في هي المنوطة بفعل . وليس الفرد الواحد منها ، ولهذا وضح لنا القرآن الكريم الملامح الجسدية الجماعية

لعاد وقوم هود[1] . والغاية التي من أجلها وظف هذه الملامح الجسدية .

<<وذلك عندما كانت القوة الجسدية لهذه الجماعة هي العنصر الفاعل في أحداث القصة، والخصيصة المحورية التي تتجاذب أطرافها وتمسك بخيوط نسيجها القصصي>>[2] . وكانت هي القيمة الحسية الظاهرة في فضاء القصة. وهي التي قادت الأحداث إلى نهايتها الأليمة سجلها القرآن في قوله تعالى:﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾[3] .

إن السرد القرآني سلط الضوء على الصفة الحسية الأكثر ظهورا وتميزا لجماعة عاد قوم هود ، وهي قوتهم الجسدية وقد كانت منحة ربانية خصهم الله بها عن سائر بني جنسهم في زمانهم كما حكى القرآن عنهم بأسلوبه التعبيري الرائع من قوله تعالى على لسان نبيهم هود عليه السلام :﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾[4] .

فهذه الصفة الحسية التي كانت عليها عاد–وهي عظم الأجسام– كانت وراء ظهور للقوم بمظهر القوة ، وهي التي دفعتهم إلى البطش والتجبر والطغيان في الأرض . وهي نفسها الصفة الحسية التي خولت للقوم أن يستكبروا ما داموا يرون في أنفسهم أنهم عمالقة وأقوياء إلى الدرجة التي قالوا فيها:﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ .

(1) ينسب إلى عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح شعر يصف فيه صورته الجسدية، ويذكر نسبه فيقول فيه:

إني أنا عاد الطويل البادي   وسام جدي ابن نوح الهادي

انظر المسعودي : **مروج الذهب** ، جـ 2 ص 133 .

(2) محمد طول :**البنية السردية في القصص القرآني** ، ص 68 .

(3) سورة فصلت : الآية 15–16 .

(4) سورة الأعراف : الآية 69 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والسرد القرآني في تركيزة على هذا الملمح الجسدي الظاهر الذي كان وراء تسلسل الأحداث داخل القصة .ويكشف أن القوة الجسدية التي أتاها ا لله قوم عاد قد أثرت على مجريات الأحداث ، وذلك أن القوة الجسمية التي خصهم ا لله بها كان الهدف منها تعمير الأرض التي كانوا يسكـــــنونها وهي" الأحقاف" لا سيما وأنهم جاءوا في فترة زمنية تالية لزمن قوم نوح عليه السلام أين كانت البشرية في أشد الحاجة إلى توفير الجهود والطاقات للبناء في الأرض والعمارة والقيام بتكاليف الخلافة ليكون الخير الوفير للناس >>[1] .

لكن الذي حدث أن عادا لم ترتق إلى هذا الهدف، ومالت معتمدة على قوتها الجسدية إلى البطش والظلم والفساد في الأرض غير آبهة بما سيحل بها نتيجة لهذا السلوك المشين . وهنا يأتي السرد القرآني ليضع المتلقي أمام حقيقة مهمة وهي<< أن القوة هي الصفة الجسدية التي رفع من شأنها القرآن في بناء الشخصية الإسلامية، غير أنه لم يمتدحها باطلاق، بل قيدها بما يعطفها من المظهر الجسدي إلى المقوم العقلي والنفسي، بضوابط توجهها الوجهة المراد لها في تحقيق العدل والأمن بعيدا عن العدوان، والظلم والفساد، وما إلى ذلك مما تسوغه القوة لأهلها من فحش عقلي ونفسي بإتباع الهوى والخلود إلى الغواية>>[2] .

تكفل السرد القرآني بنقل الصورة الجسدية الشخصية الجماعية لعاد بكل قوتها ، راسما الطريق الذي سلكته في حياتها حين وظفت تلك القوة في دروب الشر والبطش والعدوان ، وهي السلوكات التي نوهوا عنها على لسان نبيهم هود عليه السلام في قوله تعالى:﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾[3] . وفي هذه الخلال يشخص السرد حركة شخصية الجماعة بمظهرها القوي على مسرح القصة وهي تتفاعل مع الأحداث من الداخل بصورة تتملاها النفس والخاطر وكأنها تراها رؤية العين بواسطة تقنيات السرد القرآني في تقريب المشهد إلى ذهن المتلقي ليطلق العنان لخياله ليرسم صورة تلك الشخصيات الجبارة وهي تبسط سلطتها في منطقة الأحقاف وتملأ أجوائها رعبا وجبروتا ورهبة . ثم ليفتح لحواسه المنافذ كي تتحسس بسمعها تلك الأصوات المنبعثة من الحناجر القوية وهي تتشدق وتتعالى وتتفاخر بلسان الحال والمقال﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ .

---

(1) سيد قطب: الظـــــــلال ، جـ 4 ص 1905 .

(2) مصطفى عليان : بنـــــاء الشخصية في القصة القرآنية ، دار البشير:عمان،ط.1،1992م، ص 19 .

(3) سورة هود : الآية 52 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إنه انتزاع الشخصية الجماعية من عالم الأحياء إستلى السرد القرآني صورتها من ذلك الماضي السحيق ونفخ فيها الحياة وبث فيها الحركة مرة أخرى . فغدت منتصبة في المخيلة شاخصة بملامحها القوية وصفاتها الحسية الواضحة ، فيخيل إليك وأنت تطالع قصة عاد أنه من فرط قوة شخصياتها أنها تتحرك فعلا على سطح القصة بأجساد قوية عاتية ، وأنه من شدة وضوح ملامحها وكأن السرد ينقل إليك صدى أصواتها العالية التي تتردد في جنبات الأحقاف حيث لا صوت يعلو فوق صوت الرعب والخوف وتزداد المخيلة في تملي مشهد الشخصية بملامحها الجسدية للجماعة يتولى التصوير القرآني مهمة تقريب الجوانب الخفية وما تفرزه من سلوكات على الشخصية فيظهرها بمظهر الجماعة القوية الجبارة فيكون لهذا المنظر وقعه على أجواء القصة ،حيث تخيم ظلال العنف الرهبة والغلظة خاصة عندما يأخذ في عرض موقف هود عليه السلام ، وهو يدعو أولئك القوم الغلاظ إلى دين الله الواحد ، وينهاهم عن البطش والتجبر ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾(1) .

<<إن أصحاب الدعوة إلى الله في كل مكان وفي كل زمان في حاجة إلى أن يقفوا طويلا أمام هذا المشهد الباهر...رجل واحد ، لم يؤمن معه إلا قليل ، يواجه أعتى أهل الأرض وأغنى أهل الأرض وأكثر أهل الأرض حضارة مادية في زمانهم >>(2) .

فهؤلاء الجبابرة الذين يبطشون بلا رحمة يظهر السردما كان لسلوكاتهم من أهمية في دفع الحدث داخل القصة ، وكانوا وراء صنع مشاهده بصورة ثابتة تطل في كل مرة من الزاوية نفسها ، ولكنها بسلوكات مختلفة تفسر مدى انعكاس الجانب المادي في الشخصية الجماعية على الجانب المعنوي ، وعلى نفسية القوم وعلى تصوراتهم للكون والحياة والدين ، وعلى وضعهم الاجتماعي من حيث المركز والسيادة كما نطقت به مواقفهم في حواراتهم مع نبيهم هود عليه السلام . في قوله تعالى:﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(3) .

(1) سورة هود: الآية 52 .

(2) سيد قطب: الظـــــــلال ، جـ 4 ص 1905 .

(3) سورة الأعراف : الآية 66 .

هذا موقف تظهر فيه الشخصية الجماعية لقوم عاد وقد تصدت لدعوة نبي الله هود بأسلوب الاستهزاء منه كداعية للدين ومبلغ عن ربه برسالة سماوية متهمة إياه بالسفاهة والطيش والكذب . وهي صفة منافية للنبوة في ميزان العقلاء وأصحاب الشخصية السوية .

وهنا يمكننا الحكم على الشخصية الجماعية في قصة عاد ، بأنها شخصية غير متزنة، ففي الوقت الذي تتمتع فيه في جانبها المادي بالصحة والقوة والعافية نجدها تتمتع بالتصورات الخاطئة والأفكار المريضة حول معنى النبوة والرسالة والدعوة . وهذا ما جعلها تبدي المعارضة من أول مرة عرض فيها هود دعوته على قومه ، لأنها كانت تحكم على الشخص من مظهره الخارجي وتنظر إليه بمعيار المادة لا بمعيار القيم وصحة المبادئ والأفكار ، وهذا ما يفسر تعجبها من مجيئ الرسالة على رجل عادي . يقول تعالى بشأن الموقف على لسان نبيهم هود عليه السلام قوله :﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾[1] .

إنها شخصية لاتعترف إلا بما هو محسوس ، ولا تقيم وزنا إلا لما هو مادي حسي ، ولا تحترم إلا ذوي الجاه والمركز والسلطان ، وهذه النظرة للأشخاص داخل المجتمع الواحد هي التي تكشف عن الرابطة التي اقامها السرد القرآني بين البعد الحسي للشخصية الجماعية لقوم عاد ، وبين سلوكاتهم وتصرفاتهم ، وهي موطن لإدراك علاقة السمات الجسدية بالبناء القصصي وأثر ذلك في تحريك الأحداث وتطورها داخل عالم القصة .

المطلب الثاني

البعد العقلي والنفسي للشخصيات في إطارها المفرد

ألمح السرد القرآني بسمات نفسية وعقلية خاصة شخصيات قصص عاد وثمود، كان لها دور أساسي في اضاءة صورتها في ذهن المتلقي واكساب أحداث القصة واقعية ونفوذا إلى أعماق الفكر والنفس .<< زودنا السرد القرآني بالعوامل النفسية المهمة في فهم الشخصية وفي متابعة ادارتها الصراع مع خصومها مثلما وفر الأبعاد الجسمية والاجتماعية ، حتى لا يظهر الصراع وافد من خارج الشخصية، أو مملي عليها من خلاف خطوطها>>[2] .

(1) سورة الأعراف : الآية 69 .

(2) محمد طول : البنية السردية في القصص القرآني ، ص 78 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن الحوارات القصيرة الخاطفة، أو المطولة التي دارت بين هود عليه السلام وقومه عاد وكذا بين صالح عليه السلام وقومه ثمود ، دلت على نمطين نفسيين وعقليين متفاوتين ، أحدهما هادئ رزين ناضج محب للخير داعيا إليه، والآخر عدواني متسلط رافض للحق. وكلاهما يمثلان نموذجا انسانيا في مجاله .

ونبدأ بالنموذج الأول ممثلا في شخصية هود وصالح عليهما السلام .

أولا- البعد العقلي والنفسي للنبي (هود وصالح) عليهما السلام

يبرز السرد القرآني صورة نبيين من الله هود وصالح كشخصيتين رئيسيتين في قصتي عاد وثمود ، حيث يكون ظهورها على سطح القصة مرتبطا بالمواقف المتعددة التي يستعرضها السرد من مختلف جوانبها. فهي ما تفتأ تطل علينا من مشاهد الحدث عبر متسعه الزمني وبيئته المكانية ، وذلك بحسب مقتضيات تطور العمل القصصي من الداخل،والذي يفرض على الشخصية أن تتدرج في أداء دورها الفني في القصة،وذلك حتى تتضح ملامحها النفسية والعقلية تدريجيا ويكون ذلك في العادة عن طريق السرد والحوار والوصف . وهي الوسائل التي وظفها القرآن في رصده الملامح العقلية والنفسية لشخصية النبي المرسل إلى قومه من خلال أحداث القصة ليكون السرد نموذجا انسانيا واضحا في مجال الدعوة وتحمل متاعبها والصبر على تبليغها ولو تتبعنا السرد القرآني و هو يتابع رسم الملامح العقلية والنفسية لشخصيتي هود وصالح عليهما السلام لوجدناه يركز على ابراز الملمح العقلي للشخصية في عرضها للدعوة وبسط مقومات العقيدة، بينما يركز اهتمامه على الملمح النفسي عندما يتعلق الأمر بالمعارضة الي يظهرها الخصوم أثناء الصراع،وما يتطلبه الموقف من صبر وتحمل وتبدو سخصية هود وصالح من خلال السياق القصصي أنها على درجة عالية من النضج والاكتمال العقلي وهي الصفة التي تميز الأنبياء صلوات الله عليهم في خطابهم لأقوامهم وهم المؤيدون من قبل الله عزوجل بأسباب الثبات والصبر. ويتجلى هذا في قوله تعالى:﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[1] .

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ.﴾[2] .

---

(1) سورة الأعراف: الآية 65 .

(2) سورة الأعراف: الاية 73 .

يكشف السرد في هذين النصين عن أسلوب الدعوة عند هود وصالح عليهما السلام القائم على بناء الشخصية على اساس العقيدة الصحيحة <<إذ أن عقيدة توحيد ا لله بالألوهية وتفريده بالربوبية وما يتصل بذلك من اسماء ا لله وصفاته، وهي البناء الذي شارك الأنبياء في تشييد أركانه>>[1] . قال (صلى ا لله عليه وسلم):<< إِنَّ مَثَلي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إلاَ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيُعْجَبُونَ له، وَيَقُولُونَ: هَلاَ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَبِنَةُ، قَالَ : فَأَنَا اللَبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَبِيينَ>>[2] .

وهي الحقيقة التي أظهرها السرد في قصص عاد وثمود على لسان شخصية النبي المرسل إلى قومه والداعي إلى وحدة العقيدة ووحدة التوجه الديني وهي القضية الكبرى التي جندت الشخصية النبوية من أجل الدفاع عنها واثباتها أمام الناس .

ولتقريب الشخصية بصورتها الحية إلى ذهن المتلقي ووجدانه ، عمد السرد على جعلها تعبر عن نفسها بنفسها بما يتناسب ومستوا ها العقلي والديني، فجاءت الكلمات مناسبة على لسانها حية ناطقة بما تخفيه النفس والفكر داعية إلى توحيد ا لله بالعبادة﴿أَنِ اعْبُدُوا ا للَّهَ﴾ .

فالسياق السردي وهو يقدم الشخصية لم يقل قال: إنما حذف القول، واكتفى بمقولتها المباشرة﴿أَنِ اعْبُدُوا ا للَّهَ﴾ فكان بهذا التعبير القرآني قد أ حيَّ المشاهد فكأنما هي واقعة حاضرة لا حكاية ماضية ، وكأنما هود وصالح عليهما السلام يقولان لقومهما عاد وثمود الآن ونحن نسمع ونشاهد تلخيصهما لوظيفة الرسالة كلها وترجمتهما إلى حقيقة واحدة .بلغة أقرب إلى طبيعة الحدث؛انطلاقا من أنه كلما كانت اللغة أقرب إلى طبيعة الحدث كان ذلك أفضل[3] .

ثانيا – البعد العقلي والنفسي للشخصية في اطارها الجمعي

ألمح السرد القرآني القصصي بسمات عقلية ونفسية بشخصية الجماعة من قوم عاد وثمود أثناء أدائها لأدوارها داخل البناء الفني للقصة مبينا أثر تلك الطبائع الفكرية والأخلاقية

(1) مصطفى عليان: بناء الشخصية في القصة القرآنية ، ص 21 .

(2) أخرجه مسلم في صحيحه ،كتاب الفضائل ،باب كونه (صلى ا لله عليه وسلم)خاتم النبيين،عن أبي هريرة (رضي ا لله عنه)،جـ4ص1790. كما أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب،باب خاتم النبيين(صلى ا لله عليه وسلم)،عن أبي هريرة ،جـ3ص1300.

(3) رشاد رشدي،فن القصة القصيرة،ص103.

في تطور الحدث وتنوع مشاهده ليكون متوافقا مع حركة القصة. مبرزا أهم ماميز شخصية الجماعة من قوم عاد في القصة العناد والتكذيب وشدة الحرص على مغانم الدنيا والتفاخر بالقوة ، والإعراض عن قبول الحق واتباعه ، وهي صفات عقلية ونفسية بشرية غير اعتيادية أعني أنها تؤكد التوجه السلوكي ممثلا في موقفهم من الدعوة ، او في صراعهم الذي واجهوا به نبيّهم هوداعليه السلام ، أو في هذه النظرة الخاطئة لمفاهيم الدين والحياة والكون والانسان بشهادة القرآن .في قوله تعالى:﴿قَالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ. ﴾(1) . تطلع علينا شخصية الملأ من قوم عاد بصورتها المتهربة من الحق ، المطالبة بالبرهان على صدق ما جاءها به النبي هود عليه السلام ، وقد سلكت نهجا بعيدا عن سمت الحق والفضل والاستقامة ومطالبهم ؛ فقد كانوا في أسوا حال ، إذ أفسدوا كيان شخصيتهم وتردت حياتهم وانتشر الفساد من حولهم << وليس ذلك لأن ا لله لم يؤهلهم للخلافة بل لأنهم جهلوا قدر أنفسهم وشرف تكليفه ومسئوليته فانسلخوا مما أتاهم ا لله وما لوا إلى دواعي الغرائز وفرئضها من الهوى والحس والمادة>>(2) .

إن الشخصيات بهذه السمات الشاخصة إنما تأتي في إطار البناء الآتي :

1- تكذيب المرسلين﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾(3) .

2- أنكروا البعث ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(4) .

3- طعنوا في نبوة الرسول ﴿ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ .

4- لم يأبهوا للوعظ والاشاد ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَا أَوَ عَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾(5) .

5- جحدت بآيات ا لله ﴿وَكَانُوا بَآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(6) .

وإذا انتقلنا وجدنا شخصيات قصة ثمود بملامحها العقلية والنفسية من خلال نصوص القرآن . كما رصدها السرد القصصي على نحو متقارب من شخصيات قصة عاد ،

(1) سورة هود : الآية 53-54 .

(2) سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق:بيروت،د.ط،دت،ص67.

(3) سورة الشعراء : الآية 123 . (4) سورة الشعراء : الآية 138 .

(5) سورة الشعراء : الآية 136 . (6) سورة فصلت : الآية 15 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهي امتداد لها في النسب والتاريخ وخلافة الأرض ، حتى أن موقفها من دعوة صالح عليه السلام، هو نفسه موقف عاد من دعوة هود عليه السلام في مراحلها المختلفة . مما جعل القصتين متشابهتين . وهذا التشابه بين شخصيات قصة الأمتين (عاد وثمود) أضفى على بنية القصة نمطا متشابهامن التعبيرات في السياق القرآني القصصي حتى لكأنها قصة واحدة ، لأمة واحدة ولنبي واحد .

غير أن هذا التشابه في الملمح العقلي والنفسي لشخصيات القصة، لم يمنع من ظهور بعض الفروقات الخاصة بكل شخصية لتبدو في القصة متميزة بوقفها في ادارات الحدث بمشاهده المتنوعة، وتوجيه الصراع نحو غاياته المتفرقة في مميزات القيم والمبادئ وحظها من الثبات والتغيير بما يحفظ للحدث الداخلي توازنه وفاعليته في حركة القص ، ويعطي للشخصية فرصة في أن تظهر بوجهها الحقيقي الذي يعبر عن ذاتيتها من الداخل ويجعلها تتصرف بشكل طبيعي، وكأنها صورة متنوعة من عالم الحياء . قال تعالى في شأن قوم ثمود: ﴿قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾(1)

وهنا تتجلى صورة الشخصية لجماعة ثمود في توضيح هذا الصد الذي لا قاه صالح عليه السلام من قومه وهو يعرض عليهم دعوة الله...ويتقدم التعبير القرآني ليتسيد الموقف ويقوم بنقل الانفعالات ةالحركات ، وكأننا أمام مشهد مصور...فها هي الألسن قد انطلقت مخاطبة صالحا بكلمات كلها عتاب وتأسف على ما انقلب إليه أمره بعدما كان معروفا بالحكمة والنقاء والخير ، وكان محل احترام قبل أن يوحى الله إليه ، ويرسله بالدعوة إليهم . وقالوا لصالح:﴿ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا. أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا إننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾ . تأمل وجهة نظر الملأ من قوم صالح <<إنهم يدلفون إليه من باب شخصي ، لقد كان لنا رجاء فيك، كنت مرجوا فينا لعلمك وعقلك وصدقك وحسن تدبيرك ،ثم خاب رجاؤنا فيك...أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا>>(2) . يا للكارثة ، كل شيئ ياصالح إلا هذا. ماكنا نتوقع منك أن تعيب آلهتنا التي وجدنا آباءنا عاكفين عليها .

(1) سورة هود : الآية 62 .

(2) أحمد بهجت : أنبياء الله ، ص 67 .

وهكذا يعجب القوم مما لا عجب فيه . ويستنكرون ما هو واجب وحق، ويدهشون أن يدعوهم أخوهم صالح إلى عبادة الله وحده . لاحجة لديهم ولا برهان ولاتفكير، ولكن لآن آباءهم كانوا يعبدون هذه الآلهة ، هكذا فعلت العادة في قوم ثمود فعلها القوي، وهكذافعل التقليد فيهم فعله العتي، هكذا جاء صالح عليه السلام ليفجر هذا التقليد الأبله ويحطم العادات المهلكة .

ولقد كان السرد القرآني أمينا في نقل صورة لشخصية النبي من على مسرح قصة ثمود مستخدما الحوار كوسيلة لإظهار براعة الشخصية وقوتها في الدفاع عن موقفها ومبادئها وأفكارها بصدق<<فكل حركة وكل خلجة وكل كلمة جاءت في أوانها، وجاءت في الصورة المتوقعة لها . وجاءت في مكانها من مسرح العرض، متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهميتها ودورها وطبيعة جراياتها في الحياة>>[1] .

والصورة التي يرسمها السياق القصصي لشخصية النبيي صالح في قصة ثمود هي صورة الداعية الثائر الذي جاء لعقيدة التوحيد ليعلنها كدعوة للتحرر الفكري ، واطلاق العقل البشري من حبال التقاليد وخرافات السابقين وأوهام العادات المستقرة .<<وهي دعوة لا يقفها غير من تحجر عقله على أفكار السابقين وعادات الموتى وأوهام الآباء والأجداد>>[2]

أما الصورة التي يرصدها السرد القرآني لشخصية الجماعة من قوم ثمود فهي صورة الجماعة المتحجرة على أفكار السابقين من آبائهم وأجدادهم ، وهي أسيرة لمعتقد ديني فاسد ما أنزل الله به من سلطان .

ورغم نصاعة دعوة النبي صالح عليه السلام فقد بدا واضحا ان قومه لا يصدقونه وكانوا يشكون في دعوته ، قائلين له:﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[3] . ولهذا طلبوا منه البينة على صدق دعوته ، وطالبوه بمعجزة تثبت أنه رسول من الله إليهم ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[4] .

(1) سيد قطب : الظلال. ، جـ 4 ص1959 .

(2) أحمد بهجت : أبياء الله ، ص 68 .

(3) سورة هود : الآية 62 .

(4) سورة الشعراء : الآية 154 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن هذا الموقف من قوم ثمود ، كما تقدمه الآية يكشف بوضوح عن شخصيتهم من الداخل بملمحها العقلي المكبل بأغلال الماضي الذي تقدسه معبرة عنه بالحرص عن موروث الآباء والآجداد ، وبملمحها النفسي الطامح بأنواع من الانفعالات يترجمها السلوك العادي في مواجهة الدعوة التي جاء هم بها صالح عليه السلام .

وفي هذه الأثناء تأتي الآيات القرآنية تفصح عن تلك الجوانب المختلفة من حباة شخصية قوم ثمود ، يقول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾[1] .تظهر الشخصية على سطح القصة بصورتها المكذبة للنبي المرسل إليها ، وقد أفاد رصد هذا الملمح الفكري الحدث بأن ربطه مباشرة بما أفرزه سلوك التكذيب وهي الفكرة الأساسية للنص لا سيما وأن من التكذيب تستنتج تصرفات سلوكية أخرى لقوم ثمود في مواجهتهم لدعوة نبيهم صالح عليه السلام .

فإذا كان التكذيب كموقف عقلي هو الذي أنار جوانب الحدث في قصة ثمود ، فإن للطعن في حقيقة نبوة صالح عليه السلام هو ما عمق فهم تصرفات القوم بصورتها الحقيقية وهي قضية خطيرة يثيرها السرد القرآني ليكشف بها عما تنطوي عليه عقلية القوم ونفسيتهم من مفاهيم خاطئة لبشرية الرسول .

ويظهر ذلك من قولهم :﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون﴾[2] . وقوله تعالى أيضا :﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[3] .

وهنا يفسح السرد المجال لظهور شخصية القوم في القصة بتصوراتها الساذجة حيث تزعم <<أن الرسول عن الله يكون في أحواله غير مماثل لأحوال الناس>>[4] . وأنه يجب أن يكون من طينة مخالفة لطينة البشر حتى يكون مقبولا بدعوته عندهم .

لقد كان اعتراض ثمود على بشرية النبي صالح علية السلام لونا من السخف العقلي الذي لا يقِرّه منهج التفكير الانساني ، إذ كيف يعقل أن يكون النبي مرسل إلا بشرا وهو من غير البشر .

---

(1) سورة الشعراء : الآية 141 .

(2) سورة المؤمنون : الآية 34 .

(3) سورة القمر : الآية 24 .

(4) الطاهر بن عاشور :التحرير والتنوير ، جـ 19 ص 327 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وبإيجاز كانت الجماعة من قوم ثمود بالمقاييس العقلية والنفسية الإسلامية، تعيش في دوامة كبيرة من الخلط والتشويش .

وفي هذا الجو يأت النص القرآني ليجلِّيَ الموقف كما عاشتها القصة بأحداثها المتسلسلة عبر محطات متنوعة في الصورة والمشهد والكلمة والصوت . قالت ثمود لصالح عليه السلام وهو يُذَكِّرُ بالبعث والجزاء والقيامة والحساب ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾(1) .

فانظر إلى تلك العقول المظلمة التي تتصور أنه ليس هناك بعث ولا اخراج ولا عودة للحياة مرة ثانية ، وإنما هناك حياة دنيوية يحي فيها الانسان وإذا مات انتهى أمره، فلا حساب ولا عقاب، ناسية في غمرة هذا الخلط الفكري العجيب ، أن هناك حياة أخروية تنتظر الانسان وفيها يجازى عن أعماله في الحياة الدنيوية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(2) .

ثم تتوالى المواقف القصصية ، وتبرز شخصيةُ قوم ثمود في مظهر آخر ، وقد إلتقط السرد القرآني ما تبقى من جزئيات الملامح العقلية وما يصاحب ذلك من اهتزازات نفسية تؤثر بدعوته ذرعا ، وكرهوا منه تجديده للحديث عنها في كل مرة ، فثاروا قائلين له :﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾(3) . إنه الصراع النفسي الذي اعتلج في نفوس قوم ثمود عندما جاءهم الحق على لسان صالح عليه السلام . فانطلقوا يكيلون له التهم ، ويصفونه بأنه من المسحرين وإمعانًا منهم في الانتقاص من قيمته الانسانية الانسانية ، ورميه بالشك فيما جاء به من دعوة ا لله ورسالته لعله يعود إلى دين آبائه وأجداده ، ويترك هذا الدين الجديد .

استقبل صالح عليه السلام هذا الاتهام بصبر كريم ، ثم تحول بحديثه لقومه عن "ناقه ا لله" وهي المعجزة التي شاءت ارادة ا لله أن يحققها أمام أعينهم لتكن لهم آية ﴿يَاقَوْمِ هَٰذِهِ

---

(1) سورة المؤمنون : الآية 35-37 .

(2) سورة الزلزلة :الآية 7-8 .

سورة الشعراء : الآية 153 .

نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾[1]

ونلاحظ أن الشخصية في القصة بدأت تتضح جوانبها العقلية والنفسية بالتدرج متسلقة جدار الحدث شيئا فشيئا حتى تصل إلى النهاية المترقبة لها كما ينقلها السياق القصصي ويصورها السرد وهي تتفاعل في وسطها الاجتماعي بحوارها وصراعها ومواجهتها مع نبي الله صالح عليه السلام .

لا زال قوم ثمود يعبرون عن غيضهم من دعوة صالح ولازالوا يبحثون عن الوسيلة الكفيلة بتعجيزه واظهاره بمظهر المنهزم أمام المجتمع ، فبعد الاتهام بالمسحر ، تأتي مرحلة طلب المعجزة لتكون دليلا على صدق نبوته ، وهو ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى :﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[2] .

والآية هي المعجزة ، ويقال << أنَّ الناقة كانت معجزة لأنَّ صخرةً في جبل انشقت يوما وخرجت منها الناقة وخرج وراءها وليدُها الصغير[3]، ولدت من غير الطريق المعروف للولادة ، ويقال أنها كانت معجزة لأنها كانت تشرب المياه الموجودة في الآبار في يوم فلا تقترب بقية الحيوانات من المياه في هذا اليوم ، وقيل أنها كانت معجزة لأنها كانت تدر لبنا يكفي لشرب الناس جميعا في اليوم الذي تشرب فيه الماء فلا يبقى منه شيئ للناس >>[4] .

كانت هذه الناقة معجزة وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله:﴿ناقة الله...﴾[5] . أضافها لنفسه سبحانه وتعالى بمعنى أنها ليست ناقة عادية وإنما هي معجزة من الله . ولهذا جاء الأمر الإلهي لصالح عليه السلام بأن يأمر قومه ثمود <<ألا يمسوها بسوء ، فلا تعذب ،ولا تطرد ولا تركب ولا تذبح ، وجعل الله لها شربا في يوم معلوم ، وجعل لهم شربا في يوم

---

(1) سورة هود : الآية 64 .

(2) سورة الشعراء : الآية 154 .

(3) وهذه الحكاية مجمع عليها في كل كتب التفاسير وكتب القصص القرآني ، وقصص الأنبياء .

(4) أحمد بهجت : أنبياء الله ، ص 68 .

(5) سورة هود : الآية 64 .

غيره، وتوعدهم بالعذاب إن هم اعتدوا عليها بسوء ، وأن سلامتهم مقرونة بسلامتها>>[1] .﴿قال: هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2] . وقال تعالى:﴿إِنَّا مُرْسِلُوا ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾[3] .مكثت الناقة المباركة زمنا طويلا بين قوم صالح آمن من آمن وبقي أغلبهم على العناد والكفر .

لقد كان لظهور القصة على مسرح القصة دور في توجيه الحدث إلى المحطة الكبرى ، وهي محطة الصراع واحتدام النقاش والجدل بين صالح وقومه ، فما إن رأت الجماعة من قوم ثمود الناقة بين ظهرانيها ، حتى تحولت الكراهية التي تكنها شخصيات القوم لسيدنا صالح إلى الناقة المباركة ، لتبدأالمؤامرة تنسج خيوطها لتقتلها والتخلص منها إلى الأبد .

كره الكافرون من قوم ثمود هذه الآية العظيمة ، وحدثتهم أنفسهم بقتلها ، فدبروا في أنفسهم أمرا . كان طبيعيا أن يجيئ التدبير من الشخصيات الأكثر حضورا في القصة وهم الملأ وأصحاب الزعامة في أمة ثمود .

ولهذا كان السرد القرآني يسلط الضوء بكثافة على هذا المشهد الحي الذي تتحرك في وسطه الشخصيات المدبرة لمؤامرة قتل الناقة ، ويرسم حركتها بدقة وهي تسعى لإيجاد الطريقة المثلى لتنفيذ هذه الجريمة بنجاح على يد واحد منهم .

ثم يعود السياق إلى أسلوب الحكاية فيقص ما كان منهم بعذ ذلك ﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر﴾[4] . وصاحبهم ، وهو رمز للشخصية الشريرة في قصة ثمود –وهو أحد الرهط المفسدين في المدينة ، الذين قال الله عنهم في سورة النمل :﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[5] .وهو الذي قال عنه في سورة الشمس :﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾[6] .

(1) عفيف عبد الفتاح طبارة : **مع الأنبياء في القرآن الكريم** ،ص 94 .

(2) سورة الشعراء : الآية 156 .

(3) سورة القمر : الآية 27-28.

(4) سورة القمر : الآية 29 .

(5) سورة النمل : الآية 48 .

(6) سورة الشمس : الآية 12 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويمدنا السرد في قصة ثمود بالعوامل العقلية والنفسية المركبة :منها شخصية الجماعة الظالمة من قوم ثمود قبل أن تجرى وقائع المكيدين مكيدة قتل الناقة . ومكيدة التربص لاغتيال صالح عليه السلام ، حتى يمكننا من أن نتصور حلقاتها ، حيث يولد في نفوس الرهط المفسدين الممثلين عن الملأ من ثمود حقد" على الناقة المباركة مبني على حظوتها من الماء طيلة يوم بكامله ، وهو العامل الذي سنجده وراء اندفاعهم لعقرها .

ويصرح القرآن بما أضمرته الجماعة من قوم ثمود لناقة الله بقوله:﴿فَعَقَرُوهَا ﴾[1] ، وما أضمرته لصالح عليه السلام :﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2] .

هؤلاء الرهط التسعة الذين تمخضت قلوبهم وأعمالهم للفساد والافساد ، لم يعد بها متسع للصلاح والاصلاح ، فضاقت نفوسهم بدعوة صالح وحجته ، وبيتوا فيما بينهم أمرا .

ويتدخل التعبير القرآني لبيان ماكان يدور بخلد القوم ويجول بتفكيرهم مستخدما كلمة"لنبيتنه" التي تكشف عن صفة من صفات شخصية الجماعة وهي الغدر . تاركا لذهن المتلقي فرصة ليتابع حركة الشخصيات المتآمرة في القصة ، وكيف تخطط لجريمتها النكراء بعيدة عن الأنظار ، وقد اختارت الليل بظلامه الدامس ليكون ميقاتاً مناسبا لذلك .

يقول ابن عاشور في تفسيره:<<فالتبيت لا يكون إلا لقصد الغدر ، والمعنى أنهم يغيرون على بيته ليلا فيقتلونه وأهله غدرا من حيث لا يعرف قاتله ثم ينكرون أن يكونوا هم قتلوهم ولا شهدوا مقتلهم >>[3] .

وفي ضوء المعنى الذي ساقه ابن عاشور ، وهو يفسر قوله تعالى حكاية عن قوم ثمود عندما هموا بقتل صالح عليه السلام ﴿قالوا تقاسموا با لله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنامَهلِكَ أهله وإنا لصادقون﴾ .

نلمح من كانت تنطوي عليه نفوس القوم من نوايا الغدر والخيانة ونقض العهد والتبرم من الحق والداعين إليه .

---

(1) سورة هود : الآية 65 .

(2) سورة النمل : الآية 50 .

(3) التحرير والتنوير ، جـ 19 ص 283 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن السرد القرآني يمدنا بالصور والتعابير التي تمكننا من تصور شخصيات القصة بوضوح وقد بدأت صفاتها تنجلي صفة تلو صفة حتى وكأنها شاخصة حاضرة الآن تشاهدها العين وتسمعها الآذان،ويتابعها الخيال في استغراب ودهشة وهي تدبر للجريمة وتنسج خيوط المؤامرة بأحكام .

ومن العجب أن قومًاهذه صفاتهم يتداعون إلى القسم با لله مع هذا الشر المنكر الذي يبيتونه ، وهو قتلهم صالحاوأهله بياتا ، وهو لا يدعوهم إلا لعبادة ا لله .

وإنه لمن العجيب كذلك أن يقولوا تقاسموا با لله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه : ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . وهي جملة من ما هيأوا أن يقولوه عندما يُسألون عن الجريمة .<<وإنا لصادقون>> .فقد قتلوهم في الظلام فلم يشهدوا هلاكهم أي لم يروه بسبب الظلام .<<وهو احتيال سطحي وحيلة ساذجة ، ولكنهم يُطمئنون بها أنفسهم ويبررون كذبهم الذي اعتزموه للتخلص من أولياء دم صالح وأهله >>[1] .

نعم من العجب أن تحرص شخصية هذه صفاتها على أن تكون صادقة . ولكن نفوس قوم ثمود المليئة بالالتواءات سولت لهم قول وفعل كهذا .

وينتقل السرد بصورة لشخصية الرهط من على مسرح القصة من مشهد تبييت النية على الغدر بصالح وأهله . إلى مشهد آخر أكثر إثارة وعجبا،أنه مشهد التدبير والمكر ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2] .

ولنا أن نتأمل كلمة "مكرا" وما لها من ايحاء على جو القصة ، وما لها من وقع في المخيلة وهي تراقب شخصية الجماعة من داخل الحدث كيف تدبر خفية ضرا كبيرا لناقة ا لله، ونبيه صالح عليه السلام وأهله . لقد كان هذا الموقف هو الدرج الذي مده السرد ليرتفع عليه الحدث صاعدا نحو نقطة الوضوح . محققا بهذا التدرج الصاعد أول جزء من أجزاء مشهد العذاب الذي سيلحق بالقوم جزاءا لفعلهم الماكر وهوإبادتهم من على الأرض .

لقد لعب التركيب اللغوي لكلمة "مكرا" دورا أساسيا في تأكيد إدانة الشخصية المجرمة في قصة ثمود ، وتوضيح ملامحها النفسية ، ولهذا <<سمى ا لله تآمرهم مكرا لأنه كان

(1) سيد قطب : الظلال ، جـ 5 ص 155.(انظر طبعة دار الشروق،سورة النمل)

(2) سورة النمل : الآية 50 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تدبير ضر في الخفاء ، وأكد مكرهم بالمفعول للدلالة على قوته في جنس المكر ، وتنوينه للتعظيم>>[1] .فانظر إلى هذه العقول المظلمة التي حجبت عن نفسها نور الحق ، فعميت عن رؤية الطريق السليم ، فمالت بأهلها إلى جهة الغدر والكذب والخيانة والاجرام دون مراعاة للقيم الإنسانية على الارض.

المطلب الثالث

البعد الاجتماعي لشخصيات قصص عاد وثمود

أولا– البعد الاجتماعي للشخصية في إطارها المفرد(نبيا الله)

ويظهر البعد الاجتماعي لشخصيتي هود وصالح في القصة ، بعد ما أرسلهما السرد القرآني مكلفة بأداء الرسالة إلى أفراد مجتمع واضحا من خلال القرآن . يقول الله تعالى:﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾[2] .وقوله تعالى:﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ .

ينبيءعن ذلك ماكان يصدر منها إزاء مختلف القضايا الموجودة في مجتمع عاد وثمود ، ونلمس هذا الحرص على تقريب الروابط بينها وبين باقي الشخصيات فيما نقله القرآن حكاية عن القصة كما عاشها القوم وعاشها التاريخ .

يقول تعالى بشأن الموقف :﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3] بهذا التصريح الذي ينم عن نفس كريمة محبة للخير تقدم هود إلى قومه عاد يدعوهم إلى تقوى الله وطاعته فيما جاء به إليهم من الحق ، وقوله ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وهي محاولة منه لتذكيرهم بما كان معروفا به من الأمانة وحسن الخلق قبل الرسالة .

---

(1) الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، جـ 19 ص 284 .

(2) سورة هود : الآية 50 .

(*) سورة هود :الآية 61.

(3) سورة الشعراء : الآية 123–135.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ونظرا لأهمية هذه الصفة لهود النبي أولا ، وهود الأمين ثانيا فقد أعطاها السرد القصصي أوفر حظا من الاهتمام فأظهرها في تعبير لغوي وبياني ناصع ، جاء ليبن وجود صفة "الأمانة" في شخصية الداعية المصلح حتى يأمن له قومه ويتقبلون دعوته .

تقدم هـــــود إلى قومه بصفته مبلّغ عن ربه رسالة بكل نصح وأمانة .<< فالرائد لا يكذب أهله والناصح لا يغش قومه ،غير أن الجماعة تلقت هذا النصح باستهزاء وانكار وتوبيخ ، وقابله حرصه على هدايتها للخير بسخط وعناد كبيرين.

وهذا مادفع هود إلى توضيح أنه لا عجب فيما عجبوا من أن يكون الرسول المبلغ عن ربه بشرا وواحدا من عامة الناس ، ساعيا إلى رد هذه الشبهة التي ظلت تخايل للبشرية كلما جاءها رسول . فقد كان تصور الرسول عند قوم عاد عجيبا ، وما كانوا يدركون حكمة الله في أن يكون الرسول بشرا، وما كانوا يدركون كذلك تكريم هذا الجنس البشري باختيار رسول منهم ليكون رائدالأمته المتصل بمصدر الهدى والنور :

وبعد أن ينبه هود قومه إلى هذه القضية العاقة بعقولهم والمتصلة بنفوسهم المظلمة يعرج إلى الحديث عن أن مجيئه إليهم كان الهدف منه انذارهم وتحذيرهم من العذاب الذي سيلحق بهم في حالة اصرارهم على كفرهم وعصيانهم وعنادهم .

ويتدرج هود في حديثه مع قومه عاد ، ولكن هذه المرة من موقع آخر لمشهد قصصي مختلف في زمانه ، وإن كان في مكانه القصصي المعهود وهو بيئة قصة عاد التي لم يبرحها هود عليه السلام إلا ناجيا بدينه مع القلة المؤمنة به بعد حلول العذاب بقومه .

لقد بلّغ قومه عاد بالرسالة وأدى واجبه الدعوي اتجاههم كاملا غير منقوص ، يلمس منهم صدودا واعراضا عجيبين ، ويسجل عليهم توليا عن جانب الحق بعد طول تذكير ، فإذا هو يعلن لهم صراحة أنه أبلغهم بالرسالة أن الحجة قد قامت عليهم إلى يوم الدين .

والسرد في هذه الخلال يتابع عن كثب شخصية هود عليه السلام داخل عالمها القصصي ، وهي تتفاعل مع عقليات قومه عاد وتصطدم بعناد شخصيات ذلك المجتمع . مركّزا دائما على طريقة هود في منافحته الجادة عن المبادئ والعقيدة والقيم الأخلاقية والاجتماعية بصبر وإيمان عميقين وثقة في الله الواحد .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كل ذلك راصد كل الصفات التي لها دخل في تغيير المجتمع من الداخل ولها صلة بالدور والأداء الفني على مسرح القصة وماله علاقة بتنمية الفكرة الأساسية وله دخل في تلاؤم اجواء الحدث الداخلي للمشهد القصصي ككل .

ويمكننا أن نلاحظ ذلك من خلال الآيات البينات في النصوص السابقة حيث تنوعت المشاهد القصصية بين مشهد التبليغ بالدعوة وفيما ظهرت شخصية هود بصفته ناصح أمين ، ثم انتقل المشهد الى موقف التنبيه الى تصور الرسول بأنه غير بشر ، ثم تصحيح ذلك بأن الرسول من البشر وأنه جاء خصيصا لتحذير قومه مما هم فيه من غواية وضلال وظلم لأنفسهم . ثم يعقب ذلك مشهد آخر تطل فيه شخصية هود بصفتها الحازمة التي تعلن للقوم شهادتها على وصول الرسالة وتمام البلاغ إليهم ، فإذا تطور الموقف وتمدد الحدث على سطح القصة ليشمل مشهدا آخر أكثر وضوحا وايثارة ومواجهة نجد شخصية هود ماثلة تتحدى وتقاوم بشدة وعزم موقف المناوئين للحق من قومه[1] .

وعند هذا الحد من التحدي بقوة الله وإبراز هذه القوة في صورتها القاهرة الحاسمة ، يأخذ هود في الانذار والوعيد .﴿فَإِن تَوَلَّوا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾[2] فاديت واجبي لله ، ونفضت يدي من أمركم لتواجهو قوة الله سبحانه ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ .يليقون بتلقي دعوته ، ويستقيمون على دعوته وهدايته بعد اهلاككم ببغيكم وظلمكم وانحرافكم ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾. فما لكم من قوة ، وذهابكم لا يترك في كونه فراغا ولا نقصا ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ .يحفظ دينه وأولياءه وسننه من الأذى والضياع ، ويقوم عليكم فلا تفلتون ولا تعجرونه هربا [3] .

وكانت هي الكلمة الفاصلة ، وانتهى الجدل والكلام ليحق الوعيد والانذار ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[4] . وأجمل ما

(1) سيد قطب : الظلال ،جـ 4 ص1896 .

(2) سورة هود الآية : 57 .

(3) سيد قطب : المرجع السابق، جـ 4 ص 1900 .

(4) سورة هود : الآية 58 .

في هـــــذا الأداء الفني للشخصية هـود عليـه السـلام في قصـة عـاد <<وأنهـا لم تنفصل ولـو للحظة عن الفكرة العامة للقصة بل كانت تؤكد أنها ماضية معها صاعدة بها إلى حيث تصل النتائج المتوقعة والمترتبة على سلسلة الأحداث >>[1] .

ثانيا – البعد الاجتماعي للشخصية للجماعة في إطارها الجمعي

إن البعد الاجتماعي للجماعة من قومي عاد وثمود وارد إلينا من خلال السـرد القرآنـي في حكايته عن قصة الملأ الذين تصدوا لدعوتي هود وصالح ، :﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[2] .

كان مجتمع عاد على عهد الملأ من قوم هود عليه السلام مجتمعا طبقيا تسـوده التفرقـة بين فئة وأخرى ، فهناك المترفين المتنعمين الأثرياء ، وهناك الفقراء المستضعفين ، وكلاهما له وجود فعلي في الحياة ، ولهم وجود في الأداء الفني للحدث داخل عالم القصة . وتبـدو علاقة الجماعة ببعضها داخل النسيج الاجتماعي لبيئتها المكانية والقصصية قائمة على القـوة والسيطرة والظلم ، وأن هذا المسار أدى إلى خلق جو من الصراع الاجتماعي بين المستكبرين في الأرض بمبادئهم الخاطئة وبين المستضعفين المؤمنين بالحق الذي جـاء بـه الأنبيـاء صلـوات الله عليهم وسلامه .

ويظهر ذلك جليا فيما نقله القرآن في وصفه للوضع ووجود فـارق في الثـراء والغنـى والجاه والمال بين الأفراد :﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. ﴾[3].

ويوضح السرد القرآني أن البون الاجتماعي بين شخصيات القصة قائم علـى نوعـين هما تقسيم ديني تبعـا لاختـلاف في العقيـدة ، وتقسـيم اجتمـاعي نـاتج عـن الاختـلاف في المركز وتولي المهام . وفي ضوء هذين العرضين نلمح البعد الاجتمـاعي لشخصيات الجماعـة من قومي عاد وقوم ثمود ، وهي تمارس دورها الاجتمـاعي ودورهـا الفـني في القصـة متدرجـةً بالحدث مـن مشـهد إلى مشـهد آخر،حتـى تصـل إلى النهايـة المرتقيـة لهـا ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ﴾[4] .

(1) خالد أبو حندي : الخصائص الفنية للقصة القرآنية ،ص 193 .

(2) سورة الأعراف : الآية 66 .

(3) سورة المومنون : الآية 33 .

(4) سورة المومنون : الآية 33 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والملأ كشخصية اجتماعية لها وزنها داخل مجتمعي عاد وثمود فهي القائدة لزمام الأمور والقضايا ، وهي صاحبة الحل والعقد فيما يعرض عليها من مشاكل وما يستجد من افكار وآراء .ومن هنا كان السرد القرآني وهو يتابعها داخل المجتمع ويصور علاقتها مع الاخرين ويرصد من أول وهلة ويسجل سلوكاتها وتصرفاتها في داخل البيئة المكانية القصصية.

وميزة أولئك "الملأ" من قوم عاد وثمود الترف والاستكبار والحرص على المصالح المادية والدنيوية ، والتنعم بالخيرات ، وهذه الصفات التي انطبعت بها شخصيتهم هي المعطيات التي قدمها السرد لفهم صفات "الملأ" وموقفهم من دعوة صالح عليه السلام .وفي ذلك يقول تعالى:

1- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ﴾.صفة الملأ الكفر والتكذيب بالآخرة ، وهو موقف ديني يمس العقيدة ، والآية تصرح وتلمح الى ارتباطهم بالأرض وبالحياة الدنيا ، غافلين عن قصد عن أمور الايمان با لله واليوم الآخر .

2- ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.صفة "الملأ" الترف والتقلب في نعيم الدنيا كيفما شاء لهم القدر ، وشاء لهم مركزهم الاجتماعي .

<<ومن موقع الثراء والغنى والترف يولد الحرص على استمرار المصالح الخاصة ومن موقع الرياسة يولد الكبرياء>>[1] .

ويظهر أن القوم كانوا يعتزون بهذا المظهر الاجتماعي المميز اعتزازا خاصا ، حتى ليبادرون الى مخاطبة الأنبياء بتعجرف واستعلاء واستكبار

3- ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾.ويلتفت الرؤساء من القوم إلى أنفسهم ويتساءلون :أليس هذا النبي بشرا مثلنا ، يأكل مما نأكل ويشرب مما نشرب ؟ من هذه الزاوية الضيقة الصغيرة نظر قوم ثمود الى صالح ، فما كانوا إذن ليدركوا طبيعة دعوته ولا ليروا حقيقتها وذواتهم الصغيرة الضئيلة تحجب عنهم جوهرها . فإذا القضية كلها في نظرهم قضية رجل منهم لا يفترق في شيئ عنهم .<< وهذا الاعتراض المكروه على بشرية الرسول ، هو اعتراض ناشئ من انقطاع الصلة بين قلوب هؤلاء المترفين

(1) أحمد بهجت : أنبياء الله ، ص63 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وبين النفحة العلوية التي تصل الانسان بخالقه الكريم>>[1]

إن الملأ من قوم عاد نظروا إلى هود كما نظر الملأ من ثمود إلى صالح بمنظار العز المادي والجاه والسلطان ، وخاطبوا المؤمنين بالدعوة بمنطق المركز والثراء ، وهم قوم مترفون حرصوا على التباهي وخضعوا لسلطان التفاخر والتظاهر ، إذ كانوا يبنون القصور والبيوت رياء للناس ، ومحبة في اضهار العظمة والقوة . وهي صفات حرص السرد على اظهارها في القصة << لأنها ذات أثر بعيد في الأحداث التي تشارك فيها وفي الأعمال التي تضاف إليها حيث يرى المرء وحدة الحركة بين الشخصيات والأعمال التي تصدر عنها>>[2].

4- ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[3]

هاهم أولاء "الملأ" من قوم عاد يغرهم ما هم فيه من ترف وعز وبسطة في العيش وأمن في المسكن ، فيعجبون من ذلك الذي يعدهم أنهم مخرجون ، ويستبعدون في جهالة أن ذلك يكون ، ويجزمون في تبجح بأن ليس هناك إلا حياة واحدة هي حياة الدنيا وموت واحد وليس هناك بعث.

بهذا التفكير تواصل شخصية "الملأ" حياتها داخل مجتمع عاد، غير آبهة لدعوة هود عليه السلام ، ولا مكترثة لتحذيره وانذاره من عواقب الكفر والشرك وعذاب ا لله .

وبهذه الصورة نتابع الرؤساء وعليةُ القوم مسيرها في الأداء الفني داخل عالمها ، متحركة بالحدث من مشهد الترف والاحاطة بأسباب العز والتنعم والعيش الرغيد والجاه والسلطان والزعامة الى مشهد انكار البعث بعد الموت والبلى ، والتعجب من هود ، وهو ينبيئهم بهذا الأمر العجيب . إنهم لا يقفون عند هذه الجهالة ، إنما هم يتهمون رسولهم بالافتراء على ا لله.﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ . عندئذ لم يجد هود إلا أن يستنصربه. ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ .وعندئذ وقعت الاستجابة ، بعد ان استوفى القوم أجلهم ، ولم يعد فيهم خير يرجى لا لأنفسهم ولا لمجتمع عاد بعد

(1) سيد قطب : **الظلال** ، جـ 6 ص28.

(3) عبد الحافظ عبد ربه،بحوث في قصص القرآن،ص66.

(3) سورة المؤمنون:الآية:35-37

الغفلة والتكذيب .﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(1) .

ويلاحظ من خلال السرد أن الشخصية الجماعية في القصة قد أخذت تنمو بنمو الحدث نفسه ، وأن معلوماتنا عنها قد أخذت تتراكم شيئا فشيئا ، حتى أحسسنا السرد <<يقدم مع كل فصل شيئا جديدا ومدهشا يدفعنا لمواصلة القراءة>>(2). فبعدما عرفنا أن الشخصية الجماعية لعاد قوم هود تميزت باستقرار في الجانب المادي وأن نظامها الاجتماعي كان قائما على وجود فئة من المترفين كانت بأيديهم مقاليد الحكم ، وهذه الفئة كان موقفها الديني قائما على التكذيب والانكار والكفر بكل القضايا الايمانية التي تمس الجانب العقدي من حياة الانسان كما بينها هود عليه السلام في دعوته .

ينتقل بنا السرد متسلسل بالحدث من مشهد شخصية "الملأ" من قوم عاد من سلمها الاجتماعي الرفيع إلى علاقتها بشخصيات المجتمع وتحديدا علاقتها بالفئة التي دونها في المركز والجاه والمال والسلطان ، -ونعني بها الفئة المؤمنة بدعوة هود عليه السلام ، ودعوة صالح- ، ومدى تأثير ذلك على خط سير القصة .يقول الله تعالى حكاية عن ثمود قوم صالح:﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾(3) . إن القرآن يطرح في هذه الآية كلمات ذات علاقة عضوية بنظام الجماعة في علاقتها بأفراد الأمة في مجتمع ثمود وهي : الاستكبار ، والاستضعاف .ويصور موقف "الملأ" من قوم صالح وهم يسيرون هلى هذه القاعدة مستكبرون ومستضعفون ،

ونلمح في هذا العرض "الملأ" على سطح القصة وقد اتجهوا الى الذين آمنوا بصالح يسألونهم سؤال استخفاف وازدراء .: أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه؟ سؤال لامحل له بعد معجزة الناقة ، كلما في الأمر أنهم يستخفون ويسخرون . قالت الفئة المستضعفة التي آمنت بدعوة صالح : إنا بما أرسل به مؤمنون . لاحظ جواب المؤمنين الموضوعي . إن

(1) سورة المؤمنون :الآية 40-41

(2) يحي الجبوري : المدخل لدراسة الفنون الأدبية واللغوية، ص 61 .

(3) سورة الأعراف : الآية 75-76 .

سؤال السادة المترفين يصطدم بهذا الجواب الموضوعي عند هذا الحد من الحوار نرى الذين كفروا وقد أخذتهم العزة بالإثم ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾(1) . هكذا باحتقار واستعلاء وغضب .

إنه مشهد قصصي واقعي تبرز فيه شخصية "الملأ" وكلهم استكبار وعلو يتحدثون الى من هم دونهم في الدرجة الاجتماعية من فوق بأسلوب يلائم مستواهم الاجتماعي والنفسي .وبهذا ترتسم صورة "الملأ" في هيئتها المتكبرة المتعجرفة المغرورة بما لها من مال وجاه وسلطان في الدنيا ، وهي تخاطب الفئة العامة من الناس بسخرية واستهزاء –وهي عادة معروفة لذوي المراكز الاجتماعية الرفيعة – إنهم دائما يرون في أنفسهم العظمة والخيرية والأفضلية على من هم سواهم من خلق الله ، ومن ثم يرفضون في أنفسهم أن يأتي دين او دعوة أو مبدأ اصلاحي يدعو فيه صاحبه الى المساواة بين الرئيس والمرؤوس وهي الفكرة التي تقلق ، وقد أقلقت من قبل السادة والزعماء ، وجعلتهم يرفضونها بل يحاربونها إلى درجة التآمر وتدبير الجرائم للقضاء عليها .

والحياة الاجتماعية الغنية المترفة التي تخص "الملأ" من عاد وثمود تتضح جلية كذلك اهتماماتهم بتشييد القصور وبناء المساكن المنحوتة في الجبال بهدف العبث والتباهي ، كما كانت في أوضح صورها ، وهود وصالح يتصحان قومهما عاداً وثموداً، إلى ترك هذا السلوك المنحرف الذي له انعكاس سلبي على البنية الاجتماعية للأمة وسيعمل على زعزعة الروابط بين أفرادها .من هنا جاء نصح هود عليه السلام في وقته موجه للمعنيين بهذا السلوك ، قائلا ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾(2). هاهو المشهد القصصي يتجلى ماثلا أمام المخيلة ، وقد طلعت شخصية النبي المصلح هود ، وقد هبَّ إلى النصح والتنبيه لما رأى من قومه تمخضا للشغل بأمور الدنيا ، والتفنن في إرضاء الهوى والإقبال على الملذات ببناء الحصون والقصور على أشراف من الأرض << وهذا من الأعمال النافعة في ذاتها متى أريد بها رضى الله تعالى بنفع عبيده ، كانت جديرة بالثناء عاجلا والثواب آجلا ، فأما إذا أهمل إرضاء الله تعالى بها واتخذت للرياء والغرور بالعظمة ، فصار وجودها شبيها

(1) سورة الأعراف :الآية 76

(1) سورة الشعراء: الآية 128–129 .

بالعبث لأنها خلت من روح المقاصد ا الحسنة فلا عبرة عند ا الله بها >> [1] .

وتتتابع الأوصاف تترى على الشخصيات الاجتماعية (النبي المرسل ، الملأ من قومه) مثل:النصح ، والأمانة، تاوعظ ، الحرص على الخير ، الدعوة إلى الهداية، التحذير والانذار ، والصبر ، والتسامح، والتوبة، والمغفرة.

وواضح أن مجموعة هذه الصفات أعطتنا صورة متكاملة لشخصيتي هود وصالح عليهما السلام ، وأنها صورت الجوانب المشرقة في حياتيهما كدعاة مصلحين ، وهو" الجانب العظيم" ، وأنها صورت الذي حرص السرد القصصي على ابرازه والتركيز عليه في القصة .
ومثل : الكفر ، التكذيب ، العبث، الاستكبار، العناد، الاستهزاء، البطش، التجبر، القوة، المكر، الترف، الافساد، الاسراف، الخلود .

فواضح أن مجموعة هذه الصفات أعطتنا صورة متكاملة للشخصية الملأ من قوم عاد وثمود ، وصورت جوانب عديدة منهم ، وهي "الجوانب الفاسدة" التي سعى السرد القرآني إلى إظهارها والتركيز عليها .

إن السرد القرآني لم يسق الملمح الاجتماعي لشخصيات القصة مجردة ، بل ساقها مرتبطة بمواقفها داخل المجتمع من ناحية ، ومرتبطة بالحدث في القصة من ناحية اخرى . ومن هذين الرافدين يدعم السرد حكمه على الشخصية بما خلع عليها من صفات . فكان اجمل ما في هذا الآداء الفني انه جعل للشخصية دور في بناء الحدث داخل عالمها القصصي كما لها دور داخل مجتمعها الواقعي فهي حاملة لعقيدة ولفكرة الاصلاح ، ومدافعة عن المجتمع وعلى كل ما يعمل على اصلاحه وضمان سلامته ، وسلامة منجزاته المادية ، كما هي حريصة على سلامة شبكة علاقاته الاجتماعية . فأنت لاترى لشخصية دور غير مقنع أو غير معلل بعلله العادية فكل موقف وكل مشهد مشخص في مكانه الصحيح وظرفه الحقيقي النابع من مصدره ، المرتبط مباشرة بالحدث داخل تركيب أجزائه .<< فالحدث يصدر من أسبابه، والشخصية تتحرك بحسب قوانينها العامة التي يحددها السرد ، وهي تمارس صفاتها ممارسة

(1) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، جـ 19 ص 166 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حقيقية وفنية في آن >>[1] .كما هو الحال في شخصية هود وصالح ، اللذين يتحركان حيال المواقف بما يتفق وناموس تكوينهما في بنيان داعيان للحق .وكما هو الحال لشخصية "الملأ" الذين يتحركون حيال المواقف بما يتفق وطبيعة مركزهم الاجتماعي ، فهم المترفون المتنعمون المستكبرون في الأرض الكافرون بدعوة الأنبياء الحريصون على مصالحهم في كل زمان ومكان ، لايرغبون في سماع الحق ولا يقبلون النصح.وكما هو الحال في شخصية المستضعفين"العامة من الناس" الذين يتحركون حيال المواقف بما يتفق وفطرتهم السليمة وميلهم لمناصرة العدل والانصاف <فالعامة أقرب الى الانصاف إذا فهموا الحق بسبب سلامتهم من أجل دواعي المكابرة من توقع تقلص سؤدد وزوال نعيم>>[2] .

المطلب الرابع

طريقة القرآن في رسم شخصيات قصتي عاد وثمود

أولا- طريقة رسم الشخصيات

1- الحوار ودوره في رسم الشخصيات: رسم السرد القرآني شخصيات قصتي عاد وثمود بكيانهما المميز ، وطابعهما الخاص المستقل ، كما كان لها وجودها الايجابي النشط في القصة فكان القارئ يؤمن بضرورتها في العمل الفني <<فالعقل لا يستطيع أن تكون الشخصية محسوبة بلا مبرر على العمل الفني ، أو تكون مجرد كيان يردده كلمات رتيبة>>[3].وقدمها كنماذج انسانية من خلال الحوار<< فهو الوسيلة التي يتعرف بها القارئ على الشخصية، ويميز به بين المتحدثين ويكشف به عن طبيعتهم ويوضح اتجاههم وما تنطوي عليه نفوسهم >>[4]، ولهذا لما استلها السرد القرآني من محيطها الطبيعي لونها بتصوراتها وأفعالها اتضحت سماتها وملامحها على اعتبار أنه كلما وضحت السمات والملامح كان ذلك أكمل [5].ويبدو أن الحوار أفاد في تحديد ملامح الأشخاص -النبي وقومه- وهم يؤدون أدوارهم داخل عالمهم القصصي فكان هو الجزء الهام من الأسلوب التعبيري

---

(1) خالد أبو جندي : **خصائص القصة القرآنية**، ص 154 .

(2) الطاهر بن عاشور : **التحرير والتنوير**، جـ 18 ص82 .

(3) جابر قميحة: الأدب الحديث، ص 165 .

(4) برنارد ديفوتو ،عالم القصة ،ترجمة: محمد مصطفى هداره،عالم الكتب:القاهرة،د،ط،1969م،ص266.

(5)سيد قطب،النقد الأدبي أصوله ومناهجه،دار الفكر العربي،بيروت،ط،3،1959م،78.

في قصتي عاد وثمود وصفة من الصفات العقلية التي لا تنفصل عن الشخصية بوجه من الوجوه ، ولهذا كان من أهم الوسائل التي اعتمده القرآن في رسم الشخصيات، بحيث استخدمه كوسيلة لكسر الرتابة استخداما جيدا وحتى لا يكون مجرد فقرات لتبليغ فكرة أو رسم صورة، أو الاعراب عن وجهة نظر خفية فقط بل عنصرا فعالا قويا في بعث الحرارة الدافقة في شرايين القصة[1] .

2- الجوانب الأساسية للشخصيات :الشخصية في العمل الفني -أيا كان نوعها- كائن حي له جوانب وأعماق وأبعاد .وهذه الجوانب ، وتلك الأبعاد تتمثل في ثلاثة هي :

أ- الجانب الخارجي : ويتمثل في الصورة الحسية ، والمظهر العام ، والسلوك الظاهر للشخصية، أي في صفات الجسم المختلفة . والتي لم يذكر منها السرد القرآني إلا ما له علاقة بالحدث ، مركزا على اظهار الملح الجسدي للجماعة عندما كان لهذه الصفات الدور الفعال في أحداث القصة كما هو الشأن لقوم عاد ، حيث كانت قوتهم الجسدية هي العنصر الفاعل في أحداث القصة ، والخصيصة المحورية التي تتجاذب أطرافها ، وتمسك بخيوط نسيجها القصصي .<< وكانت الـقيمة المسيطرة في القصة والعامل المتشترك بين الشخصيات ، وقادت الأحداث الى نهاية أليمة>> [2].سجلها القرآن في قوله تعالى :﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾[3].

كما يصور السرد في قوله تعالى وهو يصف انفعال هود عليه السلام ، وهو يرى اعراض قومه عن دعوته ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [4]. وكذلك انفعال صالح عليه السلام ، وهو يرى قومه ثمود يعرضون عن دين ا لله﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[5]

(1) عمر بن قينه،دراسات في القصة الجزائرية،المؤسسة الوطنية للكتاب:الجزائر،د،ط،1986م،ص109.

(2) محمد طول: البنية السردية في القصص القرآني، ص 68 .

(3) سورة فصلت : الآية 15-16 .

(4) سورة الشعراء: الآية 135.

(5) سورة الأعراف: الآية 79 .

ب - الجانب الداخلي : ويشمل الملامح والأحوال النفسية والروحية والعزيمة والفكرة ، وكفاية الشخصية بالنسبة لهدفها ، ونتبع ذلك المزاج من انفعال وهدوء ومن انطواء وانبساط وغيرها من الصفات التي حفل السرد بذكرها وبيانها،وكان لها دور داخل البناء الفني للحدث، مبينا أثر تلك الطبائع العقلية مع المواقف بمجموعة من الصفات،التي كانت هي الاشعارات الفنية التي أنارت الجوانب المهمة والثابتة في شخصيتي هود وصالح عليهما السلام والجماعة من قوم عاد وثمود .

جـ - الجانب الاجتماعي : ويتمثل في المركز الذي تشغله الشخصية في المجتمع، وظروفها الاجتماعية ، وعلاقاتها مع الآخرين، وانتمائها إلى طبقة معينة، وعمل الشخصية ، وملابسات العصر ، وصلتها بتكوين الشخصية [1] .

ولايعني هذا التقسيم أن الأبعاد والجوانب متباعدة أو منفصلة ،<< لأن البعد الخارجي إنما هو مرآة ينعكس عليها العمق الداخلي، والشخصية لبعدها الخارجي والداخلي يكون لها دائما -على نحو من الأنحاء مركزها واتصالها بدائرة المجتمع العام>>[2] . وعلى هذا لم تكن شخصيتا هود وصالح منعزلتين عن دائرة مجتمع عاد وثمود أو منفصلتين عنه ، بل كان لها اتصال مباشر وثيق بأفراده سواء الفئة المستكبرة وهم "الملأ" . أو الفئة المستضعفة وهم "المؤمنون" بالدعوة . وقد ظهر جليا فيم مر معنا من الآيات في قوله تعالى:﴿واذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ. ﴾[3]) . وفي قوله تعالى:﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوِمِ. ﴾[4] .

وهذه الآيات تظهر الشخصية في القصة في صورة فنية ملائمة لتطور الحدث داخل عالمها القصصي وذلك:

1- أنه كان لها اسم هود وصالح ملائم لدور المسمى في القصة .

2- أن ملامحها الجسدية والنفسية والعقلية اتسقت مع الدور الفني الذي تقوم به في القصة ، ويكتشفها القارئ من خلال تفاعل الشخصية مع الاطار الذي تتحرك داخله في القصة

---

(1) غنيمي هلال: **النقد الأدبي**، ص 615 ، 1973م،

(2) جابر قميحة: **الأدب الحديث**، ص 165 .

(3) سورة الأحقاف: الآية 21.

(4) سورة هود: الآية 61 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

،فيتبين لـــهأنها خيرةأوشريرة[1] .وقد مثلت شخصيتي نبيّيّ الله هـود وصـالح عليهمـا السـلام النموذج الأول ، ومثلت شخصية "الملأ" من قوم عاد وثمود النموذج الثاني .

3- أنها قدمت وهي تتحرك داخل عالمها القصصي .

4- أنها كانت وفية لطبيعة النموذج الذي تعكس صورته في الواقع.

و هذه الملامح هي التي تساعد في تتبع طريقة القرآن في رسم شخصيات عاد وثمود. والسؤال : ما هي الطريقة التي سلكها السرد في التشخيص ؟

هناك في "التشخيص"[2] طريقتان مشهورتان : الطريقة المباشرة أو التمثيلية .

الأولى : الطريقة التمثيلية ، وفيها يقف الأديب على الحياد ، ويسمح للشـخصية أن تكشـف عن نفسها وجوهرها بأحاديثها وتصرفاتها الخاصة .

الطريقة الثانية : المباشرة وفي هذه الحالـة يرسـم الأديـب شـخصياته مـن الخـارج ، ويشـرح عواطفها وبواعثها وأفكارها وأحاسيسها،ويعقب على بعض تصرفاتها ويفسر بعـضهاالآخر وكثيرا ما يعطينا رأيه فيها صريحا دون ما التواء [3] .

وفي الطريقتين يكون الرسم من الداخلي إلى الخارجي من المعنوي الى الحس المـادي . كما يكون الرسم كذلك من الخارج الى الداخل وهو عكس الطريقة الأولى .

وقد تتبع الفنان الطريقتين معا بالنسبة للشخصية الواحدة مزاوجا بينهماأو يتبع طريقـة بالنسبة لشخصية ، ويتبع الثانية يالنسبة لشـخصية أخرى في نطـاق العمـل الفـني ، كمـا أن الأديب الفنان قد يعطي اهتماما لجانب من جوانب الشخصية أكثر مـن غـيره،نظـرا لأهميتـه بالنسبة الى الجوانب الأخرى : فقد يكون البعد الخارجي اهم الأبعاد في شخصية الفيلسـوف او الشاعر . أما البعد الاجتماعي فهو غالبا أهم الأبعاد بالنسبة لشـخصية الحـاكم أو الرجـل السياسي [4] . على أن الحكم ليس على اطلاقه ، فالحال تختلف تبعا للمواقف والأحـداث

(1) يحي الجبوري: المدخل لدراسة الفنون الأدبية واللغوية، ص 59 .

(2) وهي ترجمة للكلمة الانجليزية Charactrization وتعني في رسم الشخصيات بملامحها المختلفة . وقد تستعمل كلمـة "التشخيص" بمعنى آخر هو اعطاء مظاهر الطبيعة حياة وخصائص انسانية نابضة ، كتخيل الشجر عرائس، والقمر ملكا والصبح انسان يتنفس ...إلخ .وواضح اننا نقصد "التشخيص " بالمفهوم الأول .انظـر جـابر قميحـة: الأدب الحديـث، ص 189 .

(3) محمد يوسف نجم: فن القصة ، ص 167 .

(4) جابر قميحة: الأدب الحديث، ص 166 .

والهدف من العمل الفني . وعلى وجه العموم ، بما أن القصة تقوم على السرد والحوار ، فهي تبيح للكاتب أن يستعمل الطريقتين معا في رسم الشخصية . ولا شك ان الدارس يجد متعة وفائدة وعندما يبحث عن فن الكاتب في استعمال هاتين الطريقتين وعن أسباب ايثاره لا حداهما في بعض المواقف .

ونرى الشخصية المحورية في قصتي عاد وثمود هي شخصية "هود وصالح" عليهما السلام والملأ من قوم عاد وثمود .وهي صورة واضحة لشخصية "النبي الرسول" الذي جاء لقومه مكلفا حاملا لرسالة سماوية .مدافعا عن القيم والمبادئ ساعيا إلى أحداث تغيير شامل على قوالب التفكير الديني والاجتماعي الموروث من عهد الآباء والأجداد في حياة مجتمعي عاد وثمود بدء بالعقيدة في تصحيح التصور حول الألوهية والنبوة زالبعث والجزاء . ثم تصحيح السلوك ، بتقويم المفاهيم حول الانسان وعلاقته بالخلافة في الأرض وتعميرها الى توضيح نمط العلاقات بين الأفرد في المجتمع الواحد وكيفية توطيدها ليسلم البناء الاجتماعي من الانحلال والفساد . فالنبي المبلغ عن ربه يمثل في نظر القرآن -كما ألمحنا من قبل في كل من سور الأعراف هود ، الشعراء ، المؤمنون، الأحقاف، الحجر وغيرها - قيمة خالدة ، أكثر من تمثيله كيانا آدميا لذلك لم يأت وصفه في القصة الا مرتبطا بالحدث ومتفاعلا مع مواقفه ومشاهده المتنوعة خدمة للفكرة العامة التي جاءت لتأسيس لضرورة وجود العقيدة والمبادئ والأخلاق،التي هي صمام الأمان الذي يحمي الانسان من نفسه،ومن غواية الدنيا ووساوس الشيطان في آن يترى الى الأسفل .

أما شخصية الملأ من قومي عاد وثمود فهي صورة واضحة لشخصية الجماعة الظالمة التي انحرفت بتفكيرها عن الحق وعاشت في المجتمع فسادا وعبثا . أنكرت دعوة الرسل ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا. ﴾[1] فهي الشخصية الجماعية التي ترفض الحق وتكذب الأنبياء ، وتعلن عن موقفها بعناد كبير أنها متمسكة بما وجدت عليه سلفها من قيم وتقاليد وأعراف .﴿وَقَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا. ﴾[2] ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ. ﴾[3] .

(1) سورة المومنون :الآية 33.

(2) سورة الأعراف: الآية 70.

(3) سورة هود : الآية 62 .

وهذه<<العبثية والاصرار على موروث قديم فاسد أو الفكر الأبائي>> في شخصية الجماعة مصدرها عبثية المنهل الذي يسترفدونه ، ويعيشون عليه والذي يتمثل في اتصالهم العريق بأجدادهم وآباءهم .

وفكرة التمسك بدين السلف ولو كان خاطئا هذه الفكرة ليست جديدة فقديما كان للأقوام السابقة موقفا مشابها ومطابقا لهذا الموقف،إذ كانت تؤمن بدين القدماء من أجدادها وآبائها وترى في الخروج عليه نوع من الخيانة وتغيير الخط والمسلك عن المألوف،حتى أنها ترى في نفسها أحقية الأتباع والتقليد ولو كان ما جاء به الأسلاف خاطئا فاسدا .

وقد خاطب "الملأ" من مدين شعيبا عليه السلام وهو يعرض في دعوته عليهم :﴿وَقَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ أَبَاؤُنَا. ﴾[1] . إنه الداء العضال الذي استفحل في المكذبين عامة في كل زمان زمكان ، إنها الرجعية <<والرجعية غفلة عن سنة الوجود وغيبوبة ذاهلة عن حركة سير الزمن وصمم عن نظام الكون،ودورة الفلك في أن الحياة لا يمكن أن ترتد وتمشي القهقري>>[2] .

ومن خلال –هود وصالح– عليهما السلام شخصية النبي المرسل يطرح القرآن أراءه وأفكاره وقيمه ونظرته في الحياة والانسان والكون.

ومن خلال "الملأ" شخصية الجماعة من قوم عاد وثمود ، يطرح القرآن صور المجتمع الفاسد المنحرف الظالم في ابراز المناوئ للدعوة المعارض للحق دون صحة ودليل . مستخدما في ابراز صور الشخصيتين السرد والحوار ، فهو مرة يصف لنا الشخصية ونمط تفكيرها وحركتها في الحياة ، ومرة <<يترك الشخصيات تفصح عن نفسها من خلال العمل والحركة أو من خلال الأفكار المتصلة اتصالا وثيقا بها على الأقل >>[3] . ومرة أخرى يعمد الى توضيح بعض صفاتها عن طريق أحاديث الشخصيات الأخرى عنها .

إن القرآن ترك شخصية هود وصالح والملأ تتضح وتظهر للقارئ بطريقة الحوار والتصرف وبتعليقات الشخصيات الأخرى عنها ونقدها لها .

---

(1) سورة هود: الآية 87.

(2) عائشة عبد الرحمن : الشخصية الاسلامية ، دار القلم للملايين ، بيروت،ط 4، 1986م، ص 177 .

(3) عبد العزيز شرف: الأسس الفنية للابداع الأدبي : ص 186 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهو بهذا الأسلوب <<يكشف الشخصية من الداخل إلى الخارج يجعلها أقوى أثرا وأدق تعبيرا من وصفها وصفا خارجيا >> [1] .

ثانيا – رسم الشخصيات في القصة بين آراء الدارسين والقرآن

تحدث الباحثون في خير هذا النشاط عن كيفية خلق الشخصية داخل عالمها القصصي وحددوا ملامحها الفنية في اطارين:

الإطار الأول :

1- الشخصية المفردة أو الجاهزة :وهي التي تلعب دورا ثابتا بمفردها أو هي في حيز الشخصية الجماعية ، وهي التي تبقى على صورة واحدة لا تتغير ولا تتبدل . وأطلق النقاد على هذه الشخصية <الشخصية البسيطة> .

الإطار الثاني

2- الشخصية المعقدة: وهي التي لا تبدو للقارئ في الصفحات الأولى، بل تتكشف شيئا فشيئا ، وتتطور بتطور الأحداث ونمو الفكرة العامة للقصة . ويكون تطورها هذا غالبا نتيجة تفاعلها مع الحوادث ، وقد يكون هذا التفاعل ظاهرا أو خفيا . وقد ينتهي بالغلبة أو الاخفاق [2] .أول ما يميز شخصيات القصة هو حظها من البساطة والتعقيد . غير أن القرآن في طريقته الفنية لرسم شخصيات قصتي عاد وثمود لم يخضعها لهذا التقسم ، بحيث جاءت كلها شخصيات لها حضور ثابت ، إذ السرد لم يرسلها فضلة، بل جعلها تدخل في صميم الفكرة العامة ، ومن ثم حدد لها أوصافها و دورها الذي تمارسه في بنية القصة.

وقد تلاحمت شخصيات قصتي عادٍ وثمودَ وصفاتها مع الفكرة العامة ، التي دار حولها الحدث بجزئياته المختلفة ومشاهده المتنوعة التي قام عليها بناء القصة . كما تلاءمت الشخصيات مع تلك الصفات التي زودها بها السرد القرآني ، فكان سلوكها مناسبًا ومعبرًا عما بداخلها من مبادئ وأفكار. وما تحمل من قيم ومثل جسدته أثناء آدائها لدورها الفني على مسرح القصة بشكل بسيط وواضح وبعيد عن التعقيد .وهذا يدل على أن

(1) محمد يوسف نجم: فن القصة ، ص 82.

(2) خالد أبو جندي : الجانب الفني في القصة القرآنية ، ص 168 .

جمعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

<<وجوب تلاحم الشخصية الفنية مع الفكرة العامة كان من أبرز الظواهر الفنية التي يمدها منهج القصة الفنية في القرآن الكريم>>[1] .

كما يدل على أن مفهوم الشخصية "المعقدة" غير وارد في قصتي عاد وثمود ، بل هناك الشخصية المركبة ، تعطينا بوضوحها قيما عامة كثيرة .

فوضوح الشخصية الوارد في القصة يركز على دور الشخصية في الآداء الفني، والقيم التي تحملها وتتغنى بها .

إن السرد القرآني في عرضه لشخصيات قصتيْ عاد وثمود لم يهتم إلا بنمط واحد ، ولم يرصد الا نوعا واحدا منها وهي الشخصية <<التي لا تكاد طبيعتها تتغير من بداية القصة حتى نهايتها ، وإنما ثبتت على صفة لا تفارقها>>[2] . فنجد هوداً وصالحاً وقد مثلا شخصية النبيي الرسول المصلح الثابت على مبادئه ودعوته طوال القصة ، ونجد "الملأ" من قوم عاد وثمود وقد مثلوا الشخصية الجماعية الثابتة على ضلالها وكذبها وكفرها وتمسكها بدين أجدادها وآبائها على امتداد خط سير القصة حتى النهاية .

فالنوع الأول <<النبي>> بنيت شخصيته حول فكرة الدعوة إلى العقيدة الصحيحة ولذا ظل ثابتا ولم تؤثر فيه الحوادث ولم تأخذ منه شيئا . فبقيت على حالها منذ بداية القصة حتى نهايتها .

والنوع الثاني : وهم الملأ بنيت شخصيتهم أيضا على فكرة واحدة وهي الكفر ، وصفة واحدة هي العناد والتكبر والإستعلاء والبطش والتجبر والظلم ، وهي لا تحتاج الى تفسير وتقديم ، ولا فضل تحليل وبيان . وهذا يفسر أن السرد رتب حركة الشخصيات في القصة في خطوط فنية بحيث أعطى كل شخصية بحسب صفاتها من حيث الوضوح والتركيب .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) خالد أبو جندي : الجانب الفني في القصة القرآنية ،ص 168 .

(2) يحي الجبوري: المدخل لدراسة الفنون الأدبية واللغوية، ص 61 .

1- فشخصية هود وصالح كانت واضحة حاملة لعقيدة التوحيد ، ومدافعة عن القيم والمبادئ بنفس هادئة لا تثور الا للحق والعدل .

2- وشخصية الملأ من قوم عاد وثمود كانت واضحة حاملة لفكر آبائي فاسد متعفن يرى في الاصلاح فسادا مضطربة ثائرة على الحق متمردة على قبوله لدرجة المحاربة والقتل .

3- ومن الشخصيات المعاونة في قصة ثمود ، "الناقة" وهي شخصية لها حضورها القوي الدائم منذ بداية تطور الحدث داخل نسيج القصة ، اذ نجدها هي الآية التي طالب بها الثموديون صالحا كدليل على صدق نبوته ودعوته ، ثم هي امتحان من الله للقوم ، وهي الشخصية التي كانت السبب في تغيير موقف فئة من الكفر الى الايمان وهي فئة المستضعفين المؤمنين بدعوة صالح عليه السلام ، وهي الى جانب هذا ، كانت هي الشخصية التي اضاءت جوانب الحدث في مشهده الحي حين عزم القوم على التفكير في التخلص منها وبعدها العقر ، وكانت هي دائما الشخصية المرافقة لبقية الحدث اذ بسبب عقرها يحل العذاب "بالصيحة" على ثمود .

4- شخصية الرهط التسعة وهي شخصية ثانوية لكن السرد اعتنى بها وأظهرها على مسرح القصة نابضة حية تسعى بين الأحداث وتشارك في خلق المواقف والمشاهد بما تبثه من حركة وسلوك . وما صدر عنها من اندفاع لقتل ناقة الله .

5- شخصية عاقر الناقة : وهي الشخصية التي سلط عليها السرد كامل ضوئه فهو إن لم يذكر اسمها و لم يحدد صفتها الجسدية ، الا انه وصفها بما يناسبها في قوله تعالى:﴿**إِذِ انۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا**﴾[1] . وأيضا :﴿**فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ**﴾[2] . فهذه الشخصية التي كانت أشقى فرد في ثمود هي التي تجرأت على ذبح ناقة الله وهي المعجزة الكبرى في زمن صالح وقومه، وهي آية من آيات الله في الكون ، وهذه شخصية هي التي بفعلها هذا قد جلبت

(1) سورة الشمس: الآية 12.

(2) سورة القمر: الآية29 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

العذاب واستعجلته لقومها فأتتهـــــم الصيحة من السماء ﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (1) .

لقد رتبت قصتا عاد وثمود شخصياتها في قوالب معينة وسارت على خطوط فنية عامة تحمل من الاضاءات الفنية ما يعطى للقارئ فرصة لفهم سلوكات الشخصية ودورها في الحياة ويمكننا فهم ذلك خلال :

1- شخصية هود ، تسير في خطوط عامة : أ- الدعوة والتبليغ . ب -التغيير نحو الأفضل . جـ -الصبر وقوة الاحتمال . د- التوكل على الله . هـ - بذل الجهود الجبارة لصرف القوم عن رذائلهم.

2- شخصية صالح : تسير في خطوط عامة : أ- الدعوة والتبليغ .ب - تغيير القوالب الفكرية القديمة الجامدة في المجتمع . جـ - محاربة الذهنيات والتصورات الخاطئة عند القوم .

وكلاهما بذلا الجهود الجبارة لفطام عرب ثمود وعاد عن رذائلهم واقتيادهم الى ربهم وتحميلهم رسالة الاسلام ولكنهم عجزوا عن الارتفاع الى هذا المستوى ، وغلبتهم خصائص من جنسهم أو من دمائهم فأهلكتهم (2) .

3- شخصية الملأ من قوم عاد وثمود ، تسير في ثلاثة محتور فنية تحكمت في حركتها على مسرح القصة .أ- الكفر . ب -الاستكبار. جـ- التشبث بموروث الآباء والأجداد في الدين والحياة .

4- شخصية الفئة المؤمنة بدعوة هود وصالح ، تسير في خط فني واحد : آزرت الحق واتبعته رغم ضعفها .

ولو التفتنا لكل شخصية من هذه الشخصيات ، كل على حده لما وجدنا ما يخل التوازن الفني بين حركتها وما علمنا من صفاتها العامة . لأن هذه الأنماط المختلفة من الشخصيات تحددت طبيعة كل منها،بحسب دورها داخل البناء القصصي بعد ما شكلها السرد لتكون متسقة مع حجم الدور المنوط بها والذي تقوم به .

---

(1) سورة الشمس: الآية 14-15.

(2) محمد الغزالي: خطب الشيخ الغزالي في شؤون الدين والحياة، اعداد : قطب عبد الحميد قطب، مراجعة محمد عاشور ،مكتبة رحاب، الجزائر، 1989م،جـ4 ص66 .

وهذا التنوع في تقاسم الأدوار كل بحسب قدرته وأهميته داخل عالم القصة لتبدو جزئياتها ملتحمة ومواقفها واضحة وأفكارها مرتبة،جعل أحد الدارسين للقصة والرواية يشبه هذا الموقف الموحد لشخصيات القصة،وهم يؤدون أدوارهم فيقول:<< إن شخصيات العالم الروائي مثل فريق يعرف سنفونية موسيقية على كل فرد منهم أن يعزف بآلة خاصة به وحده، وهم جميعا رغم التمايز والاختلاف ، وأن بعضهم يقف في المقدمة وبعضهم يقف في الصفوف الخلفية ...رغم كل هذا عليهم جميعا أن يعزفوا لحنا واحدا يخلو من أي نشاز ، وإنما يجب أن يكون متسق الايقاع متناغم الأداء>>[1] .إن شخصيات قصتي عاد وثمود كانت رموزا حية لنماذج انسانية نقلها السرد نقلا أمينا شاهدا ومثالا في عالم الأحياء . جاعلا << لهذه الشخصية الانسانية مشخصاتها الدقيقة وخصائصها المميزة وقسماتها الفارقة وذلك لكي تختلف عن سواها من الشخصيات>>[2] . وجاء بها لتمثل سجية من السجايا أو نقيصة من النقائص : فهي إما رمزٌ للخير أو رمزٌ للشر .

أو تمثل طبقة أو مجموعة خاصة من الناس، وهي تحوي جميع صفاتها أو خصائصها الأساسية.

ويتضح لنا ذلك بجلاء في الشخصيات التي رسمها السرد القرآني لكل من : هود وصالح عليهما السلام ، قدمهما السرد كنموذج انساني في صورة نبي مرسل من ربه الى قومي عاد وثمود جاء ليتحرك وليخلق أمة ويجدد العقيدة في النفوس والعقول التي ران عليها الكذب والكفر والنفاق وطال عليها الأمد فقست قلوبها فهي تنكر الحق وتتبرم من الداعين إليه .

فهذه الشخصية سواء في الحياة أو على مسرح القصة جاءت لتؤدي دورها الرسالي ودعوتها في نشر المبادئ والقيم والاصلاح ، فهي إذا شخصية دينية عظيمة هدفها ربط الناس بتعاليم السماء ونور الهدى الرباني حتى لا يضلوا عن جادة الحق والطريق القويم . وهي في طريق دعوتها لهذه المبادئ النيرة الهشرفة تبقى محكومة بقوانين وسمات الأنبياء في وقارهم وهدوءهم وصبرهم ومجاهدتهم وبلاءهم في سبيل ا لله بعيدة عن سمت الأبطال في القصص والرويات الوضعية. فما كان النبي في يوم من الأيام بطلا لقصة من القصص القرآني.

---

(1) يحى الجبوري: المدخل لدراسة الفنون الأدبية واللغوية، ص 62 .

(2) محمد يوسف نجم : فن القصة ، ص 86 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن لفظ "البطـل" غـير مستسـاغ في القصـة القرآنيـة ، لأنه يرتبـط بالمغـامرة عـادة في القصة الوضعية ، والأنبياء ليسوا أبطالا ، لأنهم ليسـوا مغـامرين ، وإنمـا هـم نمـاذج انسـانية لشخصيات عظيمة جاءت بمنهج وعقيدة في الحياة والدين . وهذا المصطلح "البطـل" لا يليـق بمقام من أرسله الله مبلغا عنه ، كمـا لا يليـق بالقصـة القرآنيـة ، ولهـذا فإننـا لا نسـقط هـذا المصطلح على قصص عاد وثمود لا على غيرها من القصص القرآني . وارتأينا أن نبحث عـن عدة اجرائية استحداثية تتناسـب مـع المقـام القرآنـي في نصـة القدسـي ومعطياتـه المضمونيـة الالهية.

وبما أن للقصة شخصيات وأبطال نتنزه الله تعـالى كمـا نـزه نفسـه عـن أن أننـا نحـده اجرائيا بالبطل ونفس الأمر نتعامل بـه مـع شـخصية الأنبيـاء المرسـلين وتعتمـد مـا أشـار بـه الدكتور عشراني[1] . حيث وصف النصية السردية للخالق البـارئ بالفـاعل مستندا في هـذا على علم الكلام ، وأن الفاعل هو الله أما عندما يتعلق الأمر بتحديد شخصية الأنبياء يقـترح بدل مصطلح "البطل" مصطلح المتفاعل ، وهذا تأصيل منه لدلالة بديلـة عـن مصطلـح البطـل الذي وجده لا يسوغ في الدرس القرآني .

والمبرر في أخذنا بهذا المصطلح أن وظيفة النبي والرسول مزدوجـة العلاقـة ،فهـو مـن جهة على تواصل علوي بالسماء ، ومن جهة أخرى على ارتباط فعلي بالقوم المرسل إليهم .

(1) سليمان عشراني: مقابلة على هامش ملتقى الأدب المنعقد بتـاريخ 23-25مـاي بجامعـة الأمـير عبـد القـادر للعلـوم الاسلامية، قسنطينة24/05/1999.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خلاصة الفصل:

الشخصية عنصر أساسي في تشكيل بنية القصة، لأنها مدار المعاني الإنسانية والأفكار والآراء. فهي والأمر كذلك مصدرها الواقع مرتبطة بأحداثه. قدمها السرد القرآني في صورتها الواقعية تتحرك داخل عالمها القصصي بما تقوم به من أفعال وأقوال لها كيانها المستقل الذي يظل حيا في حركاتها وسكناتها، وذلك حتى يحس القارئ من اعمالها حرارة الحياة ، وقد وردت على نوعين: رئيسية وثانوية.

وبهذا المفهوم ندرك أن للشخصية دور هام في العمل القصصي وأنه لا جدوى من العمل القصصي الذي تخبو فيه الشخصية وتغيب فيه الشخوص بأفكارها وقيمها.

وبالمفهوم نفسه دخل السرد القرآني إلى الشخصية ودورها الباني الفاعل في الأحداث في قصتي عاد وثمود مبينا ما انطوت عليه من صفات الخير والشر مقدما إياها في صورتها المنتزعة من الواقع،الذي يعكس مجموعة صفات الشخصية الإنسانية عامة التي عندما يلتقيها القارئ على صفحات القصة يرى فيها بعض الشخصيات الطيبة التي يعرفها أو بعض الصفات التي تشترك فيها مع نفر من الشخصيات التي يعرضها أو يلتقيها كل يوم.

وقد رسمها السرد القرآني داخل المجتمع، ورصد تصرفاتها ضمن تواجدها في جماعة بطابعها الفكري الإجتماعي الذي لا قيمة للفرد إلا من خلاله .

وقدمها بنموذجين: شخصية انسانية صالحة يمثلها الأنبياء والذين آمنوا بدعوتهم، وشخصية انسانية طالحة يمثلها الملأ من القوم الذين كفروا بدعوة الرسل . وكلا النموذجين له دوره الايجابي في تحريك الصراع، وإدارة الحوار الذي جاء على لسانها حول قضايا العقيدة ومقتضيات الإيمان.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث

الزمن و دوره وفاعليته ودلالته وايقاعته في ضوء فنيات القص

تمهيد وتقسيم:

لقد كان للزمن دوره وفاعليته في قصتي عاد وثمود، وفي تحديد حركة الحدث الذي تميز بزمننين خاضعين للغرض الديني المرتبط أساسا بالعبرة من القص بايقاعات مختلفة سريعة وبطيئة تتناسب فنيا مع حركة الحدث داخل القصة وهو يساير حركة الصراع العقدي وما ترتب عنه من مواجهة بين النبي وقومه .وللكشف عن أهمية الزمن وايقاعاته المتنوعة قمنا بتجزئة هذا الفصل إلى مبحثين:

تناولنا في المبحث الأول: الزمن دوره وفاعليته وتناسبه الفني في قصتي عاد وثمود .

وتناولنا في المبحث الثاني: حركة الزمن ودلالته وايقاعاته في حدث الإبادة في قصتي عاد وثمود .

المبحث الأول

الزمن دوره وفاعليته وتناسبه الفني في قصتي عاد وثمود

لعب الزمن دوره الايجابي في تحديد حركة الحدث داخل قصتيْ عاد وثمود، بفاعلية مميزة تناسبت فنيا مع المواقف التي صنعتها الشخصيات بحسب متطلبات الظرف الدعوي وما ترتب عنه من صراع بين النبي وقومه .ولكي تستوفي هذه الأبعاد نصيبها من الشرح والتحليل قمنا بتقسيم هذا المبحث إلى ثلاث مطالب،بحيث:

تناولنا في المطلب الأول: الزمن ودوره في القصة القرآنية.

المطلب الثاني: الزمن فاعليته ونوعه في قصتي عاد وثمود .

المطلب الثالث: التناسب الفني بين المتسع الزمني وحركة الحدث داخل قصتيْ عاد وثمود.

المطلب الأول

الزمن ودوره في القصة القرآنية

الزمن عنصر أساسي في تشكيل بنية القصة، فهو الذي يدور في فلكه الحدث، و تنمو على إيقاعاته الأفكار الأساسية التي يقوم عليها العمل القصصي الناجح. ذلك أن الخيوط الزمنية تمسك بكل جزئيات القصة حتى تطلع بها في الوقت المناسب و لهذا شبه باللون الخاص في يد الرسام الماهر يستخدمه في المكان المناسب أو في الوقت المناسب و بالقدر المناسب الذي تستلزمه مقتضيات الفن[1].و قد استعان القرآن على تصوير الأحداث و إيضاح الأقاصيص بعامل الزمن ليشير للحين الذي وقعت فيه الحادثة و ذلك ليؤهلها لتمامها و لتقع من الذهن موقع الإيضاح و التصور.

و لما كان للزمن في بناء القصة مكان ملحوظ في سير الأحداث و تتابعها عُدَّ من ألزم اللوازم في بناء القصة القرآنية التي جاءت لتروي حوادث عاشتها أمم ماضية، نقلها السرد القرآني دون تحديد زمن وجودها بألف أو ألفين سنة قبل الميلاد أو بعده مكتفيا بتحديد أحداثها في مظهرها المؤثر في ميدان العبرة و العظة مصداق لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[2].

---

(1) محمد حجازي، الوحدة الموضوعية في القرآن، ص 314.

(2) سورة يوسف : الآيـة 111.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ففي قصة نوح لم يحدد القرآن تاريخ بدء البعثة متى كانت، و لكنه حدد المدة التي تمت فيها دعوة القوم إلى عبادة الله الواحد و ذلك في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾[1] .

ذلك أن تحديد الزمن في هذه القصة زاد في تأثيرها، لأنه حدد من خلال الأحداث أمرين مهمين في توضيح الموقف داخل عالم القصة و هي :

1- شدة عناد و كفر قوم نوح و طول نفسهم في الجدال و التعنت في قبول الحق.

2- قوة الاحتمال و الصبر على المكاره عند نبي الله نوح عليه السلام و ما لاقاه من قومه طيلة هذا العمر الواسع الطويل من الكذب والنفاق والتكبر،والاستعلاء والإستهزاء والاحتقار. وكل أنواع الأذى.

و إذا كنا نجد في القصة القرآنية تحديد لموقعها في مسار التاريخ فإننا نرى فيها صورة أخرى للزمن، و هو الزمن الداخلي الدال على المدة التي استغرقها وقوع الحدث، و ذلك لارتباطه بالغاية من القصة، و كشفه عن موطن من مواطن العبرة فيها.

لقد ورد في قصة صالح و قومه بيان للمدة التي أعطيت لهم بعد أن عقروا الناقة ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ: تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [2].

و ذكر الزمن هنا يدعو إلى التفكر و التدبر، فإن لكل أمة أجل، و قد بقي لقوم صالح ثلاثة أيام قبل أن يحيق بهم العذاب، و في هذه الأيام الثلاثة فرصة لصالح و من معه ليحسموا أمرهم و ينجو بأنفسهم.

و ذكر في قصة موسى عدد الليالي التي غابها عن قومه لميعاد الله﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [3].

و في هذا ما يكشف لنا عن المدة التي غابها موسى فمكّنت السامري من صنع العجل و فتنة بني إسرائيل.

---

(1) سورة العنكبوت:الآية14.

(2) سورة هود : الآية 65.

(3) سورة الأعراف : الآية 141.

و قد لا يذكر الزمن باليوم أو السنة، و إنما تبينه دلالات الأفعال و ظروف الزمان. و من الأمثلة على ذلك قصة أصحاب الجنة [1] الذين نراهم و هم يخططون لقطف ثمارها "مصبحين" و هي كلمة توحي بالزمن الذي وقع فيه التخطيط و هو الليل، و تتدخل القدرة الإلهية لتفسد عليهم خطتهم، و تلمس زمن التدخل الإلهي في كلمتي "طائف" و "نائمون". و تدلنا "أغدوا" و "غدوا" على زمن انطلاقهم لتنفيذ ما بيتوه. و تمضي القصة بعد ذلك إلى نهايتها المعلومة و نجد أننا قد عرفنا أزمان وقوع الأحداث.

"و هذا يعني أن ما يذكر من الزمن أو يدل عليه يتضامن مع الأحداث و الأفكار ليزيد في تأثير القصة بما يوحيه من قصر المدة أو طولها، أو يكون الزمن المذكور مهلة يعقبها العذاب أو الحدث الفاصل في القصة" [2].

و هكذا نجد الزمن الداخلي يظهر حين يكون له دور في إلقاء الضوء على الأحداث، و يختفي حين لا يكون له ذلك.

و لذكر الإطار الزمني للحدث في القصة القرآنية أثر في طي بعض المراحل التي لا حاجة إلى ذكرها أو الخوض في تفاصيلها. ففي الأجل الذي ضربه شيخ مدين لموسى، بعد اتفاقهما عليه طواه السياق ليقول :﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ﴾ [3].

و قد يرد الزمن ليكون موحيا بما بعده و ممهدا له. و من ذلك في قصة موسى قول الله عز و جل: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [4] فالزمن الذي يدل عليه قوله (حين غفلة) يوحي بأن الدخول كان غير معتاد، و بالتالي فإنه يوحي بأن ما بعده من الأحداث سيكون غير معتاد. و بعد مقتل المصري و مرور الوقت العصيب يأتي الزمن ليكون مطارا للحالة النفسية ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [5].

---

(1) أنظر ما في سورة القلم الآية من 17 إلى 33.

(2) مأمون فريز جرار ، خصائص القصة الإسلامية ، ص 87.

(3) سورة القصص : الآية 29.

(4) سورة القصص : الآية 15.

(5) سورة القصص : الآية 18.

فالقرآن إذن لم يعمد إلى ذكر الزمن إلا عندما اقتضاه الموقف و تطلبه الظرف القصصي في دفع وتيرة الحدث باتجاه النمو و التطور، الذي تستهدفه القصة و الغاية التي حددها لها السرد القرآني، و التي من بينها إثبات معطيات تتعلق بالحدث في القصة ضمن سياق النص القرآني و الغاية التي ترمي إليها سوره و آياته من وراء عرض أخبار ما مضى من الأمم و الأقوام و الرسل المبعوثين إليهم، و ذلك من خلال أمور عدة:

1- إثبات إحاطة الله بمجريات الأزمنة في سير البشرية من بداية الخلق إلى اليوم القيامة. و هذا " ما جعل الزمن في القصص القرآني يرتبط بمعالم الشخصية للأنبياء و المرسلين الذين تداولوا وراثة الأرض من آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه و سلم".[1]

2- تأصيل هيمنة الله تعالى على كل ما في الكون من أزمنة و أمكنة لقوله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَ الآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ البَاطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2] وفي ضوء هذه الآية يكون الزمن هو المجال الحسي الذي تتجسد فيه قدرة الله و مشيئته في الكون، فهو سبحانه و تعالى مع علمه بكل شيء إلا أنه لم يلتزم ببيان تواريخ الأحداث في قصصه، و لم يعمد إلى الزمن إلا بالقدر الذي يتطلبه خط سير الحدث في القصة نحو توضيح منهج الدعوة النبوية القائم على تبليغ فكرة الإسلام.

3- تأكيد طواعية الزمن بأيامه و لياليه لإرادة الله و يظهر هذا جليا في القصص التي يراد منها بيان أن عذاب الله كان يقع على القوم الظالمين في أوقات مختلفة، تحت جناح الظلمة و أحيانا في الصباح لقوله تعالى في تحديده لزمن وقوع العذاب على ثمود قوم صالح ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾[3]، و أحيانا أخرى في القيلولة حين يسترخي الناس في النوم و يستسلمون للأمن و هذا حتى يكون الأخذ في هذه الأوقات أشد ترويعا و أعنف وقعا و أدعى إلى التذكير و التوقي و الحذر، مما يدل "أن ذكر الزمن هنا إنما هو لبيان سيطرة الله عليه حيثما أراده بالعصاة و الكفار، و تأكيد طواعية الليل و النهار و الأشهر و السنين لإرادته شأنها شأن حلقات الأحداث.[4] و للعلم فإن توضيح الحدث في القصة القرآنية إنما يتم بوسائل الإيضاح الزمني المرئية المختلفة كالليل و النهار و الصباح و البيات و القيلولة و العشاء و الضحى و الإشراق و ما يشبه ذلك.

1- محمد طول، البنية السردية في القصص القرآني، ص 48.

2- سورة الحديد : الآية 3. 3- سورة الحجر : الآية 83.

4- محمد طول.المرجع السابق، ص 38.

و لا شك أن هذه الألفاظ الدالة على الزمن مما يرد ذكره في القصص القرآني إنما هي وسائل تهدف أساسا إلى بيان فاعلية الزمن و قيمته في إمداد الحدث في القصة بالحركة و التدافع.و يكفي في ختام الحديث عن الزمن في القصص القرآني أن نذكر الضحى لنتبين ميقات المبارزة بين موسى و السحرة، حيث جاء ذلك في قوله تعالى:﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ، وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾[1].

لقد ورد الظرف "ضحى" في حادثة المبارزة، و هو ظرف زمني له خصوصيته في إيقاع ذلك الحادث العظيم.فهذا اليوم الذي وقع عليه الاختيار، ليكون فضاء زمنيا للمبارزة كما صرحت به الآية الكريمة جاء ليحمل من الدلالة التي توضح الحدث في القصة الشيء الكثير، ذلك أنه "يوم عيد كان لهم أو سوق كانوا يتزينون فيه".[2] و يتخذونه موعدا يتفرغون إليه من كل شغل، و يقدمون إليه من كل صوب. و لقد وعدهم موسى عليه السلام ذلك اليوم بتحديد ظرفه الزمني "الضحى"، على اعتبار أن الضحى أول النهار، فلو امتد زمن المبارزة فيه بينه و بين السحرة، كان في النهار متسع. ليكون ظهور الحق فيه و زهوق الباطل بشهادة الحاضرين جميعا، و ليشيع أمره العجيب في الأقطار، و في هذا نصرة دين الحق و تقويته في نفوس الناس، و سببا في تكثير الراغبين فيه، و تهوين عزائم المخالفين له.

و قد كان لهذا الاختيار الزمني وقعه في نمو الأحداث و تتابعها، و في تفجيرها، ذلك أنه جعل السحرة الذين استنجد بهم فرعون لتدعيم موقفه يبذلون جهدا كبيرا لانتزاع الفوز في المبارزة، و تحقيق أمل فرعون، و بذلك الحصول على الجزاء الأوفر، و المكانة العليا، و حفز موسى عليه السلام، للعمل على إظهار الحقيقة الإلهية، و إبطال زيف السحرة، و من ثم الكشف عن ضلال فرعون ليتبين الحق من الباطل، و هذا أمام حشد كبير من القوم و أعيانهم، و في وضوح النهار، حيث تكون النفوس مرتاحة مشرقة و الرغبة قوية و أكيدة في التعرف على المنتصر و المنهزم.[3]

---

(1) سورة طه : الآية 59.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان و تفسير القرآن م8. ج16. ص16 ص 134.135 .
والزمخشري، الكشاف. م3، ص 71. و القرضي،الجامع لأحكام القرآن،ج11،213.

(3) محمد طول، البنية السردية في القصص القرآني، ص 38.

و هكذا كان ذكر زمن هذه المبارزة من تدبير حكيم خبير، فالزمن فيها عنصر فعال له وزنه و له إيقاعه في تمديد الحدث و تزويده بالمواقف و المشاهد الأكثر إثارة و تشويقا ليتحرك نحو إجلاء الحقيقة و هي إلقاء الضوء على مكر فرعون.

المطلب الثاني

الزمن فاعليته ونوعه في قصتي عاد و ثمود

من مقومات البناء الفني لقصتي عاد و ثمود الزمان. و بما أنها سيرة (صالح و هود عليهما السلام) عاشا في قومهما (عاد و ثمود) ضمن ظروف زمنية معينة، فإنه لأمر طبيعي أن تتبلور تلك القصة من معطيات تلك الظروف، و أن تنطبع بطابع الزمان و المكان بشكل أو بآخر.

و قد استعان القرآن في تصوير أحداث القصة، و إيضاح المواقف بعامل الزمن و ذلك لكي يعطي للقصة فاعليتها في أن تبدو أحداثها متتابعة، و أجزاءها مرتبطة بعضها إلى بعض في شكل متناسق متكامل. و إن تعددت صوره و مشاهده. و بهذا الشكل يعد الزمن من أهم العوامل التي خلقت النسب في تكوين الإطار للعمل الفني في قصص عاد و ثمود و طبعته بطابع الحياة، وأضفت عليه من جلال التعبير و روعته ما يجعله حيا حاضرا في الذهن ماثلا في الحس والوجدان، مبتعدة به عن أجواء الصمت و السكون على أساس <<أن التعبير الذي لا يلبس طابعا زمنيا يتحول إلى موت>>(1).

من هنا كان نقل السرد القصصي القرآني الزمن الذي وقعت فيه أحداث قصتي عاد و ثمود سببا في جعل القصة مبعثا للتصور و التأمل مصداقا لقوله تعالى:﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾(2).

و لكي نفهم الكيفية التي عالج بها السرد القرآني الزمن و كيف تعامل معه و هو يعرض علينا قصص عاد و ثمود لابد من طرح هذا السؤال كيف تعامل السرد مع المتسع الزمني للحوادث في قصتي عاد و ثمود ؟

---

(1) عبد الفتاح الديدي، الأسس المعنوية للأدب، دار المعرفة : القاهرة، ط.1، 1966م، ص 16.

(2) سورة التوبة : الآية 70.

إن الإجابة عن هذا السؤال و الطريقة التي مر بها المنهج الفني المتبع في التعامل مع هذا العنصر الحيوي في القصة لابد لنا من الوقوف عند نصوص القرآن التي تضمنت الحكاية عن أحداث عاد و ثمود و دراستها من زاويتين. و لهذا فتصور الزمن في هذه القصة يتطلب أن نميز.

- الزمن الخارجي للقصة.
- الزمن الداخلي للقصة.

أولا – الزمن الخارجي لقصتي عاد و ثمود

هو زمن مرتبط في صورته الخارجية بالهدف الذي سيقت من أجله قصتي عاد و ثمود في إطار وجودهما ضمن نسق منظومة القصص القرآني الخاضع للغرض الديني و المرتبط أساسا بفكرة العبرة و العظة، كما يوضحه التوجيه القرآني في قوله:﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾[1].

إن الزمن بهذا البعد القرآني قد اكتسى مظهرًا حيويا على غاية من الأهمية، من حيث قدرته المعنوية على مد حياة الإنسان عبر مراحل مختلفة طولا و عرضا، و هذا من خلال إلغاء الحواجز و الفواصل الزمنية عن طريق تحديد تاريخ وقوع الحدث القصصي و ذلك حتى يغدو الزمن في القصة <<زمنا مفتوحا على مصراعيه ممتدا في الأبدية، لا تقطع فيه، و لا حواجز ولا زوال>> [2].بهذا المفهوم طرح القرآن الزمن في القصة القرآنية عن مجاله المقيد إلى عوالم فسيحة تتجاوز بالإنسان الرؤية الضيقة التي تجعله يدور في فلك زمنه الشخصي إلى رؤية أوسع يطل من خلالها إلى آفاق الوجود الإنساني الرحب بأزمنته المتداخلة المتعاقبة في إثر بعضها البعض.

و الملاحظ على الزمن الخارجي لقصتي عاد و ثمود أنه كان محددا و ذلك بما يدل عليه التواجد القبلي أو البعدي لهاتين الأمتين، فيما نقله إلينا القرآن في شانهما في قوله تعالى على لسان هود عليه السلام في خطابه لقومه عاد مذكرا إياهم بأنهم خلف لمن قبلهم:﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ. ﴾[3] و مرة على لسان صالح عليه السلام و هو يحاور قومه ثمود مذكرا إياهم بأنهم خلفاء لقوم عاد﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ. ﴾[4].

(1) سورة يوسف : الآية 111.

(2) عماد الدين خليل ،حوار في المعمار الكوني، الدوحة: دار الثقافة، ط الأولى، 1987، ص 114.

(3) سورة الأعراف : الآية 69. (4) سورة الأعراف : الآية 74.

فالسياق في هذه الآيات الكريمة ماضوي، و المؤشر الزمني (إذ) يحمل دلالة مستمرة فعلاقة أمة عاد بأمة ثمود هي علاقة استخلاف و تداول كيفما كان الزمان و المكان.

كما يحمل دلالة الاقتران بغاية الاستخلاف والتعمير تتجاوز بحياة الأمتين العربيتين عاد و ثمود منطق اللانظام الذي يرتد بالأمم و الجماعات إلى مستوى الفوضى، و لكي تنساق الحياة بهما -عاد و ثمود- في هذا السبيل الإستخلافي، أختص ا لله وجودهما الزمني بتسلسل يخرج بهما عن وتيرة أوقات العبث و اللاجدوى، و بجعل للزمن الذي تمر به الأمة قيمة وليغدو وجودها الزمني وجودا مسؤولا<<فلا قيمة لزمن يمر بالأمة دون أن يكون مفعما بالإيجابية، و مليئا بالأداء الإيماني المنضبط و المتجه نحو مرضاة ا لله>>[1].و كل ذلك يدخل في نطاق مسؤولية الإنسان عن وجوده في الحياة، الذي كان التنويه به من أهم المقررات القرآنية.

لقد جاء الزمن الخارجي لقصتي عاد و ثمود بالنظر دائما إلى موقعها ضمن مجموعة القصص القرآني غير مقيد بقرن أو بسنة، أو بشهر، أو بيوم متخذة صفة الإطلاق دون الارتباط بزمن معين، بل متداخلة مع الأزمنة ككل في حركة متواصلة على طول امتداد الوجود البشري على الأرض "في وحدة زمنية لا ينفصل فيها الماضي عن الحاضر أو المستقبل"[2].مشكلة بهذا التوجه القصصي الممتد طولا في الزمان و عرضا في المكان تلاحما بين جزئيات بنية القصة، و ذلك في خط سير الأحداث و هي تتفاعل مع شخصياتها في حيز المكان و ضمن ظروف الزمان في نسق منظم متدرج يمسك بخيوط القصة من كل جوانبها في حركة تصاعد نحو النمو و النضج و الاكتمال و ذلك من أجل بيان المعطيات الدينية، و توضيح المفاهيم الحياتية التي حرص القرآن على ترسيخها في خطابه المباشر و غير المباشر لدى المتلقي.

بهذا الوضوح عالج السرد القرآني الزمن علاجا موضوعيا "فجرده من بعده اللامقيد، ذلك الذي طالما نظر من خلاله المكذبون و الدهريون ممن زعموا أن الفناء قدر هذا الوجود المحكوم بزمن أصم، يأتي على الكائن الحي متى حان حينه"[3]

(1) عبد القادر هاشم رمزي، الدراسات الإنسانية في ميزان الرؤية الإسلامية، دار الثقافة الدوحة، الطبعة الأولى1984،

ص29.

(2) سميح عاطف الزين ،حركة التاريخ في المفهوم الإسلامي،دار الكتاب اللبناني،د،1،1985م، ص17.

(3) سليمان عشراتي، الخطاب القرآني، ص100.

و ظل القرآن في هذا الصدد يؤكد مبدأ البعث لقوله تعالى:﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(1).

نافيا أن يكون للزمن سلطان يهلك، أو يعدم، و إنما هي إرادة الله التي شاءت للنفس الإنسانية أن تبحر في زمنية الأرض، لتؤوب بعدئذ إلى جوار ربها فتبعث في الزمن السرمدي الذي هو مناط هذا الامتحان، و مآل ذلك الرحيل(2).

ليفهم في ضوء هذا المعنى أن القرآن كان حريصا من خلال قصصه على إزالة الحدود التي تفصل بين الزمن باعتباره وحدة حيوية متصلة بعضها ببعض في صورة <<كل مركب ليس الماضي فيه متخلفا، و لكنه متحرك مع الحاضر و يؤثر فيه>>(3)

وهذا ما يفسر أنه في الوقت الذي يسير فيه زمن القصة الخارجي في حركة مرتدة إلى الماضي، يأخذ زمن الحدث من الداخل خط سيره ماضيا إلى الأمام،دافعا الشخصية بأفكارها وصراعها العقدي قدما إلى تحقيق النصر المنشود الذي يعطي لوجودها معنى وفاعلية .

ثانيا-الزمن الداخلي في قصتي عاد وثمود

ارتبط الزمن الداخلي ارتباطا وثيقا بفن عرض الحدث في القصة القرآنية و بالكيفية التي تلائم موضوعها، و السياق الذي قدمت فيه، و الغاية التي تنشدها، و المحيط الذي يتلقاها باعتبارها صورة منتزعة من الحياة الإنسانية. و قد ظهر هذا الارتباط جليا في تشكيل بنية قصتي عاد و ثمود، إذ نجد أن الزمن لعب دورا فعالا في بناء أجزاء المشهد و الصورة داخل نسيج الأحداث و المواقف في عالم القصة التي استطاع القرآن فنيا و عن طريق تقنيات السرد الزمني أن ينتقل بالحدث عن طريق التنويع في وسائل توضيحه و تقريب صوره و مناظره من زوايا مختلفة إلى ذهن القارئ في فترات متباعدة و متقاربةوبنسب متفاوتة، يلمس المتلقي روعة ما فيها من جمال الفن "و صور الإبداع التي تشع منها،وظلال المشاهد الحية، و قوة الحركة فيها، و مقدار ما تملكه من سيطرة على الوجدان و المخيلة، و مدى إثارتها و تأثيرها على النفس". (4)

(1) سورة المجادلة : الآية 6.

(2) الخطاب القرآني، ص100.

(3) محمد اقبال ،تجديد التفكير الديني في الاسلام،ترجمة:عباس محمود وآخرون دار آسيا للطباعة والنشر:بيروت،د،ط،1985م،ص60.

(4) عمر السلامي ، الإعجاز الفني في القرآن،موسسة عبد الكريم بن عبد الله،تونس:د،ط،1980م ، ص 72.

ويمكن فهم القرآن للزمن داخل قصتي عاد و ثمود من خلال زاويتين :

1- المجال الزمني الذي وقع فيه الحدث.

2- المقدار الزمني المخصص لاستيعاب مشهد الحدث بحركته داخل القصة.

و كلا المجالين ساعدا على فهم علاقة الزمن بالحدث في قصتي عاد و ثمود كما يطرحها النص القصصي القرآني، و ما يوحي به من تصورات و إيحاءات تجعل الفضاء الزماني للقصة مفتوحا على الحدث كونه مرتبطا بالشخصية و محكوما بتقنيات سردية وظفت خصيصا لخدمة توجه الحدث نحو غايته الاعتبارية، بدلالات زمنية هي الجسر الذي ينقل ذهن القارئ، من محطة مشهد هذا الحدث، إلى محطة مشهد آخر، و ذلك بوسائل و أدوات فنية لها خاصية الربط بين جزئيات المشاهد و المناظر في القصة، والتي جعلت أسلوب القرآن يبدو واضحا في تحديد المجال الزمني الذي وقعت فيه أحداث قصتي عاد و ثمود، و ذلك من خلال نصوصه التي تمثلها بيانات الجدول التالي:

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأمة	الزمن الداخلي لوقوع الحدث في القصة كما يحدده التاريخ	الزمن الداخلي في ضوء النص القرآني للسورة	السورة / رقم الآية	المجال الزمني
عاد	جاءت بعد زمن قوم نوح عليه السلام. الزمن الداخلي لوقوع الحدث كان بعد زمن وقوع الحدث في قصة نوح، أي بعد إبادة قوم نوح و اختفائهم من على وجه الأرض في الحياة، و اختفائهم أمام النظارة على مسرح القصة بعد أن أسدل عليهم السرد القرآني الستار.	يقول تعالى : ﴿ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾	الأعراف 69.	غير محدد بتاريخ يقرن، و هذا يدل على البعد الزمني الموغل في القدم و لكنه محدد بظرف زمني " بعد ".
ثمود	كانت عقب زمن عاد قوم هود عليه السلام. و الزمن الداخلي لوقوع الحدث كان بعد زمن وقوع الحدث في قصة عاد و انتهاء الحدث كان باختفائهم من على الحياة.	يقول تعالى : ﴿ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ﴾	الأعراف 74.	غير محدد لقرن أو بنسبة و هذا دليل على الإيغال في القدم و بعد المدة و المسافة الزمنية. و لكنه محدد و مشار إليه بالظرف الزمني "بعد"

و يمكن في ضوء الجدول أن نتبين فاعلية الزمن الداخلي في ما يلي:

1- أن الزمن الداخلي ساعد على تصور و فهم الحدث ضمن سردية واقعية تاريخية تتمحور حول شخصيتي هود و صالح عليهما السلام، و دعوتهما إلى قوم عاد و ثمود، و جعل ذهن المتلقي لا يركز على تاريخ وقوع الحدث، و لكنه يركز على واقعيته و مغزاه الاعتباري.

2- أن تعلق الزمن و ارتباطه بالحدث داخل عالم القصة، أثر في تحريك المشاهد و المناظر لتبدو أكثر نشاطا و استحضارا في الذهن.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثالث

التناسب الفني بين المتسع الزمني و الحدث في قصتي عاد و ثمود

اعتنى السرد القرآني بإبراز ملامح الزمن الداخلي الذي وقع في حيزه الحدث في بنية قصتي عاد و ثمود، بطريقة فنية توحي بوجود و تناسب بين الحدث و المتسع الزمني المخصص لاستيعاب القصة في صورتها الطبيعية المنسجمة مع حركة السرد. و هو يمسك بجزئيات الحدث من كل جوانبه، ويلملم أطراف المشاهد و المناظر على إيقاع زمني متفاوت، يراوح بين القوة و الضعف، و التراخي و النشاط، و الاستجماع و الوثوب. فرضت على الحدث أن يسير على وتيرة زمنية تلائم كل ذلك لا سيما و أن "العمل القصصي ميدان للأزمات و العقد و المشكلات، و لذلك كان من الطبيعي أن تختلف سرعة السير باختلاف المواقف، و باختلاف السرعة يترجح اهتمام القارئ بين التأجج و الجمود، و الازدهار و الذبول"[1].

و ليس هذا غريبا أن يحدث في قصتي عاد و ثمود و هي من الصور القصصية التي تمثل صورة الحياة الإنسانية في كل زمان و مكان.

و لو تتبعنا تقنيات السرد في قصتي عاد و ثمود لوجدنا أن القرآن قد تعامل مع العنصر الزمني تعاملا رائعا و ذلك عن طريق معالجة المقاسم الزمنية و توظيفها توظيفا غائيا.

فكان السرد يتباطأ عند المشهد القصصي الذي يستغرق حدثا هاما يتصل بالغاية المحددة للقصة، أي نلمس الإلحاح على المقسم الزمني الذي يستغرقه الحدث لتمامه، أو لتمام أجزائه بشكل متناسب مع الوقت الذي يستغرقه المتلقي لاستيعاب مشهد الحدث في القصة، و كان "الزمن اللازم لاستهلاك هذا الحدث القصصي هو زمن عبور الذهن و اجتيازه و كأنه طريق أو حقل" [2]. وهنا تغدو المقاسم الزمنية المخصصة لتمام الحدث و تمام أجزائه متناسبة مع الزمن الذي يحتاجه القارئ للوقوف على أبعاد المشهد.

---

(1) محمد يوسف نجم، فن القصة، ص 71.

(2) يمنى العيد ، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج الدنيوي ، د.د، د.ط، 1990، ص73.

والذي يمكننا حسابه كما هو ممثل في بيانات الجدول التالي.

الحدث في القصة و مدى تناسبه مع الزمن.

الأمة	السورة	الفضاء السردي للقصة من آية إلى آية	الحجم	المقدار الزمني المخصص لعرض الحدث في القصة
عـــاد	الشعراء	139 – 123	17	طويل
	هود	60 – 50	11	طويل
	الأعراف	72 – 65	8	أقل طول
	الأحقاف	26 – 21	6	قصير
	الذريات	45 – 41	5	قصير
	الحاقة	8 – 5	4	قصير
	الفجر	4 – 1	4	قصير
	القمر	20 – 18	3	قصير جدا
	فصلت	16 – 15	2	قصير جدا
	النجم	0 – 53	1	قصير جدا

الأمة	السورة	الفضاء السردي للقصة من آية إلى آية	الحجم	المقدار الزمني المخصص لعرض الحدث في القصة
ثمـــود	الشعراء	158 – 141	18	طويل
	المؤمنون	41 – 32	10	أقل طول
	القمر	31 – 23	9	أقل طول
	النمل	53 – 45	9	أقل طول
	هود	68 – 61	8	أقل طول
	الأعراف	79 – 73	7	قصير
	الشمس	15 – 11	6	قصير
	الحجر	84 – 80	5	قصير
	فصلت	0 – 17	1	قصير جدا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن هذا التشكيل يتنوع، و يأخذ صورا مختلفة من سياق سردي قصصي لآخره و هـذا بتنوع الحدث المستجيب بعد موقف سردي بما يلائمه من تعبير، فسياق القصة الزمـني يسير وفق نظام سردي متفاوت المقـدار، غير ملتزم بوتـيرة واحـدة. حيث تتـأرجح مـدة عـرض الحدث بين الطول كما هو الشأن في سورة هود في قوله تعالى حكاية عن قوم عاد مع نبيهـم هود عليه السلام : ﴿وَ إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ، يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ، وَ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَ لَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ، قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ، إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ، إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَ لَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ، وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَ نَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.[1] و كما هو الشأن أيضا في سورة الأعراف في قوله تعالى حكاية عن قوم ثمـود مـع نبيهم صالح عليه السلام : ﴿وَ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَ تَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَ لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ، فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين، فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾.[2]

أما عرض الحدث على وتيرة زمنية قصيرة فيمكننا تحسسه من خلال الآيـات القرآنيـة التي لخصت أحداث قصتي عاد و ثمود بشكل موجز مركزة على أهم المواقف التي تم عرضها

---

(1) الآية 50 – 58.

(2) الآية 73 – 79.

على إيقاع زمني قصير و سريع كما هو الحال في سورة القمر في قوله تعالى و هو يصف الحدث في قصة عاد :﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عذابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عذابي وَنُذُرِ﴾.[1]

وكما هو الحال أيضا في سورة الشمس في قوله تعالى و هو يصف الحدث في قصة ثمود :﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾.[2]

و الذي يتأمل قصتي عاد و ثمود من خلال الآيات القرآنية المذكورة يلاحظ أن هناك تفاوتًا و تنوع في زمن عرض الحدث تتأرجح المدة فيه بين الطول و القصر، و ذلك بحسب التفاوت الذي تفرضه مواقف الشخصيات و المقام الوعظي التذكيري الذي سيقت من أجله القصة في النص القرآني. فعندما كان المقام مقام الحديث عن الدعوة و كيفية عرضها من قبل النبي على قومه، تطلب عرض الحدث هنا أن يكون على وتيرة زمنية طويلة، و ذلك حتى يتم عرض الكلام و شرحه و مناقشته في هدوء و روية،فلعله بهذا الأسلوب قد يبلغ الأفئدة و الأسماع فتقبله و تقتنع به و لا شك أن هذا الأمر يأخذ وقتا طويلا مناسبا ، يكون عرض الحدث فيه شيء من الطول و التراخي.و أما عندما كان المقام مقام التخويف و الإنذار و التحذير من العقاب الإلهي،فإن السرد القرآني قد عرض الحدث بفواصل زمنية قصيرة،و ذلك حتى يصل إلى النفوس و يلامس الوجدان في وقت سريع، فلعلها يهتز و يحدث الأثر المطلوب.و السر في التفاوت و التنوع الكائن بين زمن عرض الحدث في القصة أنه لم يكن عملا عفويا، و إنما هو عنصر هام من عناصر تصميمها القصصي قدمه السرد القرآني "على هيئة أمواج تتحرك بنظام خاص ليؤدي إلى تأثير معين، يشعر القارئ معه أن القصة تسير وفق قانون مرسوم، هو الذي يكسبها هذا الشكل الذي تجلت فيه".[3]و هذا التغيير النموذجي في عرض الحدث في القصة هو الذي يسمى "بالإيقاع"[4]

(1) الآية 18 - 21.

(2) الآية 11 - 15.

(3) محمد يوسف نجم، فن القصة، ص 72.

(4) الإيقاع : من إيقاع اللحن و الغناء، و هو أن يوقع الألحان و يبينها، و من هذا المعنى يذكر ان أصلها هي : أن نوقع الشيء على الشيء المتعدد الأجزاء، فيصيب قسما منها و يترك الباقي. يتجلى ذلك في إيقاع الألحان. و هذا المعنى وارد في الإيقاع الموسيقي للآلات، و الإيقاع الموسيقى للألفاظ. أنظر لسان العرب، ج6، ص4896.

و تبدو علاقته بعناصر قصتي عاد و ثمود أنه جاء موافقا لمشاهد الحدث و تفاعل الشخصيات فمرة يظهر خافتا كما هو في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ. ﴾(1) و في المرة الأخرى متحفزا متسارعا كما في قوله تعالى :﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عَادٌ بِالْقَارِعَةِ، فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ، وَ أَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ، فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾(2)

و لكن الإيقاع في أحسن حالاته جمع بين صفات مختلفة في آن واحد، فكان حرا منضبطا، متسرعا أو مناسبا، هادرا متوثبا أو خافتا متعثرا في آن واحد كما في قوله تعالى : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ، مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ، وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ، فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾(3)

و سر الإيقاع المؤثر في عرض الحدث من خلال هذه الآيات القرآنية هو التنوع في الوحدة أو الوحدة المتنوعة،(4) فالقصة الرائعة وحدة قائمة بنفسها تامة، و لكنها مع هذا تحوي من التنوع و التفاوت ما يحقق للمتلقي تحفزه و شغفه في التتبع و الملاحظة.

و قد كانت قصتا عاد و ثمود على جانب من روعة التنوع و التفاوت عرضها السرد القرآني في جو تظلله مشاهد الحدث في صورته الحسية و المعنوية، حيث الصوت يترامى و يعلو و يطوف بالمكان بشكل "يتناسق فيه الإطار و النطاق مع الصورة و المشهد ثم يطلق من حولهما الإيقاع الموسيقي الذي يناسب ذلك كله".(5)

---

(1) سورة إبراهيم : الآية 9.

(2) سورة الحاقة : الآية 4 – 8.

(3) سورة الذاريات : الآية 41 – 45.

(4) و نقصد بها وحدة الوزن و وحدة النظم، و وحدة القافية و التي يطلق عليها في الدراسات القرآنية اسم الفاصلة و هي اللفظة الأخيرة من الآية ذات الراوي الواحد و الفاصلة لها أثر في نسق الكلام، و اعتدال المقاطع. و تجعل موقعه حسنا في النفوس، و تؤثر فيه تأثيرا لا ينكر، و تناسب الأطراف، و تماثل الحروف، مما يريح السامع، و يجذب انتباهه. أنظر عبد الفتاح لاشين، الفاصلة القرآنية، دار المريخ للنشر: الرياض، د.ط، 1982، ص22.

(5) سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص 125.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فينتقل خيال المتلقي من حالة اعتيادية إلى حالة تموج بالحركة و النغم و هو يستعرض بذهنه صورا و مشاهد قصتي عاد و ثمود، و يلمس بإحساسه و وجدانه تلك الإيقاعات المختلفة التي تنبعث من النصوص القرآنية القصصية متراوحة بين البطء و التراضي ثم السرعة التي تثير الخيال و تدفعه ليلاحق مشاهد الحدث و هو ينتقل من حالة الاستقرار و الأمن إلى حالة الهلاك و الدمار على وقع صوت الريح الصرصر المرعبة العاتية و هي تعصف بالطغاة و الجبابرة من قوم عاد على مدار ثمانية أيام متتالية دون توقف ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ، تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾.(1)

ثم يتابع الخيال منتقلا إلى مشهد الحدث بإيقاع زمني صوتي داخل قصة ثمود و قد جاءتهم الصيحة من السماء فقطعت قلوبهم (فأخذتهُمَ الصيحةُ مُصْبِحين).(2)

إن النفس لتهتز لهول الموقف، و إنَّا لخيال ليضطرب و هو يتمعن بعمق صور الأخذ و الهلاك و العذاب،الذي نزل بقوم عاد و ثمود حتى أبادهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد.

المبحث الثاني

الزمن حركته دلالته وايقاعاته في حدث الإبادة

نقل السرد حوادث قصتي عاد وثمود بوتيرة زمنية تفاوتت حركتها بين التمهل والسرعة، وذلك من خلال المشاهد المعروضة والتي تمثل مرحلة اشتداد وطأة الحدث وتأزمه حتى بلوغه الذروة ثم انحداره قاطعا الطريق في سرعة متناقصة حتى وصل إلى مستقره الأخير وكل حالة من هذه الحالات خصص لها السرد حركتها الزمنية التي تلائمها وتتفق مع نشاط الشخصيات في العمل القصصي . ولأجل ايضاح هذه الحركات الزمنية ودلالتها وايقاعاتها قمنا بتقسيم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب، بحيث نتناول :

في المطلب الأول:الزمن وحركته داخل الحدث

المطلب الثاني:الزمن ودلالته في نهاية الحدث

المطلب الثالث: الزمن وايقاعاته في رصد نهاية الحدث

---

(1) سورة القمر : الآية 20.

(2) سورة الحجر : الآية 83.

المطلب الأول

الزمن وحركته داخل الحدث في القصة

رسم القرآن أسلوب بناء الحدث في قصصتي عاد و ثمود على نمط فني يراوح بين الضغط و التكثيف و التمديد وفق حركة زمنية تتفاوت بين الإسراع و التمهل، و بين الإيجاز و الترسل، بحسب متطلبات الموقف و الغاية، و ذلك لضمان عبور الحدث بمشاهده إلى ذهن المتلقي للقصة،ليقفز بخياله من مشهد حادثة إرسال - هود و صالح إلى قومي عاد و ثمود - بالدعوة، على إيقاع زمني هادئ، إلى مشهد حادثة عرض الدعوة و بسط الحديث عن مقتضيات التبليغ و الحرص على هداية القوم وفق إيقاع زمني بطيء متراخٍ يتناسب مع جو الدعوة و مع نفسية النبي الحريص الأمين،على نصح قومه بالعودة إلى عبادة ا الله الواحد. إلى مشهد بداية الصراع الذي خلفته دعوة النبي. لتحول الإيقاع الزمني و ترتفع حركته شيئا ما،إلى السرعة أين يعرض السرد القرآني إعلان القوم رفضهم لدعوتي هود و صالح عليهما السلام،و بداية المواجهة الكلامية في حوارات ساخنة مع الملأ من قوم عاد و ثمود و ما يستلزمه هذا الموقف من عرض الحجج و البراهين. و هنا يأخذ الإيقاع الزمني يتصاعد على وتيرة قوية متسارعة تتناسب مع جو الصراع و التهديد و الوعيد و الإنذار، ليختم الصورة بمشهد الحادث الأخير و هو المشهد المروع في القصة و هو مشهد الإبادة و فق إيقاع صوتي مخيف يبعث في النفس الذعر و الدهشة لما حل بالقوم من عذاب أليم. ثم لينتقل من هذه المشاهد المتتابعة بعد استعراضها للعين و الخيال، و قد تركها تأثر في النفس على مهل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

فجيء هذا التقرير في أنسب الأوقات للتقرير.

فالسرد هنا استوعب المواقف تزامنيا. إذ هو عن طريق التحول من مشهد إلى مشهد آخر " قد هيأ للمتلقي أن يقيم ذهنيا علاقة التوازي بين الوقائع كما عاشتها شخصيات القصة، أي في مسارها الزمني "[2].

---

(1) سورة النمل : الآية 52.

(2) سليمان عشراتي – الخطاب القرآني. ص 108.

يظهر هذا جليا في آيات القصص التي رصدت فاعلية الزمن في قصتي عاد و ثمود بفنية تساعد على أداء الأدوار بنجاح من طرف الشخصيات و هي مرتبطة بالحدث على مسرح القصة بطريقة غاية في الروعة و الإعجاز في العرض و التصوير.

و لنمضي مع السرد القصص القرآني لنلمس حركة الزمن داخل نسيج القصة، و نحسب المتسع الزمني المخصص لاستعاب مشاهد الحدث التصويرية، حيث السكون و الحركة يصنعان محورا للصورة الفنية الحافلة بالإثارة و المتعة الهادفة.

لقد باشر السرد منذ افتتاحه الحديث عن إرسال هود و صالح إلى عاد و ثمود و دعوة القوم إلى عبادة الله الواحد ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[1] . ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[2].

و هكذا تحيل النصوص على حدث عظيم هو توحيد الألوهية. مصورة هذا الحدث على أنه فعل زماني تاريخي ينسجم مع طريقة القرآن في إقامة الحجة على الأمم و الجماعات و أن الهلاك لا ينزل بالقرى إلا بعد إرسال الرسل بالدعوة إلى توحيده سبحانه و تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[3]. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾[4]. و المسار الزمني التوحيدي في قصتي عاد و ثمود يقوم على صيغتين، صيغة الأمر ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾. و صيغة النفي ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

و هذا لتحديد وظيفة الإنسان وهي عبادة الله الواحد، و هي الفكرة الأساسية التي استغرقت مدة عرضها زمنا مركزا تواصل في فضاء القصة بشكل جلي في سياقات النصوص القصصية الوارد ذكرها بصيغ زمنية متنوعة و مختلفة في سيرها بالحدث القصصي بين السرعة و البطء و ذلك بحسب المواقف.

يقول الله تعالى :

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف : 65).	الفاعلية الزمنية متمحورة حول بعثة هود عليه السلام إلى قومه عاد

(1) سورة هود : الآية 50.

(2) سورة هود : الآية 61.

(3) سورة النساء : الآية 165.

(4) سورة القصص الآية 59.

﴿ وَ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (الأعراف : 73)

السرد الزمني باشر الحدث في القصة من مرحلة النضج و الاكتمال لدى نبي الله صالح عليه السلام، و مجيء الرسالة السماوية إليه، في الأمر بدعوة قومه ثمود إلى عبادة الله الواحد.

﴿وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ (الأحقاف : 21).

السرد الزمني يشير إلى حدث قصصي بعيد و هوزمن الدعوة.

﴿وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ سورة النمل الآية 45).

السرد الزمني يرتد إلى الوراء إلى عمق زمنية إرسال صالح عليه السلام ليدعو ثمود إلى عبادة الله الواحد.

و يظهر من هذه النصوص القرآنية أن السرد افتتح مشهد الحدث على إيقاع زمني هادئ متباطئ عند مشهد عرض دعوة هود و صالح على قوم عاد و ثمود. و هو الحدث الهام الذي ترتبط فكرته الأساسية بمضامين السور القرآنية المذكورة و التي تدور مقاصدها "على محور النهي عن اتخاذ شركاء من دون الله و إنذار المشركين عن سوء عاقبة الشرك في الدنيا و الآخرة"[(1)].

و قد خُصص لهذا المشهد الحدثي الهام في القصة مقدار زمني طويل، و هي المدة الزمنية المناسبة التي يحتاجها زمن المتلقي ليستوعب الحدث و يقف على أبعاد مشاهد دعوة التوحيد في بيئة مشركة كبيئتي عاد و ثمود، و يتفهم موقف هود و صالح عليهما السلام و هما يحاولان إقناع القوم بضرورة التوحيد العقدي في حياة الإنسان. و هما موقفان يتطلبان الرزانة و الثبات، و هي أمور تحتاج إلى زمن بطيء حتى تأخذ طريقها إلى عقول و نفوس المخاطبين لها، و هذا ما جعل السرد يسير بالحدث وفق نظام سردي اقتصادي. ذي قدرة على تركيز حركة الحدث حول الفكرة الهامة للنص " و ذلك حتى لا يشغل القارئ عن الفكرة الأساسية للقصة."[(2)]

---

(1) الطاهر بن عاشور. التحرير و التنوير. ج8، ص8.

(2) عبد العزيز شرف. الأسس الفنية للإبداع الأدبي. ص 156.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و في الوقت نفسه طرد عن قصد بعناية فائقة الكتلة الزمنية التي لا تتصل بالفكرة العامة أو تشتمل على مواقف تنمي الحدث و تدفع به نحو النهاية المرتقبة للقصة.

إنها الملاحظة الدقيقة و الواعية خص السرد بها العنصر الزمني في قصتي عاد و ثمود، حيث أمسك بخيوط الزمن بكل جزء من جزئياتها، و حركها بميقات معلوم، فطلع بها في الوقت الذي استدعتها الظروف الدعوية و استدعاها المنهج الفني لبنية القصة. كما " أبعدها عن مجال الرؤية في الوقت المناسب، الذي يستدعي اختفاؤها مؤقتا أو مؤبدا ".[1]

لهذا السبب لم ير السرد فائدة في أن يولي اهتماما لزمني عاد و ثمود قبل البعثة، و فضل تصوير زمن الحدث مع مجيء هود و صالح عليهما السلام إلى قومي عاد و ثمود، و هذه الفترة الهامة من حياة الدعوة الجديدة -"دعوة التوحيد"- التي سيدور حولها الصراع، متخطيا بالزمن مرحلته السكونية إلى مرحلة الصراع و هي المرحلة المهمة التي أفضت إلى المواجهة العنيفة (وَ تِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)[2].(قالوا تقاسموا با لله لنبيتنه و أهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله، و إنا لصادقون،و مكروا مكرا و مكرنا مكرا و هم لا يشعرون)[3].تاركا ذلك الفراغ الزمني بين المشاهد الحدثية في القصة إلى ذهن المتلقي و تصوراته ليملأها و يشارك عقلا و إحساسا في إتمام أجزاء الحدث بما يراه ملائما للموقف.

لقد اعتمد السرد مبدأ الإنتقاء و اختيار المادة المسرودة، " إذ الغاية تذكيرية تقتضي أن يكون الحدث مركزا على عرض مكونات المشهد الحدثي بصورة مكثفة، لا تنساق في تتبع الجزئيات والتفاصيل الثانوية. و من هنا كان السرد الزمني يستند على فاعلية إسقاط المراحل السكونية [4] في المسافات السردية. تلك التي تقتض بنية الموقف القصصي أن نضمرها " [5].

---

(1) عبد الكريم الخطيب ـ القصص القرآني في منطوقه و مفهومه ـ ص 83.

(2) سورة هود : الآية 59.

(3) سورة النمل : الآية 49-50.

(4) المراحل السكونية : و هي ما يعرف بالفجوات الزمنية أو الفراغات المسكوت عنها و غير المعروضة و مصورة في الحدث، و هو مصطلح أقره سيد قطب في دراسته لمشاهد القصة القرآنية.أنظر كتابه التصوير الفني في القرآن، ص 187.

(5) سليمان عشراتي ـ الخطاب القرآني ـ ص 110.

و كان في جملة ما استخدمه القرآن لتخطي المراحل على مستوى السرد، الأدوات اللغوية الظرفية،" إلى"، و "لقد"، و هي ظروف لها قابلية اختزال و تخطي زمنية الأحداث التي كانت قبل الحدث الرئيسي و هو الدعوة، و ذلك لربط ذهن المتلقي بالفكرة الأساسية التي يدور حولها الحدث في القصة دون الدخول في تفاصيل سنوات التي مرت بها أو الأشهر هذه الدعوة.

و هذا الصنيع الفني يعرف عند دارسي القصة الأدبية " باسم حركة القفز حين يكتفي الراوي بإخبارنا أن سنوات أو أشهر مرت، دون أن يحكي عن أمور وقعت في هذه السنوات أو تلك الأشهر، و في مثل هذه الحالة يكون زمن الوقائع زمنا طويلا. أما المعادلة على مستوى القول فهو حد موجز أو أنه يقارب الصفر "[1].

و عليه يمكن وضع المعادلة التالية :

الزمن على مستوى الخطاب أو زمن القص = صفر.

الزمن على مستوى الوقائع = سنوات طويلة.

لقد كان السرد القرآني حكيما في تعامله مع الزمن في قصص عاد و ثمود. حيث أعطى كل مشهد حدثي ما يلائمه من مقدار زمني حتى تكتمل أجزاؤه، و تستوي زوايا صورته و يتضح في ذهن المتلقي في قالب تعبيري فني يقلص الحادثة على مستوى السرد، و يعرضها مختصرة في كلمات قليلة و لكنها مشبعة بالإيحاءات و الدلالات و المعاني غنية بالصور الحية التي تحرك المخيلة و توصل الفكرة إلى الذهن في أقرب وقت و بأحسن وسيلة للإدراك و الوعي و التأمل و هي السمع والبصر فتغدو المشاهد الحديثة كأنها تنتقل من الحياة الواقعية إلى الحياة في القصة.

لقد كان زمن الوقائع الحدثية في قصتي عاد و ثمود طويلا، بالمقارنة مع زمن سردها في سياق منظومة القصص القرآني، حيث كان هناك اختصار للكثير من المشاهد التي يمكن أنها حدثت، لكن السرد القرآني لم يشاء أن يذكرها و يدخل في تفاصيلها، و أكتفى بالحديث عنها بصورة مجملة.

---

(1) يمنى العيد ، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، ص 82.

يقول تعالى في قصة عاد:

(يا قَوْمِ لاَ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا، إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ، وَ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَ لاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) (سورة هود : 51 - 52)

الوتيرة الزمنية للسرد تسير في هذا المشهد الحدثي ببطء، و يظهر الزمن خلالها طويلا متراخيا و ذلك أن المقام استدعى التركيز على قضايا جوهرية أثارها هودا للفت نظر قومه عاد إليها لعلهم يعقلون و هي أن الأجر على الله فاطره، و الإستغفار و التوبة و إرسال المطر و إعطاء القوة، و النهي عن الإجرام، كلها أمور تتطلب التريث في العرض و محاولة الإقناع.

(قَالُوا يا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ، وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ، وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ، إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ) (سورة هود: 53)

فاعلية زمنية تتماشى مع زمن الحدث أثناء عرض الدعوة، و موقف عاد الرافض لها بالشك في دعوته، و أتهامه بأن الآلهة أصابته بمس و لهذا أصبح يهذي و يدّعي أنه مرسل من ربه، و إعلانهم ملازمة عبادة آلهة آبائهم و أجدادهم، و هي زمنية تسير ببطء و بطول.

(قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ، إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)

(سورة هود 54 - 57)

الفاعلية الزمنية تعضد الحق و تأكد على أداء مهمة التبليغ، و تقيم الشهادة على ذلك، كما أنها تقرر و تشهد على مكابرة قوم عاد و جحودهم للدعوة، و هو مشهد حدثي يتطلب حركة زمنية متراخية لتنقل صورة الموقف بتفاصيله إلى ذهن المتلقي و هو يعايش القصة بإحساسه و وعيه.

يقول تعالى عن ثمود في القصة :

(هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ، ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) هود : 61.	زمنية تهدف إلى بيان لمنكري الدعوة من قوم ثمود، فضل الله عليهم بالنشأة و عمارة الأرض، و أن ذلك يوجب الاستغفار و التوبة العاجلة و هي فاعلية زمنية رحيبة موسعة فيها إيقاع زمني يوحي بالحنان و بنعمة الله على ثمود.
(قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَ إِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) سورة هود :62.	زمنية بطيئة تومىء إلى اصدام ثمود بالذي صدر من صالح و هو الذي كان بالأمس القريب محل تقدير و رجاء.و قد رافق المشهد الحدثي إيقاع زمني فيه تعنيف و حركة توحي بالتفاجؤ و الإستغراب.
(وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ). سورة هود : 64.	زمنية متراخية توحي إلى ما بنفسية صالح من خوف على ناقة الله أن يصيبها أذى من قبل قومه ثمود، و لهذا جاء هذا المشهد الحدثي يحمل أجواء التحذير و الترقب من وقوع ما سوف يعجل بنزول العذاب على ثمود، و السردية تشير إلى زمنية اقتراب العذاب مستعينة في تقريب المشهد الزمني إلى الذهن بلفظة "قريب" التي تحمل دلالة القرب.

لقد رسمت الصورة مشهد حادثة الدعوة و موقف قومي عاد و ثمود منها وفق حركة زمنية متمهلة، تمددت بفعل الإلحاح السردي إلى مسافات بعيدة حيث تم تقديم المشهد القصصي الذي نمّ الفكرة و شكّل دعامة من دعائم بنائها أكبر نصيب من الإهتمام. و ذلك بحسب متطلبات الظرف الدعوي، و مقتضيات الصراع و ما يفرزه من تصادم الأفكار و المبادئ، في شكل تلازم فيه الزمن مع الحدث تلازما ثابتا في حيز القصة، لتظهر العناية بالفترات الزمنية التي تستعرض حادثة الدعوة ذات الصلة القوية بالقصة و غايتها.

من هنا رأينا أن فترة الدعوة التي جاء بها كل من هود و صالح عليهما السلام إلى قومي عاد و ثمود استغرقت وقتا طويلا بالنظر إلى الزمن الموضوعي بما يلائم خطوات عرضها القائم أساسا على إثبات وحدانية الله التي تحتاج إلى تقديم الأدلة و البراهين ليتقبلها العقل العربي في تلك الفترة في بيئتي عاد و ثمود و التي تميزت بالشرك. و لا شك أن هذه البراهين أستلزم عرضها زمنا طويلا.

و على هذا الأساس تباطأ السرد القصصي لكي يتم تسجيل الأحداث الهامة التي استغرق التدفق القصصي في عرض مشاهدها بصورة متراخية، و ذلك بربط أجزاء المشهد التصويري المعروض بأداة الربط " ثم "[1] التي تجاوزت حدود مصطلحها النحوي اللغوي، إلى أداء وظيفتها الفنية في التعبير الفني عن الموقف القصصي بما يفيد البطء لإثارة مجالات الحس و الذهن ليتأمل حجم المعاناة النفسية و العقلية التي بذلها و لاقاه الأنبياء و هم يحاولون إقناع أقوامهم بدين الله.

و إذ حققنا في صورة المشهد و هو يمر في المخيلة ببطء و تمهل حيث نحس بالزمن داخليا و هو يتابع الحدث بحركة متراخية و هو يتمدد على سطح القصة. فإنه يطلع علينا بصورة نبي الله هود و هو يدعو قومه عاد إلى الإستغفار و التوبة، في جو يخيم عليه الرفق و المحبة و الإخلاص في ترشيدهم و إخلاص النصح لهم فيما يعود عليهم بالفائدة و الخير، و هو إرسال المطر عليهم ليحي زرعهم و ضرعهم الذي يعيشون به. ﴿يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[2].

فنلاحظ في هذا المشهد الحدثي التصويري أن السرد القرآني قد استعرضه على إيقاع زمني متراخي الحركة و ذلك لكي يسمح للذهن أن يعيش في أجواء الرفق و الحنان الذي أظهرته شخصية نبي الله هود عليه السلام أثناء دعوته لقومه عاد في الحياة، و نقله السرد بأمانة إلى الحياة في القصة القرآنية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) ثم : تفيد التراخي الزمني أو التعقيب ببطء في القصة، و هي عند النحاة : حرف عطف يقتضي ثلاثة أمور: التشريك في الحكم، الترتيب : المهلة. انظر ابن هشام الأنصاري ، المغنى اللبيب في كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة و النشر، بيروت، د،ط، 1991 م، ج1، ص135.

(2) سورة هود : الآية 52.

انظر إلى خطاب نبي ا لله هود و هو يدعوهم إلى الإستغفار أولا،ثـم التوبـة بعـد ذلـك و هـو تدرج حكيم في الطلب،لأن الإستغفار أمر يريح الإنسان نفسيا و ينزع عنه هموم الذنوب و الآثام التي كانت عالقة به، إنه نوع من التفريغ النفسي الذي يشعر الإنسان عقبه بالراحـة و هـو يعتـذر إلى ربه عمـا بدرمنـه مـن المعـاصي و يطلـب العفـو و الصفـح ثـم يتـوب بعدهـا إلى خالقـه، إنـه الإحساس الدافئ الذي يجده الإنسان عندمـا يتوجـه إلى ربـه طالبـا العفـو و المغفـرة، فهـو القريـب المجيب، إن أعضاء الإنسان لترتخي و هي متوجهة إلى خالقها بالدعاء الصادق، تدعوه و تنتظـر منـه أن يكرم عليها بالعفو.

هكذا كان إحساس نبي ا لله هود عليه السلام و هو يخاطب قومه عـاد، و يدعوهـم إلى هـذا السلوك التعبدي الصادق، الذي سيفتح أمامهم مجال الخير و البركة واسعا، إنـهافرصـة ليعـودوا إلى ربهم و يعلنون توبتهم و تركهم للشرك و عبادة الأسلاف و المفاسد.

إنه مشهد حدثي رخي سار معه السرد القرآني بحركة زمنية رخية مناسبة لمقام الموقف الـذي وقفه نبي ا لله هود مع قومه عاد و هو يدعوهم إلى الإسـتغفار ثـم الإنابـة إليـه بعـد طـول عهدهـم بالوثنية و البعد عن التوحيد و المعاني الإنسانية السامية التي فطر ا لله الإنسان عليها.

للوقوف على حيثيات الوقف في المشهد الحدثي ذي الصلـة الوثيقـة بسـير الحـدث و تطـوره داخليا، و إدراك مواطن تراخي الزمن في قصص عاد و ثمود، نستل هـذه المشـاهد و نحـاول تفسـير إلحاح التدفق القصصي عليها و تقديمها على مهل لنفهم المواطن التي كـان السـرد القرآنـي يـتراخى فيها و لماذا ؟

قال تعالى :

(قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ) الأعراف 66.

الزمن يسير وفـق حركـة بطيئـة تسـمح للمتلقـي أن يراقب أقوال المتحاورين من قـوم عـاد مـع نـبي ا لله هود عليه السلام.

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ) الأعراف 70.

السرد الزمـني يتحـرك بالمشـهد ببطء لتظهـر مواقـف الجماعة من قوم عاد و هي تتعجب مـن هـود كيـف يأمرهم إلى توحيد ا لله و نبذ ما كان يعبد آباؤهم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ. قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ الأعراف : 74-76.

السرد الزمني يرافق المشهد الحدثي على إيقاع متمهل في تصويره لإستكبار الملأ من قوم صالح، و اعتراضهم على دعوته و كفرهم بما جاء به، و استهزائهم به و بالذين آمنوا بدعوته.

فهذه المشاهد الحدثية التي عرضها السرد القرآني في قصتي عاد و ثمود تراخى فيها الزمن، و ذلك بهدف إبراز صفة المكذبين بالدعوة التي جاء بها هود و صالح عليهما السلام، و لشدة تعنتهم في قبول الحق، و إصرارهم على التمسك بدين آبائهم الأولين،إلى جانب إبراز سمات شخصية القوم الجماعية في تعاملها مع الدين الجديد، و مقتضيات التوحيد.

و إذا أنتقلنا إلى مشهد آخر تراخى فيه الزمن و هو يتحرك مع الحدث في قصص عاد و ثمود وجدنا يقول تعالى :

﴿اتقوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ، و جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الشعراء : 133-135.

السرد الزمني يتمهل في استعراضه للنعم التي خص الله تعالى بها عاد قوم هود و في فاعلية زمنية مادة ترهيب و تأكيد مصداقية الرجعة.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾. الشعراء:146-148.

السرد الزمني يسير على مهل لتوضيح نعمه الأمن و الجنان و العيون و الزروع و النخل، و هي خيرات تفضَّل بها المنعم سبحانه و تعالى على ثمود قوم صالح. و السياق يومىء إلى أن النعم المذكورة تستحق الشكر و مقابلة ذلك بتقوى الله و طاعة رسوله في ما جاء به إليهم من حق.

و يبدو المتسع الزمني من خلال هذه المشاهد أنه محسوب و مخطط له،لكي يسير على وتيرة مناسب،حيث أنَّ السرد يتباطأ عند مشهد تكذيب الجماعة من قومي عاد و ثمود لهود و صالح عليهما السلام،و هو الموقف البارز في الصورة المشكلة لجزئيات الحدث الكامل في القصة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و هو بيان موقف المكذبين للدعوة و توضيح شخصياتهم على سطح القصة ليتملاها الخيال. و هذا الموقف هام و له وقعه على مجريات العمل القصصي و تطوره في دفع الحدث إلى الأمام إلى زمن الجزاء المناسب للفعل المقترف في حق الدعوة و الداعية، أين تأخذ الوتيرة الزمنية للحدث تخترق حدود الزمن الواقعي مسرعة نحو حادثة العذاب المنتظر لهؤلاء الكافرين من قومي عاد و ثمود.

و في هذا المقام يظهر تساوق المقاسم الزمنية مع مشاهد القصة في خط سير واحد نحو هدف واحد و ذلك بتمكين القارئ أن يتحسس أهمية و خطورة الحدث الذي ألح عليه السرد في القصة على أن الوتيرة السردية كانت قد تباطأت عند المشهد الحدثي الرامي إلى التذكير بنعم الله على عاد و ثمود، و ما تستوحيه هذه النعم من الشكر للمنعم و التي قابلتها الجماعة من قوم عاد و ثمود بالجحود و النكران.

و هذا التباطؤ في تشخيص الزمن الواقعي، اعتمد على تقنية الحوار، حيث أخذ الخطاب يتداول بين الطرفين (هود و الملأ من عاد، و صالح و الملأ من ثمود) " مدى سرديا قائما لنوع من التوازي بين الزمن السردي و الزمن الموضوعي و بذلك يمكن تقدير نوع من التناسب بين الزمنين التاريخي و السردي على مستوى الخطاب ".(1)

حيث يلمس القارئ من سياق النص القصصي المقسم إلى مشاهد أن الراوي غائب و أن الحوار هو الذي يتقدم بين صورتين و في مثل هذه الحال تعادل مدة الزمن على مستوى الوقائع الطول الذي تستغرقه على مستوى القول فسرعة الكلام هنا تطابق زمنها أو مدتها. " كأن القص مشهد نصغي إليه و هو يجري في حوار بين شخصين يتخاطبان، و بذلك يتساوى زمن القص مع زمن وقوعه".(2)

في سورة الشعراء تعرض قصتي عاد و ثمود، و قد جمعت أكثر من حدث في سلسلة من المشاهد، متدرجة مع الزمن سيرا إلى الأمام و ذلك على الوجه الآتي:

1- عاد تكذب المرسلين﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾(3)

2- هود عليه السلام يدعوهم لتقوى الله و طاعته، و يذكرهم بأنه رسول أمين، و أنه لا يطلب في مقابل دعوته أجرا، و إنما أجره على الله.

(1) سليمان عشراتي ، الخطاب القرآني، ص 119.

(2) يمنى العيد ، تقنيات السرد الروائي، ص 84.

(3) الآية : 123.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(1).

3- هود ينهي عاد عن البناء بنية العبث، و اتخاذ المصانع رجاء الخلود في الدنيا. ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾(2).

4- ثم هود ينهي عن البطش و التجبر ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾(3).

5- ثم هود يدعوهم إلى تقوى الله و طاعته ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(4).

6- ثم ها هو يدعوهم بعد ذلك إلى تقدير نعمة الأنعام و البنين، و الجنان و العيون. ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾(5).

7- ثم ها هو هود يذكرهم بأنه خائف على مصيرهم يوم القيامة بعد ما لمس منهم ذلك الصدود و الإعراض عن دعوته (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)(6).

8- ثم ها هي عاد لا تأبه لدعوة هود ضاربة بتوجيهاته و تحذيراته عرض الحائط مصرة على موقفها سواء وعظها أم لم يعظها فهي لن تؤمن لما جاء به.﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ، إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾(7).

9- ثم ها هي عاد تزيد من تعنتها و قبولها للحق، مستهزئة بكلام هود و دعوته نافية أن يكون هناك عذاب سيقع ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(8).

يلاحظ أن الزمن يجري مع الأحداث و يدفع بها إلى ترتيبها الطبيعي "لتمضي متحركة إلى الأمام دائما كما كان شأن ذلك الزمن في سيره"(9).

---

(1) الآية 124 – 127.

(2) الآية 128–129.

(3) الآية 130.

(4) الآية 130.

(5) الآية 132–134.

(6) الآية 135.

(7) الآية 136–137.

(8) الآية 138.

(9) عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآني في منطوقه و مفهومه، ص 86.

لقد أمسك السرد في قصتي عاد و ثمود بالحدث مطوقا إياه بخيوط زمنية سائرة به وفق نظام متدرج تتابع فيه المشاهد من صورتها البطيئة المتمهلة المتراخية التي تسمح للقارئ أن يشارك بعقله و إحساسه في تتبع الوقائع بكل ملابساتها و تمكن المستمع في سيره مع الأحداث، و في خطوة خطوة، و مرحلة مرحلة، و السر في تطويل عرض المشاهد على إيقاع زمني هنا أنها سيقت لبيان نعم الله عز و جل على قومي عاد و ثمود، و بيان موقف المكذبين منهم، ثم بيان مجهودات هود و صالح عليهما السلام في مواجهة أقوامهم الكافرين " فناسب أن يكون عرضها بطيئا لتلبث صورها أمام الأنظار، و ليتم تملي مشاهدها، و الاستمتاع بها "[1].

و لقد استخدم النسق اللفظي في تباطؤ عرض المشاهد بالتراخي الذي تدل عليه "ثم". متجاوزا أثناء ذلك بعض المراحل التي لذكر إطارها الزمني أثر في طي بعض المشاهد التي لا حاجة إلى ذكرها أو الخوض في تفاصيلها، و هذا الغرض لغوي فني استدعاه تطور العمل القصصي الذي اقتضى "عدم الإسهاب في سرد الوقائع حتى يتم التركيز على موضوع السورة – التي ترد فيها القصة – الرئيسي "[2].

و الإنتقال إلى صورة الزمن من الإيقاع المتراخي إلى صورته و هو يتدحرج منحدرا إلى المصب، إلى نهاية الحدث أين يأخذ الإيقاع الزمني المرافق لعرض الحدث في القصة في تغيير موجاته و حركاته من البطء و التمهل إلى السرعة ليطوي المراحل و يقصر المسافات و يوجز في المواقف فتعرض المشاهد سريعة قصيرة قوية تهز النفس و تحرك المشاعر تبعث على الخوف تاركة للخيال فرصة ليلاحقها و يتملاها و كأنها شاخصة حاضرة تمر سريعا الساعة أمام النظارة كما يعرضها السرد القرآني في مشهد إبادة عاد و ثمود.

---

(1) صلاح عبد الفتاح الخالدي ، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب.شركة الشهاب : باتنة ،د.ط.1982م، ص 183.

(2) محمد شديد ، منهج القصة في القرآن، ص 70.

المطلب الثاني

الإيقاع الزمني في مشاهد الإبادة في قصص عاد و ثمود

إعتمد السرد القرآني في عرضه لنهاية الحدث في قصتي عاد و ثمود على إيقاع زمني مناسب لتصوير مشهد الإبادة و هو المشهد الأكثر إثارة و تشويقا في القصة.

و سر الإيقاع المؤثر في مشهد " الإبادة " هو التنوع في حركة سير الزمن. فالحدث الأخير في قصتي عاد و ثمود وحدة قائمة بنفسها، تامة الصورة، حوت من التنوع و التفاوت ما يحفظ للمتلقي تحفزه و شغفه في التتبع و الملاحقة.وهذا ما يفسر صنيع السرد القرآني حين بنى الحدث الأخير لمشهد الإبادة على سلسلة من الموجات الموقعة، توالت في مدها و جزرها، حتى انتظمت أخيرا في وحدة كاملة.تجلت صورتها في هذه المشاهد القصصية التي قال عنها تعالى:

(فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) الشعراء 138–140.

السرد يسير بالحدث وفق نظام زمني تعاقبي بواسطة الأداة الظرفية "الفاء" التي تفيد التواصل الراهن "التكذيب" بلاحق "الهلاك" دون مهلة زمنية و هذا الإيقاع الذي كان هادئ، ثم تحول إلى سرعة، يتفق و فكرة أن العذاب هو النتيجة الحتمية للكافرين بدين ا لله

(فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) الشعراء : الآية 157–159.

السرد يدفع إلى الأمام بوتيرة زمنية متتابعة تتعاقب فيها حركة من مرحلة عقر الناقة إلى مرحلة الأخذ بالعذاب بفاصل زمني قصير يتوسط بين المرحلتين و هو فترة الندم. و تم عرض هذا الحدث على إيقاع زمني متنوع فالمشهد الأول مشهد عقر الناقة سار على إيقاع زمني عنيف، مناسب لجو العنف البادي على المتآمرين على قتل ناقة ا لله، أما المشهد الثاني مشهد الندم، فكان على إيقاع زمني قصير يسير على مهل ثم اعقبه مشهد الآخذ و هو مشهد يوحي بالقوة و البطش فناسب أن يكون الإيقاع قويا سريعا يتفق و فكرة "إنتقام ا لله و

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قدرته القاهرة في إنزال العذاب بالقوم المجرمين الذين لم يأبهوا تحذيرات صالح عليه السلام لهم بعدم قتل الناقة.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا، بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا، فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الأحقاف 24–25.

السرد يتبع الحدث في سيره إلى الكشف عن المفاجأة غير المتوقعة بتوظيف الأداة "فلما" التي أفادت ترتيب الحدث في نزول العذاب، ثم تأتي "الفاء" لتختزل الزمن و تؤكد إبادة القوم و بقاء مساكنهم آثار شاهدة على ذلك.

و الإيقاع الزمني المناسب لعرض هذا المشهد القصصي هو الإيقاع الهادئ في البداية ثم انقلابه فجأة إلى سرعة ليكن متفقا مع مباغتة الله لهم جزاءا لمعاداتهم لدعوة هود عليه السلام، و ليكن مع سرعة الريح المرسلة إليهم.

أولا – الإيقاع ودلالاته الزمنية في مشهد حدث ما قبل الابادة

﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ الأعراف 71

الحدث يسير وفق حركة زمنية بطيئة و الإيقاع الزمني المناسب لهذا الموقف هو التمهل و البطء لأن المشهد فيه الإنتظار الذي يحمل في معناه التباطؤ و المهلة التي تسبق حلول موعد العذاب.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ هود : 57–58.

السرد يقف عن حدث مجيء الأمر الإلهي إلى عاد قوم هود و هو زمن إنزال العذاب و إستئصال القوم، و الحدث يسير على إيقاع زمني سريع يجعل ذهن المتلقي شغوفا يتتبع الحدث بمشهده المصور الحي المعبأ بالحس الزمني الذي تضمنه فعل "جاء"[1] الذي أفاد في الدلالة على إقتراب زمن العذاب.

(1) جاء : لا تستعمل في القرآن إلا دليلا على القرب، سواء أكان مكانيا أم زمنيا، أم نفسيا. انظر: محمد إقبال عروي، إطرادات أسلوبية في الخطاب القرآني. ص 31.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) هود : 66-68.

السرد يباشر الحدث من زمن مجيء الأمر الإلهي في نجاة صالح و الفئة المؤمنة و هو مشهد مصور على إيقاع زمني معبأ بالحس الزمني الدال على قرب موعد العذاب، يتحرك ببطء و تمهل ليعكس رحمة الله بالمؤمنين.

(تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) هود - 65.

السرد يكشف عن المهلة الزمنية الممنوحة لثمود بعد عقرها للناقة و يسير بالحدث على إيقاع زمني بسيط بحركة متمهلة قصيرة المدى دالة على انتظار ما سيسفر عنه مخالفة قوم ثمود لإنذار صالح عليه السلام عندما توعدهم بحلول العذاب قريبا.

(عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ) المؤمنون - 40.

الإيقاع الزمني يسير بالحدث على مهل بحركة قصيرة تقترب من زمن الندم الذي بدوره يدل على التأكيد على إقتراب زمن العذاب، و قد أفادت كلمة "قليل" الدالة على قصر المدة في تقريب صورة الحدث إلى ذهن المتلقي و إلى إحساسه و هو يعايش القصة.

(وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ) الذاريات - 43.

يصور السرد الحدث و هو يسير إلى الأمام على إيقاع زمني متراخ، يدق دقات متصلة من المهلة الممنوحة بالتمتع حتى تأتيهم المفاجأة و يتحقق فيهم وعد الله لاحقا، و قد أفادت الأداة الظرفية "حتى" في عرض مشهد القصة بحركة متراخية تقترب من إحساس المتلقي ببطء لتشعره بالهدوء الذي يسبق العاصفة. و السياق يقرر بنية الزمن الحسي (حتى حين) الذي يعقب آخذهم بالعذاب.

السرد يعرض الحدث، و هو يتقدم في أجواء يطبعها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ) القمر – 27.	الترقب و الإنتظار و الصبر، بإيقاع زمني يمشي على مهل و حذر، يوحي بالإقتراب حسا و معنى من زمن العذاب.

ويمكننا التمثيل للايقاعات بدلالاتها المختلفة لحدث الابادة بالجدول التالي:

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأيقاعات بدلالاتها الزمنية في عرض مشهد الحدث "ما قبل الإبادة "

الكلمة	دلالتها الزمنية صريحة / ضمنية	في النص القرآني القصصي السورة / الآية	حركتها الزمنية	موعدها
انتظروا	- تحمل مغنى الزمن ضمنيا. - غير محددة بوقت. - مهلة زمنية مفتوحة.	(فانتظروا إني معكم من المنتظرين) الأعراف : 71.	بطيء، قصير المدى.	قبل الإبادة
لما جاء	- تحمل مغنى الزمن ضمنيا. - تدل على الزمن القريب. - زمنية مفتوحة غير محددة بوقت	(و لما جاء أمرنا نجينا هودا و الذين آمنوا معه برحمة منا) هود : 58. (و لما جاء أمرنا نجينا صالحا و الذين آمنوا معه برحمة منا) هود : 66.	قصير جدا قريب من موعد العذاب	قبل الإبادة
ثلاثة أيام	- دلالة الزمنية صريحة - محددة بعدد الأيام و هي ثلاثة	(تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) هود : 65.	قصير المدى	قبل الإبادة
عما قليل	- دلالتها الزمنية ضمنية. - غير محددة بوقت. - توحي بقصر الزمن.	(عما قليل ليصبحن نادمين) المؤمنون : 40.	قصير جدا	قبل الإبادة
حتى حين	- تحملان دلالة زمنية ضمنية - غير محددتين بوقت	(و في ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين) الداريات : 43.	قصير يوحي باقتراب العذاب	قبل الإبادة

الكلمة	دلالتها الزمنية صريحة / ضمنية	في النص القرآني القصصي السورة / الآية	حركتها الزمنية	موعدها
ارتقبهم و اصطبر	- يحمل دلالة زمنية ضمنية - غير محدد بوقت.	(إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ، فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ) القمر : 27.	قصير المدى	قبل الإبادة
في أيام نحسات	- تحمل معنى الزمن. - لها دلالة زمنية.صريحة. - محددة بوقت " أيام".	(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ) فصلت : 16.	قصير، سريع، و مستمر دون انقطاع زمني.	أثناء الإبادة
في يوم نحس مستمر	- تحمل معنى الزمن. - لها دلالة زمنية صريحة. - محددة بوقت " يوم".	(إِنَّا أَرْسَلْنَا عليهم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ) القمر : 19.	طويل، متمهل مستمر، متواصل	أثناء الإبادة
سبع ليال و ثمانية أيام حسوما	- تحمل معنى الزمن. - لها دلالة زمنية صريحة. - محددة بوقت " ليال - أيام".	(وَ أَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا) الحاقة : 7.	طويل، متمهل، مستمر، متواصل	أثناء الإبادة
فأخذتهم الصيحة مصبحين	- تحمل معنى الزمن. - لها دلالة زمنية صريحة. - محددة بوقت " الصباح".	(وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِينَ وَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا، فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ، وَ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ) الحجر : 80-83.	قصير، سريع	أثناء الإبادة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا – الإيقاع بدلالاته الزمنية في مشهد الحدث أثناء الإبادة

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ، لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَ هُمْ لَا يُنصَرُونَ) فصلت :16.

السرد ينقل المتلقي إلى زمن إرسال الريح على عاد. و الإيقاع الزمني يرافق الحدث بمشهده المنتزع من الحياة الواقعية و يقربها، إلى الحس لتكون حاضرة شاخصة بحركة سريعة ممتدة في الزمن على طول أيام عديدة، مستمرة غير منقطعة عنيفة توحي بقوة الأخذ و الإنتقام الإلهي جزاء لتطاول جبابرة عاد و إدعائهم بأنهم أقوى من على الأرض. فناسب أن يرسل عليهم قوة أكبر من قوتهم لتهلكهم و تتركهم آية للناس. و كأن الإيقاع الزمني في هذا المشهد المروع يدق دقات عنيفة متصلة شديدة الوقع على النفس و هو يلاحق مشهد الريح بصوتها القوي، في خط سير واحد، و هي تستمر في هبوبها لمدة زمنية طويلة، و السرد معبأ بالحس الزمني الصريح (أيام نحسات). (يوم مستمر).

(فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَ أَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا) الحاقة :4-7.

السرد يمر بسرعة إلى وصف زمن العذاب الذي لحق عاد و ثمود عن طريق عرض المشهد الحي موجزا "قصيرا خاطفا، ليلقي في النفس ظل الفناء و الهلاك و الزوال"[1] و القوة. بإيقاع زمني سريع و قوي يوحي بالمدة الزمنية الطويلة، المستمرة دون انقطاع، أي أن الحدث شغل حيزا زمنيا طويلا دام فيه وقوع العذاب الإلهي "بالريح" سبع ليال و ثمانية أيام حتى الإبادة.

و هذا الإيقاع القوي السريع، يتفق و فكرة بث الرعب في نفوس المعارضين للنبي صلى الله عليه و سلم و الخوف من عذاب الله، و لهذا كان يريهم من الصور و الأحداث ما يجعل الخوف قويا عنيفا، و هي النتيجة التي يجب أن تقر في النفوس.

(1) صلاح عبد الفتاح الخالدي : نظرية التصوير الفني عند سيد قطب– ص 181.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ الحجر : 80 - 84

السرد يتكفل بنقل صورة زمن نزول العذاب على ثمود في شكل صيحة قوية هزت قلوب القوم،حتى قطعت أوصالهم من شدتها و الحدث بمشهده المروع الممتلئ حركة و صوت عُرض على إيقاع زمني سريع خاطف،حتى ليصعب على الخيال ملاحقته، و على العين و الأذن أن تستمع إليه و تراه في وضوح من شدة هول الموقف،المعبأ بالحس الزمني الصريح "الصباح" فقد كان الأخذ في وضوح النهار و في هذا بيان "لسيطرة الله على الزمن حيثما أراده بالعصاه و الكفار، و يؤكد طواعيه الليل و النهار لإرادته شأنها شأن حلقات الأحداث"[1].

إن الإيقاع هنا يلقي الضوء على صورة الأخذ الإلهي لثمود و هم في بغتة من أمرهم، و ذلك ليكون العذاب فيهم أشد ترويعا و أعنف وقعا،و أدعى كذلك للتذكير و الحذر و التوقي و الإحتياط، إن الإيقاع يوحي بالهلاك الخاطف. "و هي لمحة تمس القلب البشري لمسة عنيفة، فيما يبلغ الاطمئنان بالناس في وقت أشد من اطمئنانهم في وقت الصباح المشرق الوديع. و ها هم أولاء قوم صالح تأخذهم الصيحة مصبحين في ديارهم الحجرية آمنون، فإذا كل شيء ذاهب، و إذا كل وقاية ضائعة، و إذا كل حصين موهون، فما من شيء من هذا كله بواقيهم من الصيحة، و هي فرقعة ريح أو صاعقة تلاحقهم فيجوف الصخر المتين"[2]

(1) محمد طول ، البنية السردية ،ص 38.

(2) سيد قطب ، الظلال ، ج4، ص 2152.

ثالثا-الإيقاع بدلالاته الزمنية في عرض مشهد ما بعد الإبادة

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [1]

السرد يباشر الحدث على إيقاع زمني بطيء و بحركة هادئة. توحي بالإستقرار و عودة الأوضاع إلى نصابها. و هذا الإيقاع الهادئ البسيط يكشف عن نفسية نبي الله و هو يتولى متأسفا عن ما أصاب قومه من العذاب بسبب عنادهم و كفرهم و عدم إمتثالهم للنصح و الإرشاد، لينتهي المشهد الحدثي في القصة بحركة بطيئة لينة وئيدة، تعكس الذي عقب العاصفة"[2].

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[3].

إستهل السرد القرآني في عرضه لمشهد حدث ما بعد الإبادة على إيقاع زمني بطيء و بحركة بسيطة تتفق و فكرة الزمن الاعتباري الذي يركز عليه القرآن في عرضه لحوادث الأمم الماضية و هذا الإيقاع البسيط، يتناسب مع النهاية الطبيعية للقصة، "فبعد أن وصلت الحركة إلى الذروة آن لها أن تجد قرارها و تستكين، لقد هدأت العاصفة و بدء السكون يخيم و يتمش الهدوء ليحيط بالمكان من جديد" [4]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) سورة الأعراف : الآية 79.

(2) محمد يوسف نجم ، فن القصة، ص 73.

(3) سورة النمل : الآية 51 – 52.

(4) محمد قطب عبد العال ، من جماليات التصوير في القرآن الكريم ، ص 64.

لكلمة	دلالتها الزمنية صريحة –ضمنية	في النص القرآني القصصي السورة – الآية	حركتها الزمنية	موعدها
فتولى	– تحمل معنى الزمن. – دلالتها الزمنية ضمنية.	(فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي و نصحت لكم و لكن لا تحبون الناصحين) الأعراف : 79.	بطيء الحركة، هادئ.	بعد الإبادة
و يوم القيامة	– دلالتها الزمنية ضمنية.	(وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود) هود : 60.	طويل المدى ممتدة في الزمن إلى يوم القيامة.	بعد الإبادة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تعليق على الجدول

يظهر من خلال الجدول أن المشهد كان مرفوقا بإيقاع زمني مناسب لتوضيح صورة الإيمان و الكفر ليتملاها الخيال و يتأملها الذهن في وضوح و هي تعرض عليه بحركة زمنية سريعة و مركزة حتى يتم الإعتبار و تقع العظة موقعها من النفوس و العقول.

و السرد القصصي و هو يرسم خط سير الزمن في قصتي عاد و ثمود نحو نهاية الحدث بمشاهدة بعدما أنتقل به من مرحلة التمهل إلى مرحلة السرعة معتمدا في ذلك على التركيز و الإيجاز كتقنية زمنية حيث "احتلت خلاصة الحدث مكانة محدودة في السرد بسبب طابعها الاختزالي المائل في أصل تكوينها، و الذي يفرض عليها المرور سريعا على الأحداث وعرضها مركّزة بكامل الإيجاز و التكثيف"[1]. معتمدا في ذلك على الظروف والدلالات الزمنية المناسبة الضمنية و الصريحة لتصوير زمن سرد الأحداث بسرعة كلامية تكشف عن الحدث النهائي للمشهد التصويري المروع الذي لخص نهاية حكاية عاد و ثمود و تصوير العذاب الذي حل بهما نتيجة لكفرهم و عصيانهم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خلاصة الفصل :

الزمن عنصر هام في تشكيل بنية القصة،فهو الذي يدور في فلكه الحدث وتسير على ايقاعاته المشاهد والصور .

وقد استعان القرآن على تصوير الأحداث وايضاح الأقاصيص بعامل الزمن ليشير إلى الحين الذي وقعت فيه الحادثة ؛وذلك ليؤهلها لتمامها ولتقع من الذهن موقع الإيضاح والتصوير.

وبهذا المفهوم كان الزمن من أهم العوامل التي خلقت النسب في تكوين الاطار للعمل الفني في قصتي عاد وثمود، وطبعته بطابع الحياة ، وأضفت عليه روح الحركة وكان بعيدا عن أجواء الصمت والسكون .

لقد رصد السرد القرآني في قصتي عاد وثمود نوعين من الزمن :الزمن الخارجي المرتبط بخط سير الزمن ضمن منظومة قصصية واحدة بايقاع موحد الهدف والغاية وزمن داخلي ارتبط بحركة الزمن وفاعليته المرافقة لتوجه سير الحدث داخل بنية القصة الواحدة . فنتج عن ذلك نوع من التناسب بين حركة الحدث والمتسع الزمني فكان تناسبا طرديا فنيا عاد الفضل إليه في اجلاء صورة الحدث بشخوصه لتعبر مخيلة القارئ في وقتها المتناسب .

وبذلك تمت فيها تأدية الوظيفة الزمنية وهي تسعى إلى خلق حالات نفسية متنوعة فهي وإن كانت لم تقدم للقارئ أي تحديد لأي واقعة أو أي حدث من الناحية التاريخية ، وذلك أن هدفها كان السماح للعبرة من الحدث في الانسحاب على كل زمان ومكان يوجد به الانسان .

وبشكل عام فقد تميزت قصتا عاد وثمود بايقاعين زمنيين هما: ايقاع سريع ميز الأحداث منذ بدايتها وكذلك نهايتها والغاية والمرحلة التي مرت بها .وايقاع زمني بطيء اتسمت به بقية القصة حتى نهايتها والذي أعطى انطباع بتوقف الزمن خلال هذا الجزء من القصة أو على الأقل بمروره شبه الزاحف .

(1) نور الدين السد ، الأسلوبية في تحليل الخطاب، دار موحه للنشر و التوزيع : الجزائر، د.ط، 1997 م ص 173.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الرابع

المكان:دوره و معالمه و جمالياته وأثر الإبادة عليه في ضوء فنيات القص القرآني

تمهيد وتقسيم :

لعب المكان دورا هاما في تشكيل بنية قصتي عاد وثمود .بمعالمه الطبيعية والمادية وجمالياتها التي رسم السرد القرآني صورتها العامة وايحاءاتها في ضوء علاقة القص بالعبرة، فنتج عن ذلك علاقة تداخل بين المكان وساكنوه، حين تأثر بقيمهم وأخلاقياتهم ضمن الأبعاد الوظيفية لهذا المكان ودورها في توليد الأحداث وأثر ذلك على حركة القصة التي رصدت صورة الابادة وأثرها عليه حين غدا طللا دارسا يستجدي العبرة والأسى . ولكي تأخذ هذه المعالم وجمالياتها دورها في القصة كان لزاما علينا تجزئة هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث ، بحيث :

نتناول في المبحث الأول :المكان دوره وصورته .

ونستعرض في المبحث الثاني: معالم المكان الطبيعية والمادية وعلاقتها بالحدث والشخصية.

وفي المبحث الثالث:جماليات المكان وأبعاده الوظيفية وأثر الإبادة عليه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول

المكان دوره وصورته في قصتي عاد وثمود

حدد السرد القرآني للمكان في قصتي عاد وثمود دوره وتأثيره على حركة القص راسما له صورة عامة . وللوقوف على ذلك ارتأينا تقسيم هذا المبحث إلى مطلبين:

المطلب الأول:المكان ودوره في القصة

والمطلب الثاني: المكان وصورته بجمالياتها في قصتي عاد وثمود

المطلب الأول

المكان ودوره في القصة

أولا- المكان ودوره

المكان عنصر هام في بناء القصة و تركيبها، إذ يعد الإطار الذي تنطلق منه الأحداث، و تسير فيه الشخصيات، بل يتجاوز كونه مجرد إطار لها، ليصبح عنصرا حيا فعالا في هذه الأحداث و هذه الشخصيات، و مشحونا بدلالات اكتسبها من خلال علاقته بالإنسان.[1]

و كما أن للزمان حسابه و تقديره في بناء القصة، و في ضبط حركات الأحداث و انتظام خطواتها، فكذلك الشأن في المكان، "حيث يكون هو للأحداث أشبه بالوعاء الحامل لها. لأنها تقع فيه و هو ملموس كما تقع في الزمان و هو شيء موهوم"[2].

على أن المكان و إن كان قوة عاملة في تشكيل الأحداث، و إبراز معالمها فإنه يجيء في المنزلة بعد الزمن بمراحل عديدة. ذلك أن الزمن أقوى و أبلغ في تقدير بناء القصة و تركيبها لما له من تأثير مباشر على الحدث، سواء أظهره الزمن ظهور عيان على مسرح الحدث الذي ترويه القصة، أم لم تجر له ذكر فيه. " فإنه دائما منظور إليه في كل تطور، و في كل انتقال بالحدث من حال إلى حال"[3]. و لذا نجد المخبر بأمر من الأمور يسأل حين يخبر - ليلقى الضوء على موقفه - متى كان ذلك ؟ و قل أن يقال : أين ؟ إلا إذا كان الحدث يعني السائل، كتوقعه لشيء في مكان معين لأن أي من ذلك لا يتم إلا في زمن.

---

(1) محمد طول ،البنية السردية في القصص القرآني، ص 43.

(2) عبد الحافظ عبد ربه ، بحوث في قصص القرآن، ص 62.

(3) عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآني في منطوقه و مفهومه، ص 91.

أما المكان فليس له هذا الأثر في صنع الأحداث، و في تطوره "فقد يعيش الحدث و يتطور، و ينمو في مكان لا يتحول عنه، و قد لا يكون في استصحاب المكان في رواية الأحداث أي أثر، إلا إذا كان لهذا المكان طبيعة خاصة يتأثر بها الحدث، و لا يقع له هذا التأثر في مكان آخر"[1].

ثانيا-ذكر المكان ودوره في ايضام الحدث في القصة القرآنية

و القرآن الكريم ينظر إلى المكان في قصصه على اعتبار تحديده "فهو لا يلتفت لذكره إلا إذا كان له وضع خاص يؤثر في سير الحدث، أو يبرز ملامحه، أو يقيم شواهد نفسية و روحية تفتقدها القصة"[2].

و أوضح شاهد على ما جاء في حادثة الإسراء حيث ذكر الإسراء مقترنا بالمكان الذي بدأ منه و انتهي إليه فقال تعالى :﴿سُبْحَانَ الَّذِيٓ أَسرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[3].

فالمسجد الحرام في مكة، و المسجد الأقصى في بيت المقدس بفلسطين، و بين هذين المكانين (المسجدين الحرمين) كان مسرى رسول الله صلى الله عليه و سلم، ثم كان الليل - و هو الزمن الذي حدث فيه الإسراء - لونا مطلوبا، و بهذا اتضحت معالم الحدث كلها و تحددت وجوهه. "و ليس يغني في هذا المقام أن يجهل المكان الذي كان منه الإسراء أو الذي انتهى إليه، إذ تفتقد الصورة هنا هذا اللون الذي يشيعه ذكر المسجدين الحرمين في النفوس من مشاعر الجلال و الإعظام".[4] أما إذا لم يكن للمكان هذه الخاصية التي تجعل له وضعا متفردا بين الأمكنة فإن المقام يغني عن ذكره كما حدث في قصة الكهف يقول تعالى : ﴿إِذْ أَوَى الْفَتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنَكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[5].

و هنا نجد أن السرد القرآني لم يشر إلى اسم المكان الذي انتهى إليه الفتية الذين آمنوا بربهم مما يفسر أن المكان هنا مهم و لكنه ورد في إطاره القصصي الخاص الذي جعل السرد مشفوعا بالعبرة من الحدث في ذكر قصة أصحاب الكهف في القرآن الكريم.

---

(1) عبد الكريم الخطيب،القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص 92.

(2) فؤاد علي رضا، من علوم القرآن، ص 189.

(3) سورة الإسراء : الآية 1.

(4) عبد الكريم الخطيب ،المرجع السابق، ص 92.

(5) سورة الكهف : الآية 10.

بينما في مواضع أخرى يذكر المكان محددا كمصر و مدين و الأحقاف و الحجر و غيرها و ذلك بهدف "تلوين الحدث بلون خاص يقع عليه من ظلال هذا المكان فتبرز فيه ملامح خاصة"[1] كما في قصص أنبياء ا لله مع أقوامهم : كموسى و يوسف، و هود و صالح و شعيب و غيرهم صلوات ا لله و سلامه عليهم جميعا.

و يمكن أن نرصد في السرد القرآني حالتين مختلفتين لذكر المكان، تشمل إحداهما : إرفاق الأحداث بالأمكنة التي دارت فيها و ذلك عندما يكون لذكر المكان في القصة وضع خاص أي ليس عارضا، بل هو متمم للحدث ذكر بقصد العبرة و الموعظة، أو كان هناك في ظهوره و ذكره ضرورة يقتضيها الأسلوب الفني المرتبط بغايات الحدث في القصة. ثانيهما : إخلاء الأحداث من مكان معلوم. و في هذه الحالة فإن السرد القصصي القرآني لا يورد المكان و لا يجر له ذكر. لأنه ليس هناك ما يدعو إلى ذلك. فقد تكون ما تحمله القصة هذه عبر عامة، كما هو الشأن في قصة الرجلين اللذين جعل ا لله لأحدهما جنتين، و أراد للآخر أن يكون فقيرا، فتاه أغناهما بما يملك على أفقرهما، و أرسل ا لله على الجنتين حسبانا من السماء [2]. فالعبرة في هذه القصة تنجر على كل مكان فيه غني متكبر، و فقير معدم و تنطبق على كل من أقبل على ا لله و ترك زينة الدنيا، و من اغتر بالدنيا و ترك الإقبال على ا لله. "إن هذه العبرة العامة هي التي حالت دون إرساء مكاني للقصة، و منحتها تأشيرة الانتماء للكون الفسيح".[3]

ومثل ما ذكرناه أيضا في تنكير المكان، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾[4].

إن أحداث القصة هنا منقطعة للتأمل النظري، و لمتابعة قضايا تشغل النفس البشرية عامة، و لذا يسجل للمكان فيها ذكر. " و ما يمكن أن نسجله على هذا اللون من الأحداث الخالية من ذكر المكان، هو أن لها وقعا شديدًا على المتلقي، فهي تشد النفوس إلى سنن ا لله العامة في خلقه التي لم يشر لها بمكان أو أزمان، و تشد مخيلة الناس إلى التلقي الكامل"![5]

(1) فؤاد علي رضا، من علوم القرآن – ص 190.

(2) انظر القصة في سورة الكهف من الآية : 32 إلى الآية 43.

(3) محمد طول – البنية السردية، ص 49.

(4) سورة يس : الآية13–14.

(5) مأمون فريز جرار، خصائص القصة الإسلامية، ص 92.

و يجب أن نشير إلى أن عنصر المكان قد يتوارى و يختفي، في إطار السرد ليحل محله الإيحاء أو الإيماء،ولا يكشف الستار عن ذلك التواري إلا بالتفسير التاريخي،الذي يمنح القصص القرآني الروعة أكثر من خلال إعجاز واعظ يهيئ للقارئ فرصة الاطلاع على هذه القصص، و يمنحه عنصر التشويق.فالكهف مثلا مكان غير معلوم في إطار القص القرآني، لكنه يبدو لنا معلوما حين نقرأه و نفسره في إطار التاريخ.

و الخلاصة أن ذكر المكان محدد أو غير محدد "أنه وسيلة لا غاية فإن كان في التحديد الجغرافي فائدة أو عبرة ذكر، و إلا كان الإبهام أو ذكر صفة من صفات الإيحاء المتصل بالقصة"(1).

ثالثا- ذكر المكان ودوره في إيضاح الحدث في قصتي عاد وثمود

ورد ذكر المكان صريحا في قصتي عاد و ثمود و ذكر في قوله تعالى :﴿وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾(2). و في قوله تعالى : ﴿وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِيْنَ﴾(3).

حدد السرد القرآني المكان الذي جرت به أحداث قصتي عاد و ثمود،و ذلك على أساس أن الحدث كان بحاجة إلى مكان يحوي مشاهده الموزعة لتبدو في صورتها المعقولة و لتحتل مكانتها في المخيلة و ذلك انطلاقا من "أن تحديد المكان يعطي للحدث القصصي قدرا من المنطق و المعقولية"(4)

فالمكان في قصتي عاد و ثمود لم يأخذ قيمة تعبيرية إلا ضمن السياق التوجيهي للقصة في كليتها، إذ الحدث في القصة هو الذي حدد إطارها المكاني. و لهذا جاء المكان "الأحقاف" و "الحجر" في السرد القرآني بعدما وصفهما بالغنى.

و توفر وسائل الاستقرار في الآيات التالية :﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيْعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِيْنَ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيْعُوْنِ، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُوْنَ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِيْنَ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُوْنٍ﴾(5) .

إن ذكر المكان في هذه القصة، و كذا ذكر خيراته حتمه الحدث، لتبرير ما ستؤول إليه من نتائج في نهاية القصة، ذلك أن النعم التي أكرم الله بها قوم عاد بهذا المكان الذي تحتضنه الرمال الموحشة و تتهدده بالتصحر لمدعاة للشكر و العرفان بالجميل للذي تفضل عليهم بالخيرات الجليلة

(1) مأمون فريز جرار ، خصائص القصة الاسلامية، ص 92.

(2) سورة الأحقاف : الآية 21.

(3) سورة الحجر : الآية 80.

(4) يحي الجبوري، المدخل لدراسة الفنون الأدبية و اللغوية، ص 71.

(5) سورة الشعراء : الآية 128 – 134.

من بنين، و أنعام، و حدائق و مياه "غير أن القوم قابلوا هذه النعم بالكفر و البطر و الجبروت و تمردوا على الله فاستوجبوا رفع النعمة و تسليط ريح عاتية دامت سبع أيام حولت خصب المكان إلى قحط و جدب"[1].

و ذات المصير لحق المكان الذي كان موطنا لثمود قوم صالح عليه السلام حيث وحد السرد القرآني عن قصد طريقة عرض جماليات المكان و مميزاته و ما حوبي به من نعم و خيرات في قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ، فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ، وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾[2].

لقد كان لذكر المكان هنا بمميزاته وقع على سير الحدث داخل البناء القصصي و على السياق التوجيهي للقصة في جملتها و ذلك حين تعلق الأمر بالموعظة، تاركا المكان فضاء مفتوحا للذكر و الاعتبار بمصير أولئك الراحلين على غير هدى الله. فكان بذلك شاهدا على الموقف، كما كان شاهدا على العواقب التي نزلت بأهله حين أجتاحهم دمار شامل فتحول المكان من خلال تلك الأحداث من الخصب و العمران و الخير إلى الخراب.﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[3].

و في ضوء ما توحي به الآية عن صورة المكان في القصة بعدما نزل به العذاب الإلهي، يكشف السرد القرآني عن خضوع الحدث في سيره فوق المكان للغرض الديني، و في سير القصة بهيكلها العام نحو هدفها الاعتباري باعتبارها وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله في كل زمان و مكان.[4]

فلا غرو أن تكون القصة القرآنية قد منحت للمكان من جهة كونه عنصرا فعالا قدرا مناسبا من العناية و الاهتمام، و بسطت الحديث عن أهميته في تشكيل العمل القصصي، و تأثير ذلك في إدارة الحوادث و انتقالها من مشهد إلى مشهد و ذلك بحسب ما تتطلبه مراحل تطور القصة حتى تبلغ درجة النمو، و تستوي لها عوامل النضج و الاكتمال.

و قد ظهرت ملامح هذه العناية بالمكان في تحديده، و رسم معالمه، و ذكر مظاهره، و تصوير مشاهده إلى جانب وظائف أخرى تعمل عملها في النسيج الفني لبنية القصة لتؤدي إلى تأثير معين، يشعر القارئ معها بأن القصة تسير وفق قانون مرسوم، هو الذي يكسبها هذا الشكل الخاص الذي تجلت فيه.

(1) عفيف عبد الفتاح طبارة ، مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص 88.

(2) سورة الشعراء. الآية 146 - 148.

(3) سورة النمل : الآية 52.

(4) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم،ص143.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و لهذا ففي قصتي عاد و ثمود لا نستطيع أن نتحدث عن البيئة المكانية بعيدا عن الحدث و عن الشخصية و صفاتها التي تمارسها على مسرح المكان القصصي، و إذا فعلنا ذلك نكون قد أحدثنا خللا في القصة من حيث بناءها الفني. وهذا يعني أننا سنتحدث في هذا الموضع عن "المكان حديث يرسله إلينا الحدث نفسه في عرضه للجوانب التي صورها و التي تجول فيها و تأملها، فأظهر خواصها الحضارية، و أنماطها الاجتماعية، و ما تتصف به من صفات، و ما تمتاز به من مميزات"(1)

المطلب الثاني

المكان وصورته بجمالياتها في قصتي عاد وثمود

اعتمد السرد القرآني في رسمه للمكان الذي شهد أحداث قصتي عاد و ثمود على أساليب العرض القصصي المتنوعة في تحقيق صورة التكامل لمكان القصة، و ذلك من خلال رصد الملامح العامة له، و العناية بتحديد معالمه و تصويرها و تسميته. و يمكن فهم ذلك في إطار :

-ذكر الصورة العامة للمكان.

-الآيات الدالة على ذلك.

-الإيحاء في ضوء علاقة مكان القص بالعبرة.

أولا- رسم صورة عامة للمكان في قصة عاد

رسم السرد القرآني صورة المكان الذي جرت به أحداث قصة عاد في شكله الخارجي بأنه كان بالأحقاف لقوله تعالى : ﴿وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ، إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾(2).

ويستشف من تصور المكان داخل الرؤية الفنية لقصة عاد في ضوء معطيات سورة الأحقاف من ملامح عامة عن المكان مركزا في تعيينه له على كلمة "الأحقاف" و ما تشع به من إيحاءات،وصور تساعد على تصور المكان بوضوح و تمثله في الذاكرة و هي تتابع مجريات الحدث، متوقفة عند كلمة "الأحقاف" و التي أجمع العارفون لخبايا اللغة العربية على أن معناها الرمال المستديرة المائلة(3) . و طبقا لهذا الوصف لمعنى الكلمة فإن المكان هو عبارة عن بيئة رملية تمتد على طول حدود المجال الذي تدور فيه الأحداث و الشخصيات في القصة.

(1)خالد أحمد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، ص 220.

(2) سورة الأحقاف : الآية 21.

(3) وقد أشرنا إلى هذا المعنى والقائلين به في الفصول الأولى من الرسالة فراجعها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و بهذا النحو الذي رسمته الآية القرآنية للمكان في قصة عاد، و زادت قواميس اللغة و آراء الدارسين في توضيحه، تكون كلمة "الأحقاف" بمدلولها اللغوي الصريح، وإشاراتها الواضحة، و إيحاءاتها هي الكلمة المفتاح في النص القصصي الذي يعطي للذهن انطباعا عاما عن أن الأحقاف هي الصفة الأساسية لمكان الحدث و خاصية من خصوصيته تاركا العنان للخيال في أن يرسم حدود جغرافيته بحرية تامة.

و على أية حال فإن موقع قصة عاد في ضوء ما أوحت به الآية الكريمة معينا بصورة كلية في إطار موقع شبه الجزيرة العربية، دون تحديد جغرافي واضح المعالم و الأبعاد.(1)

ثانيا- رسم صورة عامة للمكان في قصة ثمود

رسم السرد القرآني صورة المكان الذي دارت فوقه أحداث قصة ثمود إذ جاء ذكر المكان صريحا و محددا في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾.(2)

و السرد القصصي أورد المكان الجغرافي في القصة، ثم رسم له صورة عامة المشكلة من الجبال و السهول، و الأرض الممهدة لبناء القصور و المساكن و ذلك في قوله تعالى: ﴿وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَ تَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا. ﴾(3).

كما هي مشكلة من الجنان، و الزروع، و العيون و النخل و ذلك في قوله تعالى: (أتتركون في ماها هنا آمنين، في جنات و عيون، و زروع و نخل طلعها هضيم)(4).

ثالثا- الإيحاء في ضوء علاقة مكان القص بالعبرة

إن السرد القرآني بهذا الصنيع قد رسم صورة مكان الحدث في القصة سواء عن طريق التصريح في قصة ثمود، أو التلميح و الإيحاء بقصة عاد في ضوء علاقة مكان القص بالعبرة هو الذي سوف يكشف الستار عنه التفسير التاريخي الذي يمنح القصة الروعة و الجمال أكثر من خلال إعجاز واعظ يهيء للمتلقي فرصة الاطلاع على القصة و يمنحه عنصر التشويق و شغف المتابعة

---

(1) راجع في ذلك رأي بيومي مهران في كتابه "دراسات تاريخية من القرآن" و الذي أوردته في الفصل الأول من البحث، ص41 ،و الذي يعنيني من كلمة "الأحقاف" بدلالتها اللغوية أنها تفيد في تصور المكان في علاقته بالحدث والشخصية و أثر ذلك في نمو القصة، بعيدا عن التحديد الجغرافي الدقيق الذي ليس من مهمتي إدخاله في هذا البحث.

(2) سورة الحجر : الآية 80.

(3) سورة الأعراف : الآية 74.

(4) سورة الشعراء : الآية 146 - 148.

و ذلك حين يظل المكان التي تجري به الأحداث مجردا من بعده الجغرافي المحدد ماعدا صورته العامة المرتبطة أساسا بنهج القرآن في ربط المكان بالحدث دائما في إخضاع قصصه في سياقها و توجيهاتها إلى الغرض الديني المرتبط دوما بالعبرة و العظة.

المبحث الثاني

معالمه الطبيعية والمادية وعلاقته بحدث وشخصيات القصة

الحدث في قصتي عاد و ثمود وثيق الصلة بالمكان، و ملتصق به، و ملتحم بالبيئة التحاما كبيرا، يصعب معه انفكاك أحدهما عن الآخر. إذ الذهن لا يتصور قصة بأحداثها العظيمة ستظهر بتلك الهيئة المعبرة عن صدق حالة الأمتين الغابرتين – عاد و ثمود – إن لم تكن قد جرت بمكان له مميزاته الخاصة، ذلك أن المعالم المختلفة و المتنوعة، لها كبير الأثر في رسم صورة المكان مرتبطا بالحدث في ذهن المتلقي ليحل محله بعدا هذا من التصور و يتخذ موقعه في قيام عمارة القصة.

من هنا كان سعي السرد القرآني إلى تصوير المكان بمعالمه المختلفة تصويرا مناسبا وواضحا ساهم في إبراز سمات القصة وإظهار خصوصيتها الجمالية التي كان لها انعكاسها على نظرة ساكنيه.و لو حاولنا أن نقف على تلك المعالم لتطلب منا تجزئة هذا المبحث إلى مطلبين :

المطلب الأول: المعلم الطبيعي والمادي وعلاقته بالحدث في قصة عاد .

والمطلب الثاني : المعلم الطبيعي والمادي وعلاقته بالحدث في قصة ثمود.

المطلب الأول

المعلم الطبيعي و المادي و علاقته بالحدث في قصة عاد

وصف السرد القرآني مكان الحدث في قصة عاد بأنه كان يحوي معالم طبيعية و أخرى مادية،و ذلك في قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[1].

(1) سورة الأحقاف : الآية 21 – 25.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و كذلك في قوله تعالى :﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ، إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ، فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[1].

و كذلك قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[2].

يفهم من النص القصصي في سورة الأحقاف أن الحدث كانت له صلات متداخلة بالمكان الذي ميزته عوالم من الرمال الرقيقة الناعمة و الأودية التي ما فتئ الحدث ينتقل فيها و يتطور من مرحلة إلى أخرى إلى أن بلغ درجة الاكتمال. إن صورة المكان قد تشكلت من الرمال التي هي رمز للصحراء، و الأودية التي هي في العادة أماكن تتجمع فيها مياه الأمطار و أن العلاقة حينئذ بين رمزين هما الأرض و الماء (الأمطار) و هي الثنائية التي رسمت حدود المكان في قصة عاد، و أعطت تبعا لذلك انطباعا في غاية الوضوح أن قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾، فالأحقاف مكان مرشح للحدث العظيم و هو (الإنذار) على يد نبي الله هود عليه السلام، و وفق ذلك كان البناء القصصي بأكمله حيث أخذت الأحداث تتسلل في علاقتها بالمكان و مميزاته لتتشكل في الآخر في إطارها النهائي الذي يعني الإبادة ﴿فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾.

لقد كان مكان الحدث "الأحقاف" في القصة هو المكان الذي تلقى فيه قوم عاد الإنذار الإلهي العظيم على يد نبيهم هود عليه السلام ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ، وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3].

---

(1) سورة الشعراء : الآية 123 – 140.

(2) سورة الفجر : الآية 6 – 14.

(3) سورة الأحقاف : الآية 21.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كما كان المكان نفسه الذي شهد انتقال الحدث إلى مرحلة الدعوة و عدم الاكتراث لإنذار هود عليه السلام، ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1] و هي صورة يظهر من خلالها ارتباط الحدث بشخصيات القصة، و انتقال الحدث إلى مرحلة أخرى اختصرت فيها المشاهد، حيث اقتصر السرد القرآني فيها على ذكر يأس هود عليه السلام من القوم ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ﴾[2].

لينتقل الحدث بعدها مرتبطا بالمكان إلى رد الفعل الإلهي على رفض قوم عاد الاستجابة للإنذار و قبول دعوة هود عليه السلام، و ذلك حين منعوا القطر ليصاب المكان بالقحط لا سيما و أنه كان مشكلا من عوالم من الرمال الرقيقة الناعمة التي تكتسب خاصية النفاذ بسرعة مما يجعلها دائمة الحاجة إلى المياه باستمرار.

و طبقا لهذا فإن الحدث يتسلل في علاقته بالمكان و هو على هذه الحال ليشكل في إطاره القصصي صورة لتأثير الموقف على ساكنيه و قد تعرضوا لمشكلة جدب حقيقية امتدت لفترة طويلة و قد كانت نوعا من العقاب و إنذارا أوليا قبل أن يحل عليهم عقاب الله الأكبر و هي الإبادة – مما أثار مخاوف قوم عاد لما رأوا ذلك ربما سيطول و حينها سيتعرضون للهلاك،ليغدو المكان "الأحقاف"بصورته و قد تسرب إليه شيء من الخوف و القلق الذي انتاب ساكنوه، هو بدوره يعيش الخوف بسبب قلة الماء الذي تحول مع مرور الأيام إلى هاجس يقض مضاجع قوم عاد و يقلقهم.

لقد انعكس هذا الشعور على المكان و أصبحت صورته أشبه بصورة الإنسان الذي أجهده العطش. فأشرف على الهلاك فهو ينتظر الماء بفارغ الصبر لأنه في هذا الماء وحده نجاته و عودة الحياة إليه من جديد و هذا ما يفسر انتفاضة ساكني المكان (عاد) لما رأوا سحابا في السماء، فظنوا لشدة حاجتهم إلى المطر أنه مقبل على أوديتهم ففرحوا و استبشروا وقالوا﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾[3].

(1) سورة الأحقاف : الآية 21.

(2) سورة الأحقاف : الآية 23.

(3)سورة الأحقاف : الآية 24.

لقد كان مكان الحدث في قصة عاد يعيش فرحة اقتراب الأمطار التي تنساق إلى الأودية لتروي الزرع و الماشية بعد طول انتظار و بعدما كان الجفاف بكل قسوته و غموضه قد استوطن فكر ووجدان ساكنيه وأرهق أعصابهم. و ما انفكت هذه الأجواء تلقي بظلالها الساخنة و الشاحبة على المكان لونا من التشاؤم و الخوف، من أن يلحق به الجفاف فيهلك الزرع و الضرع ثم يهلك الإنسان بعد ذلك.

لقد كان المكان نتيجة هذا الشعور البائس في حالة ترقب بأن تهطل عليه الأمطار بكميات هائلة متتالية يتلو بعضها بعضا غزيرة ودون انقطاع كما عبر عنها هود عليه السلام في خطابه لقومه﴿يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا[1] و يزدكم قوة إلى قوتكم و لا تتولوا مجرمين﴾[2].

و المعنى أن الله جعل جزاءهم على الاستغفار و التوبة إمدادهم بالمطر لأن ذلك من أعظم النعم عليهم في الدنيا، إذ كانت عاد أهل زرع و كروم فكانوا بحاجة إلى الماء. و كانوا يجعلون السداد لخزن الماء.

و الأظهر أن الله أمسك عنهم المطر سنين فتناقص نسلهم و رزقهم جزاء على شركهم بعد أن أرسل إليهم هودا –عليه السلام– فيكون قوله (يُرْسِلِ السَّمَآءَ) وعدا و تنبيها على غضب الله عليهم[3]

و رغم هذه التنبيهات من هود عليه السلام، إلا أن قوم عاد ظلوا على شركهم و لم يدر بخلدهم يوما أن يدركوا العلاقة بين التوبة و إمدادهم بالنعم و في مقدمتها نعمة الأمطار، و لم يرتفعوا بمداركهم إلى فهم سنة الله في خلقه و هي "أن حصول الخصب يكون بكثرة الأمطار، التي هي سبب في كل خير من زرع و ضرع و قوة و شدة، و عزة و كثرة أموال و أولاد التي ينتفع بها في الحياة الدنيا"[4].

---

(1) سورة هود : الآية 52.

(2) مدرارا : أي غزيرة دائمة، و هي صيغة مبالغة من الدرر و هو الصب.انظر أبو عبيدة معمر بن المثنى –مجاز القرآن– تعليق : محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الطالب الرباط، ط .1، 1954، ج1، ص 178.

(3) الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير، ج12، ص 96.

(4) عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم و الجماعات، ص 226.

فهم لم يتصوروا أن وراء هذه الأحداث و الظواهر قوة عاقلة مدبرة تنظم أمر الكون وتوجهه وجهة غائية. ذلك أنهم افتقدوا الحس الإيماني الذي يفسر لهم مغاليق الوجود"[1].

وإذا لقد جنى انحراف قوم عاد على المكان "الأحقاف" فلم يتمكن من وصول الإمداد الإلهي إليه بالمطر، و النتيجة أنه تحول إلى فضاء مفتوح على القحط و الجفاف و كل صور البؤس و الشقاء. حتى بدت الحياة فية أقرب من الموت و الهلاك منه، إلى الحياة بنشاطها و حركتها.

لقد تغيرت به الظروف، و انعكس حاله فأضحى قفرا بعد ما كان عامرا و مزينا بالبساتين و المزارع ذات النضارة و البهجة. حين ينقل السرد القرآني صورة هذا المكان في سابق عهده إلى أجواء المكان و قد أتت عليه ريح عاتية. إذ المكان في هذه الحالة يعايش صورتين متقابلتين لزمنين مختلفين هما زمن الرخاء و العطاء، و زمن القحط و المنع و بينهما تحدث المفاجأة المباغتة، إذ بدل ما كانت تأتيه الأمطار لتنعشه جاءته ريح عاصف قوية والتي كان يخيل لقوم عاد أنها سحاب مقبل بالغيث، إذابها في الحقيقة مرسلة إليهم بالعذاب الأليم[2]، لتدمر كل شيء أي أن الريح لا تمر على شيء من أشياء المكان إلا و خلعت عنه مظاهر الحسن و الجمال، و دمرته و ذهبت بمعالم الحياة و الخير فيه، إنها آية من عند الله مسلطة على أعداء الله ترميهم بالهلاك و الدمار. ليصبح المكان بعد هذا الحادث المروع فضاء صامتا موحشا و معلما من معالم الخراب، ما عدا تلك المساكن الخربة الفارغة التي تلوح للناظر من بعيد ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾[3].

وإذا انتقلنا إلى المعالم المادية التي شكلت منظر المكان في قصة عاد، و ساعدت على فهم طبيعة النواحي الهامة ووظيفتها في تمثل الحدث القصصي و دوره في إبراز مظاهر حضارة عاد، ما نجده في النص القصصي القرآني في قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[4].

(1) حسنى عبد الجليل يوسف، الإنسان و الزمان في الشعر الجاهلي، مكتبة النهضة المصرية: القاهرة، د،ط، 1988، ص 29.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ص 234.

(3) سورة الأحقاف: الآية 25.

(4) سورة الشعراء: الآية 128 – 129.

فالمكان في ضوء ما نقلته الآية كان مشكلا من "الريع" و "المصانع" و هي المعالم المادية التي يتنقل بينهما الحدث و يتطور كاشفا عن سلوكات شخصيات القصة على نمط الحياة التي عاشها قوم عاد بشقيها المادي و المعنوي، في إطار علاقة التداخل الناشئة بين المكان و ساكنيه بحكم سلوكاتهم و طباعهم المميزة و التي جعلت من "المنظر المكاني حالة من حالات الوعي لحقيقة الوجود و لا ريب أن بين الإنسان و المكان صلات متداخلة"[1].

و يظهر هذا التداخل بين المعلم المادي و المكان و ساكنيه من خلال علاقة هذا كله بالقص في قوله تعالى : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ، وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَ إِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.

البناء معلم مادي دنيوي تجسدت من خلاله الرغبة في الحياة و الكد في سبيلها، و قد تم ذلك في إطار مكان سكنه قوم هود، و المعلم المادي هنا ممتد واسع شمله السرد القصصي الممثل في الآية "بكل ريع"[2] "وتتخذون مصانع"[3] على امتداد المكان.

فالبناء هنا جاء مؤيدا بـ "تعبثون" "لعلكم تخلدون" "بطشتم جبارين" و هي صورة صادقة لما تنطوي عليه نفسيات قوم عاد من الداخل، وهي تتفاعل مع الحياة ضمن ظروف المكان. لقد ترك المعلم المادي للمكان أثره على عقلية الشخصية الجماعية لعاد في القصة و على سلوكاتهم. فقد كان من المتوقع أن يكون تعميرهم للأرض كفضاء مكاني رحب مفتوح على المباني العالية و القصور و المنازل التي تستعمل عادة للسكن و الراحة، و أن اتخاذهم لصهاريج المياه إنما يقصد منها تزويد الناس بالماء عند الحاجة لا سيما "أن الآبار كانت مقدسة عند العرب لأنها في الصحاري تزود الناس بالماء و تمنحهم الحياة"[4].

---

(1) يحيى الجبوري ، المدخل لدراسة الفنون، ص 71.

(2) الريع : قيل هو الجبل، هو : الفج بين الجبلين، هو : الصومعة، الريع : البروج يكون في الصحراء، الريع : هو التل العالي. و معنى الآية : أنكم تبنون بكل مكان مرتفع علما! انظر تفسير ابن كثير، جـ4، ص 136.

(3) المصانع : أجمل ابن منظور الفروق الجزئية للمعاني المختلفة لكلمة "المصانع" و التي تعني : الآبار و الأبنية، كما تعني الصهاريج التي يجمع فيها مياه الأمطار. و قد تعني الحصون أيضا، أو هي القصور. و العرب تسمي القرى المصانع.
انظر تفاصيل ذلك بشيء من التوسع و الشمول في لسان العرب – ج4، ص 2509 [مادة صنع].
و عن "المصانع" بمعنى الحصون و القصور يقول أمرؤ القيس :

أَزَالَ مِن المَصَانِعِ ذَا نَواسٍ ... وَ قَد مَلَكَ الحَزونَةَ و الرِمَالاَ.

البيت من ديوان امرئ القيس : تحقيق حنا الفاخوري. دار الجيل : بيروت، ط1، 1989م، ص 365.

(4) ناجي معروف ، أصالة الحضارة العربية، ص 150.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

غير أن القوم رغم ما أوتوا من مظاهر حضارية ترمز إلى ما كانوا عليه من مدنية بين أهل زمانهم، لم يكونوا أصحاب حضارة هادفة، أو مدنية رائدة. و هنا يفسح الحيز المكاني المجال للحدث بأن ينمو في ظله مستخدما المعالم المادية "من آبار و مصانع و عيون" وسائل لعرض الفكرة التي يتجه الحدث في القصة إلى إثباتها و هي أن القوم رغم ما أوتوا من أسباب الحضارة المادية و المعنوية، إلا أن منطقهم و سلوكهم، ينم عن الانحراف و الغواية و البعد عن سبيل الرشاد. و لهذا اتجهوا بحضارتهم و منجزاتها المادية اتجاها عابثا ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ كان الهدف منها التفاخر من غير ضرورة تدعوهم إلى ذلك، سوى اللهو واتباع الهوى [1] "إذ كانوا يعبثون ببنيانه و ذلك بإشرافهم من خلال هذا البناء المرتفع على الطريقة "فيؤذون المارة و يسخرون منهم"[2].

فالمكان في هذه الحالة هو الذي مد الجسر عن طريق معالمه المادية لكي تعبر من خلاله الأحداث إلى الكشف عن الجوانب المظلمة في سلوكات شخصيات القصة لكي تبدو أكثر ملاءمة و اتصالا و تداخلا و انسجاما مع متطلبات السرد القصصي.وهو يحاول تفسير فعل الشخصية الجماعية لعاد الرامي إلى العبث و اللعب و إظهار القوة و لهذا أنكر عليهم نبيهم هود عليه السلام هذا التوجه، لأنه تضييع للزمان، و أتعاب للأبدان في غير فائدة، و اشتغال بما لا يجدي في الدنيا و الآخرة[3]. و لولا الخلود ما عملوا مثل هذه الأعمال التي من طبعها أن تدوم دهرا لا يفي به أطوال الأعمار و الإنسانية"[4].

لم تكن المظاهر "كالريع و المصانع و الأودية و الأحقاف" هي الرموز التي استعان بها القرآن في رسمه لمعالم المكان في القصة، بل كانت هناك مظاهر استمدها من الطبيعة "و أدخلها في حسابه كعامل مؤثر في الأحداث و الشخصيات يصطنعها للكشف عن الأحاسيس الداخلية تجاه موقف من المواقف"[5].لقد كان المنظر الطبيعي المشكل من ثنائية الجنة و الماء حلقة في سلسلة تطور الحدث و وظيفة الشخصية في قصة عاد حين تقدم السياق السردي القصصي مركزا وصفه وتصويره لما تخرجه الأرض من جنات، و ما يتفجر به باطنها من عيون.

(1)· الطباطبائي ، الميزان في تفسير القرآن ، جـ15، ص 300.

(2) الشوكاني ، فتح القدير، جـ4، ص 300.

(3) ابن كثير ، تفسيرالقرآن العظيم ، جـ5، ص 195.

(4) الطباطبائي ، المصدر السابق، جـ15، ص 300.

(5) محمد يوسف نجم ، فن القصة، ص 92.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مشكلا صورتين متقابلتين "الجنات و العيون" و هما منسجمتان مع الجو القصصي. فها هي الجنات باخضرارها و تنوع ألوان ثمارها. و ها هو الماء ينساب من الأرض و يمتد على مساحات الزرع ليبعث فيها الحياة، فتنمو ليتزود منها الناس. هذا العطاء الذي وصفه السرد القرآني للمظهر الطبيعي كلوحة جمالية حدودها الجنات والعيون التي حباها المكان في قصة عاد تعدو إرهاصا بالحوادث التي ستقع فيما بعد سارة كانت أو محزنة. هذا يعطي للعلاقة بين المظهر الطبيعي و الحدث في القصة تفسيرا واضحا عن غنى المكان بالخيرات و يعطي صورة لما كان عليه المكان من التنوع و العظمة و التكامل.

و نستشف من هذا الوصف دلالات تُفَسِّر أمورا تتصل بالحدث و ترتبط بالشخصية في علاقتها بالمكان و صفاته، و ذلك حين نرى امتداد المكان في إطار السرد القصصي يتسع ليشمل سلوكات قوم عاد في رغبتهم في البناء و التعمير بهدف العبث و الفساد.

و الحال أن المكان لا يعيش منعزلا عن باقي عناصر السرد و إنما يدخل في علاقات متعددة مع المكونات الحكائية الأخرى للسرد كالشخصيات و الأحداث و الرؤية السردية ضمن الصلات التي يقيمها، فإنه أخذ يعايش عن كثب ساكنيه بسلوكاتهم العنيفة المتجبرة و يشهد على القوم و قد غرتهم تلك القوة "التي وجدوها في كيانهم، فطاروا بها فرحا و زهوا ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَ قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [1].

من هذا المنطلق فإن المكانية قد أصلت بنية القصة، و لازمت الفعل السردي في رصد تأثيرات و انعكاسات الموطن على نفسية القوم و على سلوكاتهم، و بذلك أفادت بأشياء تتعلق بالظروف العامة المحيطة بهذا الفضاء و في مقدمتها طابع الصراع الذي يسود العصر [2].

هذا الصراع الذي يشهده المكان و هو متصل بحدث الدعوة، و مرتبط بشخصية الملأ من قوم عاد في مواجهتها لرسالة هود عليه السلام، هذا المكان يقف بدلالته أمام حقائق و هي أن يخضع العباد لله " أن الحق أن يخضع العباد لله .و أن لا يستكبروا في الأرض، و هم من هم بالقياس إلى عظمة الخالق. فكل استكبار في الأرض فهو بغير حق "[3].و ما فعله قوم عاد لا يعد أن يكون شعورا كاذبا من نمط الشعور الكاذب الذي يحس به الطغاة حينما يعتقدون بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم و ينسون﴿أَنَّ الَّذِي خَلَقَهُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

(1) سورة فصلت : الآية 15.

(2) سليمان عشراتي، الخطاب القرآني، ص 165.

(3) سيد قطب ، الظلال ، ج3، ص 125.

إنها بديهية أولية، إن الذي خلقهم من الأصل أشد منهم قوة لأنه هو الذي مكن لهم في هذا القدر المحدود من القوة. و لكن الطغاة لا يذكرون. ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

و بعد أن يقرر السياق السردي هذه الحقيقة الكبرى و القوة و التطاول التي ملأت نفوس قوم عاد و زادتهم عتوا و استكبارا تبرز صورة الحيز المكاني فهو آهل بساكنيه العماليق بينما هم في مشهد القوة يعرضون عضلاتهم و يتباهون بقوتهم، إذ المشهد التالي هو المصرع المناسب لهذا العجب المرذول ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا عَاتِيَةً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1].

فالمكان في ضوء ما جاء به تفسير ابن كثير[3] للآية، قد هبت عليه على حين غفلة ريح[2] عاتية زعزع معالمه، و ذهبت بجمال ما كان قائما به من أودية و أنهار و مبان و زرع وضرع، و عصفت بساكنيه الجبابرة و أحالتهم ﴿صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[3] تاركة المكان بعد الحادث فضاء مفتوحا و لفترة طويلة على صور الدمار الهائلة التي توافدت عليه محولة إياه على مدار سبعة أيام و ثمانية ليال إلى طلل دارس وأثر معماري وسط رمال متراكمة، في موقع موحش لا أنيس به ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾[4].

لقد انفصل المكان عن ساكنيه، فهم قد هلكوا، وظل مقيما، لكنه خال من كل ما يبعث الحياة من إنسان أو حيوان، هلك الجميع، ما عدا المساكن ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[5].و رماله الكثيفة تبعث عند رؤيتها عل الأسى و الحزن و الاعتبار. لقد أعادت الرمال للمكان صورته الأولى التي كان عليها قبل أن يأتيه المدد الرباني و تدركه رحمة الله بالعطاء المتجدد من الخضرة و الماء.

---

(1) سورة فصلت : الآية 16.

(2) يقول ابن كثير تعليقا على هذه الآية : "قال بعضهم و هي شديدة الهبوب، و قيل الباردة، و قيل هي التي لها صوت مزعج و الحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريح شديدة قوية لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم"انظر: تفسير ابن كثير – جـ6 ص 167.

(3) سورة الحاقة : الآية 07.

(4) سورة الحاقة : الآية 08.

(5) سورة الأحقاف : الآية 25.

المطلب الثاني

رسم المعلم المادي و الطبيعي و علاقته بالحدث في قصة ثمود

رسم السرد القرآني المكان الذي جرت به أحداث قصة ثمود معالمه المادية و الطبيعية على طريقته الخاصة في تقريب الصورة لذهن المتلقي، و ذلك بالتفنن في عرض زوايا مشاهد المكان و ذلك لكي يبدو أكثر انسجاما مع حركة الشخصيات و هي تؤدي وظيفتها الحيوية في تنوير الحدث داخل بنية القصة في إطار تصويري بلغ من الروعة مبلغ التفنن و الإعجاز، إذ لم ينقله بطريقة وصفية و كفى ولكن نقل صورته"بطريقة تصويرية تجلى فيها الفن و جمال العرض و روعة الأداء التعبيري"[1]. بحيث أعطت المعلومات و زودت القارئ بالدلالات المصاحبة لذلك، و من ثم منحت التصوير المتكامل للموقف تكاملا في الشعور و التأثير و الجمال.

و لضمان صورة تكامل المكان و دور ذلك في إمداد الحدث بالمعطيات المادية و الحسية اللازمة التي رسمها السرد القرآني وفق خطوات فنية معينة نستشفها من النصوص القصصية المبثوثة في سور كل من : الشعراء، الحجر، الأعراف.

و في ضوء هذه النصوص نلمح ملامح عرض صور المكان بمعالمه المادية بالطريقة الآتية :

أولا- تعيين مكان الحدث

إن المكان في قصة ثمود قد ذكر و تم تعيينه لأن له كيان خاص و وضع خاص، و له أثر يتعلق بالحدث مباشرة و ذلك لعلة تلوينه بلون خاص يقع عليه من ظلال هذا المكان فتبرز فيه ملامح خاصة[2].

هذه الملامح تكشف في سيرها عن نمو الحدث و تطوره و تساعد على فهم سلوك الشخصية في ارتباطها بالحدث داخل بنية القصة، و تفسر الدور الأساسي و المهم الذي يلعبه الفضاء في التخيل القصصي لبنية المكان في تشكيلاته و مظاهره[3] مما يفسر أن المكان في قصة ثمود لم يكن منعزلا عن باقي عناصر السرد، و إنما دخل في علاقات متعددة من المكونات الحكائية الأخرى للسرد، كالأحداث حين ربط مشاهدها المتعددة و المتنوعة بالمشكلات التي ستنجم في المكان اتجاه دعوة نبي الله صالح عليه السلام، و أثناء نصحه لقومه ثمود، الذين لم ينتصحوا فجرت عليهم سنة الله في خلقه.

(1) محمد قطب عبد العال ، من جماليات التصوير في القرآن الكريم، ص 66.

(2) فواد علي رضا ، من علوم القرآن، ص 190.

(3) حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي ،المركز الثقافي،العربي:الدار البيضاء،ط1،1990، ص 26.

و من ثم جاء تصوير السرد القرآني للمكان بمعالمه متعددا و منوعا يعالج مشكلات الإنسانية في ذلك الزمن في شتى طرائق الحياة : الروحية و العقلية و النفسية و الاجتماعية علاجا حكيما. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(1).

لقد كان الحدث في قصة ثمود بحاجة إلى ذكر المكان الذي جرى فوق أرضه و قد ذكر باسمه تحديدا "بالحجر"، ليكون وسيلة لبيان ما كان عليه أصحابه من خصوصية عقلية و أثر ذلك في مواجهتهم لنبيهم صالح عليه السلام عندما جاءهم بدعوة التوحيد التي تخالف ما ألفه القوم من عادات أجدادهم و آبائهم.

إن تعيين المكان في هذه القصة هو الذي استقطب اهتمام السرد القرآني، و ذلك لأن تعيينه هو البؤرة الضرورية التي تدعم السرد و تنهض به في كل عمل قصصي. و قد كان لهذا تأثيره على نمو الفكرة العامة التي يدور حولها الحدث، و هي الدعوة و مواجهتها، و له تأثيره على سلوك الشخصية التي تدير خيوط الحدث في اتجاهاته المختلفة بحسب ما تتطلبه الغاية من وجود القصة داخل النص القرآني.

وهكذا يمكن أن تفهم صلات التداخل التي نتجت عن ذكر المكان القصصي و تعيينه "بالحجر" في قصة ثمود على أنه كان في خدمة الحدث في أن ينمو داخليا، و ذلك بحساب الانعكاسات التي تفرزها مواقف قوم ثمود في مرحلة البعثة و الدعوة لنبي الله صالح عليه السلام، التي قوبلت بمعارضة، هذه المعارضة التي سوف يشهد الحجر نتيجتها لاحقا و ذلك عندما يصبح هذا المكان بمعالمه الطبيعية معرضا للعذاب، فيتحول إلى بقايا أطلال دارسة تقف شاهدة لتحرك الخيال و تبعث في النفوس و العقول التأمل و التدبر، و تثير في الوجدان الإنساني كوامن الاعتبار و مشاعر العظة لاسيما عندما تمر بتلك المساكن فتراها مقفرة لا أنيس بها مصداقا لقوله تعالى : ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(2).

ثانيا - رسم معالمه الطبيعية و المادية.

إذا كان تعيين المكان باسمه "الحجر" في قصة ثمود قد أفاد الحدث و أوقعه بوضوح في التصور انطلاقا من "أن تعيين الأماكن و تسميتها بأسمائها يوقعها موقعا من التصور. و قد يـــحلها محل

---

(1) سورة الملك : الآية 14.

(2) سورة النمل : الآية 52.

الامتحان و التصديق لا سيما إذا كان بعضها ولايزال قائما عند نزول القرآن بمثل هذا القصص [1]. حين نبه القرآن الكريم إلى أن مساكن الكافرين مازالت بين العرب و أنهم سكنوها ﴿وَ سَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَ ضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾[2].

فإن رسم المعالم و تصوير المظاهر المادية و الطبيعية هو بدوره قد عمق في الرؤية و زاد في تقريب صورة المكان الحدث وهو يجري به وسط الجبال و السهول و الجنات و العيون، و النخيل و القصور و كلها مظاهر لها وقعها النفسي في إيثارة مجالات الحس و الذهن عبر ظلال من الصورة كاللون و الحركة، كما عبرت عنه النصوص القرآنية و حملت معانيها التعبيرية التصويرية كل من سورة الشعراء، و الأعراف، و الفجر و غيرها فهي خير من كشف عن المكان بجمالياته و مأساته في قصة ثمود.يقول تعالى في سورة الأعراف : ﴿واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[3].

و يقول تعالى في سورة الشعراء : ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ، وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ، وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ المُسْرِفِينَ، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾[4].

و يقول تعالى في سورة الفجر : ﴿وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالوَادِ﴾[5].

إن السياق السردي في النصوص القرآنية المذكورة يوضح أن المكان قد تشكل إطاره من معالم طبيعية : من جبال و سهول و صخور و أودية و جنات و عيون و نخيل و زروع. و معالم مادية من قصور و بيوت منحوتة في الصخور. ساعدت على رسم مشاهد المكان في صورة متحركة

(1) محمد طول ، البنية السردية في القصص القرآني، ص 47.

(2) سورة إبراهيم : الآية 45.

(3) الآية 74.

(4) الآية 146 – 152.

(5) الآية 9.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تنبض بالحياة لما حواه المكان من جنات و عيون و جبال و سهول و نخيل و قصور و بيوت و غيرها من المظاهر، التي كان لها انعكاسها على الشخصية القصصية من الناحية النفسية و السلوكية، باعتبارها ساكنة المكان. كما كان لها تأثيرها الواضح على تفكير القوم – قوم ثمود– في الدين و الحياة.

و قد أفاد وصف البيئة المكانية لهذه القصة بصور عن منطقة الحجر و الظواهر الحضارية التي عاشها ساكنوه و ما كانوا يتمتعون به من نعمة الأمن و الترف و بسطة العيش، و ما كانوا عليه من انقسام اجتماعي، و ما درجوا عليه من نمط فنهم العمراني إذ كانوا ينحتون بيوتهم من الصخر، كما تفصح عنه آيات القصص. يقول تعالى في سورة الشعراء ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ، وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾[1].

تصور اللوحة القصصية في ضوء معطيات السرد القرآني وهو يتراءى مبسوطا، وقد مد الله أرضه و سواها على هيئة تصلح للحياة، وجعل فيها تلك الجبال الثوابت تمنعها من الاضطراب، والخلل حتى يقر ساكنو المكان في قرار آمن وديع، مما جعل الجبال بجمالها تبدوا فوق تلك المساحات الأرضية الممتدة بالحجر علامات خارقة على قدرة الله، وهي إشارات إلى جمال المكان الذي يتنوع بين الارتفاع والشموخ والإمتداد والخضوع[2].

إن هذه المظاهر هي التي لعبت دورا أساسا في تقديم صورة عن المكان وصلته بسلوك قوم ثمود. فمكان يتمتع بخصائص جمالية من جنات وعيون وزروع وسهول وقصور ، وخضرة يكون له أثر في تهذيب الطبائع وترقيق المشاعر، والتلطف في المعاملات، وصفاء النفس والخاطر بما من الله عليهم <<إذ جعلهم في مأمن ، وأنبت لهم من الجنات وفجر لهم من العيون الجاريات وأخرج لهم من الزرع والثمرات>>[3]. ولهذا قال تعالى: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾[4]

---

(1) الآية 146 – 148.

(2) محمد قطب عبد العال ،من جماليات التصوير في القرآن الكريم،ص115.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم،جـ5ص198.

(4) هضيم:ناعم ،لين.أنظر:معجم متن اللغة، أحمد رضا ،مكتبة دار الحياة:بيروت،د،ط،1960،المجلد 5،ص643.(مادة هضم).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و في ضوء هذه الآية الكريمة يبرز المكان بصورتين متقابلتين عايشهما "الحجر" كمكان لقصة ثمود، وكموطن رئيسي لساكنيه من قوم ثمود، هاتان الصورتان كان لهما أكبر الأثر في توليد الحدث و في تحريك الشخصيات على مسرح القصة و ذلك أنه في الوقت الذي برز فيه في المقابل صورة قلوب القوم "و قد بلغت من الفساد و الاستغلاق والانطماس درجة لا تستشعر معها جمال تلك الصورة و جلالها، و لا تحس بشاشة القول الرقيق و لا وضاءة هذا الجو الطليق"(1).

و حتى لا يبقى تمثيل البيئة مجرد تلوين عاطفي للمنظر أخذ السرد القصصي القرآني يكشف عن الصلة الوثيقة و الارتباط الحميمي بين المكان و أصحابه في قوله تعالى :﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِيْنَ﴾(2) كما يكشف في الوقت نفسه عن نفسيتهم الداخلية و ما انطوت عليه من فساد و طغيان و كفر و شرك بالله كما تبينه محاورات نبيهم صالح عليه السلام حين نهاهم عما هم عليه. ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَطِيْعُونِ، وَ لاَ تُطِيْعُوا أَمْرَ المُسْرِفِيْنَ، الَّذِيْنَ يُفْسِدُوْنَ فِي الأَرْضِ وَ لاَ يُصْلِحُوْنَ﴾(3).

لعب المعلم المادي دورا هاما في إضفاء ملامح الجمال على المكان، و لقد جاءت صورة الجبال و هي تحيط به لتوضح ملامح هذا الجمال على اختلاف أشكاله و مراميه، و تعطي عن طريق الصورة و الحركة و اللون و المنظر المؤثر في النفس فرصة للعين كي ترى جلال صنع الخالق، و روعة الفن و الزخرفة التي أبدعتها يد الثموديين و هي تقوم بنحت تلك الجبال لتحولها إلى بيوت صالحة للسكن.

إن أبرز ما ميز المكان في القصة أنه ارتبط بثقافة ساكنيه، و اتصل بنمط تفكيرهم عاكسا بذلك صورة شخصيتهم و طريقة تعاملهم مع المكونات المادية للمكان و هم يقيمون مساكنهم ويمارسون وظيفة البناء و تعمير الأرض في ذلك الظرف الزمني البعيد. وفق فلسفة معينة عبّروا بها عن رؤيتهم للحياة و ما بعد الحياة إذ كانوا يؤمنون بأن من الواجب عليهم أن يُعِدُّوا لأنفسهم مكانا لائقا بعد الموت تستريح فيه أجسادهم من عناء الحياة. و كانوا يؤمنون بأن مظهر القبر الخارجي يجب أن يكون على غاية ما يمكن من الزخرفة و الزينة و البهاء و الجمال،لأنه يدل بذلك على صاحبه، و من هنا جاءت فكرة تلك الرسوم الزخرفية و الهندسية التي تملأ واجهات

(1) سيد قطب،الضلال،جـ4ص1907.

(2) سورة الحجر،الآية80.

(3) سورة الشعراء،الآية151-152.

المدافن، و من هنا أتت أيضا دقة النحت التي يتميز بها عدد ضخم من تلك المنشآت[1].

و لهذا السبب بنوا البيوت الحصينة في صلب الجبال ليكونوا في مأمن من كل شيء. و هكذا يتضح أن قوم ثمود في بنائهم للبيوت و المدافن،إنما كان نابعا من نظرة لا تعرف من الحياة إلا جانبها المادي، و نفوس طارت إلى حب الدنيا و متاعها و زخرفها، فهي تريد التباهي في الحياة بما بنت من قصور عالية و بيوت شامخة، و التباهي بعد الموت بما تركت من قصور و مساكن و مدافن لا سيما "العائلات المالكة و الأثرياء، و كبار التجار و غيرهم ممن كانت تتوفر لديهم الثروة لبناء تلك المدافن، فكانوا يرغبون في إظهار ما هم عليه من النعمة المادية. و ما هم عليه من القدرة في بناء قبور عائلية، فيطلبون من الفنان المكلف بإنجازها أن يصب كل قدرته الفنية على الواجهة، بينما لا يوجه سوى القليل من اهتمامه إلى الداخل"[2]. و هذا ليريح الناظر من الخارج. لقد غدا المكان في القصة هو الواجهة التي تعكس صورة الشخصية الثمودية،بأبعادها النفسية و الذهنية والسلوكية في سعيها لتعمير الأرض بشتى طرائق البناء،و ذلك بغرض العبث و الإفساد و العشوائية، كما توضحه الآية القرآنية المذكورة:﴿وَ لَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.لقد تحول المكان في هذه الحالة إلى مجال مفتوح على العبث و الفساد و التفنن في إرضاء الهوى، و أقبل ساكنوه على الملذات و اشتد الغرور بأنفسهم لما رأوا أنهم أول أمم الأرض سبقا ومعرفة بفن نحت البيوت من الصخر، فأغراهم هذا بالفساد في الأرض "فأضاعوا الجانب الأهم في الإنسان، و هو جانب الدين و زكاة النفس، وأهملوا أن يقصدوا من أعمالهم المقاصد النافعة و نية إرضاء الله"[3].

و على هذا النحو أصبح المكان ضروريا بالنسبة للسرد، وأصبح هذا الأخير محتاجا لكي ينمو و يتطور في ظل المعطيات التي تفرزها مواقف الشخصية حيال القضايا المطروحة، و كيفية التفاعل معها في ذلك الظرف الزماني و المكاني البعيد المؤشر له بإرسال نبي الله صالح عليه السلام إلى قوم ثمود مصحوبا بمعجزة الله الكبرى و هي الناقة التي كانت آيةً عظيمة و دليلا ساطعا باهرا للعقل و الوجدان على عظمة الله و صحة ما جاء به المرسل إلى قومه صالح عليه السلام. لقد كان المكان – الحجر – شاهد عيان على الإنسان – قوم ثمود – حين أنعم الله عليهم بالموطن و حملهم مسؤولية عمارة الأرض بشهادة القرآن في قوله تعالى : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الأَرضِ وَاسْتَعْمَرَكُم فِيْهَا﴾[4]

(1) محمود ضاوي الفشامي ، شمال الحجاز، جـ1، ص 148.

(2) المرجع نفسه،جـ1ص149.

(3) الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير، ج19، ص 164.

(4) سورة هود : الآية 61.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث

المكان: جمالياته وأبعاده الوظيفية وأثر الإبادة عليه

لقد كان للمكان في قصتي عاد وثمود ووظائفه المتعددة التي ساهمت في إجلاء صورته وتوضيحها في إطار علاقته بفنيات القص، ثم علاقته بالنهاية التي حلت بساكنيه، والتي كانت مفتوحة على صور العذاب . ولرصد هذه المشاهد وزعنا هذا المبحث على ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: جماليات المكان وعلاقتها بشخصيات القصة

المطلب الثاني: الأبعاد الوظيفية للمكان ودورها في توليد الأحداث

المطلب الثالث: المكان وعلاقته بحدث الإبادة وأثرها عليه في قصتي عاد وثمود

المطلب الأول

جماليات المكان وعلاقتها بشخصيات القصة

قدم السرد القصصي القرآني صورة عن جماليات مكان الحدث في القصة و قد أحاطت به المعالم الطبيعية و المادية مشكِّلة معا جزئيات المشهد الحي و المتحرك للمنظر المكاني و هو ينفس عن المتساكنين به، و يعكس نظرتهم و هم يسعون إلى تعميره ببناء القصور و البيوت و المساكن المنحوتة من الصخر بطريقة رائعة تعد آية في الفن و جمال العمارة.

غير أنها كانت نظرة خالية من كل إحساس نبيل أو توجه ديني و وعي أخلاقي هادف و بحكم "أن الوعي الديني هو الذي يحدد محاسن الأحاسيس التي ينقلها الفن"[1] يكون فن النحت الذي أبدعته يد الثموديين في طريقة بنائهم لقصورهم و مساكنهم في ذلك الزمن البعيد، هو فن غير موجه لغاية أو لقصد نبيل، و لهذا كانوا لا يدركون بفنهم أي مغزى أو هدف من الأهداف النبيلة في الحياة،و إنما كان في نظرهم وسيلة للمتعة، كما أفصحت عن مضمونه الآية القرآنية في قوله تعالى:﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2].

(1) ليف تولستوي: ما هو الفن ؟ ترجمة محمد عبدو النجاوي دار الحصاد للنشر و التوزيع: دمشق، ط1، 1991، ص 71.

(2) سورة الأعراف : الآية 73 و 74.

وقوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ، وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[1].

في ضوء هذه الآيات الكريمة تتجلى صورة مكان الحدث في القصة، وقد تأثرت معالمه المادية بأخلاقيات ساكنيه، و ارتبطت بتوجهاتهم الدينية و الفكرية. و يذكر السرد القصصي فن البناء الذي برعت فيه ثمود من نحت الجبال على شكل بيوت، و بناء القصور العالية في السهول مبينا أن هذا الفن لم يظهر إلا وسط ركام من المفاسد و السلبيات و الانحطاط الأخلاقي و الديني من تكذيب الرسل، و الإعراض عن آيات الله في الكون و الحياة، و الإفساد في الأرض، و عدم التقوى و الإسراف و غيرها كثير، و في هذا معنى انتفاء القصد و الغاية التي هي شروط كل فن صحيح يهدف من ورائه لتحقيق غاية نبيلة و هدف عظيم و هو تهذيب الطبائع والأخلاق، و السمو بالروح إلى مدارج الكمال الإنساني وفق ما يأمر به الشرع و يرضاه العرف الإنساني. فأما ما يفهم من أمر الشرع و يفيد في فهم علاقة الإنسان بالأرض، أن الأرض أرض الله و الإنسان مطالب بتعميرها وفق ما يرضاه الله عز وجل ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[2]. ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[3] و ما يفهم من العرف الإنساني في نظرته لعلاقة الإنسان بالمكان الذي يسكنه هو إصلاحه و تجنب العبث بمعالمه، والحفاظ على مكتسباته ومنجزاته لأنها ملك لجميع الناس، و إلى جانب ما يفهم من الشرع و العرف هناك العرف الفني الذي يحدد العلاقة بين الإنسان و العمران لضرورة مراعاة الذوق في العمل و إتقانه بهدف تحقيق غاية نبيلة تعود بالجمال و الخير على المحيط و البيئة بساكنيها و يحقق الفائدة في الحياة.

و هنا نتساءل : هل كان مضمون العمل الفني الذي كانت ثمود تقوم به ذا غاية ؟ في ضوء ما بينه السرد القرآني لم يكن كذلك، و أنه كان من الممكن أن طراز الفن المعماري الذي كان القوم يمارسونه في بنائهم للبيوت أن يكون نافعا و مفيدا في الحياة لو توفر له شرط

(1) سورة الشعراء : الآية 141 – 152.

(2) سورة هود : الآية 61.

(3) سورة الأعراف : الآية 74.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

العمل الفني الناجح و هو أن يكون جميلا و هادفا. و نقصد بهذين العنصرين مراعاة الجمال و القصد. "فالإنسان مطلوب منه أن يحقق في عمله ماديا كان أم معنويا السلامة من العيوب كحد أدنى لتحقيق المعنى الجمالي. أما القصد فهو عنصر مهم في نجاح العمل الفني بهذه السمة لنفي العبث عن الموضوع الجمالي "إذ السلامة من العيوب سمة ترتبط بالموضوع الجمالي ذاته، أما السلامة من العبث فنعني بها وجود باعث و غاية للموضوع الجمالي، و هو أمر خارج عن الموضوع، و إن كان ذا أثر نافع فيه"[1].

إن العمل الفني أي كان نوعه فلكي يستوي و يخرج في الصورة التي تضمن له النجاح و المتعة و الفائدة لا بد له من أخلاق تضبطه و توجهه نحو غايته الصحيحة، ذلك "أن فنًا يتكامل فيه الإخلاص و الصدق و القدرة لهو فن يجد فيه المجتمع أحسن ما يبغيه من غذاء و شفاء"[2].

فالعمل الفني الجميل الناجح لا يمكنه أن يكون عابثا لهذا فنفي العبث عنه هو في صميمه تخليص هذا العمل من كل ما يشينه، وتقديمه في صورته الجمالية المطلوبة.

والعبث أمر يرفضه المنهج الإسلامي، كما يرفضه الجمال على وجه الخصوص، لأن الجمال تناسق و توازن و إحكام، و هو يقوم على قصد، و العبث لا يقوم على منهج و ليس له غاية، و لذا فهو و الجمال على طرفي نقيض[3].

الإنسان لم يخلق عبثا، مطلوب منه أن لا يعيش عبثا، و أنه ينبغي له أن يعقل غاية وجوده فيكون عمله في ضوء هذه الغاية. و لذا كان العمل الذي يقوم به الإنسان ينبغي أن يكون باعثا و غاية و أن يكون إيجابيا، و حينما لا تتوفر فيه هذه الشروط فهو عبث، و هذا ما سجله السرد القصصي القرآني في إنكار هود عليه السلام على قومه عاد هذا السلوك مخاطبا إياهم يقول تعالى على لسان هود: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾[4]. كما رأى أن بناءهم ليس الهدف منه هداية الناس و إرشادهم إلى الطريق، و ليس نزلا لراحة المسافرين و إن الباعث لإقامته لم يكن إيجابيا، و لم تكن الغاية كذلك

---

(1) صالح أحمد الشامي ، الظاهرة الجمالية في الإسلام، ص 226.

(2) فن القصة، ص 107.

(3) صالح أحمد الشامي، الظاهرة الجمالية في الإسلام، ص 227.

(4) سورة الشعراء : الآية 128.

إيجابية، فصار وجوده شبيها بالعبث لأنه خلى من روح المقاصد الحسنة فلا عبرة عند ا لله به[1].

عندما نمعن النظر في المكان الذي كان ذات يوم مسرحا لقصة ثمود بمعالمه المادية القائمة من قصور و بيوت و قد بنتها يد فنية بارعة راعت في نحتها جانب الإتقان. و لهذا جاء عملهم في فن العمارة حذقا متقنا سالما من العيوب. فإذا نظرنا إلى جماليات التعبير القرآني بلفظ "فرهين"الذي كان وضعها في غاية الدقة و الوضوح، وكانت جلية أمام الأبصار، و حددت الذهن تحديدا استوعب المعنى المقصود و المراد به من هذه القصة.[2] و هي تمنح الخيال فرصة ليتصور، فإننا نلمس تلك الآيادي وحركتها و هي تبني بإتقان و تنقش بمهارة على جدران القصور و البيوت و المدافن رسومات و أشكال في غاية الروعة و الإعجاب على هيئة تعكس ما بي نفوس القوم من حب المتعة و التفاخر و التباهي. و هي أن ثمود كانت بعملها الفني تبني المتعة دون البحث فيما إذا كان وراء ذلك غاية أو هدف نبيل متناسية أنه "من أجل إدراك مغزى أي نشاط و أهميته لا بد من النظر إليه من الداخل، و ذلك فيما يتعلق بأسبابه و نتائجه، و ليس بالنسبة إلى تلك المتعة التي يوفرها ذلك النشاط" [3].

و معنى النظر إلى العمل الفني من الداخل هو فهم القصد من إنجازه بإعتبار القصد سمة ضرورية لتحقيق الجمال، و نفي العبث عنه و السلامة من العيوب.

من هنا كان السرد القرآني من خلال توجيهاته حريص على ما يساعد على فهم جماليات العمل الفني، و إدراك محتواه و الغاية من وجوده و الصورة التي ينبغي أن يكون عليها لكي يقبل و يستمر وجوده في الحياة.

و لهذا لما أرسل ا لله صالحا عليه السلام إلى ثمود كانت معجزته من جنس ما برعوا فيه و هو الشأن في معجزات الأنبياء جميعا ؟ فإذا كانت براعة ثمود أن تقد من الصخر تماثيل تحاكي الأحياء، فليخرج لهم رسول ا لله من الصخر ذاته كائنا حيا هو الناقة التي انشق عنها الصخر فخرجت لهم كاملة التكوين نابضة الحياة،فلم يكن من جماعة ثمود إلا أن تشعر بالهزيمة و كان أقسى جوانب

1- التحرير و التنوير، جـ 19، ص 116.

2- عمر السلامي،الإعجاز الفني في القرآن الكريم، ص 73.

3- ليف تولستوي ، ما هو الفن ؟ ص 75.

هزيمتهم هو شعورهم بالنكبة في موضع اعتزازهم و فخرهم، ألا و هو إخراج الكائنات المنحوتة من صم الجلاميد، فأين يكون كل ما أخرجوه من تماثيل إذا قيس بهذه الآية المعجزة تنبثق من جوف الصخر؟ (1)

و هكذا عند انتقال الذهن من مجال الفن من المنحوتات الصخرية التي كانت تبدعها ثمود إلى الناقة المعجزة التي انشق عنها الصخر، تضيء للإنسان ومضة الإلهام بأن الفن إما أن يكون من أجل الحياة، و إما ألا يكون.

و هنا تتضح الصورة التي أراد القرآن أن يرسمها للفن من خلال المعلم المادي للمكان في قصة ثمود، ومن قبلها قصة عاد لتكون حلا لإشكالية العمل الفني و دوره في الحياة، و هي أن الفن عليه لكي يكون مفيدا ألا يكون للمتعة فقط و إنما عليه أن يحمل توجها أخلاقيا عاليا، و وعيا كبيرا بالأهداف المثلى للحياة.

وهي توجيهات قرآنية على الفن أن يحني رأسه و يأخذها كما هي، "بل إن الفن هنا ليتشرف كثيرا حين يصير خادما يدعو إلى ا لله بطريقته الخاصة"(2).

من هنا نرى السرد القصصي قد وزع الصور المادية و الطبيعية على الفضاء المكاني في قصتي ثمود و عاد، و ذلك بقصد إظهارها للاتعاظ بها توزيعا منسقا تنسيقا دقيقا على سطح القصة، فكانت السهول و القصور و المساكن و الجنات و العيون و الزروع و النخل ظواهر حضارية ، ولبنات فنية و ألوانًا زاهية زينت لوحات مشهد المكان و حددت جماليته و جماليات عمارة القصة.

و هكذا تتجلى القصة و قد جمعت بين وجه المكان بمعالمه الحضارية كما تصوره الأحداث في القصة في مرحلة عرض محتوى الرسالة على القوم، و وجه المكان من حيث كان أهله يواجهون و يصارعون هذه الدعوة محاولين ردها و الإعراض عما جاء به صالح عليه السلام، و الإعلان عن التمسك بدين الأجداد والآباء ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا وَ إِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾(3)

(1) زكي محمود نجيب، هموم المثقفين، ص 136.

(2) أحمد بهجت ، قصص الحيوان في القرآن ، دار الشروق : بيروت، ط3، 1995م، ص 10.

(3) سورة هود : الآية 62.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني

الأبعاد الوظيفية للمكان ودورها في توليد الأحداث

صوَّر السرد القصصي القرآني المكان في قصتي عاد و ثمود من عدة زوايا، و عرض مشاهده بطريقة فنية منوعة واصفا إياه بأنه كان موطنا للخير و البركة بما أفاء الله عليه من نعم، و أنه كان بؤرة للفساد بما كان عليه أصحابه من العناد و الاستكبار و الكفر و الغرور و حب التفاخر.

و نظرا لعلاقة المكان بالحدث و ارتباط الواحد منهما بالآخر في القصة، يكون الوصف الذي قدمه السرد القرآني كما مر معنا في كل من: سورة الشعراء، و الأعراف، و هود، و الفجر، و غيرهم قد نزل بصورة مباشرة في نسيج القصة دافعا بالحدث إلى الأمام، لتنمو فكرته و تتطور من الداخل و هي تتفاعل مع الشخصية و وظيفتها الحيوية، ضمن الظروف الزمنية التي يفرضها "منطق الأحداث ووظائف الشخصية و زمن الخطاب"(1).

في رؤيته للقضايا التي تعالجها القصة، و الهدف الذي من أجله ساقها القرآن، فلولا تكذيب قوم عاد و مجابهتها لنبيها هود عليه السلام ما ذكر المكان باسمه "الأحقاف" لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾(2).

و ما لمسنا انتقال الحدث و تطوره خلال ذلك، و ما تباينت و تنوعت أساليب دعوة النبي المرسل في خطابه لقومه أملا منه في دعوتهم إلى العودة إلى رحاب الله و الانصياع لما أمر به، و لولا تكذيب و تعنت ثمود لدعوة نبيها صالح عليه السلام ما عرض المكان بمعالمه و ذكر باسمه الصريح لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ، وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ، وكانوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾(3). ولولا ذلك ما تعرفنا على كيفية تحرك الحدث في إتجاهاته المختلفة بمعية الشخصية، و هي تدير الصراع في القصة و مدى سعي نبي الله صالح عليه السلام، في إقناع ثمود بأحقية الرسالة المبعوثة إليهم لعلهم يرجعون.

(1) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 25.

(2) سورة الأحقاف: الأية من 21 إلى 23.

(3) سورة الحجر: الآية من 80 إلى 82.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نلاحظ في هذه الحالة "أن المكان في هذا السياق ظل مادة إمدادية تؤكد مصداقية المبعوث و تقوي الإيمان بقدرة الله المسخرة في الكون"[1] عن طريق تفنن السرد القرآني في عرض العناصر المشكِّلة لصورة الفضاء المكاني في قصتي عاد و ثمود،لتكون عاملا مهما و أساسيا في التخيل القصصي لدى المتلقي و هو يستجمع تلك الزوايا بمعالمها المتنوعة من القصور و البيوت المنحوتة و المصانع و البنايات العالية و الآبار، و الجنات و العيون، و الزروع، و النخيل، و الرمال، ليشكل منها صورة كاملة للمشهد المكاني و قد اتسعت رقعته ليشمل وجوه النشاط الاجتماعي و العمراني و الديني لتلك الجماعات و هي تمارس اجتماعها و تعاملها بعضها مع بعض ضمن حيز يتميز بالتجمع والإستقرار و الوظائف المتنوعة.

أولا-الأبعاد الوظيفية

و يمكننا توزيع الوظائف و أبعادها المكانية في قصتي عاد و ثمود على النحو الآتي :

1- البعد الديني : فالمكان - الأرض - المتمثل في "الأحقاف و الحجر" كانت مهبطا للوحي الإلهي و مهدا للرسالة السماوية على يد نبييْ الله هود و صالح عليهما السلام، و فيه تم توطيد العلاقة بين الأرض و السماء فهي أرض الانبياء وهي المباركة.

2- البعد الإيماني: كانت الأرض هي الفضاء الذي شهد انشقاق الصخرة و خروج الناقة منها هي معجزة الله الكبرى في أرضه ومظهرا من مظاهر القدرة الخارقة للمألوف.

3- البعد الاجتماعي : فالمكان في قصتي عاد و ثمود كان مصدر استقرار و استطان و سكن و راحة، و مركزاللتجمع و الحركة و تبادل الخيرات بين ساكنيه، و هو في الوقت نفسه مصدر صراع بين طبقات المجتمع و فيه تجسدت الفروقات الاجتماعية ،كما جاء في قوله تعالى: المتكبرون والمستضعفون.

4-البعد الجمالي: المكان كان موطنا لجماليات الصورة الطبيعية و المادية و كأنها لوحة قصصية مزينة بالألوان و الأصباغ أبدعتها ريشة فنان مبدع، كما كان المكان موطنا للإبداع في فن العمران و الزخرفة عن طريق النحت.

(1) سليمان عشراتي ، الخطاب القرآني ، ص 169.

5- البعد الاقتصادي: فالمكان بجناته و زروعه و عيونه و نخله كان مصدر عيش و نماء و خير و حياة لأصحابه.

6- البعد الإهلاكي: فالمكان كان إطارا إهلاكيا فقد احتضن مراسيم الدمار و الإبادة المكذبين من أمة عاد و ثمود، و ظلت آثاره في بيوته و مساكنه الخاوية شاهدة على قيام حضارة و اندثارها في تلك الربوع العربية.

ثانيا-المكانية و الاستقطاب الديني

و انطلاقا من هذه الأبعاد و المعطيات كان المكان في القصة فضاء مفتوحا علـى أبعـاد دينيـة و جمالية و حضارية شكلت عند التحامها و تعاضدها ملامح لصورة القرية[1] و البلاد[2] و المدينـة[3]، و كلها دلالات تعبر ضمنيا عن هيئة المكان في قصتي عاد و ثمود.

(1) عند تتبعي لكلمة "القرية" في القرآن استنادا إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن وجدتها قد ذكرت سبعة و خمسون مـرة في مواضع مختلفة موزعة على سور القرآن.

و القرية بمعناها الاجتماعي العمراني هي "نموذج له طريقة معينة في الحياة، يعتمد أساسا على الزراعة".انظر محمد عـاطف غيث ، دراسات في علم الاجتماع القروي، دار النهضة العربية للطباعة و النشر: بيروت، د.ط، 1967م، ص 163.

ولو عدت إلى بعض التفاسير للوقوف على المعنى الذي ترمي إليه كلمة "القرية" من الزاوية التي تمس موضوع بحثي و دورها في الكشف عن صورة المكان في القصة و دور الشخصية به ألفيت معناها: المنازل لجماعات من الناس ذوات البيـوت المبنية، و خصت بالذكر لأن العبرة بها أظهر إذا هلكت بقيت آثارها و أطلالها، و لم ينقطع خبرها عن الأجيال الآتية بعدها.انظر: التحرير و التنوير، جـ20، ص 152، 153.

(2) البلاد : لم يرد لها ذكر إلا مرة واحدة في سورة الفجر عندما وصف الله أمة عاد و عظمة ملكها. أما البلاد الـتي ورد ذكرها في سورة الفجر في قوله تعالى: (ألم تر كيف فعل ربك بعـاد ارم ذات العمـاد التي لم يخلـق مثلهـا في البـلاد.) سـورة الفجر : الآية من 6 إلى 8.

فمعناها : البلاد : جمع بلدة، و هي المساحة واسعة من الأرض معينة بحدود أو سكان و قد تسمى أيضا بالديار 1-2انظر :التحرير و التنوير ، ج 30، ص 319. و الرازي ، التفسير الكبير، ج 17، ص 20.

(3) المدينة : ذكرت عدة مرات في القرآن، و في قصة ثمود وردت في سورة النمـل في قولـه تعـالى (وكـان في المدينـة تسعة رعط يفسدون في الأرض و لا يصلحون) الآية 48.

و أما المدينة التي جاء ذكرها في سـورة النمـل في قولـه تعـالى: ﴿وكـان في المدينـة تسعة رهـط يفسـدون في الأرض و لا يصلحون﴾سورة النمل : الآية 48.فنحمل معناها على أنها تعني مبدئيـا التنظيـم المجتمعي الداخلي. انظر أحمـد يوسـف داود ،الميراث العظيم،دار المستقبل للطباعة والنشر والتوزيع:دمشق،ط،1، 1991م،ص297.

إذا عدنا إلى الحديث عن القرية باعتبارها أكثر ورودا و استعمالا و توظيفا في السرد القصصي القرآني فإن معناها الاجتماعي العمراني في قصتي عاد و ثمود كانت إطارا مكانيا و دينيا تضمنته كل قصة قرآنية، و إن لم يرد لها ذكر صريح في المتن السردي. و هو ما يقرره النص القرآني في أكثر من موضع من ذلك:

قوله تعالى : ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا، وَ لَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ..﴾[1].

و قوله تعالى : ﴿وَ كَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[2].

و قوله تعالى : ﴿وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَ كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾[3].

و قوله : ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَ هُمْ نَآئِمُونَ، أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ﴾[4].

في ضوء الآيات الكريمة و هي تتحدث عن القرية و أهلها يظهر أن أبرزها ميز دعوة الأنبياء أنها جرت في مجملها على صعيد عمراني اجتماعي مستقر "لذا كان موضوع القرية و أهل القرية و أهل القرى في القرآن يحيل بشكل أو بآخر، على حدث سماوي يضطلع به نبي أو رسول بدعوة دينية في وسط عمراني بشري مستقر على صعيد أرضي معلوم، مرتبط بضرورة المعاش، و التواطن"[5].

و هذا يتطلب بالضرورة وجود ارتباط و تعاون و تعامل و معاشرة، و هي صلات تقتضي استتباب نظام أخلاقي ليحفظ لها التوازن بين الناس بسبب المزاحمة في المعاش و المقام و المكسب.

---

(1) سورة الأعراف : الآية 101.

(2) سورة محمد : الآية 13.

(3) سورة القصص : الآية 58.

(4) سورة الأعراف : الآية 97 – 98.

(5) الخطاب القرآني، ص 173.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و لما كان المكان الذي دارت فوقه أحداث قصتي عاد و ثمود قد اخذ طابع القرية و أن ساكنيه هم من أهل القرى "الذين كان لهم ذوق حضاري من درجة معينة، و يميلون إلى الاستقرار، و هؤلاء الذين يبعث منهم و فيهم الرسل بنص القرآن"[1].

ولو تتبعت سردية قصتي عاد و ثمود لما عدمت الإشارة إلى مجاليتها القرية والمدينة فقد جاء في:
قصة صالح/ سورة الأعراف:(وَ بَوَأكُم فِي الأَرْضِ تَتَخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا، وَ تَنحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا) (الأعراف (74) إشارة إلى(عمران ومدنية) .

قصة صالح /سورة الشعراء:(أَتُترَكُونَ فِيمَا هَا هُنا آمِنِيْنَ، فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ، وَ زُرُوعٍ وَ نَخلٍ طَلعُهَا هَضِيْمٌ). (146–148) السرد يبين المكان قار ذي زرع و نخل.(عمران وقرية).

قصة هود /سورة الشعراء:(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيْعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَكُم تَخْلُدُونَ). (128–129) فالسرد يكشف عن مستوطن قار ذي مصانع و بنايات عالية. أي في صورة قرية.

:(وَ أَمَدَّكُم بِمَا تَعلَمُونَ، أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَ بَنِيْنَ، وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ). (الشعراء: 132–134) السرد هنا يكشف عن مكان ثابت ذي زرع وعيون، أي في صورة قرية.

ثالثا – المكان و التطهير الأخلاقي

غالبا ما يرد ذكر القرية مقرونا بالانحراف، و بعبارة الأوثان، و مهمة الرسل كانت تنحصر في تصحيح عقائد الناس و ردهم إلى عبادة الله الواحد، و تحريرهم من عبودية من سواه. و لهذا فالمكان مهما بصورته في القصة و الواقع حيزا يهفوا إلى إصلاح الفساد.

و المكان كإطار اجتماعي في قصتي عاد و ثمود من خلال نصوص القرآن ما انفك يحيد عن الجادة بعبادة غير الله وعدم تحكيم سنته، وعدم اتباع تعاليمه قد أوقعه في الغواية و الدنس و الانسلاخ بإصراره على الانحراف.

و هذا ما تجسده مواقف ساكني المكان من قوم عاد كما جاء على لسانهم في مخاطبتهم لنبيهم هود عليه السلام عندما جاءتهم دعوته في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ، وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ، وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِيْنَ﴾[2].

(1) حسن محمد باجودة ،الوحدة الموضوعية في سورة يوسف– تهامة جدة المملكة العربية السعودية، ط2، 1983.ص472.

(2) سورة هود : الآية 53.

و تجسده أيضا مواقف ساكني المكان من قوم ثمود كما جاء على لسانهم في مخاطبتهم لنبي ا لله صالح عليه السلام حين عرضه لدعوته عليهم في قوله تعالى:﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾(1).

و عندئذ تأتي الإرادة الإلهية التي أنذرت و حذرت، إلا أن تنفذ ما قضت به من إهلاك المكذبين و تطهير المكان من إرجازهم و آثامهم.(2) تحقيقا لوعد ا لله ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾(3).

فالمكانية في القرآن مكانية مفتوحة على التطهير الذي يسببه تنازع الناس و تطاحنهم و بعدهم عن شرع ا لله و رغبتهم في التمسك بالهوى و الأفكار الضالة الموروثة عن الأجداد و الآباء.

و في هذه الحالة لا بد للمكان أن يستعجل بمجيء الرسل و الأنبياء هؤلاء الذين يباشرون انقاذه و تطهيره ليعود بعدها مكانا وموطنا صالحا لتمكين دين ا لله على الأرض و الدعوة إلى المبادئ الدينية السمحاء، و موطنا للغلبة و الانتصار على الكافرين لتبقى أرضه ا لله دائما مفتوحة على الطهر و وراثة الصلاح والخير، تحقيقا لوعد ا لله عز وجل لعبادة الصالحين في قوله سبحانه و تعالى:﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾(4).

المطلب الثالث

المكان وعلاقته بحدث الإبادة وأثره عليه

أن للزمن تقلبات، و إن لتقلبات الزمن فعلها في الأجيال، و معالم المكان، فكما تتلاشى الأمم و الشعوب في طيات الزمن، كذلك تندرس معالم الأماكن و آثارها في باطن الأرض، فمثلما ابتلع الزمان الدول و الشعوب فلا يذكر منها غير التي كان لها دور في التاريخ، كذلك ابتلعت الأرض معالم الاماكن فلا يعرف منها غير التي سجلت آثار ما ينم عن حقيقتها(5). إذا تاملت تصوير السرد القصصي القرآني لمنظر المكان في قصتي عاد و ثمود و قد وصل السياق بالقصة إلى نقطة

(1) سورة هود : الآية 62.

(2) الخطاب القرآني، ص 176.

(3) سورة الأعراف : الآية 72.

(4) سورة القصص:الآية 5

(5) أمين مدني، التاريخ العربي و مصادره، ص 131.

التركيز و موطن العبرة، فإننا سنلاحظ أن ما عرفه المكان من حالات الخصب و الخير و النماء و البركة، و ما كان يدب في أواصله من حرارة الحياة و الحركة، قد تغير الآن و انقلب حاله فانتهى إلى مكان مهجور موحش يدعو للحزن و التأمل و الدهشة و الاعتبار. إذ في ومضة سريعة ينتقل التعبير القرآني بالذهن فجأة و ذلك عن طريق التقابل[1] بين صورتين من صورة القرية العامرة بالحياة و العمران، إلى صورتها و هي خالية من الحركة و الناس و هنا موضع تأمل لطيف في هذا التصوير و فيما يماثله: فهؤلاء المتحدث عنهم من أمتي عاد و ثمود –و غيرهم من الأمم البائدة– كانوا ذات زمن يعيشون في هذا المكان في الماضي و صورة النعيم و الترف، هي الصورة البعيدة، أما ما هو عليه المكان في الحاضر و صور الخراب و الدمار ففي الصورة القريبة.والتصوير هنا لحيويته يخيل للقارىء أن صورة الفضاء المكاني المترف بجناته و زروعه و مياهه و مبانيه و قصوره قد طويت، و أن صورته و هو محطم بائس قد عرضت لتتم برؤيتها العظة وزيادة اعتبار و تذكر لمن يمر بها ويراها خالية من أهلها و هنا تتضح بأن العبرة ليست مرتبطة بنوعية الناس وأجناسهم و إنما بالحياة التي كان عليها أصحاب المكان و الحالة التي آلوا إليها.

فها هي عاد و ثمود لم تشكر نعمة الله عليهما، و لم يقدر أهلها نعمة الأمن و الرخاء و الحياة و القوة، و تمردوا على المنعم، و أبوا الانصياع إلى دعوة رسلهم، فكان تسليط العذاب عليهم بما يتناسب و طبيعتهم و موطنهم و هو الجزاء الأمثل للحياة التي كانوا عليها.﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ، وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ، وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2].و قد هلكت عاد بريح صرصر عاتية، و هلكت ثمود بالصيحة المزلزلة، و بقيت مساكنها معروفة عند العرب يمرون بها في رحلتي الشتاء و الصيف، و يشاهدون آثار التدمير، بعد العز و التمكين[3]. و هذه الآثار المجملة تكشف عن سر ضلالهم.

---

(1) و التقابل طريقة من طرق التصوير، و التعبير القرآني يكثر من استخدامه في تنسيق الصورة التي يرسمها بالألفاظ على نحو دقيق. أنظر سيد قطب – التصوير الفني في القرآن، ص 96.

التقابل هنا بين صورتين، صورة ماضية، و أخرى حاضرة. و المقابلة : من مصدر قابل الشيء يقابله إذا واجهه و صار ماثلا أمامه.و المقابلة ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته و يخالفه في بعضها. أو هي أن تضع معاني تريد الموافقة بينها و بين غيرها أو المخالفة.أنظر ابن القيم الجوزية ، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن. دار الكتب العلمية : بيروت،د،ط،د،ت، ص 149.

(2) سورة العنكبوت : الآية 40.

(3) تفسير الظلال، ج6، ص 127.

و في مثل هذا الجو من التدمير و الهلاك، و أمام تلك المشاهد المؤلمة يرسم التعبير القرآني صورة حسية لمنظر المكان و قد تحرك و اهتز بعنف بفعل الأخذ و تزعزعت أركانه بقوة بفعل رجة إلهية وجهت إليه الهدف منها إبادة القوم و إخلاء المكان منهم نهائيا :﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ، فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

و من لمحة إلى لمحة إذ التدمير و الهلاك، و إذ الدور خاوية ، و قد خيم عليها السكوت و الصمت، و هذه السرعة في العرض و يحس بالمباغتة الحاسمة القاضية - مباغتة القدرة الإلهية التي لا تغلب. ليبقى المكان بعد هذا الحدث المروع خاليا يلفه الصمت القاتل، و يحيط به السكون بظله الثقيل. بعد ما أهلك ا لله أصحابه ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾[2] أي هل تحس منهم من أحد من بقاياهم.

إن القرآن في طريقة عرضه لمشاهد المكان في قصتي عاد و ثمود، يطل عليه من خلال أربع زوايا. الزاوية الأولى : بوصف عام للمعالم المادية و الطبيعية التي يتحرك فيها الحدث القصصي، و ذلك حتى يضع ذهن المتلقي في قالب الصورة و يحرك أحاسيسه ووجدانه باتجاه تعميق النظرة لتأمل و تدبر تلك المشاهد المكانية.

الزاوية الثانية : انتقل من وصف المعالم إلى وصف الحياة التي كان عليها المكان و الحالة العقلية و النفسية و الأخلاقية و الروحية التي تميز بها ساكنوه الذين عاشوا في ذلك الحيز المكاني بما يشمله الحدث في القصة من مختلف جوانبه.

أما الزاوية الثالثة : هي إطلالة على مكان للقصة من خلال علاقة المكان بالعذاب الذي نزل بساحته فذهب بمعالمه و لم يبق منه سوى المساكن﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.أي أن مساكنهم الخربة الخاوية على عروشها مشهودة لكم نصب أعينكم باقية على خرابها لم تعمر و لم تسكن بعد هلاكهم إلا زمنا قليلا إذ لايسكنها إلا المارة يوما أوبعض يوم في الأسفار[4].

---

(1) سورة النمل : الآية 52.

(2) سورة الحاقة : الآية 8.

(3) سورة القصص:الآية58. نشير هنا أن هناك جملة من الآيات القرآنية التي صورت إخلاء المكان من أهله و في إيحاءاتها دليل قاطع على ان الإبادة كانت لساكني المكان و لم تكن لمعالمه المادية التي أبقاها ا لله خصيصا لتقع برؤيتها العبرة مصداق لقوله تعالى: ﴿وعاد و ثمود و قد تبين لكم من مساكنهم. ﴾ سورة العنكبوت : الآية 38.

(4) الطباطبائي ، الميزان في تفسير القرآن، ج16، ص 62.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أما الزاوية الرابعة : فهي عرض صورة المكان و قد أنتهى به العذاب و أبيد ساكنوه و لم يبق منه إلا تلك الرسوم الدوراس، و الربوع الخوالي، و ما تخيله للحس من صورة الحياة الغابرة، و من الأشباح الداثرة– فهي مشاهد للعين في الظاهر و للنفس في الضمير"[1].و هنا تتجلى العناية القرآنية بأجزاء المكان، و ذلك عن طريق التفنن في عرض زواياه التي كان لها الدور البارز في توضيح ملامح الصورة الكلية مما يعطي للناظر إنطباعا ناقلا إياه إلى مشهد تصويري لمكان صامت و قد تجسدت صورته في طلل واقف و قد تداعت جوانبه، و تصدعت أركانه، و ذهب الخراب بجماله و روعت هندسته في هذا الجو من الوحشة و الرهبة و الفقد و هي مشاهد تهز النفس، وتبرز صورة المكان برقعته الواسعة الممتدة و قد ابيد ساكنوه و هلكوا و خلت منهم دورهم و أوحشت منهم منازلهم ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[2].

و هو مشهد رهيب يبدؤك بشعور الخوف، ثم يغمرك بالصمت العميق، و كأنما يأخذك إلى زمن بعيد، ويوقفك على مصارع الأمم الغابرة، و في ذلك المكان الذي لا يكاد يحده البصر يسبح خيالك مع الشخوص التي كانت تدب و تتحرك، و الحياة التي كانت تنبض و تمرح، و الاماني والمشاعر التي كانت تحيا و تتطلع [3].ثم إذا الصمت يخيم، و الموت يجثم، و إذا الجثث و الأشلاء و الدمار. لا حركة، لا حس، لا صوت. هل تحس منهم من أحد ؟ انظر وتصنَّت "هل تسمع لهم ركزا"[4].كلا إنه السكون العميق و الصمت الرهيب. إنه الفناء الذي يأتي على المكان فيحول سعادته إلى شقاء، و يعرض معالمه لتقلبات الزمن لتمحوها و تغير من أشكالها و ألوانها كيف شاءت. إن ذلك كله يضع الإنسان أمام حقيقة كبرى لعله يتأمل و يتدبر و يعتبر و هي أن كل ما في الكون من إنسان و جماد و حيوان لا بد أن ياتي عليه الموت يوما و يصبح مجرد ذكرى في عالم الأحياء و "أن كل ما يشتمل عليه في حياته من آلام و مصائب، و تقلبات و كوارث فهو لا ينجيه من هذا الهلاك المحتوم حصن عزيز مهما اطمأن إليه و مهما تدم سلامته فيه

---

(1) التصوير الفني، ص 61.

(2) سورة مريم : الآية 98.

(3) الظلال، جـ4، ص 2322.

(4) الركز : هو الصوت الخفي و الخافت و هو كناية عن اضمحلالهم.- أنظر تفسير التحرير و التنوير، ج 16، ص 178.

طويلا، فإنه صائر إلى خالقه لا محالة"[1].

و نظرا لوقع مشهد المكان بإيحاءاته و معالمه على النفس نبعت عناية القرآن بالمكان و بأجزائه و ذلك أنه عرض من مشاهده ما يحدث في النفوس أثرا و يقيم في الصدور وازعا "و يدور مع العبرة أينما تدور و يفتح للعقل منافذ التفكير و التدبر، و يضع الميسم على بواطن الأمور و يتعرف عليها و يتعظ بها"[2]

و من أجل إبراز هذه العبرة و تجليتها للنفوس و العقول جاء التصوير القرآني ناطقا في مشاهد حية ملموسة يصل تأثيرها إلى الأعماق لكي يثير الفكر البشري و يدفعه إلى البحث و التعمق و الاستفادة من تجارب الأمم البائدة و هذا من خلال الدعوة إلى السير في الأرض و مشاهدة الآثار و الجذاذات و الممالك الزائلة فهي أبلغ في العبرة و العظة لمن لهم قلوب تعقل، و آذان تسمع، فينظرون إلى آثار قوم أهلكهم الله بالعتو، و أبادهم بالمعصية، فيروا من تلك الآثار بيوتا خاوية قد سقطت على عروشها و بئر كانت شرب لأهلها قد عُطل رشاؤها، و غار معينها، و قصرا بناه ملكه بالشيد، قد خلا من السكن، وتداعى بالخراب فيتعظوا بذلك ويخافون من عقوبة الله وبأسه[3] و هذه هي الحكمة من إبقاء المكان بآثاره شاهدا على ساكنيه، فحتى و إن أتى عليه الموت و دمر الحياة به "غير أنه لم يقض عليه نهائيا"[4].

(1) محمد النويهي، الشعر الجاهلي في منهج دراسته و تقويمه. الدار القومية للطباعة و النشر، القاهرة، د.ط.د.ت،ج2، ص407.

(2) محمد الدالي ، الوحدة الفنية في القصة القرآنية، ص 152.

(3) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن، شرح و نشر أحمد صقر، ص 11.

(4) عاطف جودة نصر ، النص الشعري و مشكلات تفسيره، مكتبة الشباب : مصر، د.ط، 1989م، ص 152.

خلاصة الفصل:

للمكان دوره الايجابي في تشكيل بنية قصتي عاد وثمود رصده السرد القرآني وذكره عندما كان له وضع خاص ، وذلك لسببين: الأول يتمم به الحدث ويذكره بقصد العبرة والعظة،والثاني حين يكون في ذكره ضرورة يقتضيها الأسلوب الفني المرتبط بغايات الحدث في القصة .لقد ورد ذكر المكان صريح في قصتي عاد وثمود-"الأحقاف" و"الحجر"- وذلك حينما كان بحاجة إلى مكان يحوي مشاهده المتنوعة لتبدو في صورتها المعقولة ولتحتل مكانتها في المخيلة، ويتجلى ذلك من خلال العناية برصد ملامحه العامة . وقد ظهرت ملامح هذه العناية في تحديد المكان ورسم معالمه وذكر مظاهره وكانت كوظائف تعمل عملها في النسيج الفني في القصة .

من هنا سعى السرد القرآني إلى تصوير المكان بمعالمه المختلفة تصويرا مناسبا واضحاا سهم في ابراز خصوصيته الجمالية المشكلة من الوديان والجبال والرمال والسهول ، والتي كان لها تأثيرها الخاص على مجريات الحدث ومآله في النهاية،ليبدو في ضوئها المكان وقد أصبحت له صلات متداخلة بعناصر السرد الأخرى كما ظهر تأثره بساكنيه وما كان من قيمهم وأخلاقهم الناجمة عن رؤية خاصة للحياة الدنيا ، وانعكاس ذلك سلبا على طريقتهم في تعميرهم للمكان باعتباره أرض الله ،على نمط مخالف لشريعته ، فكانوا بذلك سببا مباشرا في حلول العذاب بهم في المكان ليبقى بعدها فضاءا مفتوحا على مشاهد الدمار وصور الإبادة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نتائج الدراسة

انطلاقا من إشكالية البحث وتساؤلاته المؤيدة بأهداف المرجوة من هذه الدراسة،حاولت أن ألم بأهم جوانب الموضوع حتى أتمكن من الإجابة عن السؤال الجوهري في الرسالة، ثم التساؤلات المتفرعة عنه، وكان أن انتهيت إلى النتائج الآتية:

أولا- الجانب التاريخي

1- القرآن جاء بنظرة جديدة وجدية للتاريخ الإنساني معتمدا في ذلك على أسلوبين :

أ- تخليص القصص من محتواه الخرافي الأسطوري.

ب- تصحيح ما اعتراها من الخيالات وتقويم اعوجاج التصورات الخاطئة .

وقد حقق من خلال هذا وظيفتين:

أ- تحويل العرب من فكرة الافتخار بمجد عاد وثمود إلى الاعتبار بمصيرهم أي جعل الماضي رمز للاعتبار لا رمزا للافتخار.

ب- تحويل العرب من الاعتزاز بالنسب القبلي إلى الاعتزاز بالانتماء إلى الدين.

2- قصص عاد وثمود في القرآن الكريم كشفت عن منهج العرض القرآني الاعتباري يتلخص في:

القصص + الدعوة إلى السير في الأرض + مشاهدة الآثار = العبرة

العبرة = العقل + فهم السنن

3-يقرر القرآن الكريم أن العرض من دراسة التاريخ هو تتبع أحوال الأمم الماضية لمعرفة إلى أي مدى طبقت البشرية شرائع الله سبحانه وتعالى؟وما مدى قيامها بواجب الخلافة؟ .

ثانيا- الجانب الحضاري

1- قصص عاد وثمود في القرآن الكريم فيها بيان أنها أول حضارة أقيمت في الصحراء على الرمال في حين أن جل الحضارات أقيمت على مساقط المياه .

2- قصص عاد وثمود في القرآن الكريم وضحت أن المجتمع المتحضر هو المجتمع الذي يسير بوحي من السماء وعلى هدي شريعة الله التي جاء بها رسله عليهم السلام.

3- قصص عاد وثمود بينت علاقة التلازم بين الحضارة والدين ذلك أن الدين ضرورة لتوجيه الحضارة وحمايتها من الانحراف .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نتائج الدراسة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4- قصص عاد وثمود في القرآن الكريم كشفت عن علاقة التلازم بين الحضارة والأخلاق ذلك أن وجود الأخلاق الحميدة والفضائل دليل على بقاء الحضارة واستقرارها وعلو شأنها وازدهارها كما أن سوء الأخلاق وتفشي الرذائل وارتكاب الآثام دليل على انقراض الحضارة وزوالها .

إن الأسس الأخلاقية ضرورية لأي حضارة يراد لها أن تستمر في خدمة البشرية وان أي حضارة تهمل الجانب الروحي في الإنسان،ستكون مهددة بالانتكاس .

5- سلامة العقيدة يعكس سلامة التفكير الذي يؤدي بدوره إلى سلامة بناء الحضارة وتوجيهها نحو آفاق الصلاح والتعمير .

6- قصص عاد وثمود في القرآن الكريم أيقظ البصائر على حقيقة وحدة الأديان ووحدة الغاية ، ووحدة المصير الإنساني .

7- قصص عاد وثمود في القرآن الكريم أبرزت وظيفة الأنبياء في الحياة باعتبارهم دعاة مصلحين، وموجه الحضارة إلى الخير والفلاح. وذلك بوضعهم اللبنات الأساسية .

أ- فاللبنة التي أضافها هود عليه السلام للإنسانية هي: عدم الركون إلى القوة المادية والاعتزاز بها حتى تدفع بصاحبها إلى الاستبداد والتجبر .

ب- اللبنة التي أضافها صالح عليه السلام للإنسانية هي: التحذير من مغبة البطر ونتيجة الترف وعدم شكران النعمة .

8- إن انهيار الحضارات له تبرير موضوعي في القرآن، فالظلم والطغيان والترف من أسباب الانتقام الإلهي لإهلاك الأمم بأسرها والدول بأكملها

9- إن الثبات إنما هو القانون الإلهي(سنة الله) وهو الذي يمنح التاريخ وحدته، وهو في الوقت نفسه يمنح للباحث في التاريخ فرصة فهمه وتعليل حوادثه.

10- إن نعم الله على الأمم دليل على أن لهم من أنفسهم ما يوجب ذلك، وأن ما يحيق بهم من النقم وما ينزل عليهم من المصائب لا ينزل إلا بإذن الله وبما كسبت أيدي الناس .

ثالثا – الجانب الفني القصصي

1– الغاية من القصص عاد وثمود تبليغ فكرة الإسلام وعرضه في قالب فني يؤثر في الوجدان ويخاطب العقل

2– إن ارتباط الحدث بالزمان والمكان لغاية اعتبارية وفنية واغفالها يكون للغاية نفسها .

3– يلاحظ على قصص عاد وثمود أن بعد الحدث يأتي التعقيب على الحدث.

4– يلاحظ على قصص عاد وثمود أن يسبق الحوار القصصي مقدمة .

5– يلاحظ على قصص عاد وثمود أن الحدث له تأثير كلي وينتهي عادة بلحظة تنوير وهو الذي يحقق للحدث الاكتمال .

* * *

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمة

إن قصص الأمم البائدة موضوع يحتاج إلى التفات أكبر من طرف الباحثين،وفي هـذه الدراسة التي قمت بها حاولت أن ألقي نظرة عامة على قصص الأمم البائدة وكان تركـيزي على عاد وثمود، ورأيت أنه من الأهمية بمكان الربط بين الجانب التاريخي والحضارة والفن في ضوء العرض القرآني، ومدى ما بلغه من الروعة والإعجاز، تأكد لي مما سبق أن قصص عـاد وثمود نموذج لدراسات متنوعة وكثيرة. ولاأحد ينكر الإسهامات الرائعة التي قدمها المؤرخـون والمفسرون والتي كشفت عن جوانب مهمة من حياة هاتين الأمتين الغابرتين، حتـى أن بعض الدارسين[1] استطاع أن يقدم صورة مشرقة لاسيما عـن تـاريخ الثموديـين في الحجر(مدائن صالح) واستطاع أن يبرز من خلال الحفريات والنقـوش عمق إسهاماتهم في النحـت، كما استطاع تحديد الأنظمة الاجتماعية السائدة أنذاك .

كما ليس لأحد أن يغض الطرف عن بعض الأخطاء الـتي وقـع فيهـا يعـض المؤلفين بتأثير الظروف التي أحاطت بها والتي أخرجتها عن المعقول .

ولما كانت تلك الكتابات قد عثر عليها على وجه الأرض، أو هي من نتاج حفريـات ودراسات لم تتعمق كثـيرا في بـاطن العاديـات فإننـا نـأمل أن يقـوم المستقبل بإقنـاع المحبـين للتأريخ العربي بالقيام بحفريات علمية منتظمة وعميقة في مواطن الآثار في الحجر والأحقـاف لاستنطاق ما فيها من تاريخ قومي عاد وثمود ، ونحن على يقـين مـن أن تحـت الأتربـة المتراميـة أسرارا كثيرة ستغير من هذا الذي نعرفه اليوم عن هاتين الأمتين الغابرتين .

وهذا لن يتحقق إلا بالاستجابة لدعـوة القـرآن الكريـم للنـاس إلى التـأمل في مصير الباقين وأمرهم بالسير في أماكنهم مصداقـا لقولـه تعـالى:﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[2] .وهي الدعوة التي استجاب لها الرحالة الغربيون-على غير علم بدعوة القرآن- حين شدوا رحالهم إلى موطن دعوة القرآن فبحثوا ونقبوا واكتشفوا من خلال الحفريات حقائق كثيرة.

---

(1) ونخص بالذكر الرسالة المقدمة من مؤلفها للبـاحث:محمـود محمـد الروسـان،بعنـوان<القبـائل الثموديـة والصفويـة> للحصول على درجة الماجستير في الآداب ، من قسم التاريخ بجامعة الملك سعود.

(2) سورة الروم :الآية 9.

هذه الحقائق لاكتشافات علماء الآثار في ضوء معطيات النص القرآني سوف تفتح جزيرة العرب على نتائج علمية كبيرة، وتؤهل منطقة الأحقاف والحجر لتشهد عصر الإعجاز التاريخي الباهر الذي يكشف عن آيات ا لله في أرضه.

لهذا كله، كان هذا البحث الذي أردت من خلاله التركيز على بعض الحقائق التي كان غيابها في كتب المؤرخين والمفسرين أحد أسباب اهتمامي.

وأهم هذه الحقائق هي أن قصص الأمم البائدة التي تعد عاد وثمود من جملتها كانت لهم حضارة وتاريخ عميق وأنهم لم يكونوا عبارة عن قبائل عربية بدوية تقوم حياتها على الحل والترحال.وفي مقابل هذه الحقيقة هناك حقيقة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها وهي أن لهذه الأمم مساهمات في بناء صرح الحضارة الإنسانية الكبرى.

وأخيرا أقول أن قصص عاد وثمود موضوع خصب ويستحق فعلا البحث والدراسة فهو بطبيعته شيقا وممتعا.

وفي نهاية هذه الرسالة لا يسعني إلا أن أدعو الباحثين إلى تناول موضوع قصص الأمم البائدة التي جاءت بعد عاد وثمود فهي موضوعات ثرية وجوانبها ما تزل بكرا تنظر من يتناولها بجدية وعمق .

وإذا كان تناولي لأحد هذه الجوانب قد أكد هذه الحقيقة فإني أقول إن الجانب الواحد يحتاج إلى دراسات كثيرة وقد لا يتمكن باحث واحد من إعطائه حقه.

ومن هنا فإنَّ اعتقادًاجازمًابأن هناك أشياء كثيرة بقيت دون أن أتمكن من الحديث عنها في هذه الرسالة،فكل فصل من فصولها يحتاج في الحقيقة إلى بحث مستقل ولا أزعم أن عملي هذا هو النهاية المطلوبة، لكن يبقى في إلقاء ضوء جديد إلى جانب الأضواء الأخرى التي سلطت ولاتزال تسلط على قصص عاد وثمود.

وبهذا لست أزعم أنني حققت كلَّ ما أردت ولكن ما بينته كان غايتي وبذلت لأجله ما وسعني ولغيري أن يواصل في مسيرة هذا المجهود ويكمل جوانب النقص فيه.

أملي ورجائي من كرم ا لله تعالى أن يرفع قدر هذه الرسالة وينفع بها الدارسين ، وأن يجعل انجازها خالصا لوجهه الجليل .

وبا لله التوفيق .

الفهارس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

* القرآن الكريم على رواية حفص

*كتب الحديث الشريف:

1-أحمد بن حنبل :مسند الامام احمد بن حنبل،دار الفكر:بيروت،د،ط،د،ت.

2-أحمد بن علي بن حجر العسقلاني:فتح الباري بشرح صحيح البخاري،دار المعرفة:بيروت،ط،3،1985م.

3- البخاري: صحيح البخاري،طبعة دار الهدى:عين مليلة،الجزائر،د،ط،د،ت.

4- البخاري: صحيح البخاري شرح الكرماني،دار احياء التراث العربي:بيروت،ط،3،1985م.

5-أبو داود :سنن أبي داود،مطبعة الحلبي البابي وأولاده،:مصر،ط،1،1952م.

6-أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي: عون المعبود بشرح سنن أبي داود بشرح:شمس الدين بن القيم الجوزية،دار الكتب العلمية:بيروت،د،ط،د،ت.

7-أبو العباس تقي الدين بن تيمية:الفتاوى الكبرى،تقديم:حسن محمد مخلوف،دار المعرفة:بيروت،د،ط،1966م.

8-علي بن عمر الدارقطني:سنن الدارقطني،عالم الكتب:بيروت،ط،4،1986م.

9- مسلم النيسابوري:صحيح مسلم،دار احياء التراث العربي:بيروت،ط،2،1972م.

*كتب التفسير:

10-أحمد مصطفى المراغي:تفسير المراغي،دار افكر،بيروت،ط،2،1983م

11-أبو جعفر محمد بن جرير الطبري:جاكع البيان في تفسير القرىن،دار المعرفة:بيروت،د،ط،1983م.

12- أبو حيان التوحيدي:تفسير البحر المحيط،دار الفكر:بيرون ،ط،2،1983م.

13-سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق،بيروت،ط،10،1982م.

14-عماد الدين أبو الفداء اسماعيل: تفسير القرآن العظيم،دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع:بيروت،د،ط،د،ت.

15-عبد الكريم الخطيب: التفسير القرآني للقرآن،دار الفكر العربي:بيروت،د،ط،د،ت.

16-عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني للقرآن الكريم،دار المعارف:الكويت،ط،4،1978م.

17-أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،دار احياء التراث العربي:بيروت،ط،4،1985م.

18-الفخر الرازي:التفسير الكبير ،احياء التراث العربي:بيروت،د،3،د،ت.

19-محمد الطاهر بن عاشور:تفسير التحرير والتنوير،الدار التونسية للنشر:تونس، والمؤسسة الوطنية الكتاب:الجزائر،د،ط،1984م.

20- محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرىن،منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات :بيروت،ط،1،1991م.

21-محمد رشيد رضا:نفسير المنار،دار المعرفة للطباعة والنشر:بيروت،ط،2،د،ت.

22-محمد بن علي بن محمد الشوكاني:فتح القدير،دار الكتب العلمية:بيروت،د،1،1994م.

23- محمد سيد طنطاوي: التفسير البسيط للقرىن الكريم،مطبعة السعادة:مصر،د،ط،1985م.

24-محمد جمال الدين القاسمي: محاسن التأويل،داراحياء الكتب العربية:مصر،د،ط،د،ت.

25- محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التاويل،دار الكتب العربي:بيروت،ط،3،1987م.

26-محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي:أضواء البيان في ابضاح القرىن،دار الكتب العلمية:بيروت،ط،1،1996م.

27-محمد متولي الشعراوي:المنتخب من تفسير القرىن العظيم،دار العودة:بيروت،د،ط،1987م.

28-محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم،دار الشروق:بيروت،ط،1،1995م.

29-نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري:غرائب القرىن ورغائب الفرقان،دار المعرفة:بيروت،د،ط،1983م.

30-وهبة الزحيلي:التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج،دار الفكر المعاصر:بيروت،ط،1،1991م.

*** كتب التاريخ:**

31- أمين مدني: التاريخ العربي ومصادره،دار المعارف:مصر،د،ط،1971م.

32- أمين مدني:التاريخ العربي وبدايته،الكتاب العربي السعودي،ط،2،1981م.

33-ابراهيم أحمد العدوي: نهر التاريخ الاسلامي،دار الفكر العربي:القاهرة،د،ط،د،ت.

34-أبو جعفر محمد بن جرير الطبري:تاريخ الأمم والملوك،دار الكتب العلمية:بيروت،ط،3،1991م.

35-جورجي زيدان:تاريخ العرب قبل الاسلام،دار النشر،د،ط،1969م.

36-جمال عبد الهادي مسعود، وفاء رفعت جمعة:أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ،دار الصديقية للطباعة والنشر: السعودية،د،ط،د،ت.

37- أبو الحسن علي المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر،تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد،مطبعة السعادة:مصر،ط،3،1958م.

38-حسن سليمان:النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ،مؤسسة الوفاء:بيروت،د،ط،1986م.

39-حمود بن ضاوي الفثامي:شمال الحجاز،العصر الحديث للنشر والتوزيع:بيروت ،ط،3،1991م.

40-سميح عاطف الزين: حركة التاريخ في المفهوم الاسلامي،دار الكتاب اللبناني:بيروت،ط،1،1985م.

41-سـديو: تاريخ العرب العام،تعريب:عادل زعيتر،دار احياء الكتب العربية:القاهرة،د،ط،1948م.

42-أبو العباس أحمد القلقشندي: صبح الأعشى،دار الكتب المصرية:القاهرة،د،ط،1922م.

43-علي جواد:المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام،دار العلم للملايين:بيروت،ط،1،1968م.

44-عبد الرحمن بن خلدون:تاريخ ابن خلدون،دار الكتاب اللبناني:بيروت،د،ط،1983م.

45-عماد الدين خليل:التفسير الاسلامي للتاريخ،دار العلم للملايين:بيروت،د،ط،1991م.

46-عبد العليم عبد الرحمن خضر:المسلمون وكتابة التاريخ،الدار العالمية للكتاب الاسلامي،منشورات،المعهد العالمي للفكر الاسلامي:أمريكا،د،ط،1995م.

47-أبو الفداء اسماعيل بن كثير كالبداية والنهاية،مكتبة المعارف:مصر،د،ط،د،ت.

48-فليبي حتى:تاريخ العرب المطول،دار الكشاف،ط،4،1965.

48-لطفي عبد الوهاب يحي:العرب في العصور القديمة،دار المعرفة الجامعية:مصر،ط،2،1966م.

50-أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري:المعارف،دار الكتب العلمية:بيروت،ط،1،1986م.

51-محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير: الكامل في التاريخ،دار الكتاب العربي:بيروت،ط،5،1985م.

52-محمد بيومي مهران:التاريخ والتأريخ،دار المعرفة الجامعية:الأسكندرية،د،ط،1992م.

53-محمود محمد الروسان:القبائل الثمودية والصفوية دارسة مقارنةمطابع جامعة الملك سعود:السعودية،ط،1،1987م.

54-محمد عبد القادر بابقية: تاريخ اليمن القديم،المؤسسة العربية للدراسات والنشر:بيروت،د،ط،1973م.

55-محمد بيومي مهران:دراسات تاريخية في القرآن،دار المعرفة الجامعية :الأسكندرية،د،ط،1995م.

56-محمد عزة دروزة:تاريخ الجنس العربي:المكتبة العصرية للطباعة والنشر:بيروت،ط،1،1976م.

*** كتب الحضارة:**

57- أحمد محمد كنعان:أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في الخلق،مركز البحوث والمعلومات:قطر،ط،1،1991م.

58-ألبرت اشفنتزر: في فلسفة الحضارة،ترجمة:عبد الرحمن بدوي،دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزريع،ط،3،1983م.

59-إدريس خضر:التفكير الاجتماعي الخلدوني وعلاقته بالنظريات الاجتماعية،ديوان المطبوعات الجامعية:الجزائر،د،ط،1983م.

60-شايف عكاشة:الحضارة العربية الاسلامية بين التطور والتخلق،ديوان المطبوعات الجامعية:الجزائر،د،ط،1983م.

61-صلاح الفوال:التصوير القرآني للمجتمع،دار الفكر العربي:القاهرة،د،ط،د،ت

62-عمر المسقاوي: وحدة الحضارة،دار الفكر:دمشق،د،ط،1988م.

63-عبد اللطيف الصعيدي:حضارات ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النوية الشريفة،مكتبة العربية للكتاب:مصر،د،ط،1996م.

64-عدنان الترسيسي:بلاد سبأ وحضارات العرب الولى،دار الفكر :بيروت،ط،2،1990م.

65-عبد المنعم سيد حسن عبد الشفيع: نماذج من الحضارة القرآنية في سورة الروم،مطبعة دار البيان:مصر،د،ط،1985م.

66-عبد الكريم زيدان: السنن الالهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الاسلامية،مؤسسة الرسالة:بيروت،ط،3،1994م.

67- عماد الدين خليل:حوار في المعمار الكوني،دار الثقافة:الدوحة،ط،1،1987م.

68-عفت الشرقاوي:في فلسفة الحضارة الاسلامية،دار النهضة العربية للطباعة والنشر:بيروت،ط،3،1981م.

69-غوستاف لوبون: حضارة العرب،ترجمة:عادل زعيتر،مطبعة عيسى الباب الحلبي وشركاؤة،مصر،ط،4،1964م.لبيب سارتر: الحضارات،دار الشروق:بيروت،ط،10،1983م

70-محمد اقبال:تجديد التفكير الديني،ترجمة:عباس محمود،دار آسيا للطباعة والنشر والتوزيع:بيروت،د،ط،1985م.

71-محمد عاطف غيث: دراسات في علم الاجتماع القروي:دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع:بيروت،د،ط،1985م.

72- مالك بن نبي:شروط النهضة،ترجمة:عمر كامل المسقاوي وعبد الصبور شاهين،دار الفكر:الجزائر،ط،4،1987م.

73-مالك بن نبي ميلاد مجتمع: ترجمة:عبد الصبور شاهين،دار الفكر:بيروت،د،ط،1985م.

74- هـ . جنسون: في فلسفة وايهيد للحضارة: ترجمة: عبد الرحمن باغي،المكتبة العصرية :صيدا،ط،2،1965م.

* كتب الأدب والنقد

75-أحمد أمين: النقد الأدبي:،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر:القاهرة،د،ط،1952م.

76-أحمد اسماعيل النعيمي: الأسطورة في الشعر العربي قبل الاسلام،سينا للنشر: القاهرة،ط،1،1995م.

77- أحمد سام ساعي: الواقعية الاسلامية في الأدب والنقد،دار المنارة للنشر:جدة،ط،1،1985م.

78- أحمد المقدسي: الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة:دار العلم للملايينكبيروت،ط،5،1990م.

79-برنارد دي فوتو:عالم القصة،ترجمة:محمد مصطفى مدارة،عالم الكتب:القاهرة،د،ط،1969م.

80-جابر قحيمة: الدب الحديث بين عدالة الموضوعية وجناية التطرف: الدار المصرية اللبنانية للنشر والتوزيع:القاهرة،ط،1،1992م.

81-حسن عبد الجليل يوسف:الانسان والزمان في الشعر الجاهلي:مكتبة النهضة المصرية:القاهرة،د،ط،1988م.

82- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي: المركز الثقافي العربي:الدار البيضاء،ط،1،1990م.

83-رشاد رشدي:فن القصة القصيرة: دار العودة:بيروت،ط،2،1975م.

84-سيد قطب: النقد الأدبي أصوله ومناهجه،دار الفكر العربي:بيروتنط،3،1959م.

85-عمر بن قينة:دراسات في القصة الجزائرية،المؤسسة الوطنية للكتاب:الجزائر،د،ط،1986م.

86- عبد العزيز شرف: الأسس الفنية للابداع الأدبي،دار الجيل:بيروت،ط،1،1993م.

87-عباس خضر:القصة في مصر،الدار القومية للطباعة والنشر كمصر،د،ط،1966م.

88-أبو الفضل أحمد بن محمد بن أبي ابراهيم النيسابوي الميداني:مجمع الأمثال،تقديم:نعيم زرزور،دار الكتب العلمية:بيروت،ط،1،1988م.

89-عاطف جودة نصر: النص الشعري ومشكلات تفسيره،مكتبة الشباب:مصر،د،ط،1989م.

90-غنيمي هلال:النقد الأدبي:دار العودة:بيروت،ط،1،1982م.

91-كمال حسن المحامي:القرآن والقصة الحديثة،دار البحوث العلمية:بيروت،ط،1،1970م.

92-محمود تيمور:القصة في الأدب العربي،منشورات في الشعر الجاهلي الحديث،المطبعة العربية:غرداية،ط،1،1992م.

93-ليف توستوي:ماهو الفن،ترجمة:محمد عبدو النجاوي،دار الحصادد للنشر والتوزيع:دمشق،ط،1،1991م.

94-ماهر حسن فهمي:قضايا في الأدب والنقد،دار الثقافة للنشر والتوزيع:قطر،د،ط،1986م.

95-محمد النويهي: الشعر الجاهلي في منهج دراسته وتقويمه،الدار القومية للطباعة والنشر:القاهرة،د،ط،د،ت.

96-محمد يوسف نجم: فن القصة ،دار صادر:بيروت،ط،1،1996م.

97-محمد ناصر بوحجام:أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث،المطبعة العربية:غرداية،ط،1،1992م.

98-نور الدين السد:الأسلوبية في تحليل الخطاب،دار موجه للنشر والتوزيع:الجزائر،د،ط،1997م.

99-ناصر الدين الأسد:مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية،دار المعارف:مصر،ط،3،1966م.

100-يحيى الجبوري:المدخل لدراسة الفنون الأدبية واللغوية،دار الثقافة:الدوحة،د،ط،1987م.

101-يمنى العيد: تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي،د،ب،د،ط،1990م.

*** كتب القصص والإعجاز واللغة**

102- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: مشكل تأويل القرآن،دار التراث:القاهرة،ط،2،1973م.

103- أحمد حملاوي:زهرة الربيع في المعاني والبيان والبديع،مطبعة الاعتماد:مصر،ط،3،د،ت.

104-أبو اسحاق أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابوري الثعلبي: عرائس المجالس،دار الرائد العربي:بيروت،ط،4،د،ت.

105- خالد أحمد الجندي:الجانب الفني في القصة القرآنية،دار الشهاب للطباعة:باتنة،د،ط،1983م.

106- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن،دار الشروق:بيروت،ط،13،1993م

107-سليمان عشراتي: الخطاب القرىني،ديوان المطبوعات الجامعية:الجزائر،ط،1،1988م.

108- صلاح عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، شركة الشهاب:باتنة،د،ط،1982م.

109- عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه،دار المعرفة:بيروت،د،ط،د،ت.

110- عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في القصص القرىني:دار الكتاب اللبناني:بيروت،ط،1،1972م.

111- عمر السلامي: الاعجاز الفني في القرآن،مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله:تونس،د،ط،1980م.

112-عبد الفتاح لاشين:الفاصلة القرآنية،دار المريخ للنشر:الرياض،د،ط،1982م.

113- فؤاد علي: من علوم القرآن،دار اقرأ:بيروت،ط،1،1982م.

114-محمد شديد: منهج القصة في القرآن،شركة مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع:المملكة العربية السعودية،ط،1،1984م.

115- محمد محمود حجازي: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم،دار الكتب الحديثة:مصر،د،ط،1970م.

116- محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، مكتبة الأنجلو مصرية:القاهرة،ط،3،1965م.

117-مصطفى عليان :بناء الشخصية في القصة القرىنية،دارالبشير:عمان،ط،1،1992م.

118-محمود السيد حسن مصطفى:الاعجاز اللغوي في القصة القرآنية،تقديم:حسن عون،مؤسسة شباب الجامعة:الأسكندرية،ط،1،1981م.

119- محمد طول: البنية السردية في القصص القرآني،ديوان المطبوعات الجامعية:الجزائر،د،ط،1991م.

120-مأمون فريز جرار: خصائص القصة الاسلامية،دار المنارة للنشر والتوزيع:جدة،ط،1،1988م.

121-محمد حسين فضل الله:الحوار في القرآن،دار المنصوري للنشر:الجزائر،د،ط،1986م.

122-محمد اقبال عروي: اطرادات أسلوبية في الخطاب القرآني،دار الآمان:الرباط،ط،1،1996م.

123-محمد الدالي: الوحدة الفنية في القصة القرآنية،مون للطباعة والتجليد:القاهرة،ط،1،1993م.

124- ابن هشام الأنصاري: المغني اللبيب في كتب الأعاريب،تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد،المكتبة العصرة للطباعة والنشر:بيروت،ط،1،1991م.

*** كتب عامة**

125-أحمد يوسف داود: الميراث العظيم،دار المستقبل للطباعة والنشر:دمشق،ط،1،1991م

126-احمد بهجت: قصص الحيوان في القرآن،دار الشروق:بيروت،ط،3،1995م.

127- أحمد بهجت: أنبياء الله ،دار الشروق:بيروت،ط،20،1993م.

128- أحمد عبد الغفور عطار: الديانات والعقائد -مختلف العصور-،مكة المكرمة،ط،1،1981م.

129-أبة بكر جابر الجزائري: منهاج المسلم،دار البعث للطباعة والنشر:قسنطينة،ط،4،1981م.

130-جوت السعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم،المطبعة العربية:غرداية،ط،1،1990م.

131-حسن عيس عبد الظاهر:من نبأ المرسلين،دار الثقافة:الدوحة،ط،1،1984م.

132-سيد قطب:خصائص التصور الاسلامي ومقوماته،دار الشروق:بيروت،د،ط،د،ت.

133-سيد سابق: عناصر القوة في الاسلام،دار الكتاب العربي:بيروت،ط،2،1978م.

134-شوقي ضيف:البحث الأدبي:دار المعارف:القاهرة،ط،7،1992م.

135- عفيف عبد الفتاح طبارة: مع النبياء في القرىن الكريم،دار العلم للملايين:بيروت،ط،17،1989م.

136-عبد القادر هاشم رمزي: الدراسات الانسانية في ميزان الرؤية الاسلامية،دار الثقافة:الدوحة،ط،1،1984.

137-عائشة عبد الرحمن:الشخصية الاسلامية،دار العلم للملايين:بيروت،ط،4،1986م.

138- عمر سليمان عبد اللهالأشقر:صحيح القص النبوي،دار النفائس للنشر والتوزيع:الأردن،ط،2،1997م.

139-عبد المنعم النمر: بين الدين والحياة:الدار القومية للطباعة والنشر،د،ط،د،ت.

140-عبد الكريم غلاب: صراع المذاهب في العقيدة: دار الكتاب اللبناني:بيروت،ط،1،1973م.

141- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء،مكتة رحاب:الجزائر،د،ط،د،ت.

142-أبو الفداء اسماعيل بن كثير:قصص الأنبياء،تحقيق:مصطفى عبد الواحد،دار الكتب الحديثة:مصر،د،ط،د،ت.

143-أبو الفضل عياض اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى كدار الكتب العلمية :بيروت،د،ط،د،ت.

144-مصطفى عباس محمود العقاد:موسوعة العقاد الاسلامية،دار الكتاب العربيبيروت،ط،1،1971م.

145-مصطفى عباس محمود العقاد: التفكير فريضة اسلامية،دار الكتاب العربي:بيروت،ط،2،1969م.

146-موسى شحادة: الحق والباطل،مطبعة نصر،د،ب،د،ط،1991م.

147-محمد السيد أيوب:اليمن بين انقات وفساد الحكم فبل الاسلام،دار المعارف:القاهرة،د،ط،1963م.

148-محمد لبيب:الرحلة الحجازية،مطبعة الجماليه:مصر،ط،2،1329هـ.

149- محمد الغزالي:نظرات في القرآن،دار الشهاب:باتنة،ط،6،1986م.

150-محمد الغزالي: خطبة الشيخ الغزالي في شؤون الدين والحياة،اعداد :قطب عبد الحميد قطب،مكتبة رحاب:الجزائر،1989م.

151-محمد عبد المجيد خان: الأساطير والخرافات عند العرب،دار الحداثة للطباعة والنشر:بيروت،ط،3،1981م.

152-محمد أحمد جاد المولى:علي محمد البجاوي،محمد أبو الفضل ابراهيم،السيد شحاته: قصص القرآن،مطبعة حجازي:القاهرة،ط،4،1951م.

153-هشام قبلان:مع القرآن في الدين والدنيا: منشوات عويدات:بيروت،د.ط،1986م.

* المعاجم والقواميس:

153-ابراهيم أنسي وآخرون:المعجم الوسيط،دار المعارف:القاهرة،ط،2،1972م.

154-أحمد الشمتناوي وآخرون:دائرة المعارف الاسلامية،دار المعرفة:بيروت،د،ط،د،ت.

155-أحمد رضا: معجم متن اللغة،مكتبة دار الحياة:بيروت،د،ط،1990م.

156-احمد عطية ا لله :القاموس الاسلامي،مكتبة النهضة المصرية،د،ط،1963م.

157-الرغاغب الأصفهاني:المفردات في غريب القرآن،ضبط ومراجعة: محمد خليل عيتاني،دار المعرفة:بيروت،ط،1،1998م.

158-علي مهنا:تهذيب لسان العرب،دار الكتب العلمية:بيروت،ط،1،1993م.

159-ابن منظور:لسان العرب،دار المعارف:القاهرة،د،ط،د،ت.

160-محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين،دار الفكر:بيروت،د،ط،د،ت.

161-محمد اسماعيل ابراهيم/معجم الألفاظ والأعلام القرىنية،دار الفكر العربي:القاهرة،د،ط،د،ت.

162-محمد فؤاد عبد الباقي:المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم،دار مطابع الشعب،د،ط،د،ت.

* الدواوين الشعرية:

163- أمرؤ القيس:ديوان أمرئ القيس،تحقيق:حنا الفاخوري،دار الجيل:بيروت،ط،1،1989م.

164- أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي:جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والاسلام:تحقسق:علي محمد البجاوي،دار مصر للطباعة والنشر:القاهرة،ط،1،د،ت.

165- زهير بن أبي سلمى:ديوان زهير،دار بيروت للطباعة والنشر:بيروت،د،ط،1986م.

166- طرفة بن العبد:ديوان طرفة،دار بيروت للطباعة والنشر:بيروت،د،ط،1986م.

167- محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحالبي: ديوان زهر ،مطبعة التقدم:مصر،ط،1،1323هـ.

* الدوريات

168- مجلة الأمة ،رئاة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية:قطر،العدد 44،سنة1984م.

169- مجلة عالم الفكر:وزارة الارشاد والأنباء:الكويت،العدد4،ستة1982م.

170- مجلة رابطة العالم الاسلامي،مؤسسة مكة المكرمة،العدد99،سنة1990م

فهرس الآيات القرونية الكريمة

الآية	الرقم	الصفحة
سورة البقرة		
﴿بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾	169	74
سورة آل عمران		
﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾	62	109
﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾	140	6
سورة النساء		
﴿لئلا يكون للناس على الله حجة﴾	165	220
سورة الأنعام		
﴿مكناهم في الأرض﴾	7	62
﴿وكذلك نولي بعض الظالمين﴾	129	101 81
﴿فلما نسوا ما ذكروا به...﴾	46	92
﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾	48	131
سورة الأعراف	48	
﴿وإلى عاد اخاهم هودا...﴾	65	167 160 131 112 89 10
﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه...﴾	66	227 181 165 132 87 31 10
﴿قال ياقوم ليس بي سفاهة...﴾	67	10
﴿أبلغكم رسالات ربي...﴾	68	133 10
﴿أوعجبتم أن جاءكم...﴾	69	163 98 97 62 61 56 43 36 10 211 207 166
﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده...﴾	70	227 191 134 22 10
﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس...﴾	71	234 233 23 10
﴿فأنجيناه والذين معه...﴾	72	277 128 10 3
﴿وإلى ثمود آخاهم صالحا...﴾	73	167 131 112 109 89 44 31 10 265
﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء...﴾	74	211 207 101 81 63 62 55 10 268 267
﴿قال الملأ الذين استكبروا...﴾	75	184 87 10

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿قال الذين استكبروا ....﴾ 76 — 228 185 87 10

﴿فعقروا الناقة...﴾ 77 — 10

﴿فأخذتهم الرجفة...﴾ 78 — 10 3

﴿فتولى عنهم...﴾ 79 — 240 188 10

﴿فاقصص القصص...﴾ 176 — ب

سورة التوبة

﴿ألم يأتهم نبأ...﴾ 70 — 204 100 80 11

سورة يونس

﴿ولقد أهلنا القرون من قبلكم...﴾ — 7139

﴿لقد جاءك الحق من ربك...﴾ 94 — 115

سورة هود

﴿وإلى عاد أخاهم هودا﴾ 50 — 224 220 178 156 56 22 11

﴿ياقوم لا أسئلكم...﴾ 51 — 11

﴿وياقوم استغفروا ربكم...﴾ 52 — 255 224 165 164 69 62 11

﴿قالوا ياهود ما جئتنا...﴾ 53 — 276 134 97 28 23 11

﴿إن نقول إلا اعتراك...﴾ 54 — 224 169 11

﴿من دونه فكيدوني جميعا...﴾ 55 — 11

﴿إني توكلت على الله ربي...﴾ 56 — 11

﴿فإن تولوا فقد أبلغتكم...﴾ 57 — 232 180 11

﴿فلما جاء أمرنا نجينا...﴾ 58 — 236 1180 102 11

﴿وتلك عاد جحدوا...﴾ 59 — 222 11

﴿وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة...﴾ 60 — 83 22 11

﴿وإلى ثمود...﴾ 61 — 255 220 189 131 63 59 56 11

268

﴿قالوا ياصالح...﴾ 62 — 277 191 170 168 30 25 11

﴿قال ياقوم آرايتم...﴾ 63 — 11

﴿وياقوم هذه ناقة...﴾ 64 — 225 174 136 11

﴿فعقروها فقال تمتعوا ...﴾ 65 — 234 202 176 160 138 21 11

236

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿فلما جاؤ امرنا...﴾ 66

﴿وأخذ الذين ظلموا...﴾ 67

﴿كأن لم يَغْنَوْا فيها...﴾ 68

﴿ولقد جاءت رسلنا ابراهيم...﴾ 69

﴿فلما رأى أيديهم ...﴾ 70

﴿قالوا ياشعيب أصلواتك...﴾ 87

﴿وياقوم لا يجرمنكم...﴾ 89

﴿وكذلك أخذُ ربك ...﴾ 102

﴿وما كان ربك ليهلك القرى...﴾ 116

﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب ...﴾ 112

﴿ذلك من انباء القرى...﴾ 100

سورة يوسف

﴿أفلم يسيروا في الأرض...﴾ 109

﴿لقد كان في قصصهم عبرة...﴾ 111

سورة ابراهيم

﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين..﴾ 13

﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم...﴾ 9

﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا...﴾ 45

سورة الحجر

﴿ولقد كذب أصحاب الحجر﴾ 80

﴿وآتيناهم آياتنا...﴾ 81

﴿وكانوا ينتحتون...﴾ 82

﴿فأخذتهم الصيحة...﴾ 83

﴿فما اغنى عنهم...﴾ 84

سورة الاسراء

﴿وآتينا ثمودا الناقة مبصرة...﴾ 59

﴿وإذا أردنا ان نهلك قرية...﴾ 16

﴿وبالحق أنزلناه...﴾ 105

﴿سبحان الذي أسرى بعبده...﴾ 1

سورة الكهف

236 234 79 11

101 11 3

83 26 11

161 153 11

151 11

192

44

92 79

82

95

114

ث 125

207 201 122 115 110 52

3

217 114 100 88 47 44 11

261

265 251 248 235 112 60 42 12

272 100 29 12

12

237 218 218 204 112 21 12

239

12

80 12

101 93 87

109

246

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ما أظن تبيد..﴾	34	4
﴿وتلك القرى...﴾	59	76
﴿إذ اوى القتية...﴾	10	246
﴿ولئن رددت إلى ربي...﴾	36	91
سورة مريم		
﴿هل ترى منهم من أحد...﴾	98	280 141
سورة طه		
﴿ قال فما بال القرون الأولى...﴾	51	47
﴿قال علمها عند ربي...﴾	52	47
﴿اذهب إلى فرعون...﴾	24	96
﴿موعدكم يوم الزينة...﴾	59	205
سورة الأنبياء		
﴿ولقد كتبنا في الزبور...﴾	105	75
﴿وكم قصمنا من قرية...﴾	11	87 79
﴿فلما أحسوا...﴾	12	
﴿لاتركضوا...﴾	13	
﴿قالوا يا ويلنا...﴾	14	
﴿فمازالت تلك دعواهم...﴾	15	87
سورة المؤمنون		
﴿ولقد أرسلنا نوحا...﴾	31	13
﴿فأرسلنا فيهم رسولا...﴾	32	13
﴿وقال الملأ من قومه...﴾	33	191 183 181 100 25 13
﴿ولئن أطعتم...﴾	34	172 13
﴿أيعدكم أنكم إذا متم...﴾	35	181 173 25 13
﴿ هيهات هيهات لما توعدون...﴾	36	
﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا...﴾	37	173 100 25 13
﴿إن هو إلا رجل ...﴾	38	26 22 13
﴿قال ربي انصرني..﴾	39	13
﴿قال عما قليل...﴾	40	236 234 184 138 13
﴿فأخذتهم الصيحة...﴾	41	182 95 3

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ولو شاء ربنا...﴾ 24 — 22

سورة الفرقان

﴿وعادًا وثمودا...﴾ 38 — .

﴿وكلا ضربنا له...﴾ 39 — .3

سورة الشعراء

﴿كذبت عاد المرسلين...﴾ 123 — 227 178 169 158 100 24 13 2

253

﴿إذ قال لهم أخوهم هودٌ...﴾ 124 — 228 13

﴿إني لكم رسول امين...﴾ 125 — 156 13

﴿فاتقوا الله...﴾ 126 — 13

﴿وما أسألكم عليه من اجر...﴾ 127 — 13

﴿أتبنون بكل ريع آية...﴾ 128 — 185 99 75 64 69 59 57 55 13

269 256 248 228

﴿وتتخذنون مصانع...﴾ 129 — 99 59 55 13

﴿وإذا بطشتم بطشتهم جبارين...﴾ 130 — 228 99 97 13

﴿فاتقوا الله...﴾ 131 — 99 57 13

﴿واتقوا الذي أمدكم...﴾ 132 — 228 147 70 13

﴿أمدكم بانعام...﴾ 133 — 228 89 69 68 61 56 13

﴿وجنات وعيون...﴾ 134 — 228 89 68 61 56 13

﴿إني خاف عليكم...﴾ 135 — 228 188 13

﴿قالوا سواء علينا...﴾ 136 — 169 99 90 13

﴿إن هذا إلا خلق الأولين...﴾ 137 — 288 13

﴿وما نحن بمعذبين...﴾ 138 — 232 228 169 90 23 13

﴿فكذبوه فأهلكناهم...﴾ 139 — 99 49 13 3

﴿وإن ربك لهو العزيز...﴾ 140 — 230 13

﴿كذبت ثمود النرسلين...﴾ 141 — 265 172 158 100 13

﴿إذ قال لهم أخوهم صالح...﴾ 142 — 13

﴿إني لكم رسول امين...﴾ 143 — 156 13

﴿فاتقوا الله...﴾ 144 — 13

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿وما أسألكم عليه من اجر...﴾ 145 — 13

﴿أتتركون في ما ها هنا..﴾ 146 — 263 251 249 68 55 13

﴿في جنات وعيون...﴾ 147 — 13

﴿وزروع ونخل طلعها هضيم...﴾ 148 — 264 249 68 60 13

﴿وتنحتون من الجبال...﴾ 149 — 67 13

﴿فاتقوا الله وأطيعون...﴾ 150 — 13

﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين...﴾ 151 — 265 55 13

﴿الذين يفسدون في الأرض...﴾ 152 — 268 57 55 13

﴿قالوا إنما أنت...﴾ 153 — 13

﴿ما أنت إلا بشر...﴾ 154 — 173 169 13

﴿قال هذه ناقةٌ...﴾ 155 — 20 13

﴿ولاتمسوها...﴾ 156 — 175 13

﴿فعقروها...﴾ 157 — 232 23

فأخذهم العذاب...﴾ 158 — 13 3

﴿وإنَّ ربك لهو العزير الرحيم...﴾ 159 — 230 13

سورة النمل

﴿ولقد أرسلنا...﴾ 45 — 113 14

﴿قال ياقوم لم تستعجلون...﴾ 46 — 14

﴿قالوا اطيرنا...﴾ 47 — 14

﴿وكان في المدينة...﴾ 48 — 175 136 100 81 14

﴿قالوا تقاسموا...﴾ 49 — 177 176 137 32 14

﴿ومكروا مكرا...﴾ 50 — 175 174 14

﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم...﴾ 51 — 240 128 14 3

﴿فتلك بيوتهم خاويةً...﴾ 52 — 249 219 141 127 113 103 14 7

279 262

سورة القصص

﴿وما كنا مهلكي...﴾ 59 — 220 83

﴿فلما قضى موسى...﴾ 29 — 203

﴿ودخل المدينة على حين...﴾ 15 — 203

﴿فأصبح في المدينة..﴾ 18 — 203

﴿وكم أهلكنا من قرية...﴾ 58 — 275

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ونريد أن نمن...﴾ 5 277

سورة العنكبوت

﴿وعادا وثمودا...وزين لهم...﴾ 38 27 14 7

فكلا أخذنا ا...وما كان الله ليظلمهم..﴾ 40 278 83 5 2

﴿ولقد أرسلنا...﴾ 202

سورة الروم

﴿قل يسيروا...﴾ 30 103

سورة الأحزاب

﴿سنة الله في الذين خلوا...﴾ 62 76

سورة سبأ

﴿وما أرسلنا في قرية...﴾ 34 88 85

﴿وقالوا نحن..﴾ 35 86 85

﴿قل إن ربي...﴾ 36 86

سورة يس

﴿واضرب لهم مثلا﴾ 13 245

﴿وغذا أرسلنا إليهم...﴾ 14 247

سورة ص

﴿كذبت قبلهم...﴾ 12 81 14

﴿وثمودُ وقومُ لوط...﴾ 13 81 14

﴿إن كل كذب الرسل...﴾ 14 14

﴿وما ينظر هؤلاء...﴾ 15 14

سورة غافر

﴿مثل دأب قوم نوح...﴾ 31 14

سورة فصلت

﴿فأما عاد ...﴾ 15 188 169 163 112 100 97 80 14

259 238

﴿فأرسلنا عليهم ريحا...﴾ 16 260 236 235 163 112 14

﴿واما ثمود فهديناهم﴾ 17 28 21 15

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة الأحقاف

﴿واذكر أخا عاد...﴾ 21 — 15 41 59 189 250 252 253 254

﴿قالوا أجئتنا...﴾ 22 — 15

﴿قالوا إنما العلم...﴾ 23 — 15 254 272

﴿فلما رأوه عارضا...﴾ 24 — 15 59 233 254

﴿تدمر كل شيئ...﴾ 25 — 3 7 15 252 256 260

﴿ولقد مكناهم...﴾ 25 — 15

سورة محمد

﴿وكأين من قرية...﴾ 14 — 275

سورة ق

﴿كذبت قبلهم قوم نوح...﴾ 12 — 15

﴿وعا وفرعون...﴾ 13 — 15

﴿وعاد وفرعون...﴾ 13 — ..

﴿وأصحاب الأيكة...﴾ 14 — ..

سورة الذاريات

﴿وفي عاد...﴾ 41 — 3 15 217

﴿ما تذر من شيئ...﴾ 42 — 15

﴿وفي ثمود...﴾ 43 — 15 136 234 236

﴿فعتوا عن امر ربهم...﴾ 44 — 15

﴿فما استطاعوا...﴾ 45 — 138 139

سورة النجم

﴿وأنه أهلك عادا الأولى...﴾ 53 — 15 49 100 113

﴿فغشيها....﴾ 54 — 15

سورة القمر

﴿كذبت عاد...﴾ 18 — 15

﴿إنا أرسلنا...﴾ 19 — 3 15 137 145

﴿تنزع الناس...﴾ 20 — 3 13 218

﴿فكيف كان عذابي...﴾ 21 — 15

﴿ولقد يسرنا القرآن...﴾ 22 — 15

﴿كذبت ثمود...﴾ 23 — 15 122

﴿فقالوا أشرا ...﴾ 24 — 15 133 135 172

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿أءلقي الذكر...﴾	25	134 15
﴿سيعلمون غدا ....﴾	26	15
﴿إنا مرسلوا....﴾	27	237 233 173 15
﴿ونبئهم أن الماء...﴾	28	173 20 16
﴿فنادَوا صاحبهم...﴾	29	195 175 137 21 16
﴿فكيف كان عذابي...﴾	30	16
﴿إنا أرسلنا...﴾	31	139 122 16
﴿ولقد يسرنا...﴾	32	16
سورة الحديد		
﴿هو الأول...﴾	3	204
سورة المجادلة		
﴿يوم يبعثهم الله﴾	6	209
سورة الملك		
﴿ألا يعلم من خلق﴾	14	262
سورة الحاقة		
﴿كذبت ثمود...﴾	4	238 217 158 140 123 81 16
		260
﴿فأما ثمود...﴾	5	101 16 3
﴿وأما عاد...﴾	6	
﴿سخرها عليهم...﴾	7	260 238 237 156 101 16 3
﴿فهل ترى لهم...﴾	8	279 260 140 123 103 16 3
سورة الفجر		
﴿ألم تر كيف...﴾	6	253 95 55 36 16
﴿إرمَ ذات العماد...﴾	7	64 36 16
﴿التي لم يُخْلَق...﴾	8	16
﴿وثمود الذين...﴾	9	263 66 16
﴿وفرعون ذي الأوتاد...﴾	10	16
﴿الذين طغوا...﴾	11	99 16
﴿فأكثروا فيها الفساد...﴾	12	16
﴿فصب عليهم...﴾	13	144 16
﴿إن ربك...﴾	14	251 99 96 16

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة الشمس

﴿كذبت ثمود...﴾ 11 — 16

﴿إذ انبعث...﴾ 12 — 195 173 21 16

﴿فقال لهم رسول...﴾ 13 — 16

﴿فكذبوه...﴾ 14 — 196 16 3

﴿ولا يخاف...﴾ 15 — 16

سورة الزلزلة

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا﴾ 7 — 173

﴿ومن يعمل مثقال ذرة شرا﴾ 8 — 171

سورة البروج

﴿إن بطش ربك...﴾ 12 — 16

﴿إنه هو يبدئ...﴾ 13 — 16

﴿وهو الغفور...﴾ 14 — 16

﴿ذو العرش...﴾ 15 — 16

﴿فعال لما يريد..﴾ 16 — 16

﴿هل اتك...﴾ 17 — 16

﴿فرعون وثمود...﴾ 18 — 16

﴿بل الذين كفروا...﴾ 19 — 16

﴿والله من ورائهم...﴾ 20 — 16

﴿بل هو قرآن..﴾ 21 — 16

﴿في لوح...﴾ 22 — 16

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

***

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	الراوي	الصفحة
<إذا رأيتم الله عز وجل يعطي...>	عن عقبة بن عامر رضي الله عنه	92
<انبعثها رجل عارم...>	عبد الله بن زمعة...	21
إن الله ليملي للظالم...>	أبو موسى ...	92
ألا أحدّثك بأشقى الناس...>	عمار بن ياسر...	21
إن مَثَلي ومَثلَ الأنبياء...>	أبو هريرة...	168
إني قد أوتيت جوامع الكلم...>	ابن عباس...	143
<قال أبو رغال:فلما خرج من الحرم>	جابر ...	20
<لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا...>	عبد الله بن عمر	20
لاتكن كوافد عاد...>	الحارث بن يزيد البكري...	17
<ما من ذنب أجدر أن يعجل...>	أبو بكرة...	78
<ياعبادي إنّي حرمت الظلم...>	أبو ذر...	78

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

قصص الأمم البائدة في القرآن الكريم

عاد وثمود نموذجا-دراسة موضوعية وفنية-

الموضوعات	الصفحة
مقدمة	
تمهيد	7-1
الباب الأول	
الدراسة الموضوعية	
عاد وثمود، التاريخ والحضارة	8
الفصل الأول: عاد وثمود بين القرآن والحديث والتاريخ	9
المبحث الأول عاد وثمود في القرآن والحديث	33-10
المبحث الثاني: عاد وثمود في التاريخ	49-33
الخلاصة: عاد وثمود في ضوء علاقة القصص القرآني بالتاريخ	54-49
الفصل الثاني:حضارة عاد وثمود:مقوماتها ومظاهرها وعوامل ضعفها حتى السقوط في ضوء سنن الله	57-55
المبحث الأول : مقومات حضارة عاد وثمود	62-58
المبحث الثاني: مظاهر حضارة عاد وثمود	76-63
المبحث الثالث:عوامل ضعف وانحلال حضارة عاد وثمود	103-77
الباب الثاني	
الدراسة الفنية	
عناصر السرد في قصتي عاد وثمود في ضوء فنيات القص القرآني	104
الفصل الأول: الحدث: دوره ومميزاته وأساليب عرضه في ضوء فنيات القصص القرآني	105
المبحث الأول:الحدث :دوره ومميزاته في قصة عاد وثمود	123-106
المبحث الثاني: الحدث :طريقته وأساليب عرضه في ضوء فنيات القص القرآني	146-123
خلاصة الفصل:	146
الفصل الثاني: الشخصية :دورها وأبعادها وطريقة رسمها في ضوء فنيات القص القرآني	147
المبحث الأول: الشخصية ودورها في العمل القصصي	159-148

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني:الشخصية : أبعادها وطريقة رسمها في ضوء فنيات القص	197–159
خلاصة الفصل :	197
الفصل الثالث:الزمن ودوره وفاعليته ودلالته في ضوء فنيات القص القرآني	198
المبحث الأول:الزمن دوره وفاعليته وتناسبه في قصتي عاد وثمود	216–199
المبحث الثاني: الزمن:حركته ،دلالته،وايقاعاته في حدث الإبادة	241–216
خلاصة الفصل :	241
الفصل الرابع : المكان :دوره ،معالمه،جمالياته، وزأثر الإبادة عليه في ضوء فنيات القص القرآن	242
المبحث الأول: المكان دوره وصورته في قصتي عاد وثمود	249–243
المبحث الثاني:المكان: معالمه الطبيعية والمادية وعلاقته بحدث وشخصيات القصة	264–250
المبحث الثالث: المكان: جمالياته وأبعاده الوظيفية وأثر الإبادة عليه	280–265
خلاصة الفصل	280
نتائج الدراسة	283–281
الخاتمة	287–284
الفهارس	308–288

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية